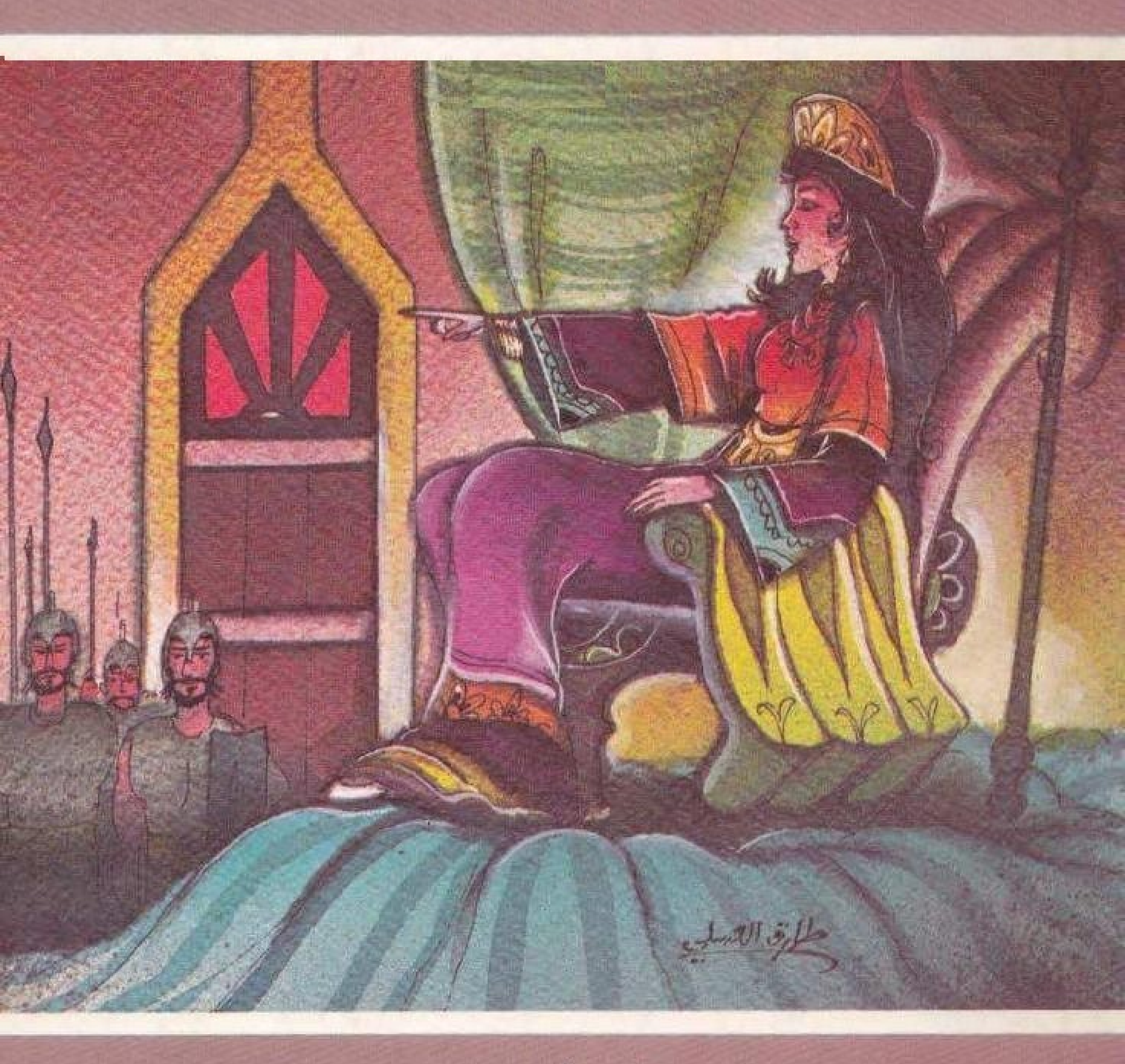
روايات تاريخ العرب والاسلام

اميل حبشي الأشقر

زينب ملكة تدمر ١



دار الأندلس

زينب ملكة تدمر

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الأول

القسم الاول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

١

تدمر

•

في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق تقع تدمر . وهي في شكلها المبسط . وموقعها في آخر ذلك السهل تحيط بها الجبال . كالجزيرة في البحر :

وتدمر من أقدم مدن الشرق . وقد كانت في الزمن القديم اعظم هذه المدن . واوسعها تجارة وابعدها نفوذاً .

تبعد عن دمشق مائة وخمسين ميلاً نحو الشمال الشرقي . ونحو مائة ميل عن حمص. واذا ركب العربي ناقته من شاطئ الفرات قاصداً تدمر . وصل اليها بعد خمسة ايام .

وكل ما وراء تدمر نحو الجنوب. سهول من الرمال قاحلة جرداء . لا نبات فيها ولا ماء . والجبال التي حولها تفصل بينها وبين البادية الاخرى وليست بالجبال التي تناطح السحاب .

وموقع المدينة ، في طرف بادية الشام من الشمال . جعل البادية مثلثاً . رأس هذا المثلث تدمر في الشمال . وساقاه . حدود العراق في الشرق ومشارف الشام في الغرب . وقاعدته شمالي جزيرة العرب .

واقرب الطرق بين العراق والشام البادية التي ذكرنا. غير ان الوحشة والجفاف اللذين يسودانها جعلا السفر فيها غاية في الصعوبة فكانت جماعات التجار وطوائف الجنود التي تترك الحيرة مثلاً قاصدة دمشق تتجه نحو الشمال الغربي على حدود الفرات حتى تصل الى تدمر . فتمكث فيها ما طاب لها الزمان ثم تسير جنوباً الى دمشق.

واذا خرجت من دمشق او من فلسطين . او من لبنان . قاصداً العراق

و بلاد الفرس او خليج العجم . فلا بد لك من المرور بتدمر حتى اصبحت سيدة المدن في ذلك الزمان . تنازعها هذه السيادة . مدينة قديمة جداً تقع في وادي موسى . هي مدينة « بتّرا » عاصمة دولة الانباط .

على ان « بتّرا » لم يبزغ فجر الجيل الثاني المسيح حتى سقطت الى الابد بسيف تراجان امبراطور الرومان. الذي حطم دولة الانباط ودك اسوار مدينتهم التي لم تزل انقاضها الى اليوم مفخرة من مفاخر الآثار .

فتحولت طرق التجارة الى تدمر . واخذت تصعد في سلم الرقي والغنى والعمران حتى بلغت قمة العظمة والمجد في الجيل الثالث للميلاد .

وللعلماء في اصل بنائها اراء واقوال. هذا يقول انها بنيت قبل التاريخ . والآخر يقول — وهذا هو الرأي الاصح — ان بانيها سليمان بن داود ، وهنالك نفر قليل يزعم ان الذي بناها هو سام بن نوح .

ولكل فريق حجته وبرهانه . غير ان الحجة التي يلجأ اليها حزب سليمان حجة قوية ثابتة لا ترد . وليس هنالك من مجال لغير هذا الرأي .

لقد ورد في التوراة . في سفر اخبار الايام الثاني « ومضى سليمان الى حماة وتغلّب عليها وبنى تدمر في البرية وجميع مدن الخزن التي بناها في حماة » وجاء في سعر الملوك الثالث « فبنى سليمان جازر .. وتدمر في ارض البرية »

ثم ظهر كتاب العاذيات اليهودية للمؤرخ الكبير يوسيفوس فجاء فيه . ان تدمر بناها سليمان .

والعرب انفسهم . وتدمر مدينة في باديتهم . اجل ان العرب انفسهم يزعمون ان الجن هي التي بنت تدمر لسليمان . وقد قال النابغة الذبياني شاعر النعمان بن المنذر بل شاعر العرب الأكبر ..

الا سليمان اذ قال الاله له   قم في البرية فاحددها عن الفند
وخبر الجن اني قد اذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وقد قرأت هذين البيتين في رواية النعمان الثالث وهما من قصيدة استرضى

بها النابغة مولاه ملك العراق كما مرّ .

اما حجة الحزب الآخر . فقائمة على نظر استعماري سياسي اذ يقولون : ان تدمر لم تكن ضمن حدود مملكة سليمان . ووجودها في تلك البادية يقتل دولته . لأنه كان يهتم ليحيي فلسطين بتحويل تجارة الشرق الى البحر المتوسط بطريق البحر الأحمر . فبنى على شواطئه مرافئ لهذه الغاية . وكانت تجارة الشرق في ايامه تحمل بالبحور فلما ذهبت دولته تحولت التجارة الى البر فعاشت « بترا » مدينة الانباط ثم تدمر .

لكن هذا القول لا يقوم على اساس . فورود ذكر تدمر وذكر حماة في آية التوراة . معناه ان اعلام سليمان الملك كانت تخفق في سماء تلك البلاد . وانه كان يبسط نفوذه فوق اقاصي سوريا الشمالية حيث تنتهي حدود مملكته في مدينة تفساح القائمة على شاطئ الفرات .

اضف الى هذا ان الاثار التي اكتشفها المستشرقون في الجيلين السابع عشر والثامن عشر اثبتت لابناء القرن العشرين ان تدمر كانت « مدينة خزن » على الصورة التي وردت في التوراة كما قرأت .

اذن فسليمان بنى تدمر . وشيد فيها الابنية الجبارة والهياكل الضخمة ، وبتلك القوة والعظمة اللتين كانتا لسليمان . جعل تدمر تحفة من تحف الفن . القديم . ثم مر الزمان وتعاقبت السنون والدول ، وتلك الآثار الجبارة تهدم ثم تبنى ثم تصير انقاضاً . وهي في جميع العصور والادوار احدى مفاخر الشرق العربي .

ونسي التاريخ تدمر بعد موت سليمان . حتى انه مرت الف سنة وانت لا تجد لها في الكتب ذكراً . كأن عظمتها كانت معلقة على وجود بانيها الحكيم فلما مات دالت دولتها ونسيها المؤرخون حتى ظهرت قياصرة الرومان . ملوك الفتح والاستعمار في الغرب والشرق . فعادت الى الظهور بعد ذلك الاحتجاب الطويل .

فهيرودوت ابو التاريخ القديم لم يذكر تدمر . وفي فتوحات ذي القرنين مدوخ العالم لم يذكر لها اثراً . وسطرابون نفسه ذلك الجغرافي العظيم لم يكتب عنها كلمة وهو الخبير بجميع انحاء الشرق .

اجل ان ذا القرنين . عندما زحف الى العراق وعبر الفرات عند مدينة تفساح لم يتعرض لمدينة سليمان . وبومبيوس القائد الروماني الفاتح لم تطأ حوافر خيله مدينة « الحزن » في الصحراء .

اما الخطوط التي قرأوها على الآثار في الجيل التاسع عشر . فقد خبرت العالم ان نبوكدنصر الثاني مر بتدمر في اواخر الجيل السادس قبل المسيح ، في اثناء زحفه الى فلسطين ومصر . ففتحها عنوة . وقال بعضهم انه دك سورها وابنيتها ؛ وهو قول مبالغ فيه . لان الآثار الباقية تنطق بان ذلك الغازي الشرقي هدم بعض تلك الابنية وابقى على البعض الآخر .

وليس هنالك من عجب اذا احتجبت تدمر بضعة اجيال . فهي كانت حتى اوائل النصرانية مدينة تجارية ليس غير ، الى ان تبدلت الحال فاصبحت مهداً لسياسة الشرق ، وامست قصورها مجالس شورى تبحث فيها مقدرات الشعوب ؛

سكان تدمر

كانت تدمر تغص بطوائف الارمن واليهود . والفرس والروم . وجماعات الناس على اختلاف المذاهب والاجناس . اما بيوتات الشرف فيها فاصحابها من العرب . اصلهم من البادية من بقايا العمالقة . كما هو اصل الانباط اصحاب بترا . على ما يذكر ابن خلدون .

ولقد كانت تدمر كما رأيت . سوقاً تجارية كبيرة . يقيم بها الناس للبيع والشراء ؛ كما يفعلون اليوم في كل بلد تزهو تجارته ويكثر سكانه فما لبث العرب حتى غلبوا اهل المدن . وهم في خشونة البداوة . وعلو الهمة . وكبر النفس . لا يستطيع المدني ان يسابقهم في مجال الرفعة وبسط النفوذ .

ثم تربعوا في مناصب الدولة . وقادوا الجيوش الى مواقف الفخار وكانت الجرأة والاقدام يرفعانهم الى مراتب المجد . حتى اصبح العربي البدوي سيد تدمر . ثم صار ملكاً . .

وكانت اللغة الارامية . لغة بلاد الشام في ذلك الحين . فاتخذها ملوك تدمر لغة رسمية لدولتهم . يدونون بها اعمال الحكومة . ويكتبونها على تماثيلهم واثارهم .

كما فعل الانباط قبلهم في بترا . لكن اسماءهم وطبائعهم وجميع احوالهم تثبت عروبتهم . وفي لغتهم الارامية صبغة عربية هي بقايا الاعراب في اواخر الكلمات .

زد على هذا . ان اهل تدمر يقسمون الى بطون وافخاذ وهذا تقسيم عربي وان كانت لغة دولتهم الرسمية هي الارامية . فلسانهم وجنسهم عربيان .

آثار تدمر

اما علماء الآثار . فقد وقفوا على انقاض تدمر وبقاياها . قبل ان يقفوا على اثار الانباط في بترا . فعلوا ذلك في الجيل الثامن عشر واشهر من زار تدمر ووصفها كلها وابنيتها وتماثيلها . الفيلسوف فولني الفرنسي في اواسط الجيل المذكور . ثم تبعه المستشرقون الكثيرون في الجيل نفسه والجيل الماضي . منهم العلامة فاندي فوكيه ووادنكتن . ودسو وكلرمون غانو وشرودر وغيرهم فصوروا تلك البقايا والتماثيل ودرسوا احوالها وقرأوا خطوطها وهي كما سيمر . أجل ان الأيدي امتدت الى تدمر في الحرب العامة وقبلها فتغير الشكل الذي وصفوه . ولكن الانقاض الجبارة ما برحت تهزأ بايدي العابثين .

هيكل الشمس او هيكل بعل

مربع الشكل . طول كل ضلع من اضلاعه ٧٤٠ قدماً . وعلو السور الذي يحيط به سبعون قدماً . وفيه من الاعمدة الضخمة الباقية اكثر من مائة . بصفوف مستقيمة متقابلة على قمة كل عمود منها نقش يوناني . ويظن علماء الاثار أن هذه العمد كانت اكثر من اربعمائة . دائرة الواحد منها كدائرة الآخر . وطوله كطوله لا ينقص ولا يزيد .

الرواق الاعظم

اما الرواق الأعظم . فعجيبة من عجائب تدمر بل هو احدى عجائب البناء في هذا الشرق . يبدأ على بعد مئتي متر من الهيكل . وكان في الأصل يمتد على طول المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . بشوارع ثلاثة واحد في الوسط

واثنان عن الجانبين. طول هذه الشوارع او هذا الرواق ثلاثة الآف وسبعمائة وخمسون قدماً . وعدد اعمدته سبعمائة وخمسون عموداً لا يزال قائماً منها مئة وخمسون. على ما نظن . اما ارتفاع الواحد منها . من كرسيه الى اعلاه . فسبع وخمسون قدماً.

المدافن

والمدافن مظهر من مظاهر الضخامة والفن. شكلها غريب يشبه شكل الابراج المستطيلة . وهي اكثر من مئة مدفن تختلف في هيئتها عن مدافن الملوك والاعيان الباقية في اثينا وروما ومصر وغيرها من البلاد .

علو المدفن ثمانون قدماً . وعرضه ثلاثون. وهو ذو طبقات اربع يدخل اليها من باب واحد في الطابق الأول . وحول تدمر آثار السور العظيم الذي كان يحيط بالمدينة ويقف في وجوه الفاتحين الغزاة من ملوك وقواد في الغرب والشرق .

اما الانقاض. فاساطين وحجارة ونقوش وقطع تماثيل يقوم بعضها فوق البعض الآخر . وكلها شواهد على ثورة الطبيعة . وعبث الفاتحين .

لغة الآثـــار

وعلى تلك الآثار نقوش كتابية هي من تنوعات القلم الارامي سموها القلم التدمري وجدوا مثالاً منها على تمثال زينب هذه ترجمته :

« تمثال سبتميا بنت زباي الجليلة والتقية الملكة. ان السبتماءين زبدا القائد الاعظم وزباي قائد تدمر الفخيم نصباه لها في شهر آب سنة ٢٧١ للميلاد

واشهر العلماء الذين اشتغلوا بقراءة اثار تدمر . وحلوا رموزها واستخرجوا اسرارها . الكونت ديفوجيه . وهو يقسم تلك النقوش الكتابية الى اربعة انواع . نقوش بنائية على قواعد الاعمدة والتماثيل . ونقوش « قبرية » على المدافن ونقوش دينية كالأدعية والصلوات . ونقوش سياسية . واقدم كتابة عثروا عليها حتى الآن قرأوها منقوشة على قبر ويرجع تاريخها الى السنة السابعة قبل الميلاد .

وعلى اثنين من اعمدة الرواق الاعظم . قرأوا اسم زينب . والى جانبها تاريخ

يقابل سنة ٢٧١ للميلاد وهذا احدث تاريخ لهذه الدولة . وبين هذين التاريخين : نقوش كثيرة حفروا بجانب اصلها الارامي ترجمته اليونانية . وفيها طائفة من الكتابات السياسية والاجتماعية منها قرار من مجلس المدينة في ١٨ نيسان سنة ١٣٧ مسيحية يذكر الضرائب في تدمر وشروط استيفائها وجمعها وهو قرار طويل تزيد سطوره على المائة .

تمدن التدمريين

كانت التجارة في الزمن القديم بين الشرق والغرب تسير في طريقين الاول في البحر الأحمر الى مصر والاسكندرية . والآخر من خليج العجم فبادية الشام الى مصر . ومعنى ذلك ان تجارة البركانت قبل الميلاد وبعده بقليل . تسير بطريق بترا . فلما سقطت في اول القرن الثاني للمسيح كما تقدم تحولت الى تدمر . وبين تدمر والشام طرق مرصفة . ومحطات للراحة . وحصون وقلاع للحصار . جعلوها كلها وسائل دفاع عن القوافل . التي تحمل الذهب والصمغ وعود الند ولآلىء البحرين . والنيل والفولاذ والعاج والأبنوس من جزيرة العرب واقاصي الهند . فتنقل هذه البضائع الى مصر وروما والقسطنطينية وغيرها من المدن . ويعمد اهل الغرب وقياصرة الرومان وذوو اليسار الغربيون الى تزيين قصورهم بما يحمل اليهم من الشرق .

ويقول المركيز دي فوكيه على ما جاء في مجلة المشرق : ان القوافل التي كانت تحمل الى تدمر خيرات الشرق . كانت تستخدم من الدواب الأبل والحمير : فاذا وصل التجار الى حاضرة زينب. انزلوا جوالقهم واثقالهم ونقلوها الى العجلات يحملونها الى جميع جهات الدولة على الطرق المرصفة والشوارع الرومانية .

وليس من الغريب ان تزهر تدمر وتبلغ قمة الرقي والعمران . فقد كانت مرفأ عظيماً في بحر الصحراء ترسو في ساحلها تجارة الامم . ويدفع لخزانتها كل صاحب بضاعة ترد او تصدر . ضريبة معينة ذكرها في قراره مجلس الشيوخ . كما مر في السنة الاخيرة من ملك ادريان امبراطور الرومان الذي اتخذت تدمر اجلالاً له اسماً

ثانياً – هو ادريانوبوليس . كما دعيت باسمه ايضاً مدينة ادرنه التي وضع بيده حجرها الأول .

والظاهر من الاثار الباقية . ان اهل تدمر كانوا طبقتين مثل سائر سكان المدن في تلك العصور . طبقة الخاصة وطبقة العامة . هذه تقيم في الاكواخ المظلمة الضيقة . والاخرى وهي صاحبة الثروة لا تسكن غير القصور . وبالرغم من تأثير التمدن الروماني في اهل تدمر . فحالهم الاجتماعية ما زالت شرقية .

٢

الرومان والشرق

•

روما الجبارة .. سيدة العالمين في ذلك الزمان . لم ترفع دولة في الشرق رأسها الا وبعثت اليها الجيش الفاتح يخفض ذلك الرأس . ولم يجلس ملك شرقي على عرش الا اذا خفقت اعلامها فوق عرشه.

دولة فتح وحرب لا تهدأ ولا تلين . تصعد في الجبال كما تجول في السهل ولا تجد جيشها في البحر حتى تراه في اقصى الصحراء .

وهي سلطانة البر كما كانت سلطانة البحار والويل للبلد الشرقي لا يبسط فوقه ذلك النسر الروماني جناحيه .

لقد قلنا في روايتنا الأولى . الحارث الاكبر . ان الغرب والشرق كانا يتنازعان النفوذ . الفرس والرومان اعظم الدول في ذلك الزمان . لا تمد احداهما يدها في اقليم حتى تشهر الاخرى في وجهها السيف واذا تلاحم الجيشان انقسمت دويلات

الشرق واماراته حزبين . هذا يضرب بسيف الفرس . والآخر يمشي في صفوف الرومان . ومنذ وجد الشرق واهله يتقسمون ...

في السنة السادسة والثلاثين قبل المسيح . زحف مرقس انطونيوس القائد الروماني الى بلاد الفرس فدارت عليه الدوائر . فانثنى يريد الشام راجعاً الى رومة . فاعجبته تدمر . فارسل الى اهلها يقول انه قصد مدينتهم لتستريح فيها جنوده . لكن القائد الروماني كان يضمر الشر . وهو يريد ان يطلق جنوده على تدمر فتكون المدينة لهم غنيمة باردة .

غير ان التدمريين لم يصدقوا . فنقلوا المال والعيال وعبروا الفرات فلحق بهم حتى دركهم . وهناك وراء الفرات . غلب اهل تدمر جيش الروم . وعاد الفاتح الكبير يتعثر باذيال فشله وخيبته .

ومنذ ذلك الحين . طمع الرومان بتدمر . واخذوا يعدون العدة للاستيلاء عليها . واهل المدينة يحافظون على الاستقلال ويدافعون عن الحرية . حتى انتصرت القوة على الضعف . واستسلمت المدينة التجارية للفاتح الظافر . في اواسط الجيل الأول للميلاد .

على ان الحرب بين الفرس والرومان لم تخمد نارها . بل اصبحت في صدر النصرانية حرب فناء واستمرت بعد ذلك بضعة اجيال . تجر خلفها للشعبين الغربي والشرقي الويل والدمار .

فمشت تدمر بخطى واسعة الى ذروة العظمة والغنى . لموقعها بين المملكتين ولمرور القياصرة بها في اثناء تلك الحروب . حتى صارت سيدة الشرق الروماني واثرى اهلها ووفر مالهم . والقياصرة يغدقون عليهم النعم والاحسان . وتلك سياسة روما المستعمرة . تلجأ الى استرضاء الشعب بالمال بعد ان تخضعه بقوة السيف .

ولماذا لا يبذل القيصر ماله لاعيان التدمريين وسادتهم وهم الذين يمشون امام جيشه ليقاتلوا عدوه . ولولا سيوف التدمريين لكان الفشل نصيبه في حروب الفرس ؟

اجل . ان تدمر كانت تعين الرومان . وعلى رأس الجيش التدمري رجال بأس وحرب . ينتمون الى اسرة وطنية لامعة في تدمر . كان لها الشأن الاكبر في تاريخ

المدينة . هي اسرة السميدع .

هكذا نشأت العلاقات بين اهل تدمر وبين قياصرة روما . لعب السيف دوره اولاً . ثم تنحى تاركاً الأمر للسياسة والمال. فانفتحت في وجه المدينةابواب الثروة . وتكدس المال في خزائنها يحمل على ظهور الابل واكتاف الرجال .

ثم اخذ النظام الروماني يسود المدينة . على ذلك القياس الذي تمشى عليه الروم في الاقاليم الخاضعة لهم . حتى ادخلها القيصر ادريان سنة ١٣٠ للمسيح في حمايته . ونظم شؤونها ووضع ضرائبها سنة ١٣٧ كما قرأت . وكانت حكومتها ترجع الى مجلس شيوخ عليه رئيس .

على ان الكلمة النافذة في تدمر لم تكن للروم . بل لذلك الامير الوطني صاحب القوافل او رئيس الخفر الذي تسير القوافل في ظل سلطانه . فهو صاحب القول الأخير في تدمر يفعل ما يشاء كالملك المستبد المستأثر لا تراجعه الرعية في أمر .

وليس في ذلك موضع للعجب . فرئيس القوافل هو رئيس الجيش . يجند من يشاء من الرجال ويقودهم في الصحراء ليرد غارة السلابين والقبائل النهابة في البادية الواسعة الممتدة كما تمتد البحار .

هذه نظرتنا في تاريخ تدمر . وهي كما ترى نظرة مختصرة جداً . جعلناها مقدمة لما سيجيء زيادة في البيان . ولكي يتخذها القارئ اساساً لما سيقرأ من الفصول .

٣
أذينة الاول

•

بنو السميدع : اسرة تنتمي الى عمالقة العراق الذين هجروا ضفاف الفرات وتفرقوا قبل النصرانية قبائل وبطوناً . في جزيرة العرب ومشارف الشام .

كانوا اولاً يرتزقون بنقل التجارة في البادية ثم جعلوا تدمر موطناً لهم يهجرونه في

كارانهم وقوافلهم الى حين . ثم يعودون اليه .

فلما ثبتت اقدامهم في مدينة سليمان . بسم لهم الدهر . فكثر مالهم وامتد نفوذهم. واصبحوا بعد قليل. مرجعاًلاهل تدمر .يرجعون اليه في ايامالمحن والشدائد

واذينة منهم . وهو ابن خيران بن وهبلات بن نصور . الذين ورد ذكرهم في كتابات المدينة .

وكان نصور . اول رجل من بني السميدع ساعد الرومان على الفرس . فقربوه ورفعوا شأنه . ثم قام بعده ولده وهبلات فأخلص الخدمة للفاتحين ناهجاً في ذلك منهاج ابيه . وهكذا فعل ابنه خيران بعد موته .

فوثقت المصلحة عرى الصحبة والولاء . بين آل السميدع وبين الرومان. حتى ان القيصر سبتيميوس ساويروس . عندما زحف ليحارب الفرس في اول الجيل الثالث . كان خيران « والد اذينة » احد قواد جيشه . وعندما انتهت الحرب منحه القيصر لقب « سبتيميوس » وهو من اكبر القاب الشرف عند الرومان . واصبحت تدمر بفضل القيصر المشار اليه. مستعمرة رومانية لها حقوق المستعمرات الايطالية العليا .

لكن اذينة الاول ابن خيران لم يكن مثل اسلافه . بل نشأ حراً كبير النفس لا يخضع لنظام الرومان ولا يعترف بسلطانهم .

وكان كثير المطامع . يطمح ببصره الى شيء لم يجرؤ احد قبله في تدمر على الافتكار فيه . انه كان يريد ان يضع على رأسه تاج ملك ضخم واسع الاطراف. ونفسه الكبيرة لا تطيق ان ترى الفاتح الروماني يسوس بلاده ولو رفعها الى الجوزاء .

واذينة . من اولئك الرجال البسلاء الذين لا تقف بهم جرأتهم عند حد، لكنه اذا اضطر لجأ الى الحيلة والدهاء يتخذها وسيلة للحصول على غايته .

فأخذ من وراء الستار . يبذل المال للعرب الذين حوله . ومعظمهم من قضاعة . وينفخ في صدورهم روح الاستقلال . حتى اصبح جيشه السري اكثر عدداً من حامية الروم . لهذا الجيش ولرئيسه الشجاع غرض واحد هو خلع نير الفاتح الاجنبي . والقضاء على سلطته ونفوذه في تدمر .

وكان القدر يساعد اذينة على نيل غرضه . فان اردشير بن ساسان ظهر في بلاد الفرس . واباد دولة بني ارشك ملوك فارس . وتربع في عرشهم سنة ٢٢٦ . فاهتز العرش الروماني لظهور هذا البطل الفارسي . واخذت روما تعقد المجالس . للنظر في وسائل الدفاع والوقوف في وجهه . قبل ان يستفحل الأمر . فبادر القيصر اسكندر ساويروس الى محاربته . ومر بتدمر يزور تلك المدينة العظيمة التي تتمتع بنعمة الاستقلال . فاستقبله فيها «زباي» ابو زينب قائد الجيش التدمرية وكان على دعوة اذينة . واظهر له خضوع الجيش واستسلامه لارادته . فسر لمظاهر الولاء والاخلاص تظهرها تدمر . ومنح آل السميدع . في ذلك الحين . مرتبة الرئاسة . فصار اذينة الشجاع الثائرة نفسه على روما . رئيساً لمجلس الشيوخ في المدينة . سنة ٢٢٩ .

وانت تعلم . ان الناس في كل زمان مع الظافر ... فحنى جميع من في تدمر رؤوسهم لابن خيران . والتف حوله الانصار والرجال يفدونه بمهجهم وعقيدته التي لا تتزعزع تنمو وتكبر في صدره . وهو يعالج امره بالصبر ويغتنم الفرص ليقفز الى العرش الذي يبنيه .

ولماذا لا يبني اذينة عرشاً في الشرق ؟؟ وهو يرى الشرقيين قد تربعوا قبله في عرش القياصرة نفسه ؟؟ . اجل . ان سبتيميوس ساويروس . واسكندر ساويروس . وفيلبوس العربي هم شرقيون . وقد قفزوا الى عرش روما في ذلك الجيل واواخر الجيل الذي قبله . واذينة يرى كل ذلك ونفسه تجيش في صدره ويضطرب شعوره لذكره ..

واي شيء يمنعه من انشاء دولة مستقلة تبسط نفوذها فوق البادية وفوق الجزيرة ثم تتسع وتمتد حتى تضم اليها الشرق الروماني كله ، والعرش الاكبر نهب مقسم يثب اليه كل من يحسن الوثوب من قواد الرومان ؟؟! .

فنهض . في ليلة من ليالي الخريف . والعزيمة الثابتة تملأ صدره وجمع في قاعة الرئاسة قواد جيشه ورجال مشورته من العرب . ووقف بينهم خطيباً هادئ الصوت ثابت الجنان قائلاً : انا اذينة بن خيران رئيس مجلس الشيوخ في تدمر انادي بنفسي ملكاً !! فماذا تقولون ؟ . فتسابق الزعماء الى المناداة : يعيش ملك تدمر ..

وهكذا . في ساعة من ساعات الليل اصبح اذينة صاحب عرش . ولم يبزغ

الفجر حتى اعترف به الجند الوطني والشعب . وجلس على عرشه الجديد الذي وضع دعائمه بيديه. دون ان تسفك حوله نقطة واحدة من الدماء ... وكان ذلك في اواسط الجيل الثالث .

ولأذينة ولدان . اكبرهما يدعى خيران . والاصغر يدعى اذينة .ولهذا الولد الثاني اخلاق كاخلاق ابيه . ونفس كنفسه . وصفات الرجال الافراد كصفاته . كأنه مطبوع بطابع ذلك الوالد العظيم الذي ادهش تدمر باجترائه على الرومان .

فعمد الملك الجديد الى إدارة شؤون الدولة. بدهاء وحزم وسرعة . مفوضاً مقاليد الامور الى انصاره . حافظاً لنفسه حق الاشراف في الدولة على كل شيْ وقبل ان ينتهي امره الى روما . وضع نظاماً للعرش ان الأبن الاكبر للملك يرث اباه . فكان خيران الهادئ المستسلم . بحكم ذلك النظام . ولياً للعهد .

وارسلت الرسل الى روما تحمل للقيصر بشرى جلوس رئيس الشيوخ المتمرد على العرش ..

فغضب القيصر . وخوفاً من ان يحرج موقف دولته عمد الى القضاء عليه بالحيلة والغدر . بدلاً من ان ينازله في الميدان .

دعا رجلاً من خاصته يدعى « روفينوس » وفوض اليه النظر في سياسة الولاة في الشرق . كما انه امره بقتل اذينة قائلاً له : ان عاملنا في تدمر لا يستحق الحياة ..

نعم وكما ارتقى اذينة العرش في ليلة . هكذا ذهبت مطامعه واحلامه وعرشه في ليلة . فان روفينوس . باسم القيصر .قتله في بلاطه والناس نيام.. لكن السياسة تقضي على الرومان. بان يرفعوا إلى الرئاسة ولده الاكبر .فقوضوا اركان العرش التدمري وجعلوا خيران ولي العهد رئيساً للشيوخ .

وعلى الرغم من كثرة الانصار والقواد في تدمر لم يقم من يطالب الروم بدم القتيل الكبير. وتلك الاصوات التي كانت تنادي باذينة. خفتت كلها لم يرتفع منها صوت. ان ذلك الغول الروماني المسلط على كل اقطار المشرق لا يجرؤ اي كان من الناس على الوقوف في وجهه ...

أذينـــة الثاني

قتل ابوه وهو غلام. فنشأت في صدره فكرة الانتقام من الرومان لا تثنيه عن عزمه مظاهر العناية والعطف التي كانت تحيط به في قصر اخيه الرئيس ، وكما نشأ الوالد حراً نشأ الولد حراً في ظل ابيه . ونبيلاً في بلاط كان ابوه فيه سيد النبلاء .

وهو شعلة ذكاء كما يقولون بل شعلة نار . رابط الجأش جرئ القلب واللسان : ما فكر في امر الا مشى الى ذلك الأمر بقدم ثابتة لا ترجع الى الوراء . والناس كلهم في قصور تدمر . اولئك القواد الاشراف من العرب والرومان كانوا يحترمون اذينة ويخافون غضبه. وهم ينظرون اليه في السابعة عشرة من عمره. نظرهم الى ابيه القتيل

ولكل من الاخوين — خيران واذينة — ميل ورغبة . فعندما كان خيران في ايام ابيه . يتقلب في احضان العلماء والمهذبين. كان اذينة يقلب بين يديه انواع السلاح والسهام لا يرتاح الا الى الاسنة والسيوف .

كأن اذينة الكثير الطمع خلق ليعيش في الصحراء ويقود الرجال الى الحرب وكأن خيران الهادئ الضعيف القلب خلق ليعيش عيش الترف بين جدر القصور .

وكان اذينة الاول يراقب ولديه وهو يرى التناقض الظاهر في الخلقين . ولكنه لم يجرب ان يصرف اذينة الصغير عن هواه . عند اعتقاده ان الوقوف في وجه ارادة الفتى المستقلة . يقتل ذلك الطموح في اعماق نفسه .

وكان يقول لخواص رجاله — ان اذينة الاول لا يموت الا اذا مات هذا الغلام — وهو يريد بقوله ان اذينة صورة ابيه. في المبدأ والغاية والاخلاق . وكانت العادة في قصور الملوك . ان ابناء الملك يتزوجون صغاراً قبل ان يجاوزوا العشرين . فزوج اذينة ولديه والابن الاصغر يكاد لا يعرف معنى الزواج .

والعروسان من فتيات العرب . تنتميان الى بني ميثاء . اشرف الأسر العربية تدمر بعد آل السميدع

غير ان زوجة اذينة . ماتت على اثر الولادة في السنة الثانية . وتركت لعناية الجواري والمراضع طفلاً ، دعاه ابوه هيرو ديس .

ومرت الايام ... فلما قتل اذينة الاول كما مر. وخاقت فكرة الانتقام في صدر ولده . هجر اذينة الثاني قصور تدمر وجناتها . لاجئاً الى الجبال يصيد في الظاهر الاسود والفهود وحمر الوحش . وفي الباطن . كان يصيد الرجال . ويجتذب كما اجتذب ابوه من قبله . قلوب البدو النازلين حول تدمر . وقبائل القطر الشامي التي تملأ البادية .

وليس من الصعب على اذينة ان يستميل الناس الى دعوته . فالمال الذي ورثه من ابيه كان كافياً ليدفعه ثمناً للرجال .. وهو الكريم الطلق اليدين الباذل كل ما يملك في سبيل ثأره .

وفي تلك البادية الواسعة التي لا يقام حولها سور ... في ذلك الجو الهادئ الذي تسوده البهجة والنور . وتحت تلك السماء الصافية التي ترسل شمسها اشعة الحرية المطلقة ... اخذ اذينة سيفه . ورسم به على الرمال حدود دولة مستقلة يبنيها على انقاض دولة أبيه التي لم تعش .. ثم اشار به الى الجهات الأربع وراء الافق البعيد قائلاً لرجاله : هناك في اقاصي الشرق الروماني ستخفق اعلام تدمر .

اجل . ان ذلك الفتى العصامي الذي هذبته البادية . واستنار عقله بنور الحكمة في الصحراء . ودرس الدهاء والسياسة واساليب الحرب على شيوخ العربان وامراء الميادين .. ان ذلك الفتى الذي كان يحمل في صدره الجرأة والاقدام وعزة النفس . لم يكن يفكر في الانتقام فحسبُ. بل كان يريد — مثل ابيه — ان يحدث في الشرق حدثاً يخلد ذكره وذكر قومه ما بقي الشرق .

وباح بكل ما في صدره لاصحابه البسلاء الذين لا يحبون الرومان فعاهدوه على الموت في سبيل حريتهم . كما عاهدوه على كتمان الامر حتى تتهيأ لهم اسباب الظهور في مظهر الخصم المستقل .

ونفوذ اذينة في كل يوم يتسع ويمتد . وهو يسحر ألباب الرجال بالبسالة والعطاء والجرأة والدهاء . حتى اصبح بعد بضع سنوات سيد القبائل وقائدها الاكبر . لا يشد بدوي رحل ناقته الا بأمره .

ونشأ ابنه هيروديس محباً للحرب مثل ابيه . وقد علمته البادية ان يسود الناس وهو غلام ..

وقد ملأ اسم اذينة اقطار الشام . بل تجاوزها الى بلاد الفرس .والرومان ينظرون الى نفوذ الشاب التدمري يحجب نفوذهم ونفوذ أخيه رئيس الشيوخ ولا يبالون . ذلك لان اذينة عضو من اعضاء الاسرة الحاكمة. والاسرة الحاكمة في يد الرومان يستثمرون نفوذها وسيوفها في قيادة القوافل وحفظ الامن في البلاد .

وكانوا يجهلون ذلك الهدف الذي يمشي اذينة نحوه بمثل تلك السرعة العجيبة. حتى ان اخاه خيران نفسه كان يجهل اغراضه . وهو واثق بان اذينة لا يطمع الا بأن يمسي رئيس الخفر تسير القوافل تحت لوائه .

وعلى هذا القياس . رأى خيران وممثل القيصر . ان يجعلاه امير القوافل واذينة لم يكن بحاجة الى رضاهما فقد استولى على القيادة بنفوذه وقوة سيفه .

وليس غريباً ان يقود بنو السميدع قوافل البر . فهم الحكام .وهم سادة المدينة وقواد الجيش . منهم زبدا القائد الاكبر .وزباي والد زينب . قائد الفرسان الاعلى .

واذينة يحب القائدين . ليس لانهما من انسبائه . بل لانهما من انصاره . وهما من خيرة القواد والابطال .

على انه . في ذلك الحدث الخطير الذي سيقلب الشرق . كان يحتاج الى نصير يستند الى رأيه وقوة ارادته. وبعد نظره . فلا يجد بين انسبائه ذلك النصير ...

ولكن القضاء كان يمهد امامه السبيل . فقد وجد في بيت نسيبه زباي . مخلوقة فتانة ذات رأي لا تذكر عنده آراء الرجال. وهمة بعيدة لا تعرف الفتور والخور. هي زينب ابنة القائد اميرة الأدب والجمال . ولؤلؤة الشرق .

زينب

اسمها في اللغة الارامية « بنت زباي » واما اسم زينب (زنوبي) فهو اسم يوناني تعود محبو السيادة من الشرقيين . في ذلك الزمان . ان يزيدوه على اسمائهم السامية . ومعناه : قوة المشتري .

ابوها زباي . قائد الفرسان الاعلى في تدمر . وامها بنت شريف مصري عرفها زباي في احدى رحلاته الى انطاكية فاتخذها له زوجة .

كانت زينب اعجوبة من اعاجيب القرن الثالث بل هي احدى اعاجيب الاجيال. سمراء اللون في جمال وهيبة . سوداء العينين . نافذة اللحظ . لم ير في نساء ذلك الزمان اجمل منها . ولا اقوى حزماً . ولا اكمل عقلاً .

ولدت في تدمر . وتأدبت في الاسكندرية . فادركت غوامض الحكمة والادب . ودرست اخبار الاقدمين وسير المشاهير من ملوك اليونان كالاسكندر والفاتحين الرومانيين كيوليوس قيصر . وملكات التاريخ ككليوبطرة ملكة مصر . فتخلقت باخلاق الملوك. وتعشقت السيادة والعظمة وهي فتاة بين جدر مدرستها في القطر المصري .

هكذا يقول جميع المؤرخين ويزيدون. انها واحدة عصرها لم ينبغ مثلها في النساء . كان جمالها ساحراً وادبها ساحراً . فكلما رأيت زينب رأيت الجلال . واذا نظرت اليك احسست ان في نظراتها قوة الآلهة .

ولزينب عزيمة حديدية لا تلين . وطموح الى العلياء لا يقف عندحد . ونفس كبيرة طامحة مشغوفة بالمجد . حتى ان الشرق كله كان اضيق من ان يتسع لمطامع بنت زباي .

اجل . ان زينب لم تخلق ملكة . ولكنها كانت تفكر وهي تقرأ سير الملوك . في ان تبني دولة اوسع من دولة آشور . وتخلق عرشاً اثبت من عرش مصر . وتاجاً ما لبست مثله ملكة من ملكات العالم.

ذلك لأن زينب كانت أعظم من كليوبطرة وأكثر عزاً من ديدون صاحبة قرطاجنة . وأبعد نظراً من سميراميس ملكة آشور .

وتلك الاحلام التي كانت تملأ صدر اذينة وهو في الصحراء . كانت تملأ صدر زينب وهي في المدرسة . كأن الاثنين جسدان لهما نفس واحدة وهما غير متعارفين .

وشغفت نفس زينب بصنوف الأدب والعلم كما شغفت بالمعالي فقرأت آداب الدول والأمم . واحسنت درس اللغات الحية في ذلك الجيل . لغات مصر واليونان والرومان كما كانت تحسن لغتها الارامية . فلما عادت الى تدمر . ملأت عبقريتها ونبوغها قصر ابيها وقصور الامراء . واخذت تشهد مجالس قومها وتدرس احوالهم . حتى انها استأذنت اباها فشهدت جلسات المجلس الاعلى . وكانت في سرها

تسخر من بعض الشيوخ الذين يحرقون بخورهم على الاقدام ..

وعندما كانت فتيات تدمر يتهادين على شواطئ الجداول الكثيرة التي نضب ماؤها اليوم . كانت زينب تقف على شرفة القصر تعرض حوادث المدينة . ثم تنصرف الى غرفتها تقرأ سيرة ذي القرنين وسير غيره من آلهة الفتح وجبابرة الحروب . حتى ملك حب السيادة جميع مشاعرها . ونضجت في نفسها الكبيرة تلك الفكرة التي نضجت في نفوس ملكات التاريخ ربات العروش والتيجان .

نعم . ان تلك المخلوقة العجيبة كانت ارفع من ان تجر ذيل ثوبها الارجواني في اسواق المدينة . وفي مواضع اللهو التي اوجدها الرومان . بل كانت ارفع من ان تعرض جمالها الساحر على نظرات الفتيان .. ان زينب لم تكن فتاة عادية تعيش بالخيال وتستهويها اللذة بل كانت ملكة ً في مظاهرها واخلاقها قبل ان تلبس التاج .

وكانت اصغر من اذينة . وهي لا تعرف عنه الا ما يعرفه ابوها وقومها عن رجل هجر قصور آبائه واسباب راحته وهنائه . ليعيش بين قبائل البدو الضاربة في مشارف الشام ...

ولم تكن تعلم غرضه من قبل . فلما وطد اذينة سلطته في الصحراء . وبسط نفوذه على القبائل . اخذ يزور المدينة ويجالس انسباءه واهله . فاتضح لها عندئذ : ان هذا الفتى يؤثر ان يكون الاول في البادية . على ان يكون الثاني في تدمر ..

وجعل اذينة ينظر الى بنت زباي القادمة من القطر المصري . نظره الى قوة جديدة ارسلتها السماء . لتكون دعامة ً له في حياته المقبلة .

وكأن الاثنين خلقا ليتحدا . فنشأت في صدريهما عاطفة هوى لا شبيه له في اقاصيص الحب . هو حب نفس كبيرة . لنفس كبيرة . وخلق عال لخلق عال . بني هذا الحب على تشابه الروحين . وتوافق الخلقين . ولم يبن على شهوات الصبابة والشباب

وباح الواحد منهما للآخر بما في صدره . من مطامع وآمال . واماني واحلام . واتفقا – منفردين بالرأي – على ان يصبحا زوجين كما اتفقا على ان يصيرا ملكين ..

وليس هنالك ما يقف في وجه الارادتين القويتين . فزباي القائد يحب وحيدته كما يحب نفسه . وحياته كلها بما يكتنفها من عز القيادة وعلو المقام . وقفها على راحة زينب .

وكانت زينب تحترم اباها الاحترام كله . وقد انساها شعوره الراقي . وعطفه الابوي . تلك الام البارة . التي لفظت روحها . في مطلع السنة التي تركت فيها زينب الاسكندرية . راجعة الى تدمر .

ولم يكن في المدينة . بين قواد الروم وامراء العرب . رجل يحبه القائدان زبدا وزباي . كما يحبان اذينة . فهو ملء القلوب والاذهان وصورته مطبوعة في كل صدر من صدور الشعب التدمري . على اختلاف مذاهبه وعاداته واجناسه .

حتى انه لو امر قائدي تدمر . بان يقذفا بنفسيهما من اعلى قمم الهيكل المقدس الى اسفل . لما ترددا لحظة في تنفيذ ذلك الأمر . فأذينة كان في نظرهما نصف إله وهو ساحر الجيش وسيده ومعبوده .

وكان زباي . يعلم مطامع اذينة ومطامع زينب . تلك المطامع الظاهرة في احاديثهما ومظاهرهما . ولكنه كان واثقاً بفوز الاثنين في ذلك الشأن الخطير الذي يسعيان لأجله . فلما انتهى اليه خبر اتفاقهما على الزواج . وافقهما في الرأي وهو يبسم لمستقبل ابنته. ولم يكن يخشى ان يخونهما الحظ فقد تعودالمغامرات وخوض الميادين . وآل السميدع جميعهم اهل مروءة وجلد واقدام . وكان خبيراً باخلاق الرومان وسياستهم. وهو يرى ان التظاهر بالاخلاص لهم. خير من الظهور في مظهر العدو : حتى يدور الزمان دورته . وتثبت اركان الدولة التي ينشئون :

وذلك كان رأي زينب. اما اذينة فكان يرى ان يجاهرهم بالعصيان ويتصدى لهم بسيوف رجاله الذين خلقوا في ساحات الوغى . ثم يبني ملكه الجديد على رؤوس السيوف والرماح. وكان يقول لانصاره : ما نسيت ولن انسى ان الرومان قتلوا ابني .

غير ان زينب كانت ابعد نظراً منه . وكان اعتقادها ثابتاً لايتزعزع . ان الأمر لا يتم لها الا اذا سالمت الرومان . فرجالها الوطنيون لا يستطيعون على كثرتهم في بادئ الأمر ان يغلبوا الجيش الفاتح. الذي اذا اضطر زحف كالجراد الى تدمر. من البر والبحر.

فاقنعت اذينة . ومتى ارادت زينب امراً فمعنى ذلك ان اذينة اراده مثلها على الاثر وبدون جدال .

واحتفلت تدمر بالزواج. احتفالاً ما شهد الرومان والعرب مثله . كما ان الشعبين

واقطار الشرق لم تشهد في ذلك الحين مثل ذينك الزوجين .

٤

الايام ايام فتنة وحرب . فتنة دائمة وحروب مستمرة .. امتا الفرس والرومان تتحاربان لا تعرف الواحدة منها معنى السلام والراحة والجنود تزحم الجنود في ساحات القتال .. وشباب الامتين وكهولها ينطرحون جثثاً . في السهل والجبل . وفي اعماق الفرات . ومدن الشرق وهيا كله وحصونه تدك الى الارض فتسود الوحشة والخراب تلك الربوع الفتانة التي هي جنة الله .. والانسان يقتل اخاه الانسان طمعاً بشبر من الأرض .. وتلك الجماهير والصفوف التي هي زهرة الدولتين تساق الى الموت وتطرح تحت حوافر الخيل.. ذلك شأن الخليقة منذ وجد آدم الى اليوم ..

سابور بن اردشير ملك الفرس استوى على عرش فارس بعدموت ابيه . فذلل رقاب الرومان في الشرق وكاد يمحو الاسم الروماني المطبوع على صفحات الهواء في اسيا الصغرى .

كانت كتائب الرومان المخيمة في الاقاليم تتراجع مذعورة خائفة امام سيف الفاتح الفارسي . والسيوف تلقى على قدمي سابور الظافر . وكان اذينة في سرّه . يبتسم لانتصار الشرق على الغرب. وفوز الاعجام على الرومان .. وبينما كان مجلس الشيوخ في تدمر يبحث امر سابور . وحامية الرومان تنتظر اشارة نائب القيصر في سوريا . مات خيران رئيس المجلس . تاركاً بعده ولداً صغيراً قاصراً يدعى معني . لا يجوز لصغر سنه ان يخلف اباه . ولكن اذا مات خيران. ففي تدمر سيد اعظم منه . واذا خسر المجلس رئيسه الضعيف الهادئ . عوضه الله من خسارته رئيساً قوياً جباراً .. فدفن اذينة اخاه وعيناه تدمعان . ثم امسك بيد معنيّ بن اخيه . ومشى الى كرسي الرئاسة فاستوى فيه . وجباه الشيوخ تنحني امامه حتى تكاد تلامس الأرض .

وفي تلك الساعة. ساعة جلوسه في كرسي الرئاسة . دخلت تدمر في عهدها الجديد . واحست ان رئيسها الاكبر سيقودها بخطى سريعة الى مواقف العز والعمران .

وكانت اخبار الحرب ترد على اذينة وكأنها لا تعنيه .. ولماذا يهتم للرومان وهو التدمري العربي الذي يعمل من وراء الستار على وضع دعائم دولته على انقاض دولتهم ؟؟. واذا كانت السياسة وارادة زوجته تقضيان عليه باظهار الولاء والاخلاص لهم فليس من الشرف والعز ان يجرد سيفه للدفاع عنهم اذا هم لم يستعينوا به..

وكان فالريان . امبراطور الرومان. يعرف وهو في روما. مقام اذينة في تدمر . ونفوذه في القبائل . فعمد الى الدهاء . فسماه في سنة ٢٥٧ قنصلاً .وهي رتبة سامية توازي رتبة والي سوريا وفينيقية . في ذلك الحين .

لكن اذينة الطامع بالعرش لا تستهويه الرتب والالقاب . ولا تبطره نعمة الفاتحين وهم الذين قتلوا اباه واستبدوا ببلاده . فأخذ بعنان الرئاسة لا ينظر الى ما يجري خارج تدمر . وقد ضبط امور مدينته بعزم حديدي . وسياسة رشيدة . تجلت فيها سياسة زينب وحكمتها . التي لا تستطيع ان تصفها الاقلام

ومرت سنتان . وسابور الفارسي لا يخرج من ساحة شرف الا الى ساحة شرف. ولا يفتح بلداً الا لينتقل منه الى آخر كأن جيوش الرومان في الاقاليم اسراب من الحمام . وكأن سابور ورجاله افراخ النسور .

حتى اخضع الجزيرة وهم بالزحف الى الاقاليم الآمنة . التي تخفق فوقها اعلام روما في انحاء الشمال. غير ان صفوف الرومان ملأت الشاطئ. واقبل القيصر بجموعه قاصداً ذلك الفارسي الذي دوخ مستعمرات الشرق .

فلما قدم تدمر . احاط اذينة بعنايته وعطفه . وخلع عليه ما لا يخلعه الا على عظماء القواد . وقد قام في ذهنه . ان مصلحة عرشه لا تصان في الشرق . الا اذا اشترى اخلاص اذينة ووفاءه بعطاياه . فيصون التدمري مستعمرات روما ويحفظ هيبة الرومان في نفوس القوم

اما سيد تدمر فكان اعظم من ان يقبل هدية واحساناً . فوزع خلع القيصر على رؤساء البدو . وشيوخ القبائل . اي انه كان يشتري بمال الرومان خصوماً

للروم . وهو يضمر الشر . وكان القيصر نفسه . من حيث لا يريد . يمهد امام اذينة سبل الوصول الى العرش .

ومكث الجند في مدينة الصحراء بضعة ايام . والامبراطور واثق بقوة جيشه لا يسأل اذينة ان ينجده برجال القبائل . كما ان اذينة كان ارفع من ان يعرض عليه اولئك الرجال .

على ان كتائب الرومان وجنود المدينة انضموا الى ذلك الجيش . فزحف الامبراطور الى جوار الرها ليبارز الفاتح الذي اذاق الرومان مرّ الهوان .

وكانت ثقته بالجيش سبباً لضياع ملكه . فان جواسيس سابور ورسله الدهاة استطاعوا ان يستميلوا قائد المقدمة وفالريان لا يعلم شيئاً . وذلك القائد يدعى مكرينس . باع ضميره وهو على شاطئ البحر . فلما ترك الجيش الشاطئ . كان الخائن يحلم بتلك الوعود الخلابة التي وعده بها رسل سابور .

اجل . ان القيصر الواثق بنفسه اضله مكرينس . قبل ان يصل الى الرها فتضعضعت صفوفه واختل نظام جيشه . ثم اصبح في يد عدوه . اسيراً ذليلاً يستبد الفارسي بتعذيبه ما شاء الاستبداد .

فلما انتهى الى اذينة خبر القيصر . رأى ان يبعث رسله وهداياه الى سابور يسأله ان يضع شروط معاهدة خاصة بينه وبين تدمر .

وقد انفرد مع زينب بهذا التدبير لم يشاور فيه الرومان ولم يسألهم . وذلك هو الدهاء السياسي والرأي . فان سابور بن اردشير . عندما يقترح على اذينة شروط الصلح . فمعنى ذلك انه اعترف بحكومة مستقلة في تدمر . ومتى وجدت المعاهدة . انصرف اذينة الى بسط النفوذ في الشرق . وطارد الرومان . بالاتفاق مع سابور حتى يقذف بهم الى البحر . . . وماذا يصنع بعد ذلك ؟ . . انه يتفرغ لامور الفرس . ويبرز لقتالهم . فاما ان يسحقوه . واما ان يجلس على عرشهم الاكبر في المدائن . .

اما الشرق الروماني . فقد اهتز من اقصاه الى اقصاه لفشل القيصر فالريان ووقوعه في الأسر . فغصت الولايات والاقاليم بجنود رومة . وامتلأ البحر سفناً

والبر رجالاً . من كيليكيا . الى انطاكية الى بلاد « العلويين » الى بيروت .
بطلها جميعها القيصر الجديد غاليانوس لتنقذ اباه من الذل . وترد الفارسي الزاحف
الى الشمال وقد يستأنف زحفه الى الجنوب ..

٥

القصر الذي يقيم به أذينة وزينب من أعظم وأعجب قصور الملوك في تلك الأجيال
أبراجه تلامس السحب . وقاعاته المدهشة آية من آيات العظمة والفن وسراديبه
كثيرة حتى أن الحراس أنفسهم لا يعرفون منافذها وأبوابها .

وقصور الملوك والأمراء في ذلك الحين ، كانت تشبه الحصون . ولكل
حصن سراديب يخرج منها الأمير وأهل بيته وخاصته في أوقات الضيق ،
راضين من نعم الدنيا بالفرار ، وبالنجاة من الأسر أو الموت .

ففي ليلة من ليالي الصيف ، جلس أذينة وزينب في قاعة لهما خاصة يصعد
منها من الداخل إلى أعلى الأبراج ، وفي جدارها الغربي باب سري يخرج منه
المرء إلى واد يبعد فرسخين عن القصر .

ونادى أذينة حاجبه البدوي قائلاً :

أدع القائدين زبدا وزباي .

فغاب الحاجب ساعة ، ثم أقبل ومعه الرجلان .

فقال أذينة للبدوي : أغلق الباب وإذا جاء هيروديس نفسه فامنعه من الدخول .

ثم قال : أيها القائدان : لقد أصبحنا الآن بين عدوين قويين ، الرومان
من الداخل ، وسابور من الخارج ، فكيف نضع أسس العرش ؟

فقال زبدا : الرأي لك يا مولاي .

وكان زباي ينظر إلى عيني ابنته كأنه يستوحيهما ما يقول .

فقالت زينب : اختاروا واحدا من العدوين تستعينون بـه على الآخر ...
فقال زبدا : نختار الرومان لنسحق الفاتح الفارسي .
قالت : بل يجب أن تختار الظافر أيها القائد ...
قال : أنقود الجيش إلى الرها لنحارب في صفوف سابور ؟
فقال أذينة : بل نجعله حليفاً لنا دون أن ننقل اليه قدماً .
قال : إذن نرسل اليه رسلاً ...
قال : نعم وننتظر جوابه ، فاذا عاهدنا على الولاء تركناه يزحف إلى الأقاليم حتى يتضعضع الرومان فنجعل تدمر دولة .
ـ : أراك تضمن فوزه يا مولاي ...
فابتسم أذينة وقال : لا أضمن شيئاً ولكني أجرب ...
ـ : وإذا قتل سابور وتفرق جيشه ؟؟ ...
ـ : لا يبقى أمامنا عندئذ إلا النظر في أمر عدو واحد . فاسمع أيها القائد . سنبعث إلى سابور وفداً يحمل اليه هدايا تدمر ويسأله أن يملي علينا شروطه فاذا كانت هذه الشروط في مصلحتنا ، فنحن حلفاؤه حتى يتقاص ظل روما ، وإلا فنحن في الظاهر باقون على الولاء للفاتحين ... فما رأيك الآن ؟؟
فقال : ويبقى كل ذلك سراً يا مولاي ؟ . .
ـ : أجل ، والويل لمن يبوح بهذا السر من رجال تدمر .
ـ : وإذا سألناالقيصر الجديد أننعينه على عدوه وقاهر أبيه . فماذا نقول له ؟
ـ : نأمر رؤساء القبائل بأن يتفرقوا في الصحراء فلا يعينوه . أما الجند الوطني في تدمر فهو لا يصلح لقلة عدده لأن يكون عوناً للملك أو نجدة لجيش ... أراك رضيت الآن ...
ـ : إني لراض يامولاي ولكن أخشى أن يفضح الوفدالأسرار .
فقالت زينب : إختر أربعة رجال من الجيش وأنت تضمنهم .
فبغت زبدا لهذا الأمر الفجائي وأطرق يفكر ...
أما زباي فقال لصهره : وأنا أختار رئيس الوفد ...

فأجابته زينب قائلة : إحذر يا أبي فالمهمة صعبة ، وكل رجل لا يكتم السر يموت ...

قال : لقد اخترت الرئيس الآن وأنا ضامنه ، فليعين زبدا رجاله

فقال أذينة : سنكتب الرسالة إلى سابور ونعطيكما إياها ...والآن ، قل لنا يا زباي من هو الرئيس ؟

فتولت زينب الجواب عن أبيها قائلة : إنه شيخ من شيوخ الفرسان الذين خبروا الزمان .

فبرقت عيناى زباي وقال : بل هو فتىً في عنفوان صباه لا يجاوز الثامنة عشرة من العمر ...

فقال اذينة : ابن ثماني عشرة سنة في صفوف الفرسان وانا لا اعرفه ؟!.

— : بل هو من العامة يا مولاي ويعيش في منزلي ..

فقطبت زينب حاجبيها وقالت : من اي بلد هو ؟

— : من حمص . قدم تدمر منذ شهرين . وأقبل علي يسألني الدخول في سلك الفرسان التدمريين ..

فظهرت الدهشة في وجه اذينة وقال لحميه : ان لهذا الغلام سراً فماذا فعلت ؟

— : استمهلته ريثما استاذنك في جعله فارساً ولم افعل بعد ..

— : لماذا ؟

— : لاني كنت ادرس اخلاقه ومناهج حياته .

— : وقد ثبت لك الآن انه يصلح للخدمة ؟..

قال : نعم يا مولاي . فهو سليل الاشراف في حمص ومن اجمل فتيان العرب.

فقال اذينة لزينب : اتوافقين اباك في الرأي ؟

فقالت : لقد وثقت الآن بالفتى كما اثق بأبي .

فالتفت اذينة الى زباي وقال له دون ان يتردد :

اجعل فتاك رئيساً للوفد وسننظر في امره بعد رجوعه .

ثم قام وتبعته زينب الى غرفة اخرى يكتبان فيها الرسالة الى سابور . وهذا

ما كتبته زينب :

الى الملك العظيم سابور بن اردشير ملك الفرس من اذينة القنصل الروماني ورئيس شيوخ تدمر :

— لقد بلغني خبر الحرب الاخيرة التي انتهت بفوزك على جيوش الرومان ووقوع القيصر فالريان أسيراً في يدك . فانا سعيد جداً بهذا الظفر وارجو من الملك العظيم ان يثق بي وان يعتقد اني لست في الباطن من عمال الرومان بل انا عدوهم . فان اراد الملك ان يستوثق من وفائي فليمل شروط معاهدة خاصة بينه وبين تدمر المستقلة وليحتفظ لنفسه بما يشاء من حقوق الملوك الظافرين .. وقد وجهت الى الملك وفداً يحمل رسالتي هذه وبعض الهدايا التي لا تليق به وانا بانتظار جوابه—

ثم عاد الاثنان الى تلك القاعة الخاصة وفي يد زينب ظرف من العاج وضع فيه ذلك الرق .

فتناوله زبدا القائد العام وخرج مع زباي وهما يتشاوران في امر الوفد .

الوفد بين يدي سابور

عندما اقبلت رسل اذينة الى معسكر الفرس المخيم على الفرات . تصدى لهم حراس الجيش يمنعونهم من الدخول الى المعسكر قبل الاستئذان .

وكان سابور يستعد للزحف الى الاقاليم التي ذكرنا وهو في وليمة مع اصحابه واركان حربه .

فقال له قائد الحرس : ان وفداً من عرب تدمر يقود النوق عليها الهدايا للملك ..

فبغت سابور وقال : من يبعث الينا الهدايا من تدمر وهي من اعمال الرومان ؟

قال : سمعتهم يقولون انهم رسل اذينة امير المدينة .

فكشر الفارسي عن اسنانه قائلاً : متى اصبح اذينة البدوي يراسل الملوك ! كم هو عدد الرجال ايها القائد ؟

— : خمسة يا مولاي .

قال : لقد اذنا لهم في دخول المعسكر وسنقابلهم بعد الغداء .

ثم التفت الى قواده وقال : ما رأيكم بوفد تدمر ؟

فقال احدهم : لقد دبّ الذعر في قلوب الرومان فبعثوا يسترضون مولانا الملك

وقال آخر : انهم يخافونك يا مولاي على ملكهم .

فهز سابور رأسه مستهزئاً بآرائهم ثم قال :

أليس بين رجال الوفد واحد روماني ؟

فأجابه القائد قائلاً كلهم عرب يا مولاي .

قال : اذن فالرومان يلعبون من وراء الستار .. أتعرفون ما هي مهمة هذا الوفد؟

فقالوا جميعهم : لا .

فقبض بيده اليسرى على لحيته وقال : انها حيلة يتذرع بها الاوغاد ليتعرفوا ما عندنا ويطلعوا على احوال امبراطورهم الاسير .. ان سابور بن اردشير يعرف كيف يقابل الجواسيس .. كلوا واشربوا الآن ...

فعلا صياح القوم وعربدتهم وهم يشربون حتى كان العصر .

فلبس سابور تاجه . وحمل صولجانه . واستوى في ذلك الفسطاط الكبير على عرش من الابنوس محلى بالذهب . كان ملوك الفرس يحملونه في حروبهم . ثم جلس القواد والمرازبة في مقاعدهم عن الجانبين وهم يتوقعون ان يروا ويسمعوا شيئاً جديداً في مجلس الملك الذي ساده السكون .

فرفع سابور يده يشير الى حراسه بان يدخلوا رجال الوفد .

فعمد الحراس الى الرسل الخمسة فجردوهم من السلاح ومشوا امامهم الى الفسطاط الملوكي ...

وكان سابور ، وقحاً قاسياً ، ومستبداً عابثاً . له اخلاق الفاتحين الجزارين لا اخلاق الملوك .

وكان رجال الوفد يلبسون ثياب البدو المقيمين في الصحراء .

فلما مثلوا بين يدي سابور اخذ يحدق الى وجوههم ويتفرس في اثوابهم التي تغطي ارجلهم . وفي مناطق الشعر التي تحيط بخصورهم وهو يحاول ان يخفي الابتسامة التي ظهرت على شفتيه .. ثم قال :

من يجيب الملك اذا سالكم عن شيء ؟
فانبرى فتى وهو اصغرهم سناً وقال له :
سل ما تشاء ايها الملك :
قال : من ارسلكم الينا ؟
قال : اذينة امير تدمر وسيد قبائل العرب .
فضحك وقال : اذينة الذي نشأ في البادية يصيد الظباء ويرعى النوق ؟!
فقال : نعم ايها الملك ، اذينة الذي نشأ في البادية يصيد الرجال كما كان يصيد الظباء ...
فعبس وجه سابور وقال : الرجال العراة الابدان الطوال الأظفار .
قال : بل الرجال الطوال السيوف وانت تعرفهم ايها الملك ..
فاحمرت عيون القواد والحراس . اما سابور فأغضى على القذى قائلاً : من اي بلد انت ؟
— : من حمص .
فقال هازئاً : ان اذينة يجعل غلمان حمص على رأس وفوده ..
— : ان اذينة لا يعرف من انا ايها الملك .
فضحك الملك ملء شدقيه وقال : وكيف ارسلك ؟
— : امرني قائد الفرسان بالقدوم ففعلت ..
قال : احسنت واحسن قائد الفرسان الاختيار .. قل لنا الآن ما اسمك وماذا تحمل من الهدايا .
قال : اسمي معن. واما الهدايا فصدق ايها الملك اني لا اعرف ماذا تحمل النوق ..
فقال رفيق له : تحمل اللبان وعود الند والحرير الصيني والذهب .
فقال الملك للغلام : ان العرب ينتمون الى قبائل فممن انت ؟
— : من بني حمدان .
— : وكيف ترأس وفداً لا تعرف ما هي هداياه ؟؟
قال : اني جندي قبل كل شيء ايها الملك . وقد امرني القائد بأن احمل اليك

هدايا اذينة فلم اهتم الا الطاعة . ولا فرق عندي بين ان تكون هذه الهدايا ذهباً او تراباً ...

فأعاد الملك نظره الى ثيابه وقال :

اهذا هو لباس الجنود في تدمر ؟

قال لا بل هو لباس البدو تنكرنا به .

— : اذن فأميركم يخاف ان يسلب البدو وفوده ..

— : ان اذينة لا يخاف شيئاً ولكن المهمة سرية وقد خرجنا من المدينة كما يخرج التجار كي لا يشعر بنا الرومان .

فملأت ضحكة سابور ذلك الفسطاط الرحب وقال :

انك تحسن تمثيل الدور الذي عهد اليك فيه..الا تحمل الينا رسالة من مولاك ؟

فاخرج الفتى من ثيابه ذلك الظرف العاجي ومشى بضع خطوات يريد ان يناوله اياه .

فتصدى له احد القواد واخذه منه ثم تراجع الى الوراء .

فقال له سابور : اقرأ ايها القائد .

فنشر الرق وقرأ ما فيه . وجبين سابور يسود وشفتاه تضطربان .

واتجهت عيون القواد الى الملك ينتظرون رأيه فيما سمع وقد حبسوا انفاسهم. فأخذ سابور يتمتم قائلاً : سعيد جداً ..! عدو الرومان !.. معاهدة منفردة ، انها الفاظ خلابة يريد ان يخدعنا بها ذلك البدوي ..

وكأنه اراد ان يقرأ ما في صدر الفتى من اسرار . فأومأ اليه بان يتوسط الفسطاط ثم قال :

وماذا قال لك مولاك عن الامبراطور ؟

فرفع الفتى رأسه ولم يجب .

فقال سابور : اراك تتردد في الجواب يا معن ..

قال : ما ترددت الا لأني لم افهم ..

قال : الا تريد يا رئيس الوفد ان ترى القيصر الاسير ؟.

ففهم معن ما اراده الملك . فقال :

رأيت هذا القيصر في سماء العز تحيط به الجنود بالحراب فلا احب ان اراه الآن يرسف بالقيود .

— : وكيف تنقذونه من الاسر دون ان تروه ؟.

قال : ان للرومان جنوداً اكثر عدداً من نجوم السماء فلينقذوا اسيرهم . اما نحن فليس لنا في ذلك شأن .

فلم يصدق سابور ذلك القول . بل نهض عن سريره . واشار بالصولجان الى خيمة ضربت بالقرب من الفسطاط . قائلاً للحراس القائمين بالباب :

احضروا صاحب العظمة امبراطور الرومان ...

ثم التفت الى رجال الوفد وقال : ان عامل تدمر الذي يعيش بمال روما لا يستطيع ان يخدع سابور بن اردشير .. ادخلوا ايها الحراس .

فدخلوا الى الفسطاط وهم يجرون الاسير جراً حتى صاروا امام سابور فافلتوا اسيرهم فهوى الى الارض.ولم يسمع الناس غير صوت وقوع الحديد على الحديد..

ذلك لان سلاسل الحديد كانت تطوق عنق فالريان . ويديه ورجليه . وذلك الامبراطور العظيم لم يكن يستطيع لشدة الضعف ان يثبت قائماً على قدميه ..

اجل . ان فالريان سليل قياصرة الرومان . الذين مدوا رواق ملكهم فوق الشرق والغرب . كان في تلك الساعة طريحاً كالشلو على قدمي سابور . أصفر الوجه . غائر العينين . آثار السوط على ظهره وفخذيه والجروح المستطيلة في كل عضو من اعضائه. ولا يستر جسمه الهاوي غير قميص هو الطمر البالي .

فوضع سابور رجله على جبين القيصر وهو يقول :

هذا هو مولى اذينة وزعيم الرومان فخلصوه ..

ثم اخذ يخاطب الاسير قائلاً : هذه نتيجة الغرور ايها القيصر لقد اردت ان تسلبنا بلادنا وتاجنا فخانك الحظ.. فقل لنا الآن . كيف رأيت بلاد الفرس وتاجهم وما رأيك في هذا المقام الذي انت فيه ؟.. انظر الى الحراس يقومون على حراستك في النهار وفي ظلام الليل .. وانظر الى القواد والامراء يمدون ايديهم بتحية القيصر .. بل انظر الى سابور الذي اردت ان تعلق جثته على ابواب دمشق . كيف ينحني

امام عظمتك الملوكية ليرفع اليك اجلاله . ويظهر لك عبوديته واخلاصه .. قم ايها القيصر . قم فاركب جوادك الذي يحجبه الذهب .. وليرفع الجنود النسر الروماني فوق رأسك .. وليمش الجيش امامك الى تدمر فان اذينة البدوي بانتظارك ..

ثم قال للفتى : هذا هو قيصر الروم يا معن فخبر اذينة بما رأيت .

فسمع الناس في ذلك الحين صوتاً ضعيفاً مضطرباً يقول لسابور :

لا تعذب اسيرك ايها الظالم ولا تهزأ بالملوك ..

وكان المتكلم فالريان نفسه . كأن صوته صاعد من الاعماق ..

فبان الغضب في وجه سابور وقال له :

اتتهمنا بالظلم ايها الروماني وانتم الذين تقذفون بالبشر الى بحور من الدماء ؟!

الا تعلقون ايها القيصر اسرى الحرب على الاخشاب ؟ الا تجعلونهم طعاماً للوحوش . في ملاعب روما وانطاكية . وبيروت ودمشق ؟؟.. الستم انتم الذين اخترعتم المظالم. فعذبتم بالنار . وقطعتم الاعضاء . وربطتم باذناب الخيل الابرياء من الناس ؟!..

فأن للأسير انيناً مزعجاً وتساقطت دموعه على لحيته المسترسلة التي طالت كثيراً كما طالت اظافيره وشعر رأسه .

وكان معن والرجال الذين معه ينظرون الى القيصر المقيد وقد استيقظت في صدورهم عواطف النبالة والمروءة ولكن ماذا يفعلون وهم خمسة . وجيش الفرس يعد بالالوف .. وأي غرض لهم من انقاذ القيصر . والقائدان زبدا وزباي . لم يأمروهم بشيء من هذا ؟ ومعن لا يحب الروم ..

وبينما هم متحيرون في موقفهم . رفس سابور اسيره في صدره . رفسةً قرقعت لها سلاسل الحديد . وقال لحراسه : خذوا الامبراطور الى سجنه واضربوه مائة سوط ..

ثم اومأ الى القوم بان يتبعوه . ومشى امامهم لا يلتفت الى ورائه حتى وصل الى ضفة الفرات .

فقال لقائد الحرس : اين هدايا اذينة التي تحملها النوق ؟

فأجابه قائلاً : انها وراء الخيام مع عبيد الملك .

فدبّ الذعر في قلوب رجال الوفد وهم يحسبون ان الفارسي سيقذف بهم الى الاعماق

واذا بالعبيد تقود النوق . فقال سابور :

انزلوا الاحمال .. فانزلت بسرعة البرق . فقال :

اطرحوها في الفرات دون ان تتبينوا ما فيها ..

فطرحت الهدايا وغيبتها المياه .

ثم تناول الرق من يد القائد ورماه قائلاً :

انها رسالة جديرة بان تدوسها الأقدام ..

ثم وجه حديثه الى معن قال : هذا جواب سابور الى اذينةتنقله كما رأيت وسمعت . ولولا حرمة الملك . لارسلناكم الى تدمر لا يستر اجسادكم شيء . وقولوا لاذينة : أننا ماضون في امر الحرب لا نرجع الى المدائن حتى نحطم دولة الروم . والويل له اذا تعرض لنا فان سيفنا اطول مما يظن ..

فهم الفتى بان يجيبه . فأشار عليه بأن يسكت قائلاً : اذا لفظت كلمة واحدة قذفنا بك وبرفاقك الى الفرات .. اذهبوا الساعة فاذا طلع الصباح وانتم في المعسكر جعلناكم ندماء للامبراطور ..

وكان السكون يمتد فوق ضفة النهر . فلم يكن يسمع غير هدير المياه ؛ وصوت الملك الغاضب يدوي في الفضاء ..

اما المرازبة والقواد فكانوا كالتماثيل لا يتحركون ..

ولكن . كيف يجتاز الوفد الصحراء وقد اخذ الفرس سلاحه ؟!

فعمد الفتى الى الدهاء . فأخذ يشد رحل الناقة وهو يدور حولها ويتلفت الى الجانبين كأنه يفتش عن شيء ..

فضاق صدر الملك . فقال له :

ماذا تصنع ايها اللعين ؟

قال افتش في الرحل فلا ارى القوس والكنانة والسيف ..

فقال : لا حاجة لكم بكل هذا فهيبة الروم تنشر ظلها فوق البادية .. ثم انثنى راجعاً الى الفسطاط والحراس والقواد يمشون امامه وخلفه . فهمس احد الرفاق في اذن معن قائلاً : لا اصدق اننا نخرج من معسكر الفرس احياء .

فقال : لو اراد سابور ان يقتلنا لفعل . فاتبعوني ولا تركبوا حتى اركب . ومشى لرفاق الخمسة وهم يتلفتون الى الوراء حتى ابتعدوا بضع مراحل عن الجيش. فقال معن :
نمكث الليلة في هذا الموضع ونتناوب على الحراسة .
وهكذا فعلوا . حتى بزغ الفجر فعادوا قاصدين تدمر وصدورهم تغلي غضباً وحقداً على الفرس

العاشقان

بنو حمدان . قبيلة قديمة كثيراً ما ورد ذكرها في تواريخ المشرق وهي من القبائل الكبرى التي كان لها شأنها في ذلك الحين . يدلك على هذا . وجود اسمها محفوراً على جدار هيكل الشمس. مع قبائل اخرى لها مقامها في تدمر . كبني ميثاء ومتبول ، وبني حنفي ، وبني رحلة ، وبني هلة ، وغيرها من اسماء الاعلام .

والحمدانيون كثيرون . فريق منهم يقيم في حمص . وفريق آخر في تدمر . اما الباقون فمنتشرون في البادية . على ذلك الخط الممتد بين حمص وتدمر ودمشق .

ومعظمهم اهل تجارة. ومتى كانوا تجاراً كانوا ابطالاً لاضطرار التجار الى اجتياز الصحراء. وحمل صنوف البضائع من بلد الى آخر بالرغم من كثرة الاخطار كما تقدم .

ومعن رئيس الوفد التدمري . حمداني كان ابوه سيد عشيرته في حمص وزعيماً من اولئك الزعماء الذين لهم منزلتهم بين العربان .

فلما مات . خلفه في الزعامة. واستأثر بما تركه له من نفوذ واسع ومال كثير. والغني الوارث متى كان في سن معن . يرى الدنيا كلها آمالاً ومنى . ويكاد يحسبها حلماً ذهبياً من احلام الشباب .

وكان جميل الوجه جذاب الملامح . يدلك جبينه الزاهي على نبالة خلقه ! وشفتاه المنفرجتان على طهارة الوجدان .

اولع وهو صغير بركوب الخيل والرماية . فاصبح وهو في الثامنة عشرة نابغة في الاثنتين . ولم يكن يطيب له . كلما قدم تدمر . الا ان ينظر الى الفرسان التدمريين . بثيابهم البراقة . وخوذهم اللامعة . يلعبون على ظهور الجياد في الميادين .

وبنو حمدان . في حمص وفي البادية . يحترمون معناً ويحبونه . ليس لانه زعيم العشيرة بعد ابيه. بل لذلك الجود والخلق العالي اللذين ينطبق عليهما صدره. فاذا مشى معن. مشت خلفه فتيان قومه كأنهم حراسه. لا يعرفون الى اين يذهبون . اذا لم يقل لهم :

ولصغر سنه . لم يكن قد رأى مواكب القياصرة الذين يمرون بسوريا . من حين الى حين . فكان كثير الشوق الى رؤية هذه المواكب الخلابة التي يصف له خلابتها شيوخ العشيرة .

ففي اواخر السنة ٢٥٩ . اقبل عليه ابناء قومه يقولون له : ان القيصر الرومي فالريان . زاحف الى الرها لحرب سابور وسيمر بتدمر .

فنهض حالاً واعد عدة السفر الى المدينة العظمى . وهو يكاد يطير شوقاً الى رؤية مواكب الروم .

ولم يترك في حمص اماً او اختاً او اخاً . فليس لمعن اخوة . وامه ماتت قبل ان يعرف معنى هذا الوجود . وكان رفاقه عشرين فتى هو اصغرهم . وكلهم رجال صيد ولهو وعشاق مغامرات .

وجميعهم يركبون الخيل . اما النوق التي تحمل الزاد فقد تقدمت موكبهم مع العبيد.

فلما وصلوا الى تدمر . كان الامبراطور لا يزال في دمشق . والمدينة تغص بالجنود ورجال العشائر . من عربان البادية وسكان الأقاليم. جاءوا جميعهم يشهدون موكب القيصر الزاحف الى الرها . ويشتركون في استقباله على عاداتهم في استقبال الامراء والقواد الغرباء .

وكان ميدان المدينة الاكبر . الذي يعرض فيه القواد صفوف الجنود . والذي يعدونه لاستقبال القياصرة والولاة . واقعاً في طرف تدمر الى جهة الشرق وحوله من الجانبين. الجنوبي والشمالي . تقوم قصور العظماء والقواد .

وكان معن . يرى فرسان تدمر يروحون ويجيئون . فتهيج تلك الرغبة في صدره. ويتمنى لو يصير فارساً . ولو خسر نصف ما يملك .

وطال انتظار القوم والقيصر لم يترك دمشق . الا بعد عشرة ايام كانت في نظر معن اطول من الدهر .

فلما قارب تدمر . وقف الجند الوطني صفين متقابلين . من مدخل المدينة حتى الميدان الاكبر . وخرجت حامية الروم الى ظاهر المدينة . لتؤلف على جانبي تلك الساحة الواسعة التي ستدوسها قدما القيصر . نصف دائرة من الجنود الفرسان. يمدون ايديهم بالسيوف الى الامام . ويحنون الرؤوس اجلالاً لذلك القيصر العظيم الذي سيخترق الصفوف .

وبباب المدينة . امام السور . وقف بلباس الروم . اعضاء المجلس الوطني تلمع على اكتافهم جدائل الذهب . ووراءهم رجال الديوان اصحاب السلطة الاجرائية . اي الحكام . يتبعهم الوكلاء . اي القضاة . وغيرهم من العمال والموظفين.

وعلى رأس الجيش الوطني . كان القائدان زبدا وزباي على فرسيهما . وقد تلاصق طرفا سيفيهما حتى اذا وصل القيصر انفرج السيفان .

اما القنصل الروماني .. اذينة بن اذينة . فكان في قصره مع ولده هيروديس. ينتظر ان وصول فالريان ليخرجا لاستقباله .

وكان معن راكباً جواده في اخر الميدان . تحت شرفة من شرفات قصر زباي . والد زينب . وهو يرى امامه في الجانب الآخر . قصراً كبيراً هو قصر زبدا القائد العام . وخلف معن . فتيان حمدان على افراسهم . والى جانبه شيخ من شيوخ عشيرته المقيمين في تدمر يصف له كل ما تقع عليه العين من مشاهد .

ثم ماج ذلك الجيش واهتزت صفوفه . وصاح الرجال من اعالي الابراج العالين : لقد اطلت طلائع الجيش .

ومعنى ذلك ان الامبراطور قد اقبل ..

فخرج اذينة وهيروديس من القصر لا يحرسهما حارس ولا يتقدمهما جندي ومشيا بين الصفوف الى باب السور . حيث وقفا تحت العلم التدمري . الذي يخفق في جانبه النسر الروماني . وامامهما عجلة مرصعة بالجواهر والذهب . هي عربة القنصل التي تقل القيصر الى الداخل ..

وفي تلك الساعة . ظهرت طليعة الجيش الزاحف لمحاربة الفرس وفي المقدمة ذلك القائد الخائن الذي اشترته رسل سابور فأضل الجيش في جوار الرها ودفع سيده الى

الاسر كما قرأت فيما مر .

فاومأ قائد الحامية الى مكرينس الخائن ليسير شرقاً الى ظاهر المدينة حيث ضربت هناك خيام الجنود . ثم اقبلت فرقة تحمل الحراب فاتجهت الى الجانب الغربي .وتلتها فرقةاخرىتحمل السيوف والدرق ولا يبين من وجوه رجالها الا العيون..

وبعد ذلك . تلألأت في نور الشمس . تلك الخوذ الصفراء . والدروع البراقة التي يلبسها حراس القيصر .ورجالها جميعهم فتيان اكبرهم سناً لا يجاوز الثلاثين. يركبون الافراس البيض .

ووراءهمظهر القيصر .علىجواد ادهم كالليليحيط بهاركانحربه وعظماء البلاط ..

فهتف له الجند ثلاث مرات . هتافاً عالياً طبق الفضاء . وارتفعت الايدي ولمعت السيوف والحراب تؤدي التحية لذلك الاله الذي شرف تدمر .. وكان قائد الحامية . اول من مثل بين يدي جلالة الامبراطور . ثم تقدم اذينة وهيروديس ورجالالحكومة فصافحهم وهو يبتسم . والقائد يسمي له الرجال باسمائها . ويذكر وظائفهم في الحكومة .

وبعد ان تم التعارف . جلس القيصر في العجلة المذهبة – وعن شماله اذينة القنصل – وجرت بهما تحتالاعلام واقواس النصر الى الميدان الاكبر . حيث قاما يعرضان تلك الجيوش الجرارة . المختلفة الطباع واللغات والعادات .

اما زينب فلم يرَ الناس لها وجهاً . انها كانت ارفع من ان تقف على شرفة القصر لترى موكب الامبراطور .. على ان نساء المدينة بالاجمال .كن يملأنسطوح المنازل وشرفات القصور . حتى ان الرواق الاعظم كان غاصاً بطوائفهن .

وعلىشرفة قصر زبدا القائد القائم على كتف الميدان.جلست فتاة حسناء ، لا تمثل الجمالريشةمصور فنان. كما يمثلهوجهتلكالفتاةالاسمر . وعيناها السوداوانالساحرتان. وبين يديها . وعاء من الذهب فيه الازاهير . تنثرها على عجلة القيصر واذينة اجلالاً لمقام الاثنين .

فلما عُرضت الصفوف على نظر القيصر . غادر الميدان الى القصر العظيم الذي اعدته له تدمر . وتبعه رجال الحكم من الوطنيين والرومان . فخلت

الساحة للفرسان التدمريين يلعبون على ظهور الخيل . ويركضون افراسهم في ذلك المجال الرحب . على عادتهم كلما اجتمعوا فيه وقد علا الصياح واتجهت عيون الناس الى اللاعبين . الا معن بن حمدان . فقد ذهل عن كل ما حوله . وارسل نظره الشرس في تلك الحسناء الفتانة التي كانت تنثر الازاهير .

ثم قال لرفيقه الشيخ الحمداني : أتعرف هذه الفتاة يا وهم ؟

قال : نعم ومن لا يعرف كهيلة بنت زبدا ؟ ألم ترَ القائد العام يتقدم — على فرسه — عجلة القيصر ؟ انه ابوها .

— : ولماذا كانت تنثر الازهار ؟

— : لانها بنت القائد الاكبر وتلك ارادة ابيها في تكريم القيصر انها في تدمر . ملكة الجمال بعد زينب . وقد سمعت ان — اسكندر — ابن قائد الحامية يحبها وقد سأل اباه ان يخطبها له ..

فاصفر وجه معن . اما الشيخ فاستطرد قائلاً :

اراك تعشق كهيلة وانت لا تعرفها قبل الان . اتراها ارسلت اليك سهام عينيها وانت في حمص ؟!..

فتنهد الفتى قائلاً : لقد كنت خلياً في حمص اما الآن فقد اصابتني هذه السهام ..

ثم قال وقد بان الغرام في عينيه : وماذا فعل قائد الحامية ؟..

فابتسم الشيخ وقال : لا اعلم اذا كانت الخطبة قد تمت ..

وكان الفرسان يلعبون وقد نسي معن ثيابهم المزركشة . وحرابهم اللامعة كما نسي اذينة والقيصر وتلك العجلة الوهاجة التي رآها عليها .

واذا بفارس على مهر اشهب يقول للفرسان بلغة الروم : اتبعوني الى الغدير ..

فقال معن للشيخ : ماذا يقول هذا الفتى ؟

قال : انه يدعو الفرسان الى ذلك الغدير الذي يجري في الطرف الآخر .

ثم همس في اذنه قائلاً : هذا هو صاحبنا اسكندر بن قائد الحامية.. فبغت معن . ورفع نظره فجأة الى الشرفة فرأى كهيلة تحدق اليه بعينيها الفاترتين وقد

حولت نظرها عن الرومي ..

وكأن قضيب الساحر لامس جسمه . فتصاعد الدم الى وجهه . وتمشت قشعريرة الحب في جسده . وهو لا يعرف من قبل ما هو الغرام .. ولعله قرأ في تلك العينين اللتين تنظران اليه . تلك العاطفة التي استيقظت في صدر كهيلة . فارخى عنان جواده . وحبس انفاسه . مستلذاً ذلك الشعور الذي اضطرب له القلب .

اجل . كانت كهيلة قد استسلمت لتلك العاطفة الجديدة التي يسمونها حباً يدلك على هذا . ذلك الشعاع الملتهب تبعثه عيناها الى الفتى الحمداني الزاهي الجبين. والى جدائل شعره المرسلة الى كتفيه .

ان نظرةً واحدةً كانت كافية ليتعارف القلبان . قلب كهيلة وقلب معن . ولولا عزة نفسيهما . لتخاطبا باللسان كما تخاطبا بلغة العيون .

وقد غفل عنهما اللاعبون .. الافراس تركض في ميدان تدمر . والعاشقان الجديدان يثبت الواحد منهما نظره في عينيّ الآخر . لا يشعران باهتزاز الارض تحت حوافر الخيل ..

الا فتىً كان ينظر اليهما بعينين كالجمر . هو اسكندر الرومي العاشق الآخر . الذي جاء معن من مدينة حمص . يخالس كهيلة — امام عينيه — نظرات الهيام والشوق .

وكادت الغيرة تخرجه عن حده . فارتجفت يداه واصفرت شفتاه .

فقال الشيخ الحمداني لمعن : احذر هذا الرومي يا مولاي .

لكن معناً كان سابحاً في فضاء التصور والخيال فلم يسمع ما قيل ...

فأعاد الشيخ قوله . وهو يخشى ان يفترس الرومي معناً بنظراته ..

فالتفت معن الى اسكندر والتقى النظران ..

وعندئذ حدث ما لم يكن بالحسبان . فان الرومي همز جواده حتى قارب معناً وقال بلهجة الآمر :

من انت يا فتى ؟

فترجم له الشيخ . فابتسم معن ابتسام الساخر وقال :

اني عربيّ كما ترى ..

قال : اتحسن ركوب الخيل ؟

قال : اتسأل العربي مثل هذا السؤال وانت تقيم بين العرب ؟ ! ان العربي يتعلم الركوب وهو على ثدي امه ..

قال : ولكن اراك تحسن النظر الى الحسان ..

فاهتز الفتى على ظهر جواده ووضع يده على قبضة السيف .

لكنه لم يجب . فقال الرومي : لماذا قدمت تدمر ؟

فقال : جئت لاراك واشترك باستقبال مولاك ..

قال : اتستخف بي ؟! ..

قال : نعم . تسألني ماذا جئت اصنع بتدمر . وتدمر مقرّ عشيرتي وهي لي قبل ان تكون لك ؟! ..

فقال وهو يهزّ سوطه : لا اعرف ماذا تقول بل آمرك بان تمكث فيها ساعة ثم تعود من حيث جئت .

فرفع الفتى صوته ضاحكاً وقال : نحن العرب لا نعرف لنا آمراً الا اذينة القنصل: فليأمرني بالذهاب اذهب . والا فانا باق في تدمر ما طابت الاقامة لي .

ثم وجه نظرة سريعة الى شرفة القصر فلم يرَ احداً ..

فاسودت الدنيا في عينيه وقال للشيخ : واخيراً ماذا يريد مني هذا العلج ؟

فأجابه بالعربية قائلاً : ان الغيرة تملأ صدره .

ثم ترجم قوله للرومي . فقال :

اريد ان تغادر هذا الميدان الآن .

قال : وتربة ابي ما نقلت من هنا قدماً الا عندما اشاء ..

قال : انا ابن قائد الحامية ..

فقال : اما انا فابن نفسي فكن انت ابن من شئت ..

فتناول الرومي حربته وهمّ بان يطعنه بها .

ولو كان السكون سائداً في ذلك الحين . لسمع الاثنان صيحة ذعر خرجت من

وراء نافذة القصر ..

اما الحربة فوقعت على الأرض . بضربة سيف عاجله بها معن . وجرّد رفاقه الحمدانيون سيوفهم ..

واذا بالخيل تحيط بهما وقد وقف الفرسان بين الاثنين .

فقال احدهم لمعن : ألا تعلم من ضربت ؟

قال : بلى . ولو جاءني اذينة نفسه يحاول ان يطردني من تدمر كما فعل هذا العلج لما صبرت عليه اكثر مما صبرت الان . ايصبح العربي غريباً في تدمر والرومي سيد ونحن نرى ؟! اني لا اطيق هذا وسأقص القصة على اذينة وهو في مجلس القيصر ..

وبينما الفرسان يتحدثون . ابصروا قائدهم زباي قادماً الى القصر .

فلما رآهم مجتمعين استغرب هذا الاجتماع . فقال :

ماذا تفعلون ايها الفرسان ؟

فأجابه احدهم وهو عربي قائلاً : كادت تنشب المعركة بين العرب والروم يا مولاي ..

فقطب حاجبيه وقال : من يلعب بالنار ؟ ..

فانبرى الشيخ الحمداني الذي يعرف زباي وقال له :

لقد كاد ابن قائد الحامية يقتل معناً .

فقال : من هو معن هذا ؟

فأشار الشيخ الى معن وروى لزباي الرواية كما جرت ..

لكنه لم يذكر له كهيلة ..

فكره القائد ان يعتدي ابن قائد الحامية على عربي . فنظر الى اسكندر نظرة عتاب وقال :

أتفعل هذا يوم قدوم القيصر ؟

فلوى اسكندر عنق مهره . وانصرف دون ان يفوه بكلمة ..

لكن النار كانت تتأجج في صدره .

فقال زباي للشيخ : الى اي العشائر ينتسب الفتى ؟

قال : انه سيد عشيرتنا يا مولاي وقد قدم تدمر من عشرة ايام .

قال : زعيم عشيرة حمدان ؟.

ـ : نعم يا مولاي .

فانتفض القائد وقال : اذن هو ابن زبيد الحمداني .

فحنى الشيخ رأسه يقول نعم .

فاومأ زباي عندئذ الى الفرسان بالانصراف ومد يده الى معن قائلاً : ادخل فانت ضيفي .

فقفز الفتى الى الأرض ورد سيفه الى غمده. وصافح ذلك القائد وهو يقول : اني لا اعرفك يا مولاي .

قال : اما انا فقد عرفتك .

ثم نادى احد الغلمان . وامره بأن يأخذ جواد معن الى اصطبل القصر . ودعا معناً الى الدخول .

فقال معن : اعتذر لمولاي فان معي رفاقاً يبلغون العشرين .

قال : ينتظرونك مع هذا الشيخ في منازل الغرباء لان لي معك حديثاً ..

فقال معن لرفاقه : انتظروني ريثما اعود .

ثم دخل مع زباي .

وكان القصر فخيماً وكبيراً مثل معظم قصور تدمر الباقية اثارها الى اليوم فلما اصبحا في قاعة الجلوس . قال القائد :

اذا سألتك عن شيء فاعلم اني صديق لك وقد عرفت اباك في دمشق .

قال : اذن فأبي لم يمت يا مولاي .

قال احسنت فسأحبك كما كان يحبك ابوك . والان قل لي لماذا قدمت تدمر

ـ : لأرى هذا القيصر الذي اهتزت لقدومه الاقاليم .

ـ : اما عرفت تدمر قبل الآن ؟

ـ : قدمتها غير مرة ولكن لم ارَ فيها مواكب الروم .

— : وكيف رأيت القيصر يا بني ؟

قال : لو رأيته وحده لاعجبني ذلك الجلال الذي يحيط به .ولكن رأيت اذينة الى جانبه فكان القيصر — كلما نظرت الى الاثنين يصغر في عيني واذينة يعظم حتى كدت احسب ان هذا القيصر ليس له وجود .

— : اذن انت لا تحب الروم يا معن .

— : احبهم اذا كانوا اضيافاً ومن العامة ولا احبهم حكاماً .

فضحك زباي وقال : ان روح ابيك تتغلل في صدرك يا بني . لقد كان يقول لاصحابه . انه يبغض انصاف الالهة وهو يعني الولاة والقواد من الرومان وانت اي شأن لك مع اسكندر ؟

— : لا شأن لي به يا مولاي ولا اعرفه . ولكنه حاول ان يطردني من الميدان كما يطرد كلبه . فعرفت ان ابغضه ..

فاستوى القائد في مجلسه وقال : لاجل هذا دعوتك الى القصر يا معن. ان هذا الفتى الرومي شر الفتيان لو لم يكن ابوه قائداً للحامية لصلبه اذينة على باب الهيكل. ولكن لا نريد ان تحدث حرب بيننا وبين الروم من اجل فتى غر يطعن في كرامات الناس . فاحذره يا بني ولا تطل الاقامة في تدمر ..

فاستغرب الفتى كلام القائد وقال : اتريد يا مولاي ان يفر ابن حمدان كما يفر الذليل؟!

قال : لا اخشى ان يقتلك هذا الرومي بل اخشى ان تقتله ..

فرفع الفتى رأسه وقال : اني عرفتك قبل الان يا مولاي . فاسمح لي بان اتحدث بجلاء ؟

— : قل ما تشاء .

قال : اعترف لك بأني لم افهم شيئاً من كل ما قلت . اتخاف على هذا الرومي ثم تقول انك تخافني عليه ؟

قال : نعم يا بني. انك اذا قتلته اساء قائد الحامية ظنه بزبدا القائد . وينتهي الأمر بان يسيء القيصر ظنه ايضاً فتستعر نار الحرب . ونحن يا بني . احوج الى السلام في هذه الايام منا الى القتال .

: واذا قتلني اسكندر ؟.

: لو أردت ان يقتلك لما سألتك ان تعجل في الرجوع الى حمص ..

: ومع ذلك فانا لم افهم يا مولاي .

فعمد زباي الى التصريح . قال : ان الفتى احب كهيلة بنت زبدا حباً يكاد يكون عبادة ..

فخفق قلب معن لانه سمع حكاية هذا الحب مرتين . لكنه لم يعلم اية علاقة بين هذا الحب والحديث الذي يسمع : فتظاهر بالاصغاء وهو يضطرب في داخله. واستطرد زباي قائلاً :

وكان يظن ان الفتاة تحبه ولا تلبث حتى تزف اليه ..

غير ان كهيلة قابلت حبه بالجفاء . ورفضت ان تصير زوجةلفتى له امراسة النمر .

: اذن فاسكندر قد باح بحبه ؟

: نعم باح به لاركان حرب الجيش ثم ارسل اباه يخطب له كهيلة فرفضت لما قلت . فثار ثائر القائد . وزاد في غضبه ان حديثاً شاع في المدينة معناه . ان اشراف التدمريين لا يجعلون فتيان الروم اصهاراً لهم ..

: وبعد ذلك ؟

: تدله الرومي غراماً بعد ذلك . واخذ يقول كلما اجتمع بالفرسان على ضفة الغدير : ان كهيلة لا تتزوج وانا حي ! حتى ان احدهم شهر عليه السيف يريد ان يضربه به لو لم يصل هيروديس بن اذينة في ذلك الحين ..

فبرقت عينا الفتى وقال لزباي : اكاد لا اصدق يا مولاي ان غراً من اغرار الروم يقيم تدمر ويقعدها . ويطعن بالقول في عرض القائد الاكبر ويبقى حياً ! ان الروم في تدمر اذاً هم الهة !..

فابتسم قائد الفرسان قائلاً : كل من يرى بريق عينيك يا معن يظن انك عاشق.. اتعرف كهيلة ؟ .

: لا اعرف في تدمر الا شيوخ العشيرة . واما ما قرأته في عيني فتلك هي

عاطفة مروءة يا مولاي ..

قال : اذن فاعلم ان الروم ليسوا الهة تدمر فحسب بل هم الآن الهةالشرق..
ولقد خبر هيروديس اباه بما رأى فدعا اليه زبدا وقال له : ان شعرة واحدة تسقط من رأس اسكندر تفسد علي امري ..

وقالت له زينب : اصبر ايها القائد على ما ترى وما تسمع فهكذا تقضي السياسة .. ان في هذا القول يا بني برهاناً يثبت لك ان حياة اسكندر هي مقدسة في نظر القنصل وزوجته .. اجل ان اذينة لا يخاف الروم ولا يهتم لغضبهم ، ولكنه لا يريد ان ينسب اليه قتل الرومي ..

فكاد الفتى يفقد صبره تجاه هذه الاحاجي والالغاز .

فقال : أأذا قتل واحد من الروم نسب قتله الى القنصل ؟!

— : لا يا بني ولكن القنصل يريد ان يزوج هيروديس وهو لا يرى خيراً من كهيلة ..

فمرت سحابة سوداء امام عيني معن وتمتم يقول لقد كثر عشاق الفتاة يا مولاي ..

قال : ان هيروديس ليس عاشقاً بل هو رجل سيف وحرب كأبيه . واقدر ان اقول لك انه لا ينظر الى كهيلة نظرة حب . غير انه سيخلف اباه في رياسةالمجلس فعلى ابيه ان يزوجه في ربيع حياته ليكثر نسله .. هكذا يجب ان يفعل الملوك والامراء.. فاذا قتل اسكندر وتزوج هيروديس بنت زبدا قام في اذهان الروم ان القتل كان بسبب هذا الزواج وملأ قائد الحامية روما صياحاًواحتجاجاً. فمن اجل هذا ، أجل من أجل هذا اسألك ان تغادر تدمر الى حين . حتى اذا زحف القيصر الى الرها وسار معه قائد الحامية وولده.رجعت الينا اذا طاب لك الرجوع ..

قال : متى يزحف القيصر يا مولاي ؟

— : بعد ان يستريح بضعة ايام وبعد الجيش المؤونة والزاد .

— : ومن يسافر معه من جيش تدمر ؟

— : لا نعلم الان.فقد يرافقه الجيش الوطني وفريق من الفرسان اما حامية الروم

... من ان تكون في مقدمة القوى الزاحفة الى الرها ..

فاحتار الفتى في موقفه . ايغادر تدمر راجعاً الى بلاده ام يبقى فيها ليرى مرة اخرى تلك الفتاة الفتانةالتي بعثت نظرتها الغرام الى صدره؟؟ وماذا يفعل في تدمر ؟ ايطمع بالوصول الى كهيلة وابن قائد الحامية يهواها كما رأى واذينة نفسه يريد أن يجعلها زوجة لهيروديس ؟. ولكن .. ولكن قلب الفتى الخافق . قلبه الذي ما بلغ به الغرام حتى اوشك ان يموت .. ان ذلك القلب الذي تركه على شرفة قصر زبدا لعبث به كهيلة كما تعبث بتلك الازاهير ، لايشأ أن يترك تدمر .. فقامت الحرب بين نفسه وبين غرامه فانتصر الغرام .. اي ان عاطفة القلب غلبت تلك النفسية التي اظهرها زباي في حديثه . فقال له :

يا مولاي ويا ابي : اني لا اترك تدمر !

ولم يكن زباي ينتظر مثل هذا الجواب . فقال :

الرد سؤالي وانت تدعوني اباك ؟!

قال : لو قام ابي من قبره وطلب الي الفرار من امام خصمي لما فررت .

قال : ان حياتك عزيزة علي يا بني ..

قال : ومعنى ذلك ان مولاي القائد يناقض نفسه . احياتي هي العزيزة عليك يا مولاي ام حياة الرومي ؟

قال : اتعدني بالطاعة فأبوح لك بكل شيءٍ ؟

قال : أفي القضية اسرار يا مولاي ؟

قال نعم واراك لا تسمع لي الا اذا عرفت هذه الاسرار.

قال : اول ما اعدك به اني ابقى في تدمر ولك ان تأمرني فيهابما تشاء .

: اي انك لا تريد الرجوع الى حمص ..

قال : ابداً الا اذا لم يكن رجوعي هرباً كما تريد ان يكون .

فأعجب القائد بشجاعة هذا الفتى ونبالة خلقه . ثم قال :

اتعرف كيف قتل ابوك يا معن ؟

فبغت الفتى وقال : ان ابي لم يقتل يامولاي بل مات في دمشق في منزل نسيب له .

قال : اخطأت يا بني فان الروم قتلوه ..

فقاطعه معن قائلاً : اقسم لي يا مولاي انك صادق ..

فقال : احسنت فانت لاتعرف زباي.. اقسم لك يا ابن زبيد اني صادق فيما اقول

قال : وكيف قتل ابي ؟

قال : كنا في دمشق وكان ابوك صديقاً لي . فلما اراد الانصراف الى حمص دعا لارافقه الى زيارة احد الكهان الذين يخبرون المرء عن ماضيه ومستقبله فذهبت معه وانا لا اؤمن بما يقوله اولئك العرافون الذين يأكلون خبزهم بمثل هذه الاكاذيب فقال له الكاهن اعطني يدك. فمد اليه ابوك يده فجعل يقلبها بين يديه ويتفرس في تلك الخطوط المرسومة في باطن الكف ثم رفع رأسه وقال : اشجاع انت فقال له ابوك : نعم . فقال : انك تموت الليلة .

فهممت بان اصفعه صفعة تخضب لحيته بدم وجهه فمنعني ابوك . فنظرت الى وجهه فاذا هو اسود كالليل واذا عيناه تختلجان . فقلت له : قم نرجع يا زبيد . قال : ما خرجت من هنا حتى يتم عرافته . ثم قرأ الكاهن ثانية خطوط كفه وقال : ان لك يا زبيد ولداً فحنى ابوك رأسه . فقال : انك تموت من يد رجل غريب عن دمشق . وبعد اربع سنوات يكاد ابنك في تدمر يقتل من يد غريب يوم يكون فيها قيصر الروم .. وعندئذ اشار الى خط عريض في اصل ابهامه قائلاً : انظر ان رجلاً تدمرياً يحفظ حياة ولدك . .

اجل يا بني . يخيل الي ان صوت الكاهن يرن الآن في اذني .. فلما خرجنا من المنزل قال لي ابوك : اذا قتلت كما تنبأ العراف فلا تنس ولدي ان قلبي يحدثني بأن الرجل الذي يحفظ حياته هو انت. فضحكت لقوله وودعته على امل ان اراه في تدمر بعد شهرين .

ولكن لم ينقض ذلك الليل حتى عرفت ان سيد بني حمدان قتل غدراً في ملعب السباق في دمشق . وان الذي قتله هو رومي كان ابوك اسبق منه في المجال .

وانا منذ اربع سنوات يا بني . افكر في ذلك العراف وذلك القتيل . حتى قدم القيصر اليوم فذكرت الوصية . ورحت اطوف في المدينة حتى رأيت ما رأيت .

ثم تنهد القائد النبيل قائلاً : وانا اخشى ان تصدق النبوءة فالقيصر لا يزال في المدينة ..

فتساقطت دموع الفتى وقال : اذن فالروم قتلوا ابي .

: نعم ودفن في دمشق وانا اعرف قبره .

فاحس معن بان عاصفة هائلة من الحقد تجيش في صدره ثم قال :

ومع ذلك فانت تدعوني الى الفرار يا مولاي !! ..

قال : لو برز لك اسكندر لما خفته عليك ولكنه غادر اذا قتلك قتلك طعناً من الوراء .

فاطرق الفتى يفكر وهو يمسح دموعه . وفي اي شيء كان يفكر معن ؟ ان صورتين اثنتين كانتا تنطبعان امام عينيه على صفحة الفضاء . صورة ابيه وصورة كهيلة . وان نارين كانتا تتأججان في صدره . نار الانتقام ونار الغرام .

ثم رفع رأسه فقال : وكنت جاداً يا مولاي فيما ذكرته لي عن هيروديس ؟

قال : لا يا بني فرأس اذينة ورأس هيروديس لا يتسعان للتفكير في الزواج وفي الحب . ان اسكندر وحده هو عاشق كهيلة ولا اراها تزف اليه ولو طلبها له القيصر . .

فتنفس معن الصعداء وقال في نفسه : لقد اخطأت ايها القائد فان هناك عاشقين :

ثم قال : لقد صرت مديناً لك بالحياة يا مولاي .

فأجابه قائلاً : ما دام القيصر موجوداً في تدمر فلست مديناً لي بشيء . ان الخطر باق في المدينة ما بقي فيها هذا القيصر . فاذا انصرف منها زال الخوف . هكذا تنبأ ذلك الكاهن الذي سخرت بقوله وصحت نبوءته .

قال : اني وان كنت لا ابالي بهذا فانا لا ارى ان اخالفك في شيء . مرّ بما تشاء الان يا مولاي .

قال : انعود الى البحث في امر الرجوع الى حمص ؟

قال : لا يا مولاي فلنبحث في غيره .

ولولا حديث ذلك القلب الذي فاجأه الهوى لطلق الفتى تدمر الى الابد .

فقال زباي : اذن تمكث في قصري لا تخرج منه حتى ينصرف فالريان الى حرب سابور .

وهذا ما كان يتمناه معن . فان قصر زباي يقابل قصر زبدا لا يفصل بينهما غير الميدان . ولكنه قال :

: أأكون سجيناً في القصر يا مولاي ؟

قال : اجل الا اذا طاب لك ان ترافقني الى الخارج .

— : وبعد ان يزحف الجيش ؟

— : تصبح حراً فتختار الاقامة في تدمر او تؤثر الانصراف .

قال : لقد اخترت احد الامرين الان .

— : ما هو ؟

— : ان ابقى في تدمر يا مولاي وتجعلني بين الفرسان .

فاستحسن القائد قوله لكنه تردد في الجواب .

فقال معن : الا يجوز لي ان امشي تحت لوائك يا مولاي ؟

قال : ليس احب اليّ من هذا يا بني ولكن . .

— : ولكن ماذا ؟

— : ان تدمر بما فيها الحكومة والجيش هي في يد القنصل : لا ينفق درهم ولا يعين جندي الا بأمره .

— : اذن ارجو ان تستشيره .

قال : اما الان فلا اقدر على هذا . إن اذينة لا يترك مجلس القيصر الا في الليل : وهو يشارك اركان الحرب في وضع خطة القتال .

ولم يكن زباي صادقاً في قوله ، فان الامبراطور واركان حربه استقلوا بذلك التدبير لم يأخذوا فيه رأي اذينة . كما ان اذينة لم يرد ان يكون له رأي . كما مر : غير ان زباي اراد ان يبعد الفتى عن رغبته بضعة ايام ريثما يزحف الجيش .

وقد احب معناً حباً صحيحاً كما كان يحب اباه . فزبيد الحمداني وزباي بن السميدع ، كانا في ايام الصبا وايام الرجولة اخوين . وتلك الرواية

التي قصها على معن كانت صحيحة . الا ذلك الجانب الذي يتعلق بهيروديس هذا لم يكن له اصل . وقد اخترعته قريحته في تلك الساعة لانه لم يشأ ان يذكر الفتى قتل ابيه كي لا تثور نفسه . فلما اضطر ذكر له كل شيء واخذ عليه العهد انه يطيعه .

فقال معن : الا استطيع ان اقابل القنصل يا مولاي ؟

قال : ولماذا تريد ان تراه ؟

قال : لأعرض عليه سيفي . .

فأجابه القائد قائلاً : ان القنصل لا يحتاج الى سيفك الان . ولكن سيأتي يوم تصبح فيه من اعز اصحابه ومن اقرب المقربين اليه . وعند ذلك ؟ عند ذلك تضطر الى حمل هذا السيف بدون غمد . . فاصبر على ما تراه الان يا بني ؛ ولا تستغرب سكوت اذينة عن امثال اسكندر فسياسة القنصل وزوجته زينب تقضي عليهما بان لا ينفرا الروم . .

وكأن القائد لم يرد ان يزيد . . فانهمك يجرد سيفه وهو يقول : لقد عاهدتني على الاقامة في هذا القصر وانا واثق بما وعدت ؛

قال : على امل ان لا تطول ايام سجني يا مولاي .

قال : ان وراء هذا السجن مجداً لآل حمدان .

فهم معن بأن يعترف له بذلك الغرام الفجائي الذي ملأ قلبه ، ولكنه لجأ الى الحكمة فرأى ان يدرس احوال الفتاة قبل ان يسترسل في ذلك الغرام .

ثم قام زباي فخرج ، بعد ان اوصى عبيده وغلمانه أن يطيعوا ذلك الفتى النبيل .

وكان معن يقول في نفسه : اذا كنا – انا واسكندر – نعشق كهيلة ولم يكن هناك عاشق ثالث . فكهيلة هي لي وليست للروم .

٦

كهيلة بنت زبدا

لم يكن ذلك الشيخ الحمداني كاذباً في قوله . ان كهيلة كانت اميرة الجمال في ندمر بعد زينب .

هي زهرة من ازهار الربيع . وكوكب وضاح في سماء تدمر .

كانت سمراء مستديرة الوجه . خلابة المحاسن . وكان ابوها زبدا . اعظم قواد تدمر . مثلاً من الامثال في آداب نفسه . والفتاة مطبوعة بطباعه .

وقصر القائد العام . في كل دولة وفي كل زمان . محج لرجال الحكومة واركان الجيش والاعيان . فكان هؤلاء . من الروم والارمن واليهود والعرب يزورون زبدا في قصره . ليستشيروه في امورهم . ويروا فتاة القصر .

اما كهيلة فلم تكن تبطرها الفاظ الثناء والاعجاب تتردد على الافواه . بل كانت الرصانة تبدو على جبينها الزاهي . ويلمع الجلال في عينيها الساحرتين . وليس في تدمر كلها من لا يعرف بنت القائد بل ليس في شباب المدينة ابناء النعمة والعز ، من لا يرغب في ان تكون كهيلة زوجة له .

غير انهم وقفوا جميعهم عند حد الرغبة في ذلك . تهيباً لمقام ابيها من جهة ولترفع الفتاة عن كل مظهر من مظاهر الصبابة وطيش الشباب من جهة أخرى..

اما اسكندر فكان اجرأ من سواه . ليس لانه ذلك الفتى الرابط الجأش الواثق بنفسه . بل لأنه من اولئك الفتيان الذين يملكهم الغرور . فيندفعون وراء كل عاطفة. ويستسلمون للاماني والاحلام .

جسولي كهيلة فأحبها . ثم رآها فازداد حباً . فآخذ يزور قصر زبدا مع ابيه قائد الشامية ، تاركاً في ذلك القصر بعد ان يخرج منه ، اثراًمن اثار خفته وغروره .

وكان محباً للشر . ومن اقرب الناس الى الخصومة . حتى ان اباه كان اضعف من ان يقوم اخلاقه العوجاء .

فأنفت منه كهيلة . وكانت تقول لابيها دائماً : اني لا اطيق ان ارى وجه هذا الرومي ..

لكن الجهل يفعل العجائب . فقد يظن الجاهل انه اذا اومأ بيده الى اسفل اختل نظام الجاذبية وهبطت السماء الى الأرض او هوت الارض الى الاعماق . لم يكن اسكندر ينظر الى ابعد من ظله . كان يرى تدمر مجالاً واسعاً لغروره . واهل تدمر عبيداً لشهواته . وليس في المدينة — على كثرة القواد والعظماء والاشراف — من لا يرغب في رضاه ..

فقال لابيه يوماً : احب بنت زبدا واريد ان اخطبها .

اجل انه كان يقول : — اريد هذا — عند اعتقاده ان ارادته كانت قضاء ..

فأجابه ابوه قائلاً : يجب ان نهتم الان لأمر الحرب فجيوش القيصر الزاحفة في اثرها تكاد تصل الى بيروت ..

قال : وهل تمنعني الحرب من هذا ؟ .

قال : لا ولكن اخشى ان تصرفك الخطبة عن الواجب ..

فأصر الفتى وكان ابوه عبداً لهذا الاصرار ..

اما كهيلة فرفضت . واما الخطبة فلم تتم كما قرأت .

ولكن .. ولكن كهيلة من لحم ودم ولها قلب ..

اجل . ان ذلك القلب لم يخفق بعد للغرام . ولم تستيقظ في صدرها عاطفة حب . لكن يدها التي كانت تنثر الازاهير على القيصر . ارتجفت فجأة عندما وقع نظرها على معن بن حمدان ..

ان الحب لا يعرف نظاماً ولا يتمشى على قاعدة . فقد يدب في القلوب كما يدب النعاس في العيون . او يظهر كما تظهر العاصفة الهوجاء حاملاً وحي الالهة من عالم السماء ..

لقد اعجبها وجه الفتى الهادئ .. وملامحه الجذابة . وشعره الجميل. فأحست ان قلبها ينتفض انتفاضاً . وكل عاطفة في صدرها تنقلب الى غرام .

احبته وهي بعيدة عنه كما احبها وهو بعيد . كأن ذلك الشعور الخفي كان واحداً في الاثنين . حتى نسي الفتى كل ما حوله ونسيت هي كل ما تراه الى حد ان ذلك الميدان الرحب بما كان فيه من عظمة وروعة لم يكن له وجود في نظر العاشقين اللذين فاجأهما الهوى .

ان ساعة واحدة في ميدان تدمر . بين مواكب تروح ومواكب تجيئ . وكتائب الجيش تمر الواحدة خلف الاخرى امام عجلة القيصر . اجل ان ساعة واحدة بين صفوف تموج كالبحر كانت كافية ليرسل الحب فيها اشعته الى ذينك القلبين .

لقد عرف معن اية فتاة هي الجالسة على شرفة القصر ، اما كهيلة فلم تعرف اي فتى هو ذلك العربي الراكب فرسه بين الصفوف . . ومع ذلك فلم يكن في صدرها متسع للتفكير في نسبه . بل كان همها ان تنظر الى وجهه الذي يتدفق منه الجمال.

كانت تراه يحدق اليها فلا تحول نظرها عنه . وبدون تروّ وبدون تفكير كانت تقذف بازاهيرها الى اسفل . فينثرها الهواء على رؤوس العامة . كما يحملها الى عجلة القيصر .

ولولا تلك الرصانة التي نشأت عليها بنت زبدا . لأرسلت ازهارها مع الهواء الى ذلك العربي الذي لا تعرف شيئاً عنه .

فلما همز اسكندر جواده . وقارب معناً . عرفت الفتاة ان الرومي العاشق تكاد تخنقه الغيرة . فطرحت وعاءها الذهبي على الشرفة . ودخلت الى غرفة لها تطل على الميدان . فوقفت وراء النافذة . تنظر الى معن يغضب لكرامته ، والى عشرين فتى وراءه يهوون بأيديهم الى السيوف ..

ولم تكن تسمع ما يقوله الاثنان . لكنها عندما رأت الرومي يهم بأن يطعن معناً احست ان الطعنة ستخترق صدرها . فصاحت صيحة ذعر لم يحملها الهواء الى العاشقين . ثم رأت حربة العاشق الرومي تتدحرج الى الأرض فتنفست الصعداء. ودلها ذلك المشهد الرائع ، على ان ذلك العربي من النبلاء .

وكانت تقول لزباي عندما ابصرته قادماً: ان هذا العربي بين يديك فانقذ حياته ..
ثم رأت الناس ينصرفون ، وذلك الفتى النبيل يدخل مع زباي الى القصر
فارتاحت الى ما رأت . واتكأت على وسادتها تنتظر خروجه ، وهي لا تعلم اذا
كان الاثنان اي القائد والفتى متعارفين ..

* * *

عندما خرج القائد زباي من القصر . خرج معن على الأثر من قاعة الجلوس
الى رواق فيه مقاعد الحجر . يطل على قصر زبدا القائد الآخر .
وبالطبع . لم يكن يريد ان يشرف على تدمر ، ويرى تلك الجبال التي
تقوم في سفوحها مضارب الجند ، بل كان يريد ان يرى ذلك الملاك الفتان ظهر
على شرفة القصر ثم احتجب عن العيون .
وكيف يعلم معن ان ذلك الملاك ينظر اليه من وراء النافذة بعينين يبرق فيهما
الحب ؟؟ ..
انه لم يكن يقرأ الغيب مثل ذلك الكاهن الدمشقي ، الذي انذر اباه بالموت ،
وهناك الخطر الذي يكمن مولده في تدمر ..
فلما استوى في مجلسه . انفرج مصراعا النافذة ، واشرق بينهما جبين الفتاة .
فانتفض جسم معن . واخذ يحدق الى ذلك الوجه الذي يمثل الجمال بكل
ما فيه من خلابة وروعة ..
ثم اصيب بالذهول . فجعل يهمس في اذن الفضاء عبارات غرامه .. وينشد
قلبه اناشيد الحب فتحملها الى كهيلة اجنحة النسيم .
وما لبث الاثنان حتى تراسلا .. بتلك اللغة الخاصة التي تكتبها عيون المحبين..
فكان الفضاء الذي يفصل بين القصرين صفحة خفية طبعت عليها سطور الهوى ..
وكان النسيم رسولاً صامتاً ينقل الى الحبيب زفرات الحبيب . حتى كادت الشمس
تسقط في البحر.
لكن الليل عذب الاحلام . فصورة الواحد منهما كانت مطبوعة في ذهن الاخر .
وكلا الاثنين، اذا استسلم الى الكرى . فلكي يرى طيف الذي يهواه .

ان قصر زباي . الذي قيدت الاقدار حرية معن فيه . كان مجالا رحباً لاسترسال الفتى في غرامه . بذلك الاسلوب الخفي الذي تتحدث به القلوب . وذلك الرواق الذي يرى كهيلة منه . في الصباح وفي المساء . كان في نظره افضل من الطواف على ظهر فرسه تحت الرواق الاعظم وفي الميادين ..

اجل . انه كان يؤثر الحرية على الاسر ، والفضاء الواسع على الاقامة في القصور . لعله يرى كهيلة عن كثب فيقرأ ما في عينيها الساحرتين من معاني الغرام .. ولكنه وعد زباي بان يكون تابعاً له في رواحه ومجيئه . فهو اسير في الحالين . بل هو حر في ذلك الرواق اكثر منه في شوارع تدمر ..

ولا بد للقيصر من ان يسير الى الحرب . فعندئذ يغادر قصر زباي في الساعة التي يشاء ، ويتبع خطوات كهيلة الفتانة ، واضعاً قدمه في المدينة ، في المكان الذي تضع قدمها فيه ..

ان كهيلة ومعناً ، كانا مثلاً غريباً من امثلة الهوى . فقد اتحد القلبان دون ان يجتمعا . ودون ان يتعارفا ...

اما اولئك الرفاق البواسل . فتيان حمص . الذين رافقوا معناً الى تدمر . فكانوا يزورونه في قصر زباي ويسألونه عن ذلك السبب الذي يقضي ببقائه ضيفاً على القائد . فكان يقول : اني باق في تدمر وسأصبح من الفرسان ..

ثم عهد الى احدهم في ادارة ما يملكه في حمص . ووعدهم بأن يزور ذلك البلد العزيز بضع مرات في العام . فغادروا تدمر والشيخ الحمداني يقول لهم : ان زعيمنا الفتى عاشق مفتون .

*

لم يمكث القيصر طويلاً في تدمر . بل مشى الى الرها بقدم ثابتة . يرافقه من تدمر حامية المدينة وفرقة من الجيش الوطني كماتقدم .

وكان اسكندر وابوه في ذلك الجيش . وقد مشى في طليعة القوى الزاحفة ، ذلك القائد الخائن الذي باع سيده ، والذي وعده سابور بان يرفعه الى عرش القياصرة ، اذا هو اضل الجيش «كما تم الرضى والاتفاق» .

وقد حدثت الخيانة كما رأيت . فامسى الامبراطور يقاسي ذل الاسر . ورجع مكربنس الخائن الى دمشق يعد عدة الصعود الى عرش مولاه .

فلما خرج الجيش من المدينة . اخرج زباي اسيره من القصر . وهو واثق بأنه ولد وصية زبيد ، ذلك الصديق العزيز الذي رافقه في معظم حروبه .

ان ذلك القائد الخالد ذكره في تاريخ المشرق . والذي لم يكن يصدق اقوال الكهان والعرافين ، كانت نبوءة كاهن دمشق قد أثرت في نفسه . فلم يكن يخاف ان يقتل معن الا اذا كان القيصر موجوداً في تدمر .

وكانت اخلاق الفتى قد اعجبت زباي . فاحترم فيه اباءه واستخفافه بالاخطار . واحبه الحب الكثير كما كان يحب اباه من قبل .

وفي ذلك اليوم الذي زحف فيه الجيش . ركب الاثنان فرسيهما واجتازا الميدان الى الشارع يجتمع فيه الباعة والتجار . ثم اتجها الى هيكل الشمس فدارا حول السور في طريق ينتهي شمالاً امام قصر القنصل .

ووقف زباي قائلاً للفتى : انتظرني في ساحة الهيكل ريثما اعود اليك . فلوى معن عنق فرسه وهو يبتسم لهذا الرأي ..

انه كان يريد الرجوع الى الميدان لا الى هيكل الشمس ..

لكنه عندما قارب باب السور . أبصر فتاة محجبة تخاطب الحراس ، ومعها فتاة اخرى سافرة لكنها بلباس الجواري ..

فاضطرب الفتى . واخذ فؤاده يرقص في صدره ..

اما الفتاة فاستعجلت جاريتها في الدخول . واحتجبت الاثنتان وراء ذلك الجدار الهائل الذي يحيط بهيكل الآلهة ..

فترجل معن . وسلم سيفه وفرسه الى الحارسين ثم دخل ..

وهنالك ضاع .. اجل ان الغريب يضيع بين تلك العمد الضخمة ، والأروقة العالية ، والمقاعد الكثيرة ، وغرف السدنة خدام الهيكل وما يتبعهم من حراس وحجاب .

لم يكن في مدخل الرواق احد كأن الفتاتين اختفتا في باطن الجدران . وكأن

سدنة الهيكل لا وجود لهم ..

فوقف مبهوتاً لا يعلم في اي رواق يضع قدمه .

ثم ذكر الحارسين . فنادى احدهما قائلاً : اين هو الهيكل ايها الحارس ؟

فضحك الرجل من سؤاله وقال : اغريب انت ؟

قال : نعم ولولم اكن غريباً لما سألتك .

فمشى امامه الى اليمين في رواق على جدرانه وفي سقفه النقوش اليونانية . ثم اجتاز باحة واسعة تقوم على جانبيها الاساطين . واذا هما امام غرفة السادن الاكبر «كبير خدام الهيكل»

فأومأ الحارس الى الامام قائلاً لمعن : ادخل فهذا بيت الالهة .

ثم تراجع الى الوراء وتغلغل معن بين تلك الاساطين ..

وكان ذلك البناء الضخم. مظهراً من مظاهر العظمة الخالدة. الباقية ما بقي الزمان ؛

فرأى معن على نور السراج الضئيل. شبحاً جاثياً على قدميه امام احد العمد؛ وتلفت الى اليمين والى الشمال فلم ير في ذلك البناء الرحب صورة انسان غيره

فقال في نفسه : ليس في الهيكل غير شبح واحد وقد رأيت بالباب فتاتين ثم تقدم وركبتاه ترتجفان كما يرتجف نور السراج ..

حتى قارب ذلك الشبح . فجثا على بعد بضع خطوات منه . وعواطف الحب تجيش في صدره. وهو لا يرى من آلهة الهيكل. غير ذلك الاله البشري الذي يصلي امامه

اجل . ان الشبح كان غارقاً في بحر عميق جداً من الصلاة .. فلما سمع وقع الاقدام . انقطع مجرى صلاته . ونهض بغتة نهوض المذعور يلتمس مكاناً آخر يناجي فيه الهه العجيب ..

واذا هو فتاة مشرقة الجبين لا يستر وجهها حجاب ..

وبكل رصانة وجلال . استندت الى عمود الهيكل . وارسلت نظرها الى ذلك «العابد» الذي سمعت همس انفاسه.. فرأت معناً. ورأى معن كهيلة.. وخفق القلبان ..

لكن الفتاة . عروس تدمر وبنت القائد الاكبر.. لا تستسلم الى عاطفة القلب المضطرب. قبل ان تستوثق من اخلاص ذلك العاشق . الذي لحق بها الى الحرم المقدس..

فدارت حول ذلك العمود الضخم واتجهت بسرعة الى العمود الآخر الذي يقابله :
فتبعها معن وهو متردد خائف وقد حيره ذلك الموقف الغريب .
فقالت له بصوت خافت : اتبعني ايها الفتى ؟!
فعقد الخجل لسانه وتمتم يقول : جئت اصلي كما تصلين . .
قالت : وضاق بك الهيكل على رحبه فلم تجد موضعاً تناجي فيه الالهة غير هذا الموضع !
فقال وقد قوى جنانه الحب : لم اجد في هذا الهيكل ياسيدتي غير اله واحد اناجيه هو انت . .
قالت : لكنك غريب وانا لا اعلم من انت . .
فقال : اما انت فلست غريبة عني وقد عرفتك . . ان الحب يا سيدتي لا وطن له .
فاهتزت الفتاة لهذا الاعتراف الصريح وقالت :
الك تهينني ايها الغريب . .
قال : بل اعبدك يا كهيلة كما تعبدين هذه الالهة لقد قدمت تدمر خلياً لا اعرف ما هو الحب . فاذا سماء تدمر توحي الي الغرام .
قالت : اراك تذكر الغرام وانت في الهيكل ! !
قال : اجل . واعترف بحبي امام الالهة لاني لست كاذباً . اسمعي يا [illegible] . انت كهيلة بنت زبدا قائد الجيش وانا معن بن زبيد رئيس آل حمدان [illegible] . فبتربة ابي وشرف عشيرتي لا اخرج من هذا الهيكل حتى تعترفي لي بانك تحبينني . .
[illegible] الحب في عيني الفتاة وقالت : تريد ان اعترف لك بشيء لا وجود له . ؟
فابتسم الفتى قائلاً : بل تحبينني اكثر مما تبغضين ذلك الرومي .
: اتعرف هذا ايضاً ؟
: كما اعرف انك لا تريدين ان يكون لك زوجاً . .
: ومن قال لك اني احبك ؟ .
فوضع الفتى يده على قلبه وقال : هذا . . فلا تنكري يا كهيلة . . لقد قرأت على [illegible] سطور الهوى وكنت المس شعاع الحب تبعث به الي عيناك من شرفة

القصر . اني صريح يا سيدتي لا اتوسل بالأكاذيب للوصول الى غرضي . فاذا صدق هذا القلب طلقت حمص واقمت في تدمر حتى تصبحين لي ..زوجة .: والا فقد كرهت الحياة وانا في مقتبل عمري ولا اريد ان اعيش ..

— : اي انك تقتل نفسك اذا لم احبك.. اتنتحر لاجل فتاة وانت زعيم قوم ؟!

قال : ان حياتي هي لي ولا خير في هذه الحياة ان لم اكن قريباً منك .

قالت : ان حياة الزعيم هي لعشيرته ..

فقال : في آل حمدان من يصلح للزعامة اذا قتل معن بن زبيد .

فظنت كهيلة ان هذه الالفاظ الخلابة سلاح العاشقين .. وهل تعترف الفتاة العاقلة بحب رجل لا تعرف ماضيه وقد يكون كاذباً في دعواه ؟؟ ان الرصانة تقضي عليها بالصبر وان تكن عاشقة .

فقالت له وهي تحاول الهرب : والآن . ماذا تريد يا ابن حمدان ؟

فدنا اليها وهو يقول : لا تهربي مني يا ابنة القائد فانت تخاطبين نبيلاً . الا تعلمين ماذا اريد ؟ اني اريد ان تبوحي لي بما في صدرك من عاطفة .

وكانت لهجته في وقت واحد . لهجة مستعطف وآمر :

فرفعت رأسها بكبر وقالت : اذا كان لا بد من ذلك فاعلم اذاً اني لا احبك .:

فخيل اليه ان اذنه تخونه . فقال :

اعيدي عليّ قولك يا كهيلة .

فاجابته قائلة : ان كهيلة بنت القائد الاكبر في تدمر لا تحبك يا معن ابن زبيد ..

فتلمس عمود الهيكل بيديه كي لا يقع على الأرض :

ثم قال وقد تلجلج لسانه : كنت اراك تنظرين اليّ من نافذة القصر كل يوم نظرات حب ..

فضحكت ضحك الاستخفاف وقالت : بل كانت نظرات فضول .:

— : لماذا ؟

— : لاني كنت ارى في كل صباح . فتى غريباً عن تدمر يجلس في رواق

قصر زباي وانا لا اعلم ما هي علاقة القائد بهذا الفتى الغريب ..
قال : وكنت اسمع زفرات الهوى يحملها اليّ النسيم ..
قالت : لقد خدعت يا سيدي الزعيم فما خرجت من صدري قط زفرة عاشق :
قال : ان ارتياحك الى حديث الغرام الان يثبت لي انك تحبين .
فأومأت اليه بعظمة الملكات قائلة : ارجع اذا من حيث اتيت فقد كفاني هذا الجنون . .
قال : اتطردينني من الهيكل وهو للالهة ؟؟
قالت : لا فامكث فيه ما شئت ثم سدلت نقابها الاسود على وجهها وهمت بالخروج ..
فمد الفتى يده الى الامام قائلاً : لي كلمة اخرى يا سيدتي ..
فوقفت امامه صامتة تنتظر كلمته .
فقال : الم تعرفي من انا ؟
قالت : بلى انك معن بن زبيد الحمداني .
قال : اذا ذكروا لك اسم معن فاذكري ان هذا الفتى مات مضرجاً بدمه على قدميك .
ومد يده الى ثيابه فاخرج خنجراً قصير حاداً يلمع الموت من شفرته واهوى به الى صدره في موضع القلب ..
لكن يداً قوية امسكت بيده من الوراء . ومدت كهيلة يدها الى قبضة الخنجر وهي تقول : اسمح لي بان اقول لك انك عاشق جبار :
فأفلت الفتى سلاحه . ونظر الى ذلك الذي امسك بيده من الوراء . فرأى الجارية رفيقة كهيلة . واذا هو بين فتاتين تمنعانه من الانتحار . .
فارتعش جسمه . واحمر وجهه من الخجل وقال لكهيلة : اصبت يا سيدتي ان معن بن زبيد كان جباناً ..
ثم جثا على قدميه امام الا لهة وتساقطت دموعه على خديه .
فأمرت الفتاة جاريتها بأن تعود الى الاحتجاب وقالت :

اراك ذكرت الصلاة الآن ..
قال نعم وانها صلاة الاموات ..
قالت : اتعود الى ذكر الموت ايها الفتى ..
قال اجل فان لم امت الآن مت غداً . ولتقل كهيلة بنت زبدا اني ذاك الجبان ..
قالت : انك اذا مصرّ على هذا .
فحنى الفتى رأسه ولم يجب ..
فضحكت كهيلة مستخفة بتلك المظاهر .. اما الفتى فازداد بكاءً لأنه عرف انها تهزأ بغرامه ..
فقالت له وصوتها يرتجف : اتبكي يا ابن حمدان ؟
قال : اجل اني ابكي كرامتي وحبي .
— : واظن انك نادم على اظهار هذا الحب ..
فنهض الفتى فجأة ونظر اليها نظرات اليأس وقال : ارجو منك يا سيدتي ان تعطيني هذا الخنجر ..
— : واذا رفضت هذا الرجاء ؟..
— : انتزعته من يدك انتزاعاً .
فمدت يدها وهي تقول : احسنت فان الموت خير من الحياة فكاد يفقد عقله لهذا الازدراء وهم بأن يأخذ الخنجر فيطعن قلبه لكن كهيلة كانت اسرع منه . فطرحت ذلك السلاح وراء العمود وتلألأ في عينيها الدمع ..
فوقف الفتى مبهوتاً وهو يقول : لا تهزئي بي يا كهيلة فهذه مظاهر الغرام وانت تحبينني ..
فوضعت الفتاة يديها على صدرها وقالت : نعم اني احبك ولااريد ان تموت
ولو قيل لمعن في ذلك الحين . ان قبائل العرب اعترفت بك ملكاً باجماع الرأي . بل لو قيل له ان قيصر الروم نفسه تنازل لك عن العرش لما اهتز جسمه لهذه البشرى . اهتزازه لكلمة الحب .
فمسح دموعه وقال : اذن كنت تهزئين بي ايتها الحبيبة ..

قالت : بل اردت ان المس بيدي هذا الغرام الفجائي يولد في ساعة ..
قال : لقد طابت الحياة لي يا كهيلة ..
فصافحته قائلة : اما انا فلا يطيب لي شيءٌ الا اذا اجتمع الشمل ..

* *

كانت كهيلة قد رأت معاً وزباي خارجين من القصر .
فدعت جاريتها قائلة : اتبعيني الى الهيكل فسأزور الالهة .
وكانت تظن ان الاثنين ذاهبان الى هيكل الشمس .
فحجبت وجهها بحجاب اسود كما رأيت كي لا يعرفها زباي . وقصت على الجارية — وهما سائرتان — حكاية غرامها بالفتى الغريب النازل ضيفاً على قائد الفرسان ولقد شاءت الاقدار ان تجمع بين الحبيبين في احضان الالهة . كما قرأت فلما تعارف القلبان . قالت كهيلة :
اما الآن فقل لي ايها الحبيب من انت ..
قال : لقد ذكرت لك اسمي ونسبي ..
قالت : وماذا تفعل في تدمر ؟
— : جئت لأرى موكب القيصر الذي يمر بالمدينة .
قالت : اتعلم لماذا تصدى لك ابن قائد الحامية ؟
قال : نعم فهو لا يريد ان ينظر اليك فتى سواه ..
قالت : يظهر انك صديق قائد الفرسان .
— : ما عرفته الا في ذلك اليوم وقد كان ابي صديقاً له .
ثم قص عليها رواية موت ابيه كما اوردها زباي . وهو يقول : اني سأعرف كيف انتقم لأبي .
فقالت كهيلة : دع ذكر الانتقام ايها الحبيب فذلك الرومي يخاصم نفسه ان لم يجد في المدينة من لا يتعرض له ..
— : ذلك مالا اهتم له يا كهيلة . ولكن زباي اوصاني بالصبر وسافعل كل ما يأمرني به . ان هذا الرجل خير من رأيت .

قالت : ومتى تصبح بين الفرسان ؟

قال : عندما يأذن اذينة .

ـــ : وهل تبقى ضيفاً على القائد ؟

ـــ : نعم ايتها الحبيبة كما اني احفظ العهد لذلك الرواق .. الا يطيب لك ان امتع نظري بهذا الجمال الفتان في كل صباح ؟؟

فابتسمت قائلة : لا يكون النهار نهاراً في نظري الا اذا رأيتك . ان اجتماعنا في بيت الالهة الآن ، يعود الفضل فيه الى الاله الاكبر ويجب ان تعلم يا معن ان هذا الهيكل هو موضع اجتماعنا منذ اليوم في مثل هذه الساعة من كل خميس. اتعرف لماذا؟

قال : نعم فالقوافل تكون في تدمر كل خميس فلا يزور الناس هيكل الشمس : هكذا يفعلون ايضاً في حمص . ولكن المجال ابعد مما كنت اظن .

فقالت : لا بأس ايها الحبيب وسنجتمع على ضفة الغدير كلما خلا لنا الجو انك متى اصبحت من الفرسان مهد زباي سبيل التعارف بينك وبين ابي فتزورنا في القصر . وقد يفعل ذلك في هذين اليومين قبل ان تصير من رجال الجيش . اين هو زباي الآن ؟

ـــ : في قصر القنصل وقد امرني بانتظاره امام الهيكل .

قالت : حسناً فانصرف الآن ايها الحبيب وثق باخلاصي .

قال : لا يليق بالحبيبين ان يجتمعا في هيكل الالهة ثم ينصرفان دون ان يتعاهدا على الوفاء ..

فقالت له وهي تعلم غرضه : اعطني يدك يا معن .

فاعطاها يده . فجثا الاثنان في هيكل بعل واقسم كلاهما على الموت في سبيل الآخر ..

وعند ذلك ظهرت الجارية من وراء تلك الاسطوانة التي تشبه الجدار وبيدها الخنجر .

ثم قالت لكهيلة : خذيه يا سيدتي فقد رأيت الموت يبرق مرتين من نصله .

فقال معن : احتفظي به ايتها الحبيبة فحياتي هي لك وليست لي .

فأجابته قائلة : وحياة الاثنين هي لتدمر ..
ثم نهضا فانصرف معن وبقيت الفتاتان في هيكل الشمس تناجيان الاصنام :

* *

وملأ معن يدي الحارسين مالاً فانحنيا امامه كما ينحنيان امام القنصل .
ثم تناول سيفه وقفز الى ظهر جواده وابتسامة الحب على شفتيه .
واذا بزباي قد اقبل . فقال لمعن :
ألا تعرف الهيكل يا بني ؟
قال : هذه المرة الاولى التي ارى فيها هيكل تدمر . انه اصدق شاهد على عظمة بالهه ولقد كدت اضيع بين اروقته ..
فضحك قائلاً : اذن هو اعظم من هيكل الشمس في حمص .
قال : انه سيد الهياكل كما ان تدمر سيدة المدن في الشرق . ولكن لم ارَ سدنته يا مولاي ؟
قال : انهم في قصر القنصل وقد دعتهم زينب لتباحثهم في بعض الشؤون :
الم ترَ تلك الحجرات على جانبي المدخل وذلك الجدار الضخم الذي يحجب الهيكل عن عيون الداخلين ؟
قال : بلى وبين تلك الحجرات كدت اضيع ..
— : اذن فاعلم ان زينب تريد ان تهدم كل ما رأيت لتبني رواقاً يقوم على عمد المرمر يتصل برواق الاله بعل . وهذا السور العظيم الذي يحيط بهيكل الآلهة لا معنى في نظرها لوجوده لان هياكل العبادة لا تحاط بالاسوار .
— : ولكنهم جعلوا الاسوار وسيلةً من وسائل الدفاع .
قال : اجل . غير ان العدو الذي يقتحم سور المدينة لا تقف في وجهه اسوار الهيكل . ان زوجة القنصل تريد ان تجدد في تدمر كل قديم . وانت لا تعرف زينب لتعرف اية قوة هي الجالسه في قصر الرياسة تشارك القنصل في تدابيره واحكامه
قال : وهل يسمح لها اذينة بان تفعل في تدمر كل ما تشاء ؟!
فابتسم زباي وهمس في اذنه قائلاً : قل ان اذينة العظيم الذي يقلّ بين عظماء

الشرق وجود رجل مثله . يكاد يكون آلة في يد زينب .. اسمع يا معن ان اذينة نفسه يعترف لزوجته بتلك القوة الحديدية التي ليس لها حد . واذا مثل رجال المجلس وقواد الجيش بين يديها . عجز افصحهم منطقاً واذلقهم لساناً عن ان يراجعها في امر او يغلبها في برهان ، فهي داهية السياسة والرأي والدعامة الثابتة التي تسند القنصل العظيم في كرسيه . وكل تدمري مهما علا مقامه وعظم شأنه . يحس انه العاجز الضعيف امام عظمة زينب . والخائف الجبان امام ذلك الجلال الساحر وانا . انا والدها زباي . اكاد انسى اذا حادثتها انها ابنتي . وقد يقوم في ذهني انها الملكة المتحدرة من الآلهة ..

فملأت الهيبة نفس الفتى . واختجلت في صدره عاطفة اخلاص لبنت زباي تشبه في قوتهاعاطفة حبه كهيلة بنت زبدا . فقال للقائد :

ألا يستطيع الغريب عن تدمر ان يقابل القنصل وزوجته في قصرهما ؟

قال : لا يقدر على ذلك الا لأمر . أفتريد ان تقابلها يا معن ؟

— : نعم يا مولاي .

— : واذا سألك القنصل عن امرك فماذا تقول له ؟

— : اطرح بسيفي امام قدميه واقول : اني تركت ارض حمص لاكون جندياً من جنوده ..

قال : ان السيوف لا تعرض الا عند الحاجة وقد قلت لك من قبل انه سيأتي يومٌ تشهر فيه هذا السيف في سبيل تدمر وقد لا ترجعه ال غمده ..

قال : وعندئذ انتقم لأبي من جماعات الروم ..

فقال : ان امة الروم بريئة من دم ابيك وقاتله واحد لا جماعة .

— : ولكني لا اعرف هذا القاتل يا مولاي .

قال : اما الآن فلا ولكن ستعرفه بعد حين ..

فبغت الفتى وقال : اتعرفه انت يا ابي ؟!

فتمتم زباي قائلاً : نعم يا بني واعرف ماضيه وحاضره ..

فوقف الفتى فرسه ونظر الى القائد مستغرباً ..

اما زباي فلم يلتفت الى الوراء .

فقال معن : اني اكاد اقع على الارض يا مولاي .

قال : لماذا ؟

قال : ايكون قاتل ابي حياً وانت تعرفه ولا تبالي؟! قل لي من هو يامولاي :

فاجابه زباي بصوته الناعم الهادئ قائلاً :

اخفض صوتك يا معن ولا تنس انك في شارع يكثر فيه الناس ..

- : ولكن ارجو ان تبوح لي باسم القاتل ..

قال : وانا ارجو منك يا بني ان تتبعني الى القصر ..

وهمز القائد جواده والفتى وراءه ينظر الى الارض وهو يفكر في ذلك القتيل المنكود الحظ الذي لم يثأر به .

فلما اصبح الاثنان داخل القصر قال القائد :

انك تريد ان تعرف قاتل ابيك وانا اعدك بأني سأدلك عليه .

قال : متى يكون ذلك ؟

- : لا استطيع ان اعين لك الساعة الآن .

فملأ الدمع في عيني الفتى وقال : ان الكتمان يقتلني يامولاي .

قال : بل يضمن لك الحياة .. ألم تعدني بالطاعة يا معن؟

قال : بلى يا مولاي واذا سألتك عن قاتل ابي فما خرجت عن طاعتي .

قال : اما اذا أعدت علي هذا السؤال فانت غير طائع . اني لاابوح الان باسم القاتل ولو قتلت ..

قال : أفي هذا ايضاً خطر على حياتي ! ؟

فقال : وهذا سؤال لا جواب له . ان ذلك اليوم الذي تعرف فيه قاتل ابيك قد يكون اقرب مما تظن ..

- : وقد يكون بعيداً يا مولاي ؟

قال : نعم وعليك ان تصبر ..

: ولكن قل لي على الاقل اين يقيم . أفي دمشق ام في تدمر ؟

فتردد القائد في الجواب ثم قال : لا اعلم اين يوجد الان ..
ــ : اذن فانا فتى شقي تكتنفني الأسرار ..
ــ : بل انت من اسعد الناس اذا عرفت ان تصبر ولكنك قليل الجلد يا بني ..
قال : اشفق عليّ يا ابي فلا استطيع الصبر .
فضمه القائد الى صدره وقال : ألا تريد ان تصير من فرسان تدمر ؟
قال : بلى .
قال : وانا افكر في ان اجعلك اميراً من امراء الجيش .
قال : وبعد ذلك ؟
ــ : بعد ذلك تعرف قاتل ابيك ويكون لك حكمك في الانتقام ..
ــ : اي انه لا يجوز لي ان انتقم الا اذا صرت جندياً .
ــ : بل لا يجوز لك ذلك الا اذا صرت قائداً ..
فأطرق الفتى يفكر في هذه الالغاز وهو لا يفهم شيئاً .
فاستطرد زباي قائلاً : ألا تعلم لماذا يا بني ؟
قال : اظن ان القاتل امير في جيش الروم .
قال : لقد حزرت . فاذا مددت اليه الآن يداً طلبك القنصل ولو ركبت اجنحة الغمام ..
ــ : واذا امسيت من القواد ؟؟
قال : انك لا تمسي قائداً الا بأمر اذينة . واذينة لا يجعل الناس قواداً الا اذا وثق بهم وخبر اخلاصهم . فمتى اصبح معن بن زبيد اميراً في الجيش فمعنى ذاك ان القنصل يحبه ويرعى امره . وعندئذ يقوم معن فيقول لمولاه انفلاناً الرومي قتل ابي فاما ان تنتقم لي واما ان تأذن في البراز .
فقاطعه معن قائلاً : واذا اجابني القنصل بقوله : لا تثأر بأبيك ولا نأذن في براز فماذا اصنع ؟ اتعلم يا مولاي ماذا اصنع ؟ اني اهجم على قاتل ابي فاضرب عنقه بهذا السيف ولو كان في حضن القيصر . واذا مدّ اليّ اذينة يده جمعت

مصرعي وحاربت تدمر حتى يفني السيف كل فتى من فتيان حمدان .. اني يا
مولاي لا اسكت عن ثأري وانا حي ..

قال : لا تتعجل في الحكم فقد يسلح اذينة يدك ويدفعك الى قتل ذلك الرومي

قال : ومن يضمن لي الوصول الى اذينة وهو امنع من الملوك ؟

فابتسم زباي وقال : انا اضمن وصولك اليه ان لم يكن اليوم فغداً . لقد
بدأت الآن افكر في هذا واذا اضطررت شاورت زبدا واستعنت برأيه .

ثم استند القائد الى وسادته قائلاً : الا يطيب لك ان تذهب الى الحدود
يا معن ؟

فاضطرب الفتى وقال : اين تقع هذه الحدود يا مولاي ؟

قال : الحدود القريبة من الفرات .

فأجابه قائلاً دون ان يتردد : لو جعلني اذينة امير القبائل في البادية لما تركت
تدمر ..

فاستغرب زباي هذا الجواب وحدق اليه يقول : لا تنس يامعن ان الجندي
الذي يطمع برتبة القيادة لا يجوز له ان يقول لا ..

قال : لقد غيرت رأيي فلا احب أن اصير جندياً ..

فتحير القائد في موقف الفتى وقال له :

اذن انت لا تريد ان تثأر بابيك ..

قال : بلى وسأقتل عشرين رجلاً من رجال الروم .. ثم قال : بل سأبعث
مالي بينهم وآمرهم باستعمال السيف حتى اعثر على القاتل .

قال : اراك تستميت من جهة . في سبيل الوصول الى قاتل ابيك . ثم تهزأ
من جهة اخرى . بتلك الوسائل التي توصلك الى ذلك القاتل .

قال : ولكنني لا ادري يا ابي ما الذي يمنعك من ان تبوح لي باسمه الآن ..

فقال : اريد ان ابرّ بوعدي فأحفظ حياة فتىً اوصاني ابوه به قبل ان يموت .

: ومع ذلك فانا لا افهم ..

قال : ان الضربة التي تضربها اليوم في سبيل ثأرك تقذف بك الى اشداق

المنون . والغريب في هذا ان اذينة نفسه الذي هو صهري يكون جلادك وانا لا أستطيع ان اسأل لك العفو . اذاً فالحكمة تقضي عليك بأن تخطب ودّ اذينة ليكون حامياً ونصيراً لا جلاداً .. وانك لو عرفت مقام عدوك يا معن .. اجل لو عرفت مقامه لصبرت حتى يحيطك القنصل بعطفه ويتلألأ نجمك في الجيش فتنتقم عندئذ من عدوك وانت كفؤء له في المقام ..

فهم الفتى بالجواب فاسكته القائد قائلاً :

اريد ان تثبت لي الآن . وفي هذه الساعة . انك ذلك الشريف النبيل الذي لا ينقض عهده ولا ينسى وعده .. اني آمرك بالصبر فماذا تقول ؟..

فنسي الفتى النبيل . في ذلك الحين اباه وثأره . ولم يذكر غير ذلك الوعد الذي وعد به زباي . فقال : سأصبر يا مولاي ما طاب لك ان اصبر .

فأشرق جبين القائد وقال : والان قل لي لماذا لا تترك تدمر فتصبح قائداً صغيراً على الحدود ؟

فرأى الفتى ان يعمد الى التصريح . فقال :

اني عاشق يا مولاي ..

فاستوى زباي في مجلسه قائلاً : اتعشق فتاة من فتيات المدينة ؟

— : نعم يا مولاي ..

— : اذن ما قدمت تدمر الا ليصيبك سهم الغرام .

قال : اجل وفي بضعة ايام اصبح معن بن حمدان صريع الهوى ..

قال : اذكر لي اسم من تحب ..

فقال : احب كهيلة بنت زبدا .

فتمتم القائد قائلاً : كهيلة بنت زبدا ؟!

قال : اجل وستقول في نفسك اني جاوزت حدي في هذا الحب ..

قال : بل اقول انك اخطأت في حب اميرة هي ارفع من ان تنظر الى الفتيان .. وكيف احببت كهيلة يا معن وانت لم تخرج من القصر ؟!

قال : فاجأني هواها وانا بين الصفوف يوم قدوم القيصر .

قال : وكانت تنثر من شرفتها الازاهر ..

— : نعم يا مولاي وكانت ازاهيرها تبعث الغرام الى هذا القلب ..

قال : ان الحب توحي به النظرات لا يعيش ..

قال : واما الحب توحي به السماء فلا يموت ..

— : لذن فقد دلهك الغرام يا معن ..

— : وان شئت فقل هذا هو الجنون ..

فعادت الرصانة الى جبين زباي وقال له :

اتعرف كهيلة انك عاشق ؟

— : نعم يا مولاي وقد اعترفت لها بهواي .

— : ومتى رأيتها ؟

— : جعلت رسولي ذلك النسيم الذي يداعب شعرها كل صباح .

— : ثم رضيت بهذا وانتهت حكاية حبك ..

— : بل رأيتها وسمعت كلمة الحب تلفظها شفتاها الساحرتان ..

— : اراك تسخر بي يا معن ..

قال : ما تعودت ان اكذب يا مولاي . لقد اجتمعت بكهيلة الان ..

— : أفي هيكل الشمس ؟

— : نعم وامام الاله بعل تعاهدنا على الوفاء .

فارتسمت دلائل الفرح على وجه زباي وقال :

ولقد جعلتما بيت الالهة مجتمعاً للعشاق ..

— بل جعلنا الالهة شهوداً على غرام القلبين واتحادهما الثابت الى الأبد .

ثم قص عليه كل ما جرى له في هيكل الشمس . وزباي يبتسم لعاطفة الحب تطل من عيني الفتى العاشق .

ولم يتم روايته حتى اجهش بالبكاء .

فقال القائد : الست سعيداً بهذا الغرام يا بني ؟

قال بلى يا مولاي ان الولد يتمتع بلذات الحب والوالد القتيل يضيع دمه .

قال : لا تحدثني بهذا بعد الآن .. ان حياتك في تدمر اصبحت ذات شأن ..

— : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : لقد احببت الفتاة التي هي فتنة الناظرين . فاتجهت اليك العيون .

قال : ان هذا الحب سر مكتوم لا يعلم به احد .

فقال : وسيشيع في المدينة حتى يملأ قصور الاشراف واكواخ الفقراء . لقد ركبت المركب الصعب يا بني .

فخفق فؤاد معن وقال : الا يملك سليل آل حمدان حريته فيبغض من يشاء ويحب من يشاء ؟

قال : بلى ولكن الفتى النبيل لايتبع اميرات تدمر الى الهياكل . الا تعلم ان زبدا هو الرجل الثاني بعد اذينة ؟!

قال : واذا كان اعظم من اذينة فبماذا اسأت اليه ؟

قال : باستغوائك فتاته واجتماعك بها في بيوت الصلاة ..

قال : لم استغو احداً يا مولاي القائد بل لم اقل لكهيلة كلمة حب قبل اجتماعنا في هيكل الشمس . لقد خفق القلبان على الحب قبل ان يصافح احدنا الاخر فلما تلاقينا باح كل منا بما في صدره دون ان يكون هنالك موعداً واستغراء ان سليل آل حمدان لا يستغوي النساء يا مولاي . واذا كنت قد عشقت فلأن قلوب الفتيان خلقت للحب ولان هذه القلوب كانت ولما تزل تهتز وتضطرب للجمال .

— : ولكنني اصبحت تجاه صعوبتين يا بني ..

فمد الفتى عنقه واخذ ينظر الى شفتي زباي تخرج من بينهما الالفاظ ..

فقال القائد : لقد جعلتني الاقدار حارساً لرأسك فانا الآن حافظ لقلبك..

— : اي انك كنت في واحد فصرت في اثنين ..

قال نعم وعلى قائد الفرسان في تدمر ان يمد اصبعه في قضية غرامك قبل ان تعبث به يد الزمان .

فافتر ثغر الحمداني العاشق وقام فطوق عنق القائد بيديه وطبع على جبينه قبلة فيها كل معاني الاعتراف بالجميل .

ثم قال زباي : اتشك في شيء مما اقوله لك ؟

قال : بل اثق بمولاي القائد كما اثق بنفسي .

— : اذن فاعلم ان زبدا سينكر امر هذا الغرام عندما يقف على اخباره .

قال : اينظر الي القائد العام نظره الى صعاليك العرب ؟!

— : بل سينظر اليك كما ينظر الى الاشراف. غير ان الشريف الوارث لا يصان شرفه طاهراً ولا يرتفع الى القمة . الا اذا حفظت بهجته بمظاهر الأدب .

فقال : ما لوث الزمان لآل حمدان عرضاً يا مولاي .

قال : ولا احب ان يقوم زعيم العشيرة فيلوث هذا العرض ..

فبهت الفتى وقال : انا ؟؟!

— : نعم انت فاذا رآك الناس وراء عمد الهيكل . تغازل اجمل فتيات تدمر وجهاً واعلاهن مقاماً كنت في نظرهم غير شريف .

— : ومن قال لك يا مولاي اني اجتمع بكهيلة على مرأى ومسمع من الناس ؟..

قال : ولماذا تحاول التحجب عن الناس اذا كان عملك شريفاً ؟ ...

فتردد الفتى في الجواب . فقال زباي :

وكأني بك تريد ان تحرج موقف القائد العام فيغضب لعرضه الذي اهين وتلك هي البلية . ان كهيلة في تدمر اميرة الخلق كما هي اميرة الجمال . اتريد ان يطول عليها العرب والروم فيصموا ادبها بوصمة العار الى الأبد ؟

فأطرق ولم يجب . اما زباي فمضى في حديثه قائلاً :

ان الشريف الابي يملك ارادته ويضبط عاطفته . فقل لي يا معن . الست انت ذلك الشريف الابي ؟

فلمعت عزة النفس في عينيه وقال :

اني لكذلك .

— : وان الشرف في نظرك قبل الغرام ..

— : نعم فلا كان غرامي اذا مس شرف عشيرتي .

فأشرق وجه القائد الحكيم وقال له : اذن فاترك الهيكل واحفظ حبك في اعماق الصدر حتى تأتي ساعته ..

— : ولكني وعدت كهيلة وما تعودت ان اخلف احداً ما وعدت .

فقال : لا تعمد الى الاعتذار فهكذا يجب ان تفعل .

— : وماذا افعل بحبي ايها القائد وهو يكاد يقتلني ؟

قال : ما عنيت ان تترك حبك فهذا لا سبيل اليه . ولكن ادعوك الى الصبر حتى يرتفع لك في تدمر ذكر .

قال : لقد عدت يا مولاي الى لهجتك السابقة .

قال : اجل فليس امامك الآن غير هدف واحد اذا وصلت اليه انتقمت لأبيك واتحدت بكهيلة اتحاداً لا يفسده الا الموت .

قال : ومعنى ذلك انه يجب ان اخنق ثأري وغرامي !!..

فقال : اذا اردت ان تصير رجلاً فاخنقهما الى حين .

قال : ولكن يجب على الاقل ان اعتذر لكهيلة .

قال : اكتب اليها ما شئت من الاعذار ؟

— : ومن يحمل اليها الرسالة يا مولاي ؟

— : ذلك من شأني فلا تسألني عن الرسول .

وكان معن في تلك الساعة مضطرب الذهن . والحرب تستعر نارها في اعماق نفسه لا يعلم كيف يصون غرامه ويصون شرفه .. ثم قال :

اتعدني بالوصول الى القاتلين . قاتل فؤادي وقاتل ابي ؟..

فأجابه قائلاً : لا اعدك بشيء فان لم تكن واثقاً بي فأنت حرّ وقد ابرأتك من طاعتي

وذلك دهاء من زباي . فقد اراد ان يضرب على ذلك الوتر الحساس ليختبر وفاء الفتى وادب نفسه .

وقد اصاب فيما فعل فان ذلك الفتى الطاهر القلب ارتمى على قدمي زباي وقال : لقد سلمت اليك امري وما ابالي اذا امسيت من اشقى الناس .

* * *

واستولى اليأس على فؤاد معن. فقد باح لزباي بذلك الغرام وتلك هي الخطيئة التي لا يغتفرها لنفسه .

وماذا لقي بعد افشائه السر ؟! ان زباي يدعوه الى الصبر ومن اين له ان يكون من الصابرين !!

وهو سيتحجب مكرهاً عن كهيلة كما امره القائد فأي شيء هو هذا التحجب ان لم يكن خيانة لعهد من يحب . وجفاء لتلك التي عاهدها على اللقاء ..

ولكن شرف زبدا . القائد العام وشرف عشيرته آل حمدان يجب أن لا تمسها الاقاويل ولا تقام حولها الظنون ..

ولقد يكون قائد الفرسان مصيباً في قوله فخير له ان يظهر نفسه لزبدا القائد ؛ ويعترف له انه العاشق النبيل الذي يريد ان يتزوج كهيلة ، من ان يتبع في شوارع تدمر خطوات الفتاة. وينفرد بها في هيكل الشمس ليشكو اليها امره ويبثها هواه . وهما وراء الجدران ...

غير انه لا يستطيع الظهور الا اذا مشى بقدم ثابتة في طريق العلياء . واستوى في المقام الذي يستحقه اصله الكريم ومنزلته السامية بين العشائر .

وعند ذلك يخرج من دائرة الخفاء . سافر الوجه عالي الجبين . لا يلجأ الى هياكل الالهة ليبوح لكهيلة باسرار قلبه . بل يجلس معها في قاعات قصر زبدا وعلى شرفاته ينثران الازاهير .

هكذا كان معن بن حمدان يحدث نفسه . في النهار وفي الليل . وهو كريشة في مهب الريح لا يعلم اين يستقر رأيه .

وذلك المقعد في رواق القصر لا يفارقه . كما كانت كهيلة لاتترك نافذتها الا لامر .

ولم تكن تعلم ان زباي وذلك الحبيب يدافعان عن الشرف ويتآمران على الغرام ..

* * *

وكانت تدمر . تغص بفلول الجيش الروماني الذي خسر شرفه في مواقع الرها ،

وترك امبراطوره اسيراً بين يدي سابور . كما مر .

اجل . ان الذين سلموا من ذلك الجيش تراجعوا مذعورين الى تدمر . والى حمص . وهم يتحدثون بخيانة ذلك القائد النذل الذي اسلم سيده فالريان ليصير امبراطوراً بعده .

ولم يقتل قائد الحامية الرومي وولده اسكندر في حرب سابور . بل سلما من سيف الفرس ورجعا الى تدمر . يجران اذيال العار بدلاً من اذيال الفخار .

على ان زباي لم يكن يهتم لعودتهما . لانه كان واثقاً بان معناً لا يقتل الا اذا كان قيصر الروم في تدمر . وتلك النبوءة التي تنبأ بها الكاهن العراف كانت في نظره وحياً من السماء .. بعد ان كان يهزأ ويستخف بأقوال العرافين .

وقد لازم قائد الحامية منزله لا يخرج الى الهيكل والى شوارع المدينة . كأنه يريد ان يخفي خجله وذل هزيمته . وراء كثيف من الجدران .

الا ساعة واحدة قابل فيها اذينة . فقص عليه تفاصيل الخيانة . ووقوع القيصر في ذلك الشرك الذي نصبوه له .

ومن ذلك الحين لم يرَ التدمريون له ولولده وجهاً . حتى انه لو استطاع لرفض قبول القواد العرب في قصره . اولئك القواد الذين كانوا يريدون ان يستعيدوا حكاية الهزيمة من فم امير في جيش الروم .

وكان زباي يقول لمعن : لم يبق لك مزاحم في حب كهيلة فاين قائد الحامية الغدار قد نسي غرامه ..

اما معن . فلم يكن يصدق ان الذي يحب يستطيع ان ينسى من احب في مثل تلك السهولة وعلى ذلك الشكل .

* * *

ومرت بضعة ايام والفتى لم يكتب رسالته الى الحبيبة . وقد قرب موعد الاجتماع في الهيكل . ولم يبق لذلك الموعد غير ليلة واحدة .

فقال له زباي في تلك الليلة : ألم تكتب رسالتك يا معن ؟

فأجابه قائلاً : اعترف لك يا مولاي باني لا اعرف كيف اعتذر لكهيلة .

قال : اما انا فاذا ذكرت شبابي وايام صباي عرفت ماذا املي عليك .. اكتب الان ..

ولكن قبل ان يأخذ معن قلمه ليكتب . اقبل على القصر حاجب القنصل.
يدعو زباي الى المثول بين يدي مولاه .
فنهض القائد دون ان يتردد وقال :

لم يدعني القنصل في هذا الليل الا لأمر وقد لا اغيب اكثر من ساعة .
ثم تقلد سيفه وخرج وراء ذلك الحاجب البدوي يريد قصر القنصل .

* ولقد قرأت في ما سبق . ماذا جرى بين اذينة وزينب . وبين القائدين زبدا وزباي .. بشأن الوفد الذي يبعثه القنصل الى سابور .

فلما غادر القائدان قصر القنصل يحملان رسالته الى الملك الفارسي اراد زبدا ان يرى رئيس الوفد الذي اختاره زباي وضمن لاذينة دهاءه وسكوته ..

وكان معن مستنداً الى وسادته في ذلك الرواق . وهو يفكر في القدر الجائر يتصدى له في ربيع حياته .

واذا بالقائدين يدخلان عليه وزباي يقول له :

تعال يا بني صافح القائد الاعظم الذي جاء ليراك ..

فاستوى الفتى قائماً . وارسلت عيناه شعاع الحب الكامن في صدره . عندما ذكر ان القائد الاعظم هو والد من يحب ..

وكان نور السراج في الرواق ينعكس على محياه فرأى زبدا وجهاً يتدفق منه النور . وعينين تنطقان بتلك النبالة التي ورثها الغلام من ابيه .

فمد اليه يده قائلاً : لقد عرفت اسمك ايها الفتى كما عرفت عنك الشيء الكثير ..

فصافحه الفتى وقد قام في ذهنه ان زباي باح له باسرار قلبه . ثم قال :

وماذا يعرف مولاي القائد عن فتى غريب لا يعرفه احد في تدمر ؟ .

قالها وصوته يضطرب ..

فقال زبدا : يكفي ان يعرفك قائد الفرسان ويذكرك لاذينة . انك متى كنت جديراً بثقة زباي فانت جدير بثقة الجميع ..

قال : ان مولاي زباي صديق ابي وهو يحبني ..

قال : وانا لم اكن صديق ابيك وقد بدأت الان احبك ..

فرقص فؤاد الفتى من الفرح عند سماعه ذلك التصريح واخذ يتمتم الفاظ الشكر ثم دخل الثلاثة الى قاعة الجلوس فقال زباي :

ان القنصل يريد ان يبعثك في مهمة يا معن .

— : القنصل يبعثني انا ؟!

— : اجل وهي مهمة صعبة تحتاج الى الجرأة والدهاء . اتذهب يا بني ؟

فأجاب قائلاً دون ان يسأله عن مهمته : ايثق بي مولاي القنصل ولا اكون عند ثقته ؟؟ نعم اذهب .

— : وانت لا تبالي بالمصاعب والاخطار ؟

— : لا ابالي بشيء متى كان القنصل والقائدان راضيين .. الى اين ؟

— : الى معسكر الفرس المخيم على الفرات لان اذينة يريد ان يبعث وفداً الى سابور .

فقال زبدا : وقد فوض الينا نحن الاثنين اختيار رجال هذا الوفد ورئيسهم فاختارك زباي لتكون ذلك الرئيس .

— : ومن هم رجال الوفد يا مولاي ؟

— : اربعة من الجيش اصغرهم في سن الثلاثين سأختارهم الليلة .

— : اذن فالوفد يسافر غداً .

— : اجل وقبل ان يبزغ الفجر . ولكن اعلم يا بني ان القنصل ينزل غضبه بذلك الرجل الذي يبوح بهذا الأمر .

قال : يستطيع ان يغضب ما يشاء اذا جعلت له سبيلاً الى هذا الغضب . غير اني احب ان ارى الرجال الذين تختار .

قال : سأرسلهم بعد ساعة بلباس اهل البادية لئلا يعرف الروم شيئاً عن هذا الوفد . وسيبيتون في قصر زباي .

ثم ناوله الرسالة قائلاً : اذا رآكم احد فقولوا انكم من اهل العراق .

وقبل ان يخرج قال لزباي : ان فتاك خير الفتيان وسيصبح خير الفرسان ..
وانصرف الى منازل الجنود يختار رجاله .
فقال معن لزباي : والرسالة يا مولاي ..
فضحك القائد وقال : اراك ذكرت الغرام ونحن نتحدث عن السياسات .
قال : لا خير في سياسة تنسيني غرامي يا مولاي .
فقال : وان زباي لا يريد ان تنسى هذا الغرام . اكتب يا معن .
سيدتي : .. عندما تقرأين كتابي اكون في عرض الصحراء سائراً في شأن عظيم لا استطيع ان اذكره لك . فاذا كانت الالهة لم تشأ ان نجتمع الان فسيأتي يوم نجتمع فيه الى الأبد .
ثم قال : اطو الرق يا معن فقد انتهت الرسالة .
فرفع الفتى نظره اليه قائلاً : افي مثل هذا الاسلوب الجاف اخاطب كهيلة ؟!
قال : اجل فلا يليق بك ان تشرح هواك على الرقوق ..
وما كاد زباي يأخذ الرق حتى اقبلت الرجال .
فتعارفوا وناموا ليلتهم . وقبل ان يبزغ الفجر شدوا رحالهم وساروا يريدون معسكر الفرس على الفرات .
ولقد قرأت فيما مر من الفصول . ماذا جرى بين هذا الوفد وبين سابور . وكيف اهان ذلك الفارسي اذينة . وطرح برسالته وهداياه في ذلك النهر العظيم .
ان الفتى الحمداني الثائر على الروم . الذي تتأجج في صدره نار البغضاء والذي لا يفكر في غرامه حتى يفكر في انتقامه.. ان ذلك الفتى عندما رأى سابور يعذب اسيره فالريان ويشمت بذله . تفطر قلبه وحزنت نفسه . واجتاز الفرات راجعاً الى تدمر وهو يبغض الفرس اكثر مما يبغض الروم قاتلي ابيه .
اجل . انه لم يكن يعرف فالريان قبل ان رآه في تدمر وليس بينه وبين واحد من الروم صلة ولاء . غير ان شيمته عربي كريم . والعربي الكريم لا يشمت بأسيره . ولا يظلم المستسلم الضعيف متى كان قادراً على العفو عنه .
ولو استطاع معن لجعل ناقته تطير به الى تدمر . فقد كثر شوقه الى ذلك

الرواق يرى منه بنت زبدا . ولم يكن يصدق انه يرى اذينة ويقص عليه اخبار الفرس وكان الشذاذ والصعاليك من العرب . يملأون البادية في ذلك الحين . فكان الرجال الخمسة اذا تصدى لهم عربي . يذكرون اسم اذينة القنصل فتنحني امامهم الرؤوس .

حتى وصلوا الى تدمر يحجبهم ستار من الظلام . وكان زباي في قصره عندما دخل عليه معن في ذلك الليل .

٧

طلع الصبح وارسلت الشمس اشعتها فوق تدمر . وكهيلة لم تبصر معناً في رواق قصر زباي ..

كانت كل صباح تستند الى نافذتها تنظر الى ذلك الحبيب الجالس في الرواق . وكلا الاثنين يكاد يحس بانفاس الآخر يحملها اليه الهواء ..

ففي ذلك اليوم . يوم ترك الفتى تدمر قاصداً الفرات . لم ترَ كهيلة ظلاً لمعن ولم تقف له على اثر .

فاستولى عليها الهم . واخذ ذلك القصر الزاهي يتحول في نظرها الى موضع تسوده الوحشة والظلام ..

انها لم تكن تصبر على فراق الحبيب . وقد انفردت في غرفتها لا تخرج من القصر . لكي تراه ..

وقد برح بها الحب فاستسلمت الى عاطفة القلب لا تسأل عن ذلك الفتى الغريب يصرعها غرامه .. ولا تهتم لنسبه ومقامه . بل لم تكن تعلم ذلك السر الذي يكرهه على البقاء في قصر زباي ..

وزادها اجتماعها معه في هيكل الشمس لوعة وغراماً . فكانت تقضي ساعات النهار تبتسم له من وراء النافذة ابتسامات الحب . منتظرة بصبر . ذلك اليوم الذي جعلاه موعداً للقاء .

ماذا جرى لمعن حتى تحجب عنها وراء الجدران !! الا يجوز ان يكون ابن حمدان من اولئك الفتيان الذين يعبثون بقلوب العذارى ثم يهجرونهن من غير ما سبب الى حيث يستغوون غيرهن من الحسان ... ؟

ولكن الفتى لا يمل غرامه وهو في المهد . واذا انقضى نصف النهار ولم يقع نظرها عليه فذلك اما لمرض ألم به او لعذر من الاعذار ..

حتى دنت ساعة الاجتماع . فخرجت مع جاريتها الى الهيكل تشكو امرها الى الآلهة ولعلها ترى ذلك الحبيب .

لكنها ما كادت تصل الى الشارع حتى كان القائد زباي على فرسه يسير في ذلك الطريق الذي تتقدمه فيه الفتاة العاشقة .

فلما وصلت الى باب الهيكل ارسلت نظرها من تحت الحجاب الى الوراء فرأت زباي . فأيقنت بان هناك حادثاً غريباً منع معناً من المجيء ..

ولم يكن الموقف يأذن لها في التردد . فدخلت وركبتاها ترتجفان . وقد ملأت نفسها الكآبة والحزن .

وكان السادن الأكبر يتمشى في الدهليز المؤدي الى البهو . فحنت الفتاة رأسها له واختفت مع خادمتها في عطفة الدهليز ثم اسرعتا في الدخول . وغاصت الهيلة في بحر التأملات ..

اما زباي . فوقف فرسه امام الحارسين وقال لاحدهما : اتعرفني ايها الفتى ؟

فانحنى الحارس امامه قائلاً : ومن لا يعرف قائد الفرسان .

قال : ارأيت فتاتين محجبتين تدخلان الهيكل الان ؟

: نعم يا مولاي .

: اعط هذه الرسالة أطولها قامة ولكن احذر ان تذكر اسمي ان تلك الفتاة ،، دمشق وقد ماتت امها وهي لا تعلم .. تعال وادخل من الباب الذي يدخل ه ادينة القنصل وزوجته .

فأطاع الحارس . ومشى الى الجهة الغربية من السور لينفذ أمر زباي .

ولم تكن كهيلة تصلي . بل كانت تذرف الدموع . وكلما سمعت وقع

اقدام خفق فؤادها وتلفتت الى الوراء ..
حتى اقبل الحارس فوضع الرسالة امامها وانثنى يريد الانصراف ..
وكأن كهيلة كانت ارفع من ان توجه اليه سوالاً .
فقالت له الخادمة : الست من حراس الهيكل ؟
قال : نعم .
قالت : ومن اعطاك هذه الرسالة ؟
قال : رجل لا تعرفينه كما اني لا اعرفه .
قالت : صفه لي .
فأخذ الخبيث يصفه قائلاً : كبير الرأس . عريض الصدر . ضخم الجثة كأنه جني ..
ثم خرج وهو يبتسم هازئاً .
فمدت كهيلة يدها المرتجفة وتناولت الرق . ثم قرأت بصوت خافت والجارية تسمع ..
فلما انتهت كان الرق قد رطبته الدموع .
فقالت الجارية : لماذا تبكين يا سيدتي وهو يعدك بلقاء لاتنفصلان بعده؟
فأجابتها قائلة : من يعلم ماذا تخلق لنا الصحراء ..
قالت : ان حرّ البادية يبعث الشوق الى الصدور ..
— : كما انه يبعث الناس الى القبور ..
قالت : وماذا تعنين ؟
قالت : اعني ان ذلك الشأن الخطير الذي لا يستطيع ان يذكره لي قد يكمن وراءه الموت ..
فضحكت الجارية وقالت : الا تظنين انه ذاهب الى حمص ؟
— : لو كانت مهمته في حمص لذكرها لي . ولكني اخشى ان يكون في تلك الصحراء الهائلة بين جماعات الشذاذ واللصوص .
قالت : لا تنسي ان اذينة هو سيد الصحراء ..

قالت : ما نسيت ذلك ولكن نحن الآن في حرب . وقد تراجع الجيش الروماني الهلاً بعد ان ترك امبراطوره في اسر سابور . فالبادية اليوم تموج بلصوص الحرب . ان هذا الشأن الخطير لا يبعثه فيه غير قائد الفرسان . ولا يفعل زباي شيئاً الا باذن اذينة .

قالت : اذا كان ذلك فاسألي اباك .

قالت : اذا كانت للسياسة يد في هذه المهمة فأبي لا يذكر شيئاً.. لقد كتب لي ان احب فتى غريباً واشقى بهذا الحب .

قالت : ان رسالته يا سيدتي لا تستوجب الخوف .

فهزت رأسها قائلة : لا ولكنها تستوجب التفكير .. ان لهجتها تشبه لهجة قائد في حرب لا لهجة حبيب لحبيب ..

ثم استرسلت في البكاء وهي تقول : اذا وجد الشقاء في الغرام فهذه طلائعه .

وارسلت حجابها تغطي عينيها الباكيتين واومأت الى جاريتها تأمرها بالمسير .

معن عند القنصل

اهلاً بك يا بني فقل لي كيف رأيت الفرس ؟

فأجابه الفتى قائلاً : اذا كانت جميع الملوك مثل سابور الفارسي فلا ... لي ملك ..

فبهت زباي وقال : وماذا فعل اللعين ؟!

فأخذ معن يصف له ذلك المشهد الغريب الذي شهده في فسطاط سابور وعيناه ترتجفان من الغيظ .

وكان زباي يصغي الى حكايته وهو يضطرب وقد بان الغضب في عينيه.

ثم قال لمعن : قم نذهب الى قصر زبدا ثم ننصرف الى قصر القنصل قبل ان نستريح .

فردد معن قول القائد : الى قصر زبدا يا مولاي ؟!

ـ : اجل . فتخمد نار غرامك الذي ارى اثارها في مقلتيك . ولكن احذر ان يخونك الجلد فتفضح نفسك .

قال : ماذا جرى لكهيلة يا مولايَ ؟

فابتسم قائلاً : يظهر انها استرسلت في الغرام فهي لا تكف عن البكاء ..

وخرج الاثنان والفتى بلباس اهل البادية تكاد كوفيته تحجب وجهه .

وكان القائد الاكبر قد خلع ثيابه واستلقى على فراشه . بينما كانت كهيلة تصعد زفراتها على شرفة القصر ..

ولشدة الظلام لم تبصر زباي ومعناً يجتازان الميدان ..

واذا بحاجب القصر يقف امامها ويقول : مولاتي لقد نام كل من في القصر من غلمان واظن ان مولاي القائد في غرفته وانا لا اجسر على الدخول عليه .

فقالت : ماذا جرى ؟

قال : ان في قاعة الجلوس رجلين احدهما قائد الفرسان والآخر فتى لا اعرفه .

فبذلت جهدها في اخفاء دلائل الاضطراب التي ارتسمت على جبينها . وقالت للحاجب :

عد الى مكانك وانا ارى هذين الضيفين ..

ثم مسحت دموعها ومشت الى قاعة الجلوس ..

فما رآها معن حتى احمر وجهه وبرقت عيناه. اما هي فكادت تقع على الارض من شدة الاضطراب ..

ففاجأها زباي بقوله وهو يتجاهل الأمر :

لا تستغربي يا كهيلة وجود هذا الفتى الغريب فهو ابن صديق لي وابوك يعرفه

فصافحت الاثنين وهي تقول : اهلاً بالفتى الغريب فقد رأيته قبل الآن ..

فضحك زباي وهمس في اذنها قائلاً : في رواق القصر ؟؟

فتصاعد الدم الى وجهها لأنها فهمت في ذلك الحين ان القائد يعرف كل شيء ..

وكان معن ساكتاً . وهو يحدق الى تلك الفتاة الفتانة التي استولت على فؤاده . بعينين تنطقان بكل معاني الحب ..

فنظرت اليه نظرة عتاب . فقال : لقد خانني الصبر فبحت بغرامي . ولكن قائد الفرسان هو ابي ولولاه لم ارك في هذا الليل ..

فسترت وجهها بكفيها وعادت الى ذرف الدموع ..

فقال زباي : لا تبكي يا كهيلة . ان الحب عاطفة لا تثبت في الصدور بل تظهر الى العيون ..

ولو لم يرسل القنصل معناً في مهمة لما عرفت انكما عاشقان الا تذكرين تلك الرسالة التي اعطاك اياها حارس الهيكل ؟.

قالت : اتعرف هذا ايضاً ؟

قال : ان الذي حمل اليك الرسالة هو انا .. لقد جعل قائد الفرسان نفسه غلاماً ينقل رسائل الغرام ..

فتمتمت كهيلة كلمات لم يفهمها الاثنان ..

اما زباي فاستطرد قائلاً : ان المجال لا يتسع الان للبحث في شؤون الهوى فستجتمعان غير مرة وتتشاكيان الحب .. ولكن هنا . في هذا القصر وليس في هيكل الشمس .. واذا تصدى لكما القدر فانا اظل بينكما ذلك الرسول .. اراضية انت الآن ؟

قالت : وكيف عرفت ابي يا معن ؟

قال : رأيته في قصر مولاي زباي قبل خروجي الى البادية ..

: ومن ارسلك في الشأن الخطير الذي ذكرته لي ؟

فأجابها زباي قائلاً : ارسله القنصل ونحن الان ذاهبون لنراه في القصر . فقولي لابيك اني انتظره .

فخرجت كهيلة ودعت اباها . فلما اقبل على قاعة الجلوس قال : اهلاً بابن القائد ورفيقه الباسل . ماذا فعلت ايها الحمداني ؟

فنهض زباي قائلاً : سيقص علينا كل ما رآه في قصر القنصل ...

فخرج الثلاثة . وقد عاد الى كهيلة الرجاء فاستسلمت الى النوم .

* * *

كان الليل قد انتصف واذينة وزينب لم يناما .

انهما كانا يتباحثان في امور الدولة . على عادتهما في كل ليلة .

فاستأذن الثلاثة عليهما . ودخلوا ..

فأحس معن عندما رآهما انه امام شخصين غير عاديين ..

فمد يده الى الامام مسلماً ثم تراجع الى الوراء .

فقال أذينة للقائدين : أهذا هو رسولنا الى سابور ؟

فقال زباي : نعم وقد عاد منذ ساعة .

فقال : انتسب ايها الفتى .

فرفع معن رأسه قائلاً : معن بن زبيد سيد آل حمدان .

فبرقت اسرة وجهه وقال له : اجلس انك خير السادات .. الا تحمل الينا كتاباً من ملك الفرس ؟

قال : لا ولكن احفظ كلاماً .

فبانت الكبرياء في وجه زينب وقالت : الا ينعمناسابور الفارسي بجواب ؟ حدثنا بكل ما رأيت يا ابن حمدان .

قال أأذكر يا مولاتي كل شيء ؟

قالت : اجل واحذر ان تخفي شيئاً .

فقال : لقد استخف بنا الفارسي عندما مثلنا بين يديه . فلما ذكرنا له مهمتنا انتقل الى الاستهزاء واهان مولانا القنصل .

فقال اذينة وهو هادئ : اتذكر ما قال ؟

— : نعم يا مولاي واني لأخجل ان اعيد قوله .

— : آمرك بأن تعيد كل ما رأيت وسمعت ..

قال : لقد قال لاركان حربه قبل ان ندخل عليه ..

متى اصبح اذينة البدوي يراسل الملوك ..

— : وبعد ذلك ؟

— : فلما دخلنا عليه قال : انتم وفد اذينة الذي يصيد الظباء في البادية ؟! فقلت

: اذينة الذي يصيد الرجال ..

فاصفرت شفتا زينب واخذ جبين زوجها يسود ..

ثم قال معن : ليس الفرس كالعرب يا مولاي . انهم لا يحترمون اضيافهم ولا يأذنون لهم في الجلوس .

فقالت زينب : أألى هذا الحد ؟

— : نعم يا مولاتي فلقد مكثنا في معسكر الفرس يوماً كاملاً لم يدعنا فيه احدهم الى طعام !! وكان سابور يطعن بالقول على مولانا القنصل وجماعات الروم ثم احضر اسيره فالريان تطوقه سلاسل الحديد . ووضع رجله على جبينه وحين يسخر به ويقول :

ان اذينة عامل الرومان وصنيعتهم بعث الى معسكرنا هؤلاء الفتيان ليخلصوك من الأسر .

وكان الترجمان ينقل الينا قوله فقال لي : اعطنا رسالة مولاك . فلما قرأها الفارسي حين يردد الفاظها وهو يضحك ثم قال : يريد اذينة البدوي ان يخدعنا بألفاظ هذه الخلابة لنثق برجاله فيطلقوا فالريان .

وكما يثب النمر على فريسته نهض سابور عن سريره وترك فسطاطه سائراً الى ضفة الفرات . فتبعه رجاله ونحن خلفهم حتى وصل الى الشاطئ فقال : اين هدايا اذينة ؟ فحملوها اليه فأمر فقذفوا بها الى الاعماق . ثم تناول رسالة مولانا القنصل من يد قائده وطرحها الى الأرض وقال لي : هذا هو جوابنا عن رسالته فخبر مولاك بما رأيت !!

فساد القاعة سكوت يسمع معه همس الانفاس .

ثم قال اذينة لزبدا : ما رأيك ايها القائد ؟

قال : ان الرأي ما يراه القنصل .

— : وانت يا زباي ؟

— : اذا اردت امراً فليس لأحدنا رأي .

ومن رأي القائدين ان يحاربا الفرس . غير انهما لم يريدا ان يكونا البادئين

بالاقتراح .

فالتفتت زينب الى الفتى قائلة : نسمع رأي هذا الحمداني .. فماذا ترى يامعن •

فقال معن ولم يتلعثم لسانه : خير الآراء ان نفاجئ الفرس بالسيف .

وكان اذينة وزينب يتلظيان غيظاً . فصاح الاثنان بصوت واحد الحرب الحرب .

وكأن القنصل اراد ان يجعل معناً من رجاله . فهمس في اذن زينب قائلاً سيكون لهذا الفتى شأن .

قالت : اجل فاحسن اليه واجعله بين الفرسان .

لكن اذينة كان يفكر في غير ذلك . فقال لمعن : في البادية طوائف كثيرة من آل حمدان .

قال نعم وكلهم على الطاعة يا مولاي .

قال : ايحاربون في صفوفنا ؟

قال : كل حمداني في الخامسة عشرة من عمره هو من جنود القنصل .

— : وبنو حمدان رجال بأس ونحن نعرفهم .. فكم هو عددهم ؟

— : ان الذين يحملون السيف يجاوزون الألفين يا مولاي .

قال : اي الشعبين احب اليك . الفرس ام الروم ؟

قال : ما احسست اني احب احدهما ..

— : لماذا ؟

— : لان الروم انصاف آلهة ولان الفرس قوم اجلاف وكلا الفريقين [illegible] لو استطاع . ان يجعلنا عبيداً .

فقال اذينة في نفسه : ليس بين رجال تدمر من هو افضل من هذا [illegible] مروءة وإباء . ثم قال :

لقد سألنا زباي ان نجعلك من الفرسان . أهذا هو الأمر الذي ترغب فيه ؟

قال : اتكافئني على المهمة التي ذهبت فيها يا مولاي ؟

— : اجل ونريد ان نحسن اليك لانك من المخلصين .

قال : وهل يكافئ سيد تدمر رجاله اذا اطاعوه ؟

اني ارجو منك يا مولاي الا تفعل .

قال : لكل شيء عندنا ثمن يا ابن حمدان . وسيد تدمر يحب ان يدفع الى رجاله ما لهم عليه من ديون .. لقد جعلناك فارساً فالبسه يا زباي ثوب الفرسان

فنهض زباي قائلاً : باسم الفتى الحمداني اشكر مولاي القنصل ...

قال : اما الشكر فاتركه ايها القائد وقل لقائد الحرس الخاص ان يحضر بثياب النوم .

وكان قائد الحرس من اشراف المدينة وهو في الأربعين من عمره فلما اقبل قال القنصل :

جعلنا هذا الفتى من فرسان تدمر ثم نقلناه الان فجعلناه من الحراس .

فانحنى القائد لاذينة وصافح معناً .

ثم استطردا اذينة قائلاً : ونحن نأمرك الان ايها القائد بأن تتخلى له عن قيادة الحرس وتنصرف الى قيادة الرماة .. اما قائد الرماة فقد عزلناه لانه كان بليداً يوم عرضنا الجيش .

فتساقطت دموع زباي من الفرح ونظر كل من في القاعة الى الفتى الحمداني نظرة احترام .

اما معن فجثا على ركبته وقبل ثوب القنصل وهو يقول : لقد غمرتني بفضلك يا مولاي وانا لم افعل ما يستوجب هذا الفضل .

فأجابه قائلاً : لكنك ستعرف كيف تقابل هذا الاحسان على ما نظن : . كم بقي من الليل ايها القواد ؟

فقال زبدا : نحن في آخر هزيع منه .

فالتفت الى نسيبه قائد الحرس السابق وقال له : ادع رجال المجلس في هذه الساعة ولا تقبل اعتذار احد عن الحضور .. اجل . ان الليل كله سنحييه بالنظر في امر سابور الذي خرق حرمتنا واهان رسلنا .

ثم قام فدخل مع زينب الى القاعة الاخرى ومكثا فيها زهاء ساعة يتبادلان الآراء .

فلما خرجا قال : لقد اردنا ان نضع يدنا في يد سابور لنقذف بهؤلاء الرومان الى البحر كما تعلمون .. غير ان هذا الفارسي كان اعظم من ان يعطينا يده المقدسة وارفع من ان يتحفنا بجواب .. فنحن اذاً نترك الماضي ونتخذ لنا هدفاً آخر نتجه اليه بكل ما في تدمر وما في البادية من قوى لنسحق سابور الظالم الذي يستخف بالرجال . أفلا ترون ان السكوت على الأهانة ذل لتدمر وعار يلحق بنا الى الأبد ؟؟!

قالوا : بلى وما كنا لنصبر على ضيم .

قال : ونحن لا نحب ان ننفرد بالرأي وننصرف الى ساحة الحرب دون ان نستشير الأمة ونأخذ رأي الشيوخ .

قال زبدا : ليس في تدمر من لا يغضب لكرامته يا مولاي . ان اهانة القنصل لا تغسلها غير الدماء .

فقال : يجب ان تحضروا الجلسة فقد يسألكم احد الشيوخ رأيكم في الحرب . وعندما ينصرفون فابقوا انتم لننظر في الأمر من وجه آخر .. تقدموني الى المجلس فسألحق بكم مع زينب .. اما معن فالبسوه ثوب قائد الحرس وليبقَ هنا ليرافق مولاه .

فخرج القواد الثلاثة . وقائد الرماة الجديد يقول في نفسه : لم يجد اذينة في مراتب الجيش غير منصب القيادة في الحرس يهبه للفتيان ..

واحتدمت نار البغض في صدره . واضمر من تلك الساعة الشر لأذينة ولمن حوله..

وكان الشيوخ قد بدأوا يفدون على المجلس . وهم واثقون . بأن الدعوة في ذلك الليل لا تكون الا لحرب .

وكان الحراس والشرط . قائمين صفين في ذلك البهو الواسع الذي يجتازه القنصل . والذي يؤدي الى تلك القاعة العظيمة الجالس على مقعدها شيوخ التدمريين .. فقيل لأذينة ان المجلس يغص بالاعضاء .

فترك قاعته يجر ذيل ثوب الرياسة. والى جانبه زوجته زينب ترفل بالارجوان. وامامها قائد الحرس الجديد بلباسه البراق الذي يبهر العيون .

يما كادوا يدخلون القاعة . حتى امتدت الايدي وخفضت الجباه . لذينك
ـين اللذين يعبدهما الشعب .

فقام اذينة خطيباً قال : ايها الشيوخ والقواد :

ـقد عرفتم كيف فاز الفرس على الرومان وكيف اسر فالريان . وقد بلغنا اليوم
ـظافر الفارسي يعد عدته ليزحف الى تدمر فيخضعها لسلطانه بالسيف .

ورتفعت اصوات تقول : نملأ الحصون حراباً والابراج سهاماً ونداقع حتى الموت.

قال : بل هذا هو الذل . ان التدمريين لا يطيقون ان يزحف عليهم فاتح
ـبور وهم لا ينقلون اليه قدماً . نحن شعب لم نغلب في قتال . فلماذا نلجأ الى
ـحصون ونداقع من وراء الأسوار ؟ ان سابور عندما يقوم في ذهنه انه يقدر
ـ خضاع تدمر . يقوم في ذهن اذينة . في الوقت نفسه . انه قادر على
خضاع المدائن عاصمة الفرس . وكما انه يطمع بان يخفق علمه في هذه السماء.
ـحن نثق بان العلم التدمري سنرفعه فوق اسوار بلاده ..

فقام احدهم فقال : ان ذلك الجيش اللجب الذي قاده الامبراطور
ـيرني الى الرها لم يثبت امام قوات الفرس ..

فحدجه اذينة بنظره وقال له : ايقوم شيخ من شيوخ تدمر فيدعوا امته الى
ـقف العار ؟؟! اذن فسابور الفارسي . الذي ظفر بفالريان . قوة من السماء
ـتغلب ولا تتراجع الى الوراء !! ان صاحبك الفارسي لولا الخيانة في صفوف
ـرومان لكان الآن في اسر القيصر يرسف بقيوده . ومع ذلك فهب ان سابور
ـ الحرب فالجيش التدمري لا يحتمي باسواره . بل يهاجم عدوه في عقر داره
ـحصد السيف رجاله في ساحات الوغى خير له من التحجب وراء الجدران.
ـ اردنا الحرب وسنزحف الى المدائن على رأس جيش عربي يملأ السهل فمن
ـدها مثلنا فليستعد لنا ومن أبى فليظهر لنفسه .

فهبت في ذلك المجلس عاصفة قوية من الحماسة والاستحسان. وصاح الاعضاء
جميعهم قائلين :

لقد اردنا ما اراده القنصل فلتكن الحرب .

فقال اذينة : وأنتم ايها القواد ماذا تقولون ؟

فقام زبدا فقال : باسم القنصل . واسم الجيش التدمري اشهر السيف في وجه الفرس .

وهكذا قال كل من حضر من القواد ..

فلم يبق الا ان يأذن القنصل . في رجوع اولئك التماثيل الى مخادعها يقضون ما بقي من ذلك الليل ..

فأومأ اليهم بالانصراف . ونزل عن كرسيه . فخرج . وتبعته زينب وقواد الجيش الى مجلسه الخاص :

وبينما هم يجتازون الاروقة . قال اذينة لابن حمدان :

ألا يطيب لك القتال يا معن ؟

فقال : لقد جعلني مولاي القنصل قائداً لحرسه . فسأثبت له اني جدير بهذه القيادة .

قال : ان الرجال تعرف في هذه الحرب والويل للذليل الجبان .

حتى وصلوا الى الجناح الذي يقيم فيه القنصل وزوجته . فدخلوا الى قاعة كبيرة قامت في جوانبها عمد المرمر وكان قد تنفس الفجر .

وصدرت الاوامر لحجاب القصر العظيم بان يمنعوا دخول الزائرين حتى يكن مقامهم في تدمر .

ثم اوفدت زينب واحداً من الحراس يدعو قائد الحامية الروماني . وارسلت غلاماً يدعو هيروديس .

فقال لها اذينة : ولكننا نؤثر ان نزحف بالجيش العربي دون ان يكون بين صفوفه جندي واحد من الروم .

فاجابته قائلة : ليست الحرب في الظاهر دفاعاً عن شرفنا الذي اهين . لا انتصاراً للرومان وسعياً وراء انقاذ القيصر الأسير . فأنا ارى أن الكتائب الرومانية المقيمة في الاقاليم يجب ان تشاركنا في القتال . ويمشي في صفوفنا كل جندي افلت من مواقع الرها .

قال زبدا : هذا هو الرأي وعلينا ان نفاجئ الفرس بجيش يسد منافذ بلادهم ويطي ارضهم .

قال : نخشى كثيراً ان يفسد علينا قواد الرومان الحرب .

قالت : القيادة العامة في يد العرب فان لم يرضوا فليتركوا الصفوف ويحاربوا الفرس منفردين .

قال : اذا كان هذا فسنرى اذا كانوا يقبلون ..

ثم اقبل هيروديس يمشي بعظمته وجلاله فقبل رأس ابيه ويد زينب . ثم صافح القواد واخذ يحدق مستغرقاً الى ذلك القائد الفتى قائد حرس اذينة .

فقال له ابوه : هذا زعيم آل حمدان يا هيروديس .

قال : وانا اراه بلباس قائد الحرس !!

قال : اجل فهو يقود حرسنا منذ اليوم وبنو حمدان خير القبائل النازلة في البادية واشدها اخلاصاً لنا .

فتصافح الفتيان : واحس كل منهما بعاطفة ميل الى الآخر .

وبعد قليل استأذن قائد الحامية على القنصل ..

فلما مثل بين يديه نهض اذينة عن مقعده فصافحه وانحنى الروماني امام زينب الجالسة كما تجلس الملكة على العرش .

فافتتح القنصل الحديث قائلاً : أتعلم لماذا دعوناك ايها القائد ؟

قال : لا اعلم شيئاً يا سيدي القنصل .

قال : لقد اجتمع الشيوخ الآن واجمعوا على حرب سابور .

— : أفي هجوم ام دفاع ؟

— : بل في هجوم نفاجئ به بلاد الفرس فنكرههم على الالتجاء الى القلاع . والدفاع من وراء الاسوار .

فبغت الروماني وتردد في الجواب .

فقال اذينة : يظهر ان اسر الامبراطور اضعف عزيمة الرومان .

قال : يعلم سيدي القنصل ان الرومان لا تخور لهم عزيمة . لكن الحرب

تسيرها في بلاد الفرس تقضي الى الفشل .

ـ : ومن اين لك ان تعرف هذا ؟

ـ : لاني رأيت صفوف سابور وخبرت قتالهم . ان الفرس اسود الحرب ايها القنصل .

فابتسم القنصل ابتسامة استخفاف وقال : ما حسبت من قبل ان المليك الفارسي يبعث الذعر الى قلوبكم يا قواد الرومان في مثل هذا الشكل : واني لاراكم ترتجفون خوفاً اذا ذكر لكم اسمه وسيستمر هذا الخوف حتى يهاجمكم في اقاليمكم ويطردكم من الشرق الطرد القبيح تجرّون بعده ذيول العار . انتصدى نحن العرب للدفاع عن شرف الرومان والرومان قابعون في بيوتهم لا يجرد لهم سيف ولا يرتفع لهم صوت ؟؟! ألستم انتم ايها القائد اولئك الفاتحين الذين اخضعوا الشرق والغرب وبسطوا نفوذهم في الآفاق . فضاقت خزائنكم بما يحمل اليها من خراج . وبلادكم بما يرد عليها من خيرات الارض ؟!..

فدبت الحمية في رأس الروماني وقال : انا لكذلك ايها القنصل . ولئن تراجعنا مرة الى الوراء فلكم مشينا مرات الى الامام نقتحم الاسوار وندكّ الحصون . ونرفع اعلامنا ظافرة فوق الابراج . نحن لا نخاف الفرس ولا نبالي بصفوفهم تملأ السهول . واذا سقط القيصر اسيراً في يد عدوه فالخيانة لا اذكرها حتى يتصدع القلب .. وسنعرف كيف ننتقم من الخائن . لكن الحرب امرٌ ليس في يدي وعلى سيدي القنصل ان يستشير والي فينيقيا وسوريا في هذا . فاذا اراد الحرب بعث بامره الى الاقاليم فتمشي جنود الرومان الى جانب جنود العرب ونزحف جميعاً الى عاصمة الفرس فنستعيد الكرامة بالسيف ان حامية الرومان في تدمر عندما يأمر القنصل تسير في طليعة الجيش الى الميدان . غير انها حامية قليلة العدد لا تبرد لك غليلاً الا اذا انضم اليها الجيش المقيم على الشواطئ وفي حمص ودمشق ..

فهمس اذينة في اذن زينب قائلاً : لقد عادت الى الروماني رباطة الجأش ثم قال : كم هو عدد الجيش في بيروت ؟

— : ان الحامية على الشواطئ يبلغ عددها العشرة الآف

— : وفي دمشق ؟

— : وفي بعلبك وحمص ودمشق اكثر من عشرة وكلهم رجال حرب .

فقالت زينب : اذن تكون قوة الرومان اكثر من عشرين الفاً ما عدا رجال حامية في تدمر

— : نعم وهؤلاء يبعثهم نائب القيصر .

فقال اذينة : بل يبعث نصفهم ويبقى للحماية النصف الآخر . ولكن اعلم ايها القائد ان القيادة العامة هي للعرب . ليس لان الجندي العربي اقوى ساعداً من الجندي الروماني فحسب. بل لانه اكثر خبرة بطرق البادية ايضاً . وهو يعرف بلاد الفرس كما يعرف بلاده ..

فامتعض القائد وقال : وذلك ايضاً رأي الوالي ايها القنصل .

قال : اعرف هذا وسأبعث اليه في ذلك .

فقال : ولكن لا تنس يا مولاي ان الجيش لم يزل متضعضعاً وهو لم يسترح بعد رجوعه من الرها ..

قال : لا تحشد الصفوف في تدمر حتى يكون هذا الجيش قد استراح .. اين ابنك اسكندر اني لم اره ؟..

— : انه بعد الهزيمة لم يغادر القصر ..

قال : ذلك شأن الجبان الذي يستسلم الى اليأس اتراه يقضي حياته ضمن الجدران ؟!

قال : ليس هنالك يأس ايها القنصل بل خجل ..

فقال : الرومان الذين دوخوا العالم لا يخجلون اذا خانهم الحظ مرة واحدة ، انصرف الآن ان شئت . واعد كل ما يحتاج اليه جيشك الصغير .

وكان معن يصغي الى الحديث وقد تنبهت عاطفة الغرام .

فلما نهض القائد يريد الانصراف . قال لاذينة :

اني ارى قائداً جديداً لحرس القنصل ما رأيته من قبل .

فأجابه قائلاً : انه من حمص . وستنظر الى فعاله في حرب سابور ..

ومن اين لقائد الحامية ان يعلم ان هذا القائد هو عاشق كهيلة ومزاحم ولده !

* * *

عندما خرج الروماني قال هيروديس لأبيه :

اني لا احب هذا الرجل يا مولاي .

فابتسم القنصل لذلك الفتى البطل وقال له : ولماذا لا تحبه وهو يحترمك كما يحترم اباك ؟

قال : لأنه اخبث رجال الرومان الذين اعرفهم . ولا يضاهيه في الخبث غير ولده ،

فقال معن : لقد كاد ولده يقتلني يا مولاي :

قال : اسكندر نفسه ؟؟

ـ : نعم وذلك يوم قدوم القيصر :

فعض زباي على شفته مشيراً عليه بالسكوت

اما اذينة فقال : اتعرفه من قبل يا معن ؟

ـ : لا يا مولاي . ولم اكن يوم قدمت تدمر اعرف احداً .

ـ : وكيف جرى ذلك ؟

ـ : اتذكر يا مولاي تلك الساعة التي عرضت فيها الجيش ؟

قال : اجل .

فكاد هيروديس ينتزع الالفاظ من حلقه ..

قال : وكنت راكباً فرسي اتفرج على كتائب الجيش تروح وتجيء في الميدان . فلما انصرف مولاي القنصل بصحبة القيصر ، اقبل عليّ الروماني وامرني بان اغادر تدمر لا يأذن لي في البقاء فيها غير ساعة واحد !!

فنظر القنصل الى زوجته ضاحكاً .

اما زينب فقالت : وماذا كان جوابك يا معن ؟

قال : لقد كان سيفي اسبق من شفتي في الجواب : ايطردني الروماني من بلد سيده اذينة ؟؟

فهز زبدا رأسه وقال : ذلك هو الجنون ..

فقال اذينة : اما الان فلا يحاول هذا المجنون ان يتصدى لك :

ثم التفت الى هيروديس قائلاً : وانت يا بني فاخف بغضك في صدرك فقد
..وناك لما هو اعظم من هذا . قل لي يا زبدا . الا نستطيع ان نحشد ثلاثين الفاً
.. رجال القبائل ؟
قال : ما اظن ان في البادية رجلاً واحد يتخلف عن الدعوة الى الحرب.
قال : ولقد رأينا ان ندعوهم جميعهم الى ظاهر تدمر حيث ننظم الصفوف
— : ومن يتولى قيادتهم يا مولاي ؟
قال : يتولى امر كل عشيرة اميرها . ويتولى امر الجميع ولدنا هيروديس لأنه
..رف عاداتهم. وقد قضى معظم حياته في البادية. الا يطيب لك ان تقود العشائر يا بني ؟
فأجابه الفتى قائلاً : لو صارت العشائر جناً وامرني مولاي بأن اقودها لفعلت.
قال : وانت تعلم كيف تجامل الامراء .
قال : سأكون بينهم جندياً وسيكونون لي قواداً .
فقالت زينب لابيها همساً : ما رأيت ولداً يشبه اباه في مروءته وخلقه ، مثلما
..شبه هيروديس اذينة ..
ثم قال اذينة لزبدا : اواثق انت بجميع قواد الجيش ؟
قال : سأعرض الصفوف يا مولاي ثم ارى .
قال : ان الحرب لا ترحم احداً . فاذا رأيت بينهم من لا يصلح للقيادة
..حه عنها واستبدله بسواه . يجب ان يكون الجيش التدمري خير الجيوش التي
..خرج الى الميادين. وما كنا لنقدم على قتال سابور في بلاده لو لم نكن واثقين بالظفر.
..جدوا غايتكم وضعوا نصب أعينكم ايها القواد انكم ستصبحون سادة الشرق وابطاله
ثم التفت الى حميه وقال : لا اسألك عن فرقة الفرسان فهي زهرة الجيش
..سيف الذي لا يصدأ. اما انت ايها القائد «واشار الى قائد الرماة» فاريد ان تكون
.. منصبك الجديد مثلك في قيادة الحرس. انك من اخلص الرجال واحسنهم خدمة.
فقال القائد في نفسه : لقد كنت كذلك . اما الان فقد غيرني الزمان .
واستطرد اذينة قائلاً : اما وقد اجمعنا على القتال فليكتب كل واحد منكم كتاباً،
اكتب يا هيروديس الى بني اياد بن نزار وبني كلب وقبائل العنزة ، وكل

العشائر التي تنتمي الى قضاعة . اكتب اليهم وعدهم بما تشاء من الوعود . وابذل لهم ما يطيب لك من المال .

وانت يا زبدا فاكتب الى والي فينيقيا واذكر له اننا نريد ان ننتقم لشرف الرومان . ولا تنس ان تقول ان القيادة العامة في هذه الحرب هي للعرب ولو شاركنا فيها غاليانوس بن فالريان نفسه ، الذي هو اليوم امبراطور الرومان بعد ابيه .. وزباي يكتب الى دمشق . ومعن الى حمص وبعلبك. ولنرسل الرسل اليوم . بل بعد ساعة على الاكثر ..

سنعد للجيش القادم كل معدات الراحة . وفي ظاهر تدمر ، في الجانب لشرقي يجب ان ينزل الجيش .. ماذا ترين يا زينب ؟ اذا كان لك ما تقولين فأذكريه قبل ان نبعث بالرسائل الى الاقاليم .

فقالت : لقد ذكرت لك كل شيء من قبل . والرأي ما رأيت الان.

قال : اذن فلم يبق الا ان تقرأي ما يكتبون .

قالت : اجل وانا اخشى ان لا يعترف الرومان للعرب بالقيادة .

قال : اذا فعلوا خطونا الخطوة الأولى في سبيل الاستقلال ..

ثم أخذ يتمشى في القاعة بينما كان القواد يجهدون في استخراج الألفاظ حتى انجزوا مهمتهم وقرأوا ما كتبوه .

فرأى اذينة زوجته تبتسم ابتسامة الرضى فقال :

ابعثوا رسلكم وليسرعوا في العودة . ونادوا بالحرب في الجيش التدمري وفي أسواق المدينة ليستعد لها كل من يقدر على حمل السيف. وليذكر لي كل واحد منكم في مساء كل يوم ما يصنع في يومه ..

قال هذا وهم بالدخول الى قاعته الخاصة . ليراجع ما كتبه عمال الحكومة ورجال الاحصاء عن عدد الذكور في قبائل العرب فقالت زينب :

لي كلمة اقولها لكم ايها القواد قبل ان تنصرفوا. ان روما ستنظر اليكم نظرها الى قطعة من جندها تبعثها لاخضاع ثائر او لفتح بلد في هذا الشرق .. اما انتم فيجب ان تعلموا انكم جيش حر له قيادته واستقلاله . اذا ظفر بسابور تهيب

العالم كله سطوته وسيفه . واذا فشل لحق به العار . وخضع للرومان الى الأبد خضوعاً شائناً ينتهي بالذل ثم بالموت .. ان هذه الحرب تسعرها تدمر لا روما فاما ان تشرفوا قومكم واما ان تطوقوهم اطواق العبودية والاستسلام .

ايها القواد : ابنوا لبلادكم صروح المجد والفخار والا فاحفروا القبور ولندفن عنا ونحن احياء ..

ثم اومأت لهم بالانصراف. وتقدمت اذينة الى غرفة عمله ، بكل مظاهر العظمة والعز

فقال هيروديس : ان تدمر بفضل زينب ستسود الشرق .

وكان معن مبهوتاً لما سمعه ورآه . وزباي يمسح دموعه . متأثراً من مظاهر ... التي تبدو في كل كلمة تقولها ابنته .

وقبل ان يغادر القواد قصر القنصل . التفت هيروديس الى قائد الحرس الجديد قائلاً له : ابق في هذا القصر ايها القائد لأني اريد ان اراك اذا شئت .

فقال : لك ان تأمر يا مولاي وليس لي ان اشاء ..

فهمس زباي في اذن معن قائلاً : من كان يصدق يا بني انك تصير ... في اقل من ساعة ؟

قال : لولا عناية مولاي القائد لما عرفني احد .

٨

صديق جديد

كان لهيروديس بن اذينة ، جناح خاص في قصر ابيه ، له فيه الخدم والغلمان ... وفرت حوله تلك الاسباب التي تحيط بالامراء ابناء الشرف والمجد .

ولم يكن هيروديس يهتم لما يهتم له الامراء الوارثون ، من غلوّ في عيش الترف والرخاء وانصراف الى ملذات الغنى والنعمة .

كان رجل حرب ورجل مطامع كما هو ابوه اذينة . وكما كان جده اذينة وهو

الفتى الباسل يستخف بالاخطار . ويستهيين بكل ما يراه : من ضعف في النفوس والارادات .

وكان كثير المغامرات . يقتحم الامر الجلل وهو باسم الثغر ولا يطيق ان يرى بين رجاله من يبخل بنفسه في سبيل قومه .

وكما اضمر ابوه الشر للرومان بعد ان قتلوا اذينةالأول.هكذا اضمر هيروديس الشر لقاتلي جده . يبغضهم لا يستثني احداً . لكنه كان يعجب بقوتهم وطول باعهم في فنون الحرب . وتهالكهم في خوض غمارها لاكتساب المعالي .

ولولا زينب . اجل لولا تلك الملكة العظيمة ذاتالدهاء السياسي العجيب لما استطاع هيروديس ان يخفي بغضه . ولكان جاهرهم بالعداوة حتى يفصل السيف بينه وبينهم .

ان زينب كانت تنصح له بالصبر لئلا يفسد على ابيه امره . وقد كان يعلم مطامع ابيه . ورغبته في بناء العرش المستقبل ..

وقد سكت على ما في نفسه . فهو لا يريد ان يهدم في ساعة غضب ما يبنيه ابوه من دعائم الملك . واذينة نفسه من الجهة الاخرى . اطاع زوجته فأخفى حقده في اعماق صدره يساير الزمان .

ونفس هيروديس تواقة الى الميادين .كما تتوق نفوس الفتيان الى ملذات الصبا ولهو الشباب . فاذا لم يكن هنالك حرب تدعو الىحمل السيف حمله الى الاودية والجبال . واضعاً قوسه وجعبة سهامه على ظهر الجواد . يصيد مع فريق من اصحابه كل انواع السباع .

فلما دعاهابوه في فجر ذلكاليوم وعرفانهم سيحاربونالفرسبان الفرح فيعينيه. وازداد ذلكالفرحعندما رأىاصرار القنصل علىجعلالقيادةالأولىفيالجيشلقائد عربي.

غير انه كان يجهل الغرضمنتلك الحربايحشد ابوه صفوفالتدمريين ويزحف بهم الى المدائن دفاعاً عن شرف الرومان ولكي ينقذ القيصر ؟!! وما هي تلك السياسية الطائشة التي تقضي على ابيه بان يقذف برجاله الى اتون النار انتصاراً لاعدائه ؟؟! بل ما بال اذينة يستبدل قائد الحراس الشريف . بفتى صغير السن

ـريب لا يعرف عنه شيئاً ولم يقع عليه نظره مرة قبل ذلك اليوم ؟! ومتى كان ـشبان يقودون الجند اذا لم يكونوا الابطال المجربين الذين عرفتهم الحرب انهم ـدتها واربابها ؟!

كانت هذه الافكار تملأ مخيلة هيروديس وهو في مجلس القنصل الخاص في حين ـ كان يشعر بميل شديد الى ذلك الفتى الذي ينكر عليه شرف القيادة .

وكان يقول في نفسه : ما كان ابي ليقدم على الحرب الا لأمر . وما كان ليرفع حمدانياً الى رتبة قائد الحراس الا لمثل ذلك الأمر .

فعمد الى استطلاع السر من ذلك الحمداني الجذاب الملامح القريب الى القلوب . لاسيما وقد آنس منه انه يبغض الرومان . وقد كاد اسكندر بن قائد الحامية ـتـه في ميدان تدمر . دون ما سبب يدعو الى القتل بل الى اظهار العداء .

* * *

مشى معن وراء هيروديس يفكر في هذا الطلب وهو لا يسأله عن شيء ولم يكن ـ عن الفتى ، الا ما يعلمه جميع الناس عن بطولته وكريم خلقه .

لكنه احبه من كل قلبه . قبل ان يرى تلك البطولة ويلمس ذلك الخلق وقد ـمت في صدره فجأة عاطفة اخلاص فريد له ولأبيه . الى حد انه لو سأله ـيروديس ان يثبت ذلك الاخلاص ببذل دمه لفعل .

وكانت الشمس قد نشرت شعاعها فوق تدمر عندما خلا هيروديس بمعن احدى القاعات .

فقال له : اجلس يا معن نتحدث بجلاء .

فجلس الفتي . فقال : اتعرفني من قبل ايها القائد ؟

قال : رأيتك مرة واحدة يوم قدوم القيصر ولم ارك بعد ذلك .

قال : اذن فاعلم اني صديق لك وابن اذينة لا يكذب .

ثم مد اليه يده ليصافحه . فهم معن بان يقبل تلك اليد فمنعه من ذلك قائلاً قل لي اولاً ما هي حكاية ذلك الرومي ؟

قال : انها حكاية غريبة وقد سمعتها يا مولاي .

قال ولكني لم اصدق ان صاحبنا الروماني يقدم على ذلك الا اذا أسأت اليه

– لم اسئ الى احد يا مولاي كما اني لم اكن اعرف احداً في تدمر .

– : اما انا فاعرف انك تخفي عني ما جرى . قلت قلت لك اني من اصحابك واقسم لك .

فتردد الفتى قليلاً ثم قال : انه حادث وانقضى يا مولاي .

فابتسم قائلاً : ان الحوادث مع امثال هذا الروماني لا تنقضي بيوم بل تجر خلفها الذيول . الم يقل لك احد ان هذا الروماني يعشق كهيلة بنت زبدا ؟

– : وأي شأن لي بذلك العشق يا مولاي ؟!

– : وان نسيم الصباح اذا داعب شعر كهيلة الجميل قتلته الغيرة وشهر الحرب على النسيم ؟

قال : تريد ان تقول يا مولاي ان الغرام اعمى بصيرته فهو مجنون

– : اجل . واذا ارسل مخلوق نظره الى حبيبته جرد عليه السيف الم تبصر كهيلة يوم قدوم القيصر على شرفة القصر ؟

فأحمر جبين الفتى وقال : بلى يا مولاي .

قال : واظن ان ذلك الجمال بهر عينيك فرفعت رأسك تحدق اليها ولم تخفضه بعد ذلك ..

فقام في ذهن معن ان الامير يعرف حكايته فخير له ان يعترف بكل شيء لكنه كان مخطئاً في تصوره فان هيرُوديس لم يكن يعلم شيئاً

فقال : نعم يا مولاي لقد سحرني ذلك الجمال فتصدى لي العاشق المغرور وكاد يلعب السيف دوره وينتهي الأمر بالقتل .

– : وعلى ماذا عولت الآن ؟ اتعتذر لصاحبنا عن تلك النظرة ؟

– : بل عولت على اختراق صدره بهذا السيف اذا تصدى لي :

فضحك هيرويس وقال : يظهر انك ما عرفت الغرام يا معن ؟

قال : ولماذا تسألني عن هذا يا مولاي ؟

قال : لو عرفته لعذرت المحبين .. هكذا اسمعهم يقولون لاني لم اعشق .

— : اما انا فقد كنت خلياً قبل ان اقدم تدمر . فلما رأيت بنت زبدا صرعني الغرام ..

فلم يبد على جبين هيروديس دليل من دلائل الاستغراب كأنه كان مطلعاً على اسرار ذلك الهوى .. فقال :

لكن كهيلة تنظر الى العلاء ..

فبرقت عينا الفتى قائلاً : لا تستصغرني يا مولاي فابنة زبدا لو طلبت زوجها من بين نجوم السماء لما رأت أنبل محتداً من ابن حمدان . ان فتى واحداً نبيلاً في تدمر . اعترف ان مقامه فوق مقامي . ومجده فوق مجدي . وهو اجدر بكهيلة مني . هو انت يا ابن اذينة . واما اولئك الفتيان الاشراف فان لم اكن فضلهم فأنا مثلهم .. ومع ذلك فانا لا احترم نبيلاً لنبالة اصله بل لنبالة خلاقه وادب نفسه . والحب يا مولاي يخضع للعاطفة اكثر منه للأسر الشريفة والنسب الكريم ..

فأعجب هيروديس بهذا العز الذي يشبه عز الملوك : ثم قال : لكن كهيلة قد تحب سواك .

قال : ذلك شيء آخر لا اخشاه .

— : اذن فأنت واثق بقوة السحر التي ترسلها مقلتاك .

قال : ما كنت قط ساحراً ولكني اعترفت بحبي فقابلتني بالمثل ...

فجهد الامير كثيراً في اخفاء دهشته وقال : افي مثل هذه السرعة يا معن ؟

قال : ليس في الأمر سرعة يا مولاي فقد كانت الايام التي مرت علي اطول من الدهر .

ثم بدأ يحكي حكايته منذ قدم تدمر الى ذلك اليوم . الا ذلك الجانب الذي يتعلق بقتل ابيه وبمهمته الى بلاد الفرس .

فقال هيروديس : لقد اصاب زباي في دعوته اياك الى الصبر . ان ابي وزينب يمنعاني كما منعك قائد الفرسان من ان اعرض لروماني بسوء .

وهما يقولان دائماً : ان ذلك اليوم الذي ننتقم فيه ليس ببعيد ..

قال : اراك تذكر الانتقام يا مولاي !!

قال : اذا ابغضت انت روميا لحادث غرامي . فنحن قد ابغضنا الرومان جميعاً لما هو اعظم من الغرام .. ومع ذلك فقد جمعتنا الغاية ونحن متفقان .

— : ولماذا ابغضت الرومان ؟

— : لان ملكهم اوفد من روما رجلاً من رجال بلاطه فقتل جدي اذينة الاول غدراً في ظلام الليل .

فقال : لقد جمعتنا غاية اخرى يا مولاي .

— : ما هي ؟

— : ان الروم قتلوا ابي في دمشق وكنت اظن انه مات حتف أنفه لانهم عملوا على اخفاء القتل .

— : اذن فأنت عاشق وثائر في وقت واحد ؟

— : نعم يا مولاي والويل لذلك القاتل الذي لم يذكروا اسمه لي .

فارتسمت دلائل البشر على جبين هيروديس وقال : لقد اقسمت اني صديق لك اما الان فاقسم اني اخوك .. ولكن لي سؤال آخر اسألك عنه .

— : قل يا مولاي.

— : خبرني الآن لماذا جعلك القنصل قائداً ؟

قال : ليس لهذا السؤال جواب يا مولاي لاني لا اعلم ..

قال : أأرسلك في مهمة ؟

— : نعم . لكن هذه المهمة لا تستحق رتبة القيادة . والقنصل لم يرَ وجهي الا في الليل الذي انقضى

— : لقد جعلك رسوله وهو لا يعرفك ؟؟!

— : اجل . والقائدان زبدا وزباي هما اللذان امراني باسم القنصل ففعلت.

— : وفي اي بلد كانت مهمتك ؟

قال : لا تسألني عن هذا يا مولاي فقد اقسمت على الكتمان.

قال : لكني اعرف هذا السر من القنصل نفسه .

قال : لو اردت ان تطلع على جميع اسرار القنصل لقدرت : اما انا فقد تعودت الوفاء اذا وعدت ..

فأبتسم ذلك الأمير النبيل وقال له : احسنت فلا خير في رجل يبوح بأسرار مولاه ثم نهض فضمه الى صدره قائلاً : لقد كان لك زباي نصيراً اما الان فنصيرك هيروديس بن اذينة

٩

وليمة القائد العام

كان قائد الحرس في تدمر : يقيم في قصر صغير يشبه قصر قائد الفرسان ولا يبعد عن قصر القنصل غير بضعة امتار :

وقد جعلوا لأفراد الحرس . بناءين طويلين : يمتد الواحد منهما اكثر من اربعين متراً . وهو ذو طبقات ثلاث . بنوها غرفاً صغيرة . بعضها فوق البعض الاخر بصفوف مستطيلة تفصل بينها الأروقة .

وفرقة الحرس لم يكن لها وجود في تدمر قبل اذينة الثاني ، فهو الذي اختار جميع رجالها من فتيان البادية . وجعل لهم لباساً خاصاً كثير الشبه بلباس الحرس الروماني الذي يرافق القياصرة الى الشرق . الا الرؤوس : فقد عصبوها بمغافر من الزرد تحت القلانس بدلاً من الخوذة الرومانية التي يلبسها حرس الامبراطور

ودعي الحرس التدمري . حرس اذينة. ومن حقه ان يتخذ الحرس الخاص ، لأنه كان امير القوافل قبل ان يصبح رئيساً وقنصلاً وذلك الامير تحيط به جميع الاخطار في صحاري العرب .

والفرقة . قليلة العدد جداً ، بالنظر الى حرس القيصر ، فهي لا تجاوز الالفين ، غير ان الواحد منها ليلقى العشرين في ميدان القتال ولا يبالي :

اجل . ان رجال الحرس كانوا ابطال الميادين. اذا قاتلوا غلبوا . وان غنموا وهبوا ،

وهم يمشون الى الحرب كرجال العشائر تدعى الى حفلة عرس في قلب الصحراء

وهم كجميع اهل البادية في عزة النفس وصراحة القول . ومن انزه الناس واعفهم في ايام السلم . لكنهم قساة في الحرب لا يعرفون الرحمة.

ولم يكن بينهم تدمري الا قائدهم . وهو من الاشراف كما مر .وقد اوصاه اذينة بان يرعى امورهم بالرفق واللين . ويدربهم على نظام الجيش بصبر مقرون بالرزانة والحزم .

غير ان البدوي لا يغير عاداته الا اذا مر عليه الزمان . ورجال الحرس . وان كانوا اتبعوا نظام الجيش . فقد احتفظوا ببعض عادات البادية لا يغيرونها ولو امرهم اذينة . ينامون متى طاب لهم النوم . ويأكلون ساعة يطيب لهم الأكل . واذا وفر ايديهم المال خرجوا الى ظاهر تدمر يذبحون النوق على ضفة الغدير ويشربون حتى يصرعهم السكر .

وكان اذينة يقول لقواده : حسبهم انهم اشد رجال الجيش بأساً واصدقهم في الحرب قتالاً . واصبرهم على الشدة اذا حمي وطيس الوغى.

واذا جهل القائد عادات رجاله . تعب هو في السياسة وتعبوا هم في الطاعة وقامت تلك العادات حاجزاً بينه وبينهم . حتى يهدم ذلك الحاجز مر الزمان.

كان قائد الحرس يشكو فرقته الى اذينة ويتظلم اليه . وكان عذره انه تدمري مدني . يحترم النظام الذي اوجده الرومان لسياسة الجيش وهو يجهل عادات اجداده الذين كانوا في الأصل من رجال العشائر .

وكان اذينة . يفتش عن بدوي يوليه القيادة . ويصرف التدمري الى عمل آخر : ليكون الحراس جميعهم بما فيهم القائد . رجال خشونة وبداوة لا رجال حضارة ولين.

واذينة اذا اراد ان يختار الرجال . تأنى في اختياره ونظر الى الامر من جميع وجوهه . لا يهتم لاولئك الاشخاص المتحدرين من سلالات الشرف بل لاولئك الافراد الذين تملأ قلوبهم رباطة الجأش . وتستقر بصدورهم عواطف الاخلاص والوفاء .

فلما حادث معناً في مجلسه الخاص. رأى في جبينه الزاهي، وعينيه الصافيتين، وحديثه الصريح . ذلك البدوي الحر ذا العزيمة الثابتة والنفس الكبيرة . فجعله في الحال من ساعة قائداً لحرسه . فكان معن الرجل الأول في جيش اذينة ، الذي رفعه سيد الجيش الى رتبة القيادة . دون ان يتدرج اليها شيئاً فشيئاً ،كما تقضي مصلحة الجيش ونظامه .

وجميع القواد . من زبدا القائد الأكبر الى اصغرهم رتبة في تدمر . لم يكونوا يصدقون من قبل . ان فتى يقفز الى مثل هذا المنصب العالي . دون ان يكون له الماضي الحافل بمظاهر القوة والاختبار . ودون ان تشهد له الميادين انه فتى الحرب .

وبمثل السرعة التي ارتقى فيها معن بن حمدان . منصبه الجديد . اجل . بمثل تلك السرعة انتشر خبر قيادته في المدينة . فتاقت نفوس الجنود الى رؤية القائد الفتى الذي يقود رجال اذينة الى ساحات الحرب .

* * *

قبل ان يغادر معن غرفة هيروديس . قال له الأمير :

لقد اصبح لك في المدينة قصر خاص يجب ان ترى ما فيه من جوار وغلمان :

قال : نعم .

قال : كما انه يجب ان تعرض الحرس الذين تقودهم قبل ان ينقضي اليوم.

قال : ان مولاي القنصل لم يأمرني بهذا بعد .

فنهض هيروديس قائلاً : اذا اراد هيروديس امراً اراده ابوه .. قم نذهب اليه الآن .

فأطاع الفتى وخرجا يريدان اذينة .

وكان القنصل في ذلك الحين ، مستنداً الى وسادته في قاعة عمله ، وقد نشرت امامه الرقوق الكبيرة ، كتبت فيها اسماء القبائل الخاضعة لسلطاته ، والى جانبه زوجته زينب يشتركان في الرأي ، واذا وقع نظرهما على اسم عشيرة صعبة القياد شديدة المراس . قال احدهما للآخر : نشتري رجالها بالمال .

فلما وصل الفتيان . قال هيروديس لذلك الحاجب البدوي :

اريد أن ارى ابي :

ففتح الحاجب الباب وانحنى امام مولاه الصغير الذي يحترمه ويحبه :

فدخل الاثنان : فابتسم لهما القنصل قائلاً :

ماذا يريد هيروديس وصاحبنا الحمداني .

فقال الأمير : الا يأذن مولاي للقائد الجديد في ان يعرض رجاله اليوم ؟

فقال وهو ينظر الى رق بين يديه : له ان يفعل ذلك اذا شاء . اما نحن فسنعرض الجند جميعه في يوم آخر :

فتراجع هيروديس يريد الانصراف . فقال اذينة :

أفي مثل هذا الأمر تستأذننا يا بني ؟

فتردد الفتى قليلاً ثم قال :

وهل يوجد في تدمر من يأمر غير القنصل ؟!

فقال : يوجد رجل آخر هو في مقام من ذكرت ..

— : من هو يا مولاي ؟

— : هيروديس بن أذينة الذي يسلطه ابوه في تدمر على كل شيء ..

فأراد الفتى ان يظهر امام معن ، ادلاله على ابيه فقال :

اني واثق بعطفك عليّ يا مولاي وعنايتك بي : ولكن ارى الناس يعلمون من امور الدولة ما لا اعلمه انا ...

فابتسم قائلاً : اضرب لنا مثلاً .

قال : يبعث ابي رسلة في مهمات لا اعرفها :

فقطب اذينة حاجبيه ووجه الى معن نظراً احد من السهم :

اما هيروديس فاستطرد قائلاً : وقد اوصى ابي اولئك الرجال بالكتمان حتى اني سألت معناً ان يبوح لي بتلك المهمة فأعتذر لي ... كأن هذا الفتى الغريب اشد اخلاصاً لمولاي القنصل من ولده .. !!

— : وكيف عرفت ان هذا الحمداني كان رسولنا في احدى المهمات ؟

قال : لقد استغربت كثيراً وصول معن الى قيادة الحرس دون ان يكون له ذكر

ب تدمر او في الجيش . وقام في ذهني ان هنالك سراً يقضي بجعله اميراً من الامراء :
ولا يكون هذا السر الا مهمة تحدق بها الأخطار . فضاها الفتى فنال المكأفاة ..

قال : وعندما سألت معناً اعترف لك بكل شيء ؟؟

— : لا يا مولاي . بل اجابني بقوله انه اقسم على الكتمان :

فأشرق جبين اذينة وقال : لقد وفى القائد الفتى بوعده ونحن نعترف لك عنه .. قد سألنا ملك الفرس ان يقترح علينا شروط صلح منفرد بيننا وبينه فرفض واهان رسل وطرح بهدايانا الى الفرات .

— : وكان معن احد اولئك الرسل ؟

— : بل كان رئيس الوفد الذي حمل رسالتنا الى سابور . اذاً فالحرب يا بني ليست في الباطن دفاعاً عن الروم . بل هي دفاع عن شرف ابيك الذي عبث به العلج الفارسي .

قال : ولماذا كتمتني الأمر يا مولاي ؟

— : لاني كنت اخشى ان تصر على الذهاب الى الفرات تحمل رسالتنا الى رجل وانا لا اريد ان اغضبك .. اذهب يا بني . واعرض الحرس مع معن . ولكن لا تنس اننا نحارب انتصاراً للروم ..

وعاد اذينة الى عمله كانه يأمرهما بالذهاب فانصرف الرجلان الى منازل الحرس ليتعارف الفريقان .

وكان القائد السابق قد اذاع بين فرقة الحرس خبر معن . فعلت الرجال ظهور الخيل . وقاموا ينتظرون قائدهم الجديد . الذين يعرفون عشيرته ومقامها المحترم بين قبائل العرب .

واذا بحاجب من حجاب قصر القنصل ينادي بأعلى صوته قائلاً :

ايها الحرس : لقد اقبل قائدكم الفتى مع مولانا هيروديس .

ثم اطل الاثنان على فرسيهما . فهتف الحرس هتافهم العادي : يعيش اذينة وتعيش زينب . وجردوا سيوفهم ينشدون نشيدهم الوطني .. نشيد البداوة الحرة ، الذي هو من اهازيج الصحراء ..

ومدوا اعناقهم يتبينون معناً ، فهمز الفتى فرسه وتوسط الساحة ليقوم بواجبه . فاذا هو خبير بقضاء هذا الواجب . كأنه احد الجنود القدماء الذين قضوا حياتهم بين طوائف الجيوش .

اجل . ان معناً لم يكن جندياً من قبل ، ولكن يكفيه انه ابن زبيدا الحمداني احد ابطال العشائر . وكثيراً ما رأى اباه وقواد الحامية في حمص يعرضون رجال الحرب

ثم أوقف جواده وقال : يا معشر الحرس : لقد ولاني مولاي اذينة قيادتكم ولم اكن غريباً عنكم فانتم مني وانا منكم . وجميعنا في خدمة مولانا القنصل وفي الدفاع عن تدمر انصار واخوة ..

انكم ابناء البوادي كما انا ابن البادية وان كنت لم اولد فيها . وبعد قليل سيندبكم امير تدمر الى الحرب . فعلى ابناء البادية ان يظهروا لجنود العالم انهم رجال السيف . كما هم رجال المروءة والاقدام

واني . وان كنت اعظمكم مقاماً . فأنا اصغركم سناً . وقد يكون بينكم من يفضلني في القيادة . لكن السن لا يهتم لها مولانا القنصل . فقد يبلغ الفتى الباسل في عنفوان صباه ما لا يبلغه الشيوخ الخاملون . وهذا مولانا هيروديس في ربيع عمره ، وليس في تدمر من يقود الجند مثلما يقوده .

فصاح ابناء البادية قائلين : يعيش مولانا هيروديس ..

ثم قال معن : ان عظمة الجيش تقوم في الطاعة . فأطيعوا قائدكم كما اطيع قوادي . والا فورأس اذينة لا ادع الصوت يرتفع بالعصيان حتى آخذ رأس صاحبه بهذا السيف .

فاهتز هيروديس لخطاب الفتى البليغ . الذي يظهر نبالة خلقه وعظمة نفسه

ثم صافح معن رؤساء الصفوف . واومأ الى الحرس فمشوا امامه صفين وهم يهتفون له ولهيروديس حتى احتجبوا في طرف الساحة وراء منازلهم وهم يهزجون .

فقال ابن اذينة : ان لك لهجة ساحرة يا معن ..

قال : تلك لهجة البداوة يا مولاي.

قال : وأنا قد نشأت في البادية وليس لي مثلها . فان كان قتالك مثل بلاغتك

فأنت سيد الصحراء .

قال : حسبي ان يكون لي بعض ما هو لك ..

ثم عاد الاثنان الى القصر . وقائد الحرس قد نسي حرسه في تلك الساعة ومثلت امام عينيه ، تلك الفتاة التي هجر لأجلها ربوع حمص ..

وبينا هو يهم بالانصراف الى قصر زبدا قال له هيروديس : هل لك يا معن في الطعام ؟

قال : ليأذن لي مولاي في الذهاب فأنا لا افكر في الأكل الآن .

ـ : وفي اي شيء تفكر اذن ؟ ..

فوضع الفتى يده على صدره وقال : لا اعلم يا مولاي لماذا يخفق هذا القلب

فضحك قائلاً انه يخفق على عرضك الحرس ..

ـ : بل يخفق لانه عرضت له احدى الصور ..

ـ : انك جندي يا معن ومن واجب الجندي ان يسكت عاطفته ..

ـ : لو عرفت الغرام لما قلت هذا يا مولاي ان المحبين لا تهدأ عواطفهم ولو كانوا بين اشداق الموت ..

فقال الامير : وماذا تفعل يا معن اذا استعرت نار الحرب ؟

ـ : عندما احمل السيف لأدافع عن تدمر . يكون هذا القلب حاملاً حبه وهو يخفق على الغرام ..

ـ ولكن الحرب والحب لا يتفقان ..

قال : سترى يا مولاي ان حبي سيقوي هذه اليد التي تقبض على السيف ومع ذلك فماذا تريد الآن ؟

ـ : اريد ان تتغدى في القصر ثم تصبح حراً ..

قال : وقائد الفرسان ؟

ـ : ابعث اليه فيجيء الساعة .

ونادى هيروديس احد الغلمان وقال له : قل لقائد الفرسان ان يحضر الآن فنحن بانتظاره

ثم اجتازا الباب الكبير فالبهو فالاروقة حتى وصلا الى قاعات هيروديس

فقال الأمير : اتعرف معني يا معن ؟

قال : اعرف ان لحيران ولدا يدعى معني ولكني لم ار وجهه يا مولاي .

قال : انه يتغدى معنا الآن يا غلام ادع ابن عمنا .

وبعد قليل . اقبل فتى يرفل بالديباج ووراءه شريف تدمري هو مربيه .

والفتى لا يجاوز الثانية عشرة . لكن الخيلاءتتمشى في بردتيه . والكبرياء تملأ نفسه الطامحة الى العلاء .

فصافح ابن عمه وقال لمعن : امن الرومان انت ام من العرب ؟

فأجابه هيروديس قائلاً : انه من امراء العشائر وقد ولاه القنصل قيادة الحرس :

فمد الفتى يده بعظمة الملوك . فانحنى معن وقبل تلك اليد باحترام وتراجع الى الوراء .

واذا بزباي قد اقبل وهو يقول : لقد نسي قائد الحرس نفسه .

فقال معن : ولكني ما نسيتك يا مولاي ..

فقال هيروديس : لقد دعوناك الى الطعام ايها القائد فماذا تقول ؟

— : لا يسعني الا ان اشكر الامير على دعوته .

— : وسيعد لنا الغلمان مجلس شراب ..

— : مجلس مشورة نتحدث فيه عن الحرب خير من مجلس الخمر :

فقال معني : انحن في حرب يا هيروديس ؟

قال : اما اليوم فلا ولكن سنزحف بعد ايام الى المدائن عاصمة الفرس :

— : بأمر الرومان ام بأمر القنصل ؟

— : بل بأمر القنصل وبقيادته .

فقال الغلام في نفسه : تخرج اوامر الحرب من قصر أبي وأنا لا اعلم كأن القنصل لا يعترف بوجودي ..

ثم تقدم الجميع الى حيث يتناولون الطعام . والناظر اليه يحسبه سيد ذلك القصر المستبد بتدمر والمسلط على كل شيء ..

ثم جلس القوم فأكلوا والغضب يظهر في عيني الفتى وهم لا يشعرون .
أما القنصل فقد تغدى مع زينب وحدهما في ذلك اليوم
وأخذ ابن اذينة يعيد خطاب معن ويقول : ان معناً خلق في ساحة حرب ونحن نعرض . وقد عرض حرسه كما يعرض زبدا وزباي جنود تدمر . وكما كان القنصل يعرض جيشه في الصحراء .

تساقطت دموع زباي من الفرح وقال : يكفي الفتى ان يكون ابن ابيه، ان يكن اصدق امراء العشائر قتالاً كما كان اصدقهم اخلاصاً ووفاءً .. ولماذا عرضت حرسك اليوم يا بني ؟

– : لان الأمير اراد ذلك .

قال : عندما كنت تعرض الحرس كان القائد الاكبر يسألني عنك

– : اتعني زبدا يا مولاي ؟

– : اجل . وقد اعاد سؤاله ثلاث مرات ..

فسكت معن وهو يحبس انفاسه .. اما هيروديس فقال : ماذا يريد القائد العام؟

– : سيدعو القنصل والامراء والقواد غداً الى طعامه .

فقال معن : اذا فهو يدعوني معهم الى ذلك الطعام ؟

– بل اراد ان يفوض اليك دعوة من تشاء من رجال القبائل

– : الذين اعرفهم من هؤلاء الرجال هم في حمص. اما هنا فلا اعرف احداً

فقال هيروديس : وفي وليمة القائد يتحدث الناس عن سابور ..

قال : اصبت فوليمة زبدا تشبه مجالس القواد في ساحات الحرب ..

فغمز هيروديس بعينه قائلاً : ولا ادري اي شيء يعقد لسان معن غداً فلا يبدي رأياً ..

فأفاق الفتى من ذهوله وقال : اني اذا ذبت غراماً يا مولاي فالواجب في عمري قبل كل شيء .

فغير زباي الحديث واخذ يصف للفتيان بلاد الفرس وعظمة المدائن عاصمة ملوكهم ..

اما الشريف التدمري مربي معني فلم يفهم شيئاً .
ثم ذكر زباي الأمير الصغير فقال : متى تذهب الى الحرب يا معني ؟؟
فأجابه الغلام قائلاً : عندما اصبح قادراً على حمل السيف .. بل عندما اصبح
في تدمر ذا رأي ..
فقال هيروديس : انك وان كنت صغيراً يا ابن العم فلك المقام الأول في القصر
قال : اجل . اجر اذيال الديباج ، وتقوم على خدمتي طائفة من الخدم .
ولكن لا رأي لي ..
قال : اذا اراد القنصل امراً فليس لاحد رأي :
فاستطاع الغلام ان يخفي غضبه وراء انفراج شفتيه ، وكانت الكبرياء تجيش
صدره وهو يتظاهر بالابتسام كما يبتسم الاطفال ..
وكان معن يفكر في وليمة القائد . تلك الوليمة التي يجتمع فيها بكهيلة بعد ان
سى في صف القواد .
وكان يقول في نفسه : ما الذي يمنعني بعد الان من الظهور بمظهر العشاق
لاء الذين اذا احبوا فتاة اعترفوا لأهلها بذلك الحب ..
ولكن هنالك زباي . فهو وحده صاحب الأمر في هذا . ومعن لا يملك في
ية غرامه غير قلبه يهبه لمن يشاء . ساعة يشاء ، اما لسانه فيملكه سواه . واذا
ن فليس له ان ينطق بغير احاديث الحب والغرام ..
ان معناً حر في كل شيء . الا في انتقامه وغرامه فهو مقيد الارادة . يضطرب
ده ويخفق ولكن ليس له ان يخطو خطوة واحدة في سبيل العاطفتين الا اذا اراد
ي ..

لقد اصبح اميراً في الجيش الوطني . كما هو قاتل ابيه امير في جيش الرومان اذاً
كفوء لذلك القاتل . ولم يبق عليه الا ان يسأل قائد الفرسان عن اسمه وينقضي
ر .. كذلك كان شأنه في غرامه . وهو اذا قدر ان يسكت يوماً عن ثأره فلا
على السكوت عن ذلك الحب الذي يتغلل في اعماق نفسه .
غير ان قائد الحرس في تدمر . يجب ان يكون فوق العاطفة . فاذا هو استسلم

ضحلته كان في نظر القنصل ونظر الامراء اضعف من ان يسود الناس :
تلك كانت افكار معن والقوم يأ كلون حتى رفع الطعام .
فأمر هيروديس بالشراب فاحضر ، فطاب شرب الخمر للجماعة الا معناً يعني فقد طاب لهما ان يتوغلا في التفكير ..

* * *

لقد رأيت الشر في عيني الفتى الصغير يا مولاي .
فقال زباي : واي فتى هذا يا بني ؟
فقال معن : ابن خيران ذلك الذي يرفل بالديباج ويجر ذيل الخيلاء ..
فقهقه القائد ثم قال : انك ترى يا معن غير ما يراه الناس . أيعرف الشر ابن ثني عشرة سنة وهو في احضان جواريه ؟!!
ـ : لقد كدت المس بيدي تلك الشرارة الملتهبة ترسلها عيناه ..
ـ : وانا اظن ان قائد الحرس الجديد اصيب بالذهول فهو لا يعلم ماذا يقول ..
قال : ان معنيّ يبغض هيروديس ..
ـ : ليس في تدمر من يضمر لهيروديس البغض .
فهمّ بالجواب فاسكته زباي قائلاً : اذا عرفت ان تقرأ الحب في العيون فانت لا تعرف ان تقرأ سواه .. قل ان معني يطمح ببصره الى العلاء ولا تقل غير ذلك .
قال : ان الرجل الذي يعرف ان يطلب المعالي يعرف ان يبغض ويحب . واي مجد يطمع به معني فوق مجده وهو ابن خيران ؟
فقال : يرى القوم يخفضون جباههم امام هيروديس فيذكر أنه ابن عمه .
ـ : اذاً فهو يحسده يا مولاي .
قال : اخطأت فطبيعته هادئة كطبيعة ابيه . واذا تمشى الزهو في عطفيه فعن غرور وطيش لا عن بغض وحسد . ان الفتى في سنه لا ينظر الى ابعد من انفه
ثم ضحك وقال : لنتحدث الآن عن الولائم ولنترك الغلمان .. ما رأيك في وليمة القائد العام ؟
قال : واي رأي لي في وليمة يدعو القائد اليها امراء المدينة ؟

قال : انها وليمة يجتمع فيها العشاق وقد يكون لك رأي في هذا الصنف :
قال : لقد احسن القائد اذاً فيما فعل وسأرى كهيلة ..
— : وسترى ايضاً عينين كعيني الذئب تحدقان اليك .
— : فبغت معن وقال : ماذا تعني يا مولاي ؟
— : اعني ان قائد الحامية سيكون بين الامراء المدعوين ومعه ولده ::
— : اسكندر ؟؟
— : اجل وستلتقي هناك العيون ..
قال : ايجسر الذليل على ان يرفع نظره ؟
— : انه يجرؤ على ان يستخف باذينة ولا يبالي .
قال : لئن بدرت منه بادرة لاضربن عنقه بهذا السيف .
— : انك يا بني لا تصلح للسياسة كما تصلح للحرب . اتمتهن انت الآخر حرمة اذينة كما يفعل ذلك الروماني ؟ انك اذاً اقرب الى الجنون منه . اسمع يا معن اذا تصدى لك العاشق المغرور فقابله بالابتسام . وان تمادى فاخف غضبك وانتظر حكم القنصل فوجوده في الوليمة يحجب وجود سواه . اما كهيلة فاذا رأيتها فاضبط عاطفتك ولا تشرح لها هواك .. وكن ذلك القائد الرصين الهادئ الذي لا يبدأ بحديث الا اذا سألوه

قال : اكاد احسب نفسي اني عابد في كهف لا قائد في تدمر ..
— نعم وان لم تكن كذلك في اول عهدك فقد ضيعت كل شيء
فتنهد الفتى قائلاً : سأصنع كل ما يأمرني به مولاي . اي اني سأ كون قائداً لا عاشقاً ..

قال : احسنت فقم بنا ننصرف فقد قربت ساعة الغداء ..
وترك الاثنان قصر زباي قاصدين ذلك القصر الذي يقابله .

وكانت قاعات قصر زبدا واروقته تغص بالمدعوين وكلهم من قواد واشراف الشعبين الروماني والعربي :

وآل السميدع يستقبلون الضيوف في مدخل القصر ، والقائد الاكبر وابنه

كهيلة بباب الدهليز يصافحان الناس ويبتسمان للزائرين .

والناس يدخلون افواجاً حتى ملأوا القصر . الا اربعة رجال لم يرَ القائد وكهيلة مم وجهاً .. اذينة وهيرو ديس . وزباي ومعن . لم يحضروا بعد

وقد اضطرت الفتاة الى مصافحة اسكندر وابيه . ولكن قلبها كان يضطرب في صدرها . وعينيها الساحرتين ، كانتا تفتشان عن ذلك الحبيب . الذي قال لها حيها انه اضحى قائداً لحراس القنصل ..

وماذا يهم كهيلة اذا حفل القصر باهل النبالة وامراء الجيشين . ولم يكن معن بينهم ؟ بل . كيف تستطيع ان تبش في وجوه الضيوف وقلبها يقطر دماً ؟!!

حتى اوشك الوقت ان ينقضي ومعن لم يحضر ..

فقالت لابيها : يخيل الي ان القنصل سيعتذر عن المجيء .

قال : لا ولكن اذينة لا يترك عمله الا اذا احسّ بالجوع وقد ينسى نفسه.

قالت : وزباي وهيرو ديس ؟

— : اما هيرو ديس فلا يفارق اباه . واما زباي فقد يكون بانتظار صاحبه قائد الحرس الجديد .

واذا بسيف زباي يقرع الأرض ووراءه معن ..

فقال زبدا : اهلاً بالقائدين .. اين القنصل يا زباي ؟

قال : قد يكون في غرفته يعد جنوده وهو يحسب نفسه في الصحراء ..

اما كهيلة فقد تصاعد الدم الى وجهها ومدت يدها تصافح الاثنين وهي لا تقول كلمة ..

وما كادوا يتصافحون حتى سمعوا الحاجب ينادي :

لقد اقبل القنصل على عجلته ومعه هيرو ديس.

ثم تناقلت الغلمان هذه الكلمة . فردد المدعوون اسم اذينة وتركوا القاعات متجهين الى الدهليز ليستقبلوا ملك البادية.

* * *

لم يكن اذينة وهيرو ديس وحدهما فحسب . بل كان معهما معنيّ بن خيران :

فلما ترجل الثلاثة احاط بهم القواد والاشراف هذا يظهر اخلاصه وهذا يحرقه بخوره ..

الا قائد الحامية وولده فقد بقيا في القصر ينتظران القنصل في اول الرواق المؤدي الى قاعة الجلوس .

واذينة يبتسم لقواده ويده بيد معنٍ ابن اخيه . الذي هو – لو لم يوجد اذينة – رئيس شيوخ تدمر وسيد المدينة الشرعي بعد ابيه .

ثم دخل القنصل ودخل الناس .. فخاطب قائد الحامية قائلاً : لقد حسبتا انك لست بين القوم ..

فقال : لقد كنت ولم ازل من اسبق الناس الى الاجتماع معك ايها القنصل ، اما اسكندر . فصافح القنصل وهو يحاول ان يحجب اضطرابه وراء مظاهر الرصانة وعدم الاكتراث ..

ذلك لأنه رأى معناً يمشي وراء القنصل مع هيروديس وهو بلباس امراء الجيش فهمس هيروديس في اذن معن قائلاً : لولا احترامي ابي لما صافحت هذا المجنون ..

وتصافح الثلاثة والعيون تنطق بما في القلوب من عواطف البغضاء.

فلما اخذ القوم مجالسهم اشار اذينة الى معن وقال :

لقد اصبح هذا الفتى قائداً لحرسنا كما اصبح قائد الحرس قائداً للرماة .

فلمع الحقد في عيون ثلاثة من كبار القوم ..

وقال قائد الحامية : لقد عرفنا ذلك ايها القنصل .

قال : اما نحن فقد اردنا ان نقول هذا لاولئك الذين لم يعرفوه . ان قائدنا الجديد من اشراف العرب وهو امير الحمدانيين الذين تعلمون منزلتهم بين قبائل البادية ..

فاظهر القوم اعجابهم بهذا النسب الا ثلاثة فقد بدت على وجوههم دلائل الاستخفاف والاحتقار ..

احدهم اسكندر الذي قال : بماذا استحق هذا الحمداني رتبة القيادة ؟

قال اذينة دون ان يغضب : ببسالته واقدامه واخلاصه لتدمر ..
- : ما عرفنا شيئاً عن هذه البسالة ايها القنصل ..
قال وهو يبتسم : لقد عرف القنصل انه يستحق القيادة . وهذا يكفي .
. تحركت شفتا اذينة من الغضب ..
قال قائد الحامية لولده : كل ما يراه القنصل حسناً فهو حسن .
- : اجل ولكن اخشى ان يثور الجيش ..
احمرت عينا هيروديس وقال : اذا اشتعلت نار الثورة استعان القنصل بك
- تلك النار بقوة السيف ..
- معن فكان يبتسم ابتسامة الفائز المطمئن .
- اذينة لا يعبأ بأقوال مجنون .. فعمد الى الاستهزاء فقال : ألا يأذن ولدك
- في ان يختار القنصل قواده .. ؟؟
- : انس ما سمعت ايها القنصل فاسكندر لا يعلم ماذا يقول ..
- : اذا كانت هذه شهادة ابيه فقد تجاوزنا عن ذنبه ..
. خفض صوته قائلاً لهيروديس : لا تغضب يا بني فسيأتي يوم نحاسب فيه
- الرومان ..
- : ألم يقص عليك معن خبر حادثته مع هذا الروماني ؟
: بلى .
- ان هنالك سبباً لم يذكروه لك . ان الروماني يحب كهيلة بنت زبدا
: اعرف هذا كما اني اعلم ان كهيلة لا تحبه .
- : لكنك لم تعلم ان هذا الحب هو الذي دعا صاحبنا الروماني الى التعرض
- للميدان ..
- : وكيف ذلك ؟
- : رأى معن وجه كهيلة فسباه الجمال . فأخذ يحدق اليها والروماني ينظر اليه
- : اذن كان الروماني غيوراً في ذلك الحين .
- : ولا تزال الغيرة تحرق احشاءه لان معناً احب كهيلة فبادلته هذا الحب .

ـ : أواثق انت بما تقول يا هيروديس ؟؟

ـ : الثقة كلها يا مولاي . فاذا اردت ان تصفع هذا الروماني وتستوثق من اخلاص آل حمدان فاخطب الفتاة لمعن قبل ان نبدأ بالطعام .

قال : أفي هذه الساعة يا بني ؟

قال : اجل . ليعلم هذا المغرور ان نبيلات العرب لا ينظرن الى مثله .

فأطرق اذينة ملياً ثم قال : لقد اخترت كهيلة عروساً لك يا هيروديس ..

فقال : لقد عرفت يا مولاي اني لا ارغب في الزواج.

ـ : اي انك لا تريد ان احدثك بهذا بعد الآن ؟.

ـ : حدثني ان شئت عن الحرب .

فاعجب القنصل بفتاه الباسل . ذلك الفتى الذي لا يعشق غير الميادين ثم قال : أتضمن رضى زبدا ورضى ابنته ؟

قال : اما رضى كهيلة فنعم، واما زبدا فالقنصل وحده يضمن رضاه .

وأخذ القوم جميعهم يتهامسون . هذا مع جاره . والآخر مع صاحبه .واثنان من الاشراف ، احداهما قائد الحرس السابق، والثاني مربيّ معنيّ ؛ كانا واقفين في احدى زوايا القاعة يتحادثان ..

وقد طال امر هذا الحديث . والاهتمام باد على وجهيهما . حتى نهض اذينة لزبدا :

اتبعني الى القاعة الاخرى فلي حاجة اليك .

ثم التفت الى قائد الحامية وقال متهكماً : ونحن لا ننصرف الى تلك القاعة قبل ان نستأذن ولدك ..

ومشى وهو يضحك وتبعه هيروديس . وقد علا ضحك القوم ومظاهر استخفافهم بذلك العاشق المسكين ..

اما قائد الحامية فلم يجب ولعله لم يجسر على ذلك .

واما ولده . فقد صبغ وجهه بلون الدم حتى كاد يختنق .

فلما خرج القنصل من القاعة . قال قائد الرماة لرفيقه :

لقد باعني هذا الظالم بفتى من البادية فليستعد للموت .

فأجابه نسيبه مربيّ معنيّ قائلاً : لقد غصب ابن اخيه رياسة الشيوخ ولم يبال، أتراه يهتمّ بك اكثر مما يهتمّ بمعنيّ ؟!!

قال : اذا قدر ان ينجو من سيفي فليفعل ما يشاء ..

— : اراك تذكر موت القنصل وانت مطمئن !!

— : اجل . ليمت هذا المغتصب وليقتلوني بعده فقد سئمت العيش ..

فأخذ الخائن الآخر يوغر صدره : قال : لقد جعلك قائد الرماة وهم نخبة الرجال

قال : وجعل لي مضرباً واسعاً من قماش الصوف اقيم فيه بدلاً من القصر عالي الابراج ..

قال : ويكفيك انه لم يعزلك عن القيادة ..

— : العزل خير من ان يحطني من قيادة حرسه الى قيادة القواسين ..

وكاد ينفجر غضبه .. فأسكته رفيقه قائلاً : اسكت الآن ان العيون تتجه اليك وسنلتقي في موعد آخر.

* * *

لقد ظن زبدا ان اذينة يريد ان يحدثه بشأن الحرب ..

ولكنه دهش عندما عرف القضية قضية زواج ..

افتتح اذينة حديثه قائلاً : ان القنصل يقترح عليك اقتراحاً.

قال : ليأمر القنصل بما يشاء .

فقال : اتظن كهيلة انها اذا رفضت عاشقها الروماني سكت اذينة عند حد ذلك الرفض ؟!

قال : اتعود الى ذكر هذا المجنون يا مولاي ؟ اني اوثر ان اخسر حياتي على ان اجعل ذلك النذل صهراً لي.

— : واذا ظهر عاشق جدير بكهيلة ؟

— : نظرت في امره اولاً ثم اشاور الفتاة.

: واذا كان القنصل وهيروديس قد اختاراه فماذا تقول ؟

— : لا يبقى علي الا ّ رضي كهيلة . فمن هو هذا العاشق يا مولاي ؟

قال : قائد حرسنا الجديد معن بن حمدان ..

فظهر البشر في وجه زبدا وقال : انه نعم الفتى وقد رضيت .

— : اذن يستطيع القنصل ان يخطب لقائد حرسه كهيلة بنت القائد العام .

قال : اسألك سوالاً واحداً يا مولاي .

— : ما هو ؟

— : ان توافقني كهيلة في هذه الخطبة مختارة لا مكرهة لاني لا اريد ان ازوج ابنتي زواج قوة بل زواج عاطفة ..

فهمس اذينة في اذن هيروديس قائلاً : اخشى ان ترفض كهيلة فنفضح صاحبنا الحمداني ..

قال : لقد ضمنت رضاها يا مولاي وانا مصر على هذا الضمان

فالتفت القنصل عندئذ الى زبدا وقال سنسألها رأيها في قاعة الجلوس امام الاشراف والامراء . فان رضيت فقد انتهى الامر والا كان قائد حرسنا شقياً منكود الحظ ..

وقبل ان يعود الثلاثة الى القاعة قال زبدا للقنصل :

ايجترئ عليك ابن قائد الحامية وتسكت يا مولاي ! !

فابتسم قائلاً : نسود الناس بالسياسة والحلم خير من ان نسودهم بحد السيف .: ان للسيف دوره يا زبدا وسترى ..

وقد انطوى تحت هذه الكلمة من معاني التهديد ما لو عرف بعضه الرومان لاستولى على قلوبهم الذعر ..

ثم عادوا الى مجالسهم وهيروديس ينظر الى الحمداني والروماني نظرتين مختلفين : نظرة حب وعطف الى الأول . ونظرة بغض هائل يرشق بها ابن قائد الحامية

وكان الطعام قد اعد . فأقبلت كهيلة بقوامها الأهيف . وجمالها الخلاب تدعو ضيوف ابيها الى الغداء وقد انتشر حولها ظل ساحر من الرصانة والجلال .

اجل . كانت المرأة النبيلة في تدمر في ذلك الزمان ، ربة بيتها وسيدته كما هي

حفل اليوم ..

وكان معن يسارقها النظر وكثيراً ما كانت تلتقي النظرات ..

واخذ الناس يأكلون وقد امر اذينة فجلست كهيلة عن يمينه وهيروديس عن [illegible]ـه. وذلك الروماني لا يرفع نظره الا ليرسله بسرعة وبشغف وحب الى ذلك الحسن [illegible]ـاب الذي فتن لبه . والى ذلك القائد البدوي الجديد الذي قدم تدمر ليهينه في [illegible]ـن .. ثم ليصبح بعد ذلك اميراً من امراء الجيش . وهو لو عرف ما بين معن [illegible]ن كهيلة من هوى وغرام لاستولى اليأس على فؤاده الجريح ..

فلما أكل القوم . تحولت الوليمة الى مجلس شراب . فلعبت الخمرة في الرؤوس [illegible]ـشعت في العيون ..

وكهيلة تستأذن القنصل في الانصراف فلا يأذن لها .

ثم قال : يا كهيلة . اذا اراد القنصل ان يخطبك لنبيل يقل بين النبلاء وجود من [illegible] احسن منه وجهاً واطيب خلقاً فهل ترفضين ؟..

فكادت الفتاة تقع على الارض من الخوف لانها اعتقدت ان ذلك النبيل هو [illegible]ـيروديس ..

فأعاد القنصل سؤاله .. فتلجلج صوتها وقالت : متى وجد ابي فلارأي لي :

وحبس اسكندر انفاسه .. اما معن فوضع يده على قلبه كي لا يثب من صدره [illegible]ـو لا يعلم من هو ذلك الخطيب ..

فقال القنصل : لقد سألنا اباك رأيه فرضي فلم يبق الا ان تظهري انت هذا الرضى

وكان السؤال قاسياً كما ترى . واذينة يريد ان يسمع الجواب ..

فترددت العاشقة . وقام في ذهنها ان القنصل لو لم يكن يعني ولده هيروديس [illegible] قدم على البحث في امر لا شأن له به في مجلس حافل بنبلاء الدولة وقواد العرب [illegible]ـرومان ..

لكن الحب قوى جنانها فأجابت قائلة : اذا شاء ابي ان يجعل لي في الأمر رأياً [illegible]ـلت مولاي القنصل عن اسم ذلك النبيل .

قالت هذا وقلبها يرقص من الخوف .

فرفع القنصل صوته وقال : هو اصغر الموجودين سناً بعد معني .. فاحزريه ..
فأشرق جبينها واخذت تتفرس في القوم كأنها تفتش عن ذلك الخطيب الصغير السن ..

ثم اومأت الى معن قائلة : يخيل اليّ ان قائد الحرس هو الذي عنيت يامولاي .
قال : اصبت ونحن نخطبك له دون ان نسأله ، اتوافقيننا فيما نطلب ؟
فنظرت الى ابيها تستوحيه الجواب ..
فقال زبدا : لو خيرت لما اخترت يا ابنتي الا معناً .
قالت : اذا كان الأمر كذلك فأنا راضية بما رضيت .

وكأن الجنة فتحت ابوابها في وجه معن . وقد رأى الفتى فيها حلمه يصدق ، وهناءه يتم ، والسعادة تفتح له ذراعيها الذهبيين . فعقد الفرح لسانه واحس انه مدين بحياته لاولئك النفر الذين مهدوا امامه سبل النعيم والمجد . زباي وزبدا واذينة وهيروديس .

وفيما هو يهم بالكلام قال اذينة ضاحكاً :
لقد تمت الخطبة الان ونحن لا نعلم ماذا يرى قائد الحرس ..

فخطا معن خطوتين وجثا امام القنصل قائلاً : ان قائد الحرس الذي هو غرسة يدك لا يرى الا ما يراه مولاه . واني لأعترف الآن امام شيوخ المدينة والاشراف بأن حياتي ابذلها في سبيل طاعتك وليس لهذه الحياة قيمة في نظري الا اذا كانت رهناً لارادتك .. ان معن بن حمدان لم يكن جديراً بكهيلة يا مولاي . غير ان القنصل عندما خطبها لي جعلني لها اهلاً فسأكون اذاً لمولاي القنصل عبداً . ولولده هيروديس خادماً . ولسيدي زبدا وزباي باراً حتى تقوم الساعة .

ثم نهض والدموع تملأ عينيه . واكب على يدي اذينة يطبع عليهما قبلات الشكر
وكهيلة الفتانة كانت تبكي .. حتى انها لم تبصر خطيبها عندما مد اليها يده وتصافحا ..

وكأن عدوى البكاء انتقلت من الخطيبين الى الجماعة . فكنت ترى القائدين الكبيرين زبدا وزباي يبكيان من فرحهما . ومعني ومربيه . قائد الرماة والعاشق

ِروماني يبكون . ولكن من الغيظ والقهر ..

وكان زباي يقول في نفسه : تلك عناية هيروديس بصاحبنا الحمداني . فاذا نقضى امر انتقامه كما انقضى امر غرامه . كانت يد الآلهة معه ..

وبعد ان صافح الفتى حماه وزباي وهيروديس جلس الى جانب كهيلة تحرق نفاسها وجهه الوضاح .

فضج القوم بألفاظ الدعاء للقنصل وللخطيبين . الا اولئك الثلاثة السود الوجوه ودارت الكؤوس مترعة بالخمر يجرعونها صرفاً حتى اقبل الليل ..

وقد استطاع معن ان يهمس في اذن هيروديس قائلاً : لقد عرفت الان ان يدك في الأمر . وسأعرف في المستقبل كيف اكون مخلصاً لك ..

فقال هيروديس : ورأس اذينة لو استطعت ان ارفعك الى الجوزاء لفعلت .

اما الحرب فقد نسيها القنصل .. ولما ذكرها كانت الخمر قد رنحت الاعطاف

فقال للقوم : لقد جعلنا وليمة القائد حفلة شراب وخطبة . وكان علينا ان نجعلها مجلس مشورة نتحدث فيه عن حرب سابور . فليعلم كل واحد منكم قبل ان ينصرف من هنا . ان شهراً واحداً لا يمر حتى يخفق العلم التدمري فوق جيشنا الظافر زاحف الى بلاد الفرس ..

ثم نهض فودع القائد الأكبر وخرج مثلما دخل يده بيد معني بن اخيه يتبعهما هيروديس .

١٠

عدو في القصر

مات خيران . وترك ذلك الشريف التدمري يقوم على تربية معني .

وقد قال له قبل ان يلفظ روحه وعيناه تدمعان : اني اموت غير ناظر الى شيء لا الى هذا الغلام . فاذا جاوز الخامسة عشرة فاجهد في ان تجعله خلفاً لابيه .

فأجابه قائلاً : اني ارى اخاك اذينة يمشي بخطى واسعة في طريق الرياسة فاذا استوى في كرسيك فقد خسره معني الى الأبد .

قال : ان اذينة عدو للرومان فلا يمهدون امامه السبل . ومع ذلك فالحق حق معني لا ينازعه اياه شريف في تدمر ولو كان اذينة . فأعد الغلام للحكم ولكن بهدوء . واذا اضطررت فاستعن بقائد الحامية ثم بوالي فينيقية نائب القيصر وانقل اليهما هذا الكلام الذي يتردد مع نفسي الأخير ..

ولكن اعلم اني ابغض الشر ولا احب سفك الدماء . فاذا لم ينل معني حقه بالسلم والحسنى فاصرفه عنه وليكن فتى من العامة خير له من ان يمشي الى الرئاسة على جثث الناس .

ثم دعا ولده وقال له : اتفهمني يا بني ؟

فبكى الغلام ولم يجب ..

فقال خيران : اوصيك يا بني باحترام عمك ومربيك . وبمسالمة الرومان . واذا رأيت انك اضعف من ان تنال رياسة تدمر بقوة الحق . فاتركها لسواك لان مجد العالم كله لا يساوي نقطة واحدة تهرق من دم اخيك ..

ودهم الموت خيران . فاختنق صوته . وحاول ان يتم حديثه فكانت الألفاظ تعالق بين شفتيه .

فارتفع صوت وحيده في البكاء . واقبل الناس يعزونه وهو يفكر في وصية ابيه ..

كان الفتى ناعماً هادئاً في ظاهره . لولا تلك الكبرياء التي ترنح عطفيه وكان ثائراً في باطنه . وذا نفس وثابة هائجة تملكها الزهو . واستولى عليها الطموح الذي يستولي على نفوس معظم الفتيان المتقلبين في احضان العز والدلال.

ولم يكن بحاجة الى مربيه يذكره وصية ابيه . فقد رسخت تلك الوصية في ذهنه . وملكت عليه جميع مشاعره . فكان ينظر الى عمه وهو في كرسي ابيه . نظره الى رجل ظالم اغتصب حقه . ووزع المال الذي هو ماله في سبيل مطامعه وامانيه .

ونفخ الحقد في صدره . ذلك المربي الخبيث النفس ، الذي كان يرى عزه يهوي . ونفوذه يضمحل في ظل رئيس حازم كأذينة . لا يشاركه احد في ادارة

الدولة غير زوجته زينب . ولا يسمع اقوال المتزلفين المتملقين .

وقد خان سيده الذي اوصاه بالسلم قبل ان ينزل الى قبره . فأثبت للغلام ان عمه لا يترك الرياسة الا لذريته . وانه اذا رغب في الوصول الى حقه فليس له الا ان يلجأ الى سفك الدماء . .

وماذا يفعل الغلام الصغير لا حول له ولا طول وليس هناك من يشد ازره في مطامعه ؟ الجيش في يد عمه القنصل . والتدمريون يقدسون اسمه . وقبائل البادية لا تعترف بملك غيره فهو سيدها الاكبر ومعبودها . والرومان ! !.. اولئك القوم القادرون وحدهم على جعل معني رئيس الدولة . هم انفسهم اظهروا لاذينة الولاء ومنحه قيصرهم لقب القنصل .. فالابواب كلها اوصدتها الاقدار في وجه ابن خيران ورجال القصر جميعهم – الا مربيه وبعض اتباعه – لايحرقون البخور امامقدميه ،

فاستعرت نار البغض في قلبه يزيدها ضرماً وجود الناس حول هيروديس ابن عمه يعظمونه ويحيطونه بكل مظاهر الاحترام والتكريم .

ولم يكن يعبأ بعواطف الحب الصادق يبديها له ابن اذينة . بل لم يكن يصدق ان عمه المغتصب وولده هيروديس يضمران له حباً .. ان تلك العواطف الصادقة كانت في نظره تظاهراً كاذباً ورياء يلبس لباس الاخلاص والولاء .

وقد يكون الفتى معذوراً في ظنونه . فأذينة يملك في تدمر ما لم يكن يملكه خيران من عبيد وغلمان . وجوار وقصور . وابوابه تتزاحم عليها الوفود هذا يطلب احسانه والآخر يظهر خضوعه . وعجلات الذهب وكرائم الخيل تطوف به في اسواق تدمر لا تطأ قدماه الأرض .. والمال يحشد منه الاكداس في خزائنه .. كل هذا كان لمعني او انصف ذلك المغتصب المستبد ..

فكيف يطيق ان يرى عمه متربعاً في سماء المجد وهذه السماء بسطها ابوه وجده واعدا له فيها الكرسي الذهبي ؟!!

اذن فالفتى الذي لا يجاوز الثانية عشرة من العمر . كان بالرغم من صغر سنه عدواً لأذينة ولولده . لا يطيب لهذا العدو الا ان يختفي الاثنان عن وجه الأرض ويضمحل ذكرهما وذكر ذريتهما من هذا الوجود ..

وليس لثورة الفتى قياس او حدّ . فلا تراه هادئاً حتى تراه ثائراً . وبينما يكون وديعاً كالنعجة اذا به يصبح كالجمل الهائج .. فعواطفه بين مد وجزر : في كل يوم وفي كل ساعة . لا يعرف له هوى ولا يستقر على حال .

وقلب هيروديس قلب طفل . فكلما رأى معني غاضباً عمد الى اطفاء نار غضبه بكل ما في صدره من عاطفة حب . وهو لا يعلم ان الفتى يتمنى له الموت وان الشر يكمن في اعماق نفسه .

وكان التدمري مربيه . يفتش في قصور تدمر وفي خيام العرب . عن النفوس الثائرة على القنصل . لينفخ فيها بدوره روح الثورة الخفية ويجعل اصحابها اعواناً له في اغراضه .

فلما عزل اذينة قائد حرسه وولى معناً . استطاع ذلك الداهية ان يقرأ في عيني القائد المعزول روح الانتقام . فضمه اليه وهو يراه اشد بغضاً منه واكثر خطراً على اذينة ..

وساعده القضاء من ناحية اخرى فكثّر انصاره الثائرون لان تلك الخطبة الفجائية في وليمة القائد العام اثرت في نفس امير الرومان في تدمر . وكادت تخرج ولده العاشق عن حد الحكمة والصبر .

وهو يرى كل ذلك . ويفكر في ان يبني للمستقبل البناء الثابت .. حتى اذا دنت الساعة . واراد ان يضرب اذينة الضربة القاضية . تكون القوة من وراء معني تحميه وتنيله امانيه ..

ففي تلك الليلة . بعد انصراف الناس من قصر زبدا . قال لمعني :

ان السماء يا مولاي الصغير ترسل الينا اصحاباً ..

فأجابه قائلاً : لقد اصبحنا في زمن يقل فيه وجود الاصحاب .

قال : اخطأت فقد عثرنا الليلة على السيف القاطع الذي يستطيع ان يقذف بأذينة الى الحضيض .

فحدق اليه الفتى بعينين تلمعان بنار الحقد ثم قال : افي تدمر رجل يقدر على هذا؟

قال : اجل فهو قائد الحامية .

قال : ان هؤلاء الرومان لا عهد لهم وقد حالفوا اذينة بدلاً من ان يحاربوه :
فقال : تلك سياسة نائب القيصر وقد انقضى امرها الان . اما اليوم فلا تدخل السياسة فيما اقوله لك .
قال : وكيف ذلك ؟
فعمد التدمري الى باب الغرفة فاغلقه واخذ يسرد للفتى حكاية كهيلة وغرام سكندر ثم قال : ألم تر كيف قرب عمك ذلك الحمداني وخطب له بنت زبدا ؟ ن هذه الخطبة طعنة في صدر الرومي ..
— : اي ان اذينة اراد ان يثبت لقائد الحامية ان بنت القائد العام ارفع من ن تصير زوجة لولده .
— : احسنت . فهذا ما اراده باشارة هيروديس .
— : وماذا ينتج من ذلك ؟
ينتج منه ان القائد الرومي اصبح عدواً لذلك الذي اهان كرامته . وامسى ولده خصماً شديد المراس . لأولئك الذين لهم علاقتهم بخطبة الفتاة :
— واي شيء يقدر عليه الاثنان ؟
قال : يبعثان من يقول لنائب القيصر في سوريا . ان اذينة يعمل من وراء استار ، على قتل النفوذ الروماني في الشرق .
— : ولكن نائب القيصر لا يصدقه . واذا صدقه اعوزته ارادة مولاه ابن فالريان الجالس على عرش روما .
قال : ان سلطان والي فينيقية في هذه الاقاليم هو سلطان القيصر نفسه لا يراجعه احد في امر . والرومان جميعهم يعلمون ان اذينة كان متمرداً ولو لم يمت ابوك خيران ويستول بعده على الرياسة لجاهرهم بالعصيان .
فقال : اتراهم يبعثون اليه جيشاً ليحاربوه ؟
قال : ليست القضية قضية حرب بل قضية عهد نحفظه ونرعاه ويقوم بتنفيذه الفريقان ، والحيلة في مثل هذا الامر اشد تأثيراً من السيف .
— : ومع ذلك فانا لم افهم غرضك ..

قال : ليس غرضي الا القضاء على اذينة واخذ الرياسة منه . فاذا وافقنا الرومان في هذا ، فقد انضمت الينا اعظم قوة في تدمر ، ثم تنصرف هذه القوة الى الكيد وتكثير الانصار ، فيبتعد عن اذينة محبوه والمعجبون به ، ويلتف حولك الامراء ورجال الجيش ، فتخرج من هذه العزلة الى حيث نرفع الصوت عالياً في وضح النهار ، ونطلب حقك المقدس الذي سلبك اياه هذا العم العزيز .

فقال الفتى وهو يبتسم : وعندئذ يتخلى اذينة لي عن هذا الحق وينتهي الأمر .

قال : وعندئذ ان لم يفعل اذينة مختاراً فعل مكرهاً ..

— : ولكن لنفرض ان الرومان لم يخونوا اذينة فكيف نصل اليه ؟

فأومأ التدمري الى جدار في الغرفة علقت فيه انواع السلاح وقال : ان طعنتين اثنتين من هذا الخنجر تخترقان قلب اذينة وقلب هيروديس ..

فلمعت عينا الفتى ببارق غريب وقال : والآن على ماذا عولت ؟

قال : على الاجتماع بالعاشق الروماني وسماع رأيه ..

قال : افعل هذا الآن لأن الكرى لا يزور جفني ..

فخرج الرجل من القصر يحجبه ظلام الليل عن العيون .

اما الحراس فقد عرفوه ، واي شأن لهم مع مربي معني اذا غادر قصر القنصل في الساعة التي يشاء ..

* * *

ومشى صاحبنا التدمري بقدم ثابتة الى غايته غير خائف ولا متردد .

اجل . انه يعلم فظاعة ذلك الأمر الذي اقدم عليه . لكن شدة حقده وقوة عقيدته ، شددا عزيمته ، فكان ينظر الى المؤامرة تدبر من وراء الستار لاسقاط القنصل نظره الى واجب مقدس فيه حياته وحياة مولاه ، ومجده ومجد ابن خيران :

ان نفوذه في تدمر لا يبعث من قبره الا اذا اصبح معني صاحب السلطان فيجب ان يسعى بأذينة ويعد له الشرك . واذا اضطر فليكن مجرماً وقاتلاً حتى يعود الى ذلك النفوذ ..

وقد خدمته الاقدار في ذلك الحين . فان اسكندر العاشق كان يدور في غرفته

كالنمر الغضوب يدور في قفصه . وهو يفكر فيما رآه من استخفاف القنصل به ، باقدامه على خطبة الفتاة التي يحب ، لفتى غريب عن تدمر ، لا يملك غير وجه فتان وشعر مرسل جدائل الى كتفيه .

وقد وثق الوثوق كله بأن هيروديس هو الذي سأل اباه ان يخطب لمعن ، فتأججت النار في صدره ، وبات يضمر للقنصل ولولده ولمعن ، افظع ما يضمره عدو لعدوه من شر وبغضاء ..

وكان ابوه في تلك الساعة يغط في نومه وهو يرى بالحلم ذلك المشهد المهين الذي مثله القنصل المستبد في قصر القائد العام .

فلما اقبل التدمري استغرب اسكندر قدومه في ذلك الليل لأنه لم يكن يعلم ان مربي الفتى الصغير يبغض اذينة ويسعى به وبهيروديس .

فصافحه قائلاً : لقد كثرت رسل القنصل ليلاً في اليومين الأخيرين .

فضحك الخبيث وقال له : ان في قصر اذينة حجاباً يجعلهم رسله .. اما انا فرسول فتى لا تقوم ببابه الحجاب ..

— : اذن فانت تمثل معني —

— : نعم . وكل كلمة تلفظها شفتاي فهي من عنده ..

فجلس الخائنان متلاصقين وراح التدمري يشيد بذكر الرومان ويرفعهم بالثناء في مصف الآلهة . ثم قال :

اليس ابوك قائد الحامية وزعيم الروم في تدمر ؟

— : بلى .

— : وانت ؟ الست ذلك الزعيم بعد ابيك ؟

فرفع المغرور رأسه وقال : اني لهو ..

قال : وكيف تصبر ويصبر ابوك على ما رأيتما من مظاهر الذل ؟!

فتنهد الفتى قائلاً : لقد انتهى دور الصبر الآن وطفح الكيل . ان اذينة يحسب نفسه اعظم من القيصر .

قال : بل هو ارفع من ان يعترف بوجود ملك سواه ..

- : وما هو غرضك من القدوم الينا في هذا الليل ؟

فهمس في اذنه قائلاً : جئت اعد عدة القضاء على الطاغية الذي يؤثر ابناء البادية على اشراف الرومان ..

فتردد الفتى قليلاً ثم قال : احذر ان تخدعني ايها الرجل .. ان التدمريين لا يخونون سيدهم ..

قال : اما انا فاقسم لك بجميع الآلهة اني عدو اذينة وقد جئت في هذا الليل اضع يدي بيدك للسعي به والقضاء عليه ..

فبان الفرح والبشر في وجه الروماني وقال : ولكن اريد ان اعرف على الاقل ذلك السبب الذي يدعوك الى هذا .

قال : ان خيران قبل ان يفارق الحياة . اوصاني بولده وحلفني بان اجعله خلفاً في الرياسة .

فابتدأ الروماني عندئذ ان يفهم الغرض من قدوم ذلك الشريف . فقال له : أترفع معني الى كرسي عمه ، واذينة تحرسه السيوف والحراب ، وتفديه مهج الرجال ؟!

قال : لو كان لي من القوة ما ابلغ به غايتي لما اتيت اليك .

قال : اذا كان الامر كذلك فيجب ان تسمع رأي ابي ، وعليه ان يستفيق من نومه :

قال : وانا انما قدمت لسماع هذا الرأي ..

فغاب اسكندر ساعة ثم عاد وراء ابيه ..

واجتمع الثلاثة يتباحثون ويتشاورون حتى اوشك ان يفتر ثغر الصباح . فلما خرج التدمري راجعاً الى قصر القنصل . خرج وهو يبتسم ابتسامة المطمئن ويقول في نفسه : لقد اصبحت حامية الرومان في تدمر في يد معني ، يستثمر قوتها وسيفها في سبيل اغراضه ساعة يشاء ..

ولم يزر الكرى جفني معني .. فقد احيا الليل كله مضطرباً غاضباً ، وقد نهكت روح الثورة ومطامع نفسه الكبيرة ، جسمه الصغير ..

* * *

ثم يا مولاي ان الرياسة ستنقاد اليك صاغرة .
فأجاب الفتى مربيه قائلاً : احالفت الرومان ؟
قال : نعم وقد اصبح قائد الحامية وولده العاشق اطوع لك من العبيد ..
— : قص عليّ اذاً ما فعلت .
قال : الولد عاشق مغرور : والوالد جبان محب للمال . وهو يخشى اذينة ولا
جرؤ على خصومته . غير ان المال يفعل العجائب يا مولاي . فقد ساومنا القائد
ثمن خيانته وكنت معه كريماً ومن اجود الناس ..
— : وكيف ذلك ؟
— منحته باسم معني بن خيران رئيس الشيوخ . خراج تدمر عن نصف سنة
فاستعظم الفتى هذا المبلغ يهبه مربيه لقائد الرومان . ثم قال :
متى تفي بما وعدت ؟
قال : عندما تجلس على عرشك الصغير يا مولاي .
فهز الغلام رأسه قائلاً : اراك واثقاً بجلوسي على هذا العرش يا اسماعيل ؟
قال : نعم كما اثق باغتصاب اذينة حقك الموروث .
قال : لقد كان نصيب الوالد فوق الحاجة فما هو نصيب الولد ؟
قال : اذا وجد الحب يا مولاي وجدت التضحية فالعاشق الروماني يجود بكل
ما يملك في سبيل قتل الحمداني قبل ان يتروج كهيلة .. ولو كان له عرش القياصرة
لوهبه مختاراً راضياً لمن يفتك بأذينة وهيروديس ..
— : اذن فالاتفاق قد تم الان ..
— : اجل وبقي علينا ان نختار اعواناً لنا آخرين من العرب .
— : واين تجدهم ؟
— : في قلب المدينة وبين صفوف الجيش . ألا تعلم يا مولاي ان في تدمر
قلوباً كثيرة تحمل الحقد على الظالم ؟
قال : لم ار شيئاً من هذا ولكن رأيت الرؤوس تنحني امام القنصل وأمام
هيروديس . وجباه الشيوخ والاعيان تلامس الأرض امام زينب ..

قال : ان الخوف يملأ قلوب هؤلاء يا مولاي ، ولكنهم اذا سمعوا صوتاً قوياً يرتفع ضد القنصل ورأوا سيفاً مرهف الحد يشهر فوق رأسه ، رفعوا اصواتهم وجردوا سيوفهم وامسوا حزباً متضامن القوى على ذلك المستبد الذي يعظمونه اليوم

قال : اخشى ان يخوننا احدهم فيفضحنا ويقذف بنا الى اشداق الموت :

فابتسم اسماعيل ابتسامة هائلة وقال : سأعرف يا مولاي كيف اختار هؤلاء الرجال .. ان حياة المؤآمرة وقوتها اليوم هما في الكتمان . فاذا نظمت صفوفنا ونضجت فكرتنا ، خرجنا من وراء الستار ، وذبحنا الطاغية وابنه ذبحاً على مرأى ومسمع من الناس . واعترفت بك المدينة والجند قائداً وسيداً تمجد اسمه الاقطار .. وعندئذ . عندئذ يصبح هؤلاء المتملقون الذين يكثرون حول اذينة اعواناً لمعي يتملقونه كما كانوايتملقون عمه. ويخفضون رؤوسهم امامه كما خفضوها للغاصب . اما الان فأظهر الطاعة ولا تظهر الغضب واذا ندبك عمك لامر فكن اسبق من هيرو ديس الى تنفيذ ذلك الأمر ، حتى يثق بك الوثوق كله ويعهد اليك في قضاء الشؤون .

قال : وسأسير معه الى الحرب فاضرب امامه بالسيف ..

فقال : انك لا تقوى على امتشاق الحسام وهو لا يأذن لك في هذا .

فلمعت الكبرياء في عيني الغلام وقال : ان الزعيم الذي يرأس حزباً ويريد ان يسود قومه . يجب ان يتقدم هؤلاء القوم في ساحات القتال ، اتريد ان تجعلني سيد الشرق وانا قابع في منزلي لا اعرف بلادي وقوادي ولا اصافح اولئك الرجال الذين سيكونون انصاراً لي على عمي ؟!

قال : اذا اذن لك اذينة في ذلك فلا تحمل سيفاً فحياتك هي لتدمر وليست لك :

— : اذن ففتيات المدينة اشد مني بأساً واثبت جناناً ؟

قال : اذا قتلت يا مولاي انقرض ذكر خيران الى الابد ..

فقال : وان بقيت حياً بعد صيتي وارتفع هذا الذكر حتى ليحجب ذكر اذينة نفسه ..

— : ولكنك تحارب في سبيل اذينة يا مولاي ..

— : بل احارب في سبيل المجد الذي ينتظرني واذا اهوى احدهم بالسيف الى
ذينة وكنت الى جانبه فلا أمد يدي لامنع ذلك السيف من ان يسقط على رأسه ::
فعرف اسماعيل عندئذ ان البغضاء في صدر الفتى جاوزت كل حد . فقال له
فعل ما تشاء وسأ كون حارساً لك .
قال : متى يرجع الرسل الذين بعثهم اذينة الى ولاة الرومان ورؤساء العشائر ؟
— : بعد بضعة عشر يوماً فتملأ الصفوف ظاهر المدينة ويموج السهل بطوائف
حيل والنوق .
— : اتظن ان الروم يرضون بما شرطه اذينة ؟
قال : اتعني قضية القيادة ؟
— : نعم .. انهم اذا قبلوا بذلك كان اذينة في الشرق كالقيصر في روما .
قال : وانه لكذلك يا مولاي فقد تلألأ نجمه حتى حجب نفوذه نفوذ الرومان .
القيادة الأولى فستكون للعرب وسيخضع قواد الرومان لأذينة كما يخضعون
لامبراطور . هكذا قال لي قائد الحامية لان نائب القيصر في فينيقية كثير الدهاء
وهو يتظاهر بالاخلاص للقنصل والاعتراف له بالحق الاول في بلاده . فاذا اراد
اذينة ان يرأس القوى الزاحفة الى بلاد الفرس كان النائب المشار اليه اول من يسلم
ه بذلك .
— : وقائد الحامية الذي يبغض اذينة يضطر اذاً الى الخضوع لعدوه في الميدان .
— : وهذا ايضاً من مظاهر دهاء الرومان وسياستهم ، فاذا ظفر سابور وقتل
القنصل او تراجع الى الوراء تناقلت الأقاليم خبر قتله او فراره دون ان يلحق الرومان
شيء من ذل هذا الفرار لان قوى تدمر هي الزاحفة الى بلاد الفرس وليست قوى
الرومان .
— : واذا انقلبت الآية وظفر اذينة ؟
— عندئذ يعلم العالم اجمع ان الرومان هم الظافرون . وان اذينة كان قائداً من
قوادهم يضرب بسيفهم ويستمد القوة منهم ..
قال : لو كنت نائب القيصر لفعلت غير ذلك . اتعلم ماذا ؟ اني اولي اذينة

قاعدة القوى ، وابعث مع الجيش العربي جميع الفرق الرومانية المقيمة في الاقاليم ولكن اوصيهم بالتخلي عن القنصل عندما تستعر النار ، فيطوق الجيش الفارسي جيش اذينة ، ويقتل المغتصب في ساحة القتال فيستريح الرومان ويولون غيره من يشاءون .

ان في مثل هذا الرأي وحده . يستطيع القارئ ان يلمس بيده ميل ذلك الفتى الصغير الى الشر . واقدامه على جريمتي الخيانة والقتل ، في مثل تلك السهولة وذلك الهدوء ليبلغ غايته .

فقال اسماعيل : ولكن لا تنس يا مولاي ان فالريان امبراطور الرومان في اسر سابور ، وان ولده غاليانوس الجالس على العرش بعده . يهتم لكسر قيود ابيه اكثر من اهتمامه لقتل اذينة المتمرد على سلطة روما في باطنه . فاذا نجا فالريان من الاسر نظر الرومان عندئذ في امر القضاء على هذا المتمرد اللابس ثوب الولاء والاخلاص

ــ : واذا لم ينج ؟

ــ : ان قائد الحامية لا يعلم ماذا يحدث بعد ذلك اما انا فلي رأي ..

قال : ماذا ؟

قال : نترك الرومان يفعلون في امر الحرب ما يطيب لهم اذا قتل الظالم فقائد الحامية يضمن وصولك الى كرسيه ، وان لم يقتل فقد كتب له ان يموت من يد تدمري لان سعينا مستمر ولسنا براجعين عنه حتى يتم لنا الأمر او نموت :

قال : ان التدمري الذي يطعن قلب القنصل هو انا .. انا معني بن اخيه فكاد مربيه يتراجع مذعوراً امام تينك العينين الملتهبتين اللتين تبعثان النار ..

اجل . هكذا كان الولد الذي نشأ في حضن عمه تحيط به اسباب السعة والرفاه : صغيراً في سنه كبيراً في خطره وعدائه ، وعندما كان اذينة وزينب يضعان اسس الدولة الشرقية الخالدة ، ويبنيان لتدمر ملكاً ثابتاً يدوم ذكره ما دام الزمان ، كان الخونة المتمرغون في خيراتهما يضعون بدورهم اسس مؤامرة تقوض اركان هذا الملك وتمحو اسم القنصل واسمي زوجته وولده من صفحة الوجود :

وانت ترى ان قصور الامراء والملوك في الشرق والغرب على مر الايام والاجيال

بؤرة فساد يخترعون فيها اساليب الخداع والمكر ، وتدس فيها الدسائس لاحباط المساعي الكبيرة والقضاء على الابرياء :

ان كرسي الرئاسة في تدمر لم يكن عرشاً ليرثه معني بعد ابيه : انما هو منصب ينتخب الشيوخ صاحبه الذي يختاره الرومان المسلطون من وراء الستار :

واذينة لم يستو في كرسيه بحكم الوراثة ، بل مشى اليه والسيف في يده كما يمشي الفاتح الظافر الى غايته . فاعترف به الشعب رئيساً ، ومد الرومان ايديهم اليه يصافحون سيد تدمر ويهنئونه احتفاظاً بولاء القبائل التي تنتمي اليه ، وحفظاً لنفوذهم في الشرق بقوة ذلك الرئيس العظيم ..

فاذا ادعى خيران على فراش موته ان منصب الرياسة هو لولده فذلك بحكم العادة لا بحكم الوراثة . لأن الرياسة المنتخبةمن الشعب هي مشاع للناس وليست حقاً مشروعاً لاسرة من الاسر .

واما اذا قام في ذهن معني ان عمه اغتصبه « عرشه » فلأن الرجال الذين حوله طلاب نفوذ وطلاب مال . وهم الذين صوروا وصية ابيه حقاً منزلاً من السماء وقاموا من الناحية الاخرى ينفخون في صدره سم قلوبهم المتدلهة بهوى التسلط والحكم فتغالى البغض في ذلك الصدر الصغير ، وبهر عينيه بريق التاج الوهمي الذي افترضوا له وجوده اذا هو اضحى رئيس المجلس ، وبات يبغض عمه وابن عمه بغضاً لا يخطر ببال ابليس .

وكان عليه وهو المتوقد الذهن الذكي الفؤاد ، بل كان على مربيه النذل والذين حوله من اتباع ، ان يغرسوا في قلبه عاطفة الحب بدلاً من تلك العاطفة الهائلة التي تنخر عظمه ، ويثبتوا له بالشواهد التي لا ترد ، انه لولا اذينة لانتقلت الرياسة في تدمر الى غير اسرة السميدع صاحبة الفضل ..

وكانت الشمس قد ارسلت اشعتها الوهاجة فوق المدينة ، عندما انتهى حديث اسماعيل ومعني ..

* * *

ومعن بن حمدان وكهيلة بنت زبدا ، لم يفترقا حتى طلعت الشمس .

كان العاشقان يتشاكيان الهوى ، ويتغنيان باناشيد الحب كما كان معي ومربيه يتغنيان بانشودة الموت والانتقام .

وكلا الفريقين احيا الليل . كلٌ يغني على ليلاه ..

لم ينصرف قائد الحرس مع زباي الى القصر في ذلك الليل . بل استأذنه في البقاء الى جانب الفتاة التي استولت على فؤاده ليتذوقا لذة الاجتماع .

وكان زبدا قد اعجبته اخلاق الفتى الحمداني ومظاهر نبالته وعزة نفسه . كما كان فخوراً بأدبه ونسبه ، لاجل ذلك لم يتردد في قبول ما يطلبه القنصل قبل تناول الغداء ، ولعله كان يفكر من قبل في ان يجعل كهيلة زوجة لمعن . فقد لا يجد بين الامراء الفتيان اجمل وجهاً منه وأطيب خلقاً ..

وهب ان معناً كان فتى عادياً في جمال وجهه وجمال نفسه . افيستطيع زبدا ان يرفض سؤال القنصل وقد رآه يهتم للفتى اهتماماً خاصاً ويجعله بين ليلة وضحاها اميراً في الجيش ؟..

ان الفتى العادي الذي يخصه اذينة بنظرة رضى ، يجعله في نظر التدمريين في صف النبلاء ..

هكذا كان الملوك يفعلون اذا ارادوا ان يرفعوا خاصتهم الى ذروة العلياء .

واذينة اعظم من ملك . وقد رفع الفتى النبيل الى رتبة القيادة وجعله قائداً لحرسه

غير ان زبدا كان يخشى ان ترفض كهيلة ذلك الحمداني ، ومن اين له ان يعلم انها كانت تناجي طيفه في الكرى ، وتبعث بالحلم بجدائل شعره ! !.

ومن اين للحبيبين ان يعلما ان ذلك الحب الطاهر الذي ملك فؤاديهما فجأة يثمر تلك الثمرة الفجائية التي يرغب فيها القلبان ؟ ..

احب كل منهما الآخر وهما لا يعرفان ذلك الطريق الذي يؤدي الى اللقاء ، فاذا بالقنصل نفسه يمهد امامهما السبيل اليه ويجعلهما خطيبين في ساعة واحدة دون ان يكون لاحدهما علم ..

ان هذا التوفيق في الحب اعجوبة من الأعاجيب ..

ومن حق الاثنين ان لا يصدقا ما رأيا ، فقد اصيبا بمثل الذهول عندما خرجا

الى شرفة القصر يحدق احدهما الى صاحبه ، وهما يحسبان ذلك المشهد حلماً ..
حتى عاد معن الى نفسه فقال : أأصبحت كهيلة بنت زبدا لمعن بن حمدان ؟ .
فأجابته قائلة : لقد كنت لك ولم ازل ايها الحبيب .
قال : أهذه يدك تلمس يدي ؟..
— : نعم ايها الحبيب كما ان عينيك الساحرتين تخترقان قلبي وصوتك العذب يرنّ في اعماق نفسي .
فسكت الفتى ، وسكتت الفتاة ، سكوتاً ساده الحب بروعته وجلاله . وبسط الغرام فوق العاشقين الصامتين جناحيه الذهبيين ..
ان الحب يعقد الالسنة ويسكت المحبين ..
ثم قال معن : لا اسألك يا حبيبتي عن الحب فقد بحتِ لي به .
فابتسمت قائلة : لقد كنت فيالهيكل مضطربة العاطفة فلم ابح لك بشيء، ان حبي يا معن لا تستطيع ان تصفه اقلام الشعراء ..
فقال : اذا وصفوه قالوا هو الحياة ..
— : ولو انصفوا لقالوا هو الخلود لاني سأحبك بعد الموت ..
فحلقت نفس الفتى في فضاء اللانهاية ، واخذ ينظر الى حبه بعيني روحه الخالدة لا بعيني جسده المضمحل ..
وكأن كهيلة ذكرت تلك الساعة التي يحتجب فيها الحبيب فقالت وهي تغص بالبكاء :
والحرب يا معن ؟؟
فقال : اما الحرب فهي على الابواب وستفصل بيننا السهول والجبال .
— : ولكن لا اصبر على بعدك ..
— : وهل تظنين يا حبيبتي اني من الصابرين ؟.. ان الحرب لا بد منها ومن واجبي الأول ان اخوض غمارها دفاعاً عن شرف القنصل الذي غمرني بنعمته ، وصونا لكرامة هذا الثوب الذي البسني اياه ، ولكن اعلمي يا حبيبتي ان الموت الذي يفصل المرء عن هذا الوجود هو اهون في نظري من ذلك الحادث الذي

يبعدني عنك . غير اني اريد ان اشرف قومي واصون عرضي ، وان لا اجعل سبيلاً للقول ان معناً الحمداني نذل . احب فاستسلم للحب ، وترك وطنه يطمع به ويتقسمه الأعداء .

ونسي معن في ذلك الحين انه عاشق ولم يذكر غير شرفه .. ثم قال اجل يا كهيلة . اني سأكون في ساحة القتال كثير الشوق الى تدمر . بل سأكون قليل الجلد لا اصدق متى تنتهي الحرب حتى اعود الى البلد الذي تقيمين فيه فأراك يا مليكة القلب ..

فتساقطت دموعها وقالت : اني خائفة ايها الحبيب !

قال : سأوصي القنصل بأني اذا مت فليحمل قطعة من جسدي يدفنها في الأرض التي تدوسين ..

قالت : لا تذكر الموت يا معن فانا لا اطيق سماع هذه الكلمة .

— : وممَ تخافين ؟

— : اخاف ذلك الروماني الغدار الذي اعماه الغرام .

فاستخف بهذه الظنون التي لم تخطر له ببال ..

فقالت له : لا تستخف بما تسمع فلذلك العاشق شراسة النمر ..

قال : ليكن نمراً فأنا لا ابالي ، أيغدر بي على مرأى ومسمع من الجيش ؟

— : بل يغدر بك في ساعة من ساعات الليل والناس غافلون :

قال : سأحطاط لنفسي ايتها الحبيبة فلا يصل اليّ سيف الغادر . ومع ذلك فأنا لا اظن انه يضمر لي شراً وقد نسي غرامه على ما ارى .

قالت : اذا نسي هذا الغرام فلا احسبه ينسى انه أهين ، الا تعلم ان الروماني سيد تدمر ونحن عبيده ؟؟

— : ومن ينكر عليه هذه السيادة الآن ؟

— : لقد انكرتها انا عندما رفضت ان اكون له زوجة ثم رضيت بك .

قال : ذلك امر لا يدخل فيه النفوذ بل القلوب ..

فقالت : ويجب ان تكون قلوبنا واجسادنا ملكاً للفاتحين ..

فظهر العزّ على جبين الحمداني وفي عينيه ثم قال : اما القلوب فليست ارضا يملكوها بالسيف ، وتربة زبيد لئن تصدى لي روماني في غرامي لتصديت لارفعهم مقاماً في تدمر وانتقمت لقلبي بسهم اضعه في قلبه ولتقع السماء على الارض .. أأنسى انا العربي ثأري ، واغض الطرف عن قاتل ابي وهم غير راضين ! ! اذن سيقول الناس عن سليل آل حمدان انه جبان ..

قالت : لا تفكر في الانتقام يا معن في الساعة الاولى من ساعات اللقاء .

قال : اصبت ايتها الحبيبة وانا ارجو منك ان تتركي التفكير في غدر ذلك الروماني ..

— : ولكن استحلفك بهذا الحب ان تحاذره ولا تستخف بالاخطار ..

قال : اطمئني يا كهيلة فسأفعل كل ما تشائين .

قالت : لقد كتب لنا ان يكون اجتماعنا وداعاً وهذا يكفي . فلا تطعن هذا القلب في فجر غرامه طعنة يتبعها الموت ..

وكانت لهجتها ابلغ دليل على مافي صدرها من لوعة وغرام .

اما معن فكان قلبه يقطر دماً وهو يغالب عاطفته فقال : الا تؤمنين بهذه الآلهة التي تعاهدنا امامها على الحب ؟

— : بلى

— : اذن فاسأليها ان تقوي سواعد التدمريين ليغلبوا عدوهم فاعود اليك بعد غياب لا يطول .

فتفجرت الدموع من عينيها تتدحرج كاللآلىء على خديها الملتهبين .

قال : اراك عدت الى البكاء يا كهيلة .

قالت : ولا تجفّ هذه الدموع حتى تعود من بلاد الفرس حاملاً لواء الظفر والفخار .

قال : وعندئذ تبارك الآلهة زواجنا ويجتمع الشمل .

فتنهدت قائلة : اذا سالمتنا الايام ..

قال : عجباً يا كهيلة . انك لا تنظرين الى الامور الا من ناحيتها السوداء

قالت : لأني رأيت السماء تتلبد بالغيم الأسود .. وسأقدم على امر لم تقدم عليه فتاة في تدمر قبل هذا اليوم .

قال : ما هو ؟

قالت : سأنطرح على قدمي القنصل واسأله ان يبقي قائد حرسه في المدينة ..

فابتسم الفتى ابتسامة هادئة وقال : اتعترفين للقنصل بان الفتى الذي تحبين لم يكن جديراً بقيادة الحرس ..؟! تسألينه ان يمنعني من الاشتراك في القتال وانا اريد ان اكون اول عربي يقتحم صفوف الفرس فيبلغ قمة المجد بقوة سيفه ؟! الا تعلمين ايتها الحبيبة ان هذا السؤال يقتل مستقبلي ويجر خلفه ذيول العار .؟ اني اذن غير عربي . وغير اهل لثقة القنصل تلك الثقة التي شرفني بها وهو لا يعرفني ولم يقع نظره عليّ من قبل .

فقاطعته قائلة : اذن استأذنه في الذهاب الى بلاد الفرس ..

قال وهذا هو الذل ان بنت القائد الأعظم في تدمر لا يغلبها الحب الى حد ان ترافق خطيبها الى ساحات الوغى . فاتركي هذا الرأي يا كهيلة واعتصمي بالصبر كما ساعتصم به ، فلكل شيء حد ولا بد من ان نجتمع يوماً اجتماعاً لا يعقبه فراق

وعندئذ ، سمع الاثنان صوتاً خارجاً من الرواق هو صوت زبدا يقول : لقد اصاب معن واخطأت كهيلة فالشرف اثمن واسمى من الغرام ..

وكان قادماً الى الشرفة من ذلك الرواق المظلم الذي يخفق فيه نور سراج ضئيل فسمع اقتراح كهيلة وجواب معن . فأراد ان يشاركهما في الرأي قبل ان ينضم اليهما

فبغت الاثنان . واخفت الفتاة وجهها بيديها وقد احمر من الخجل .

لكن زبدا استطرد قائلاً : لقد سمعت كل ما قيل وانا من رأي معن . ولئن سمح القنصل لقائد حرسه بالبقاء في تدمر — بصفتي القائد العام — لا اسمح له . اسمعي يا ابنتي . ان الأيام وان طالت على هذه الخطبة فليس هنالك عار يلحق بي ولكن العار في القعود عن قضاء الواجب والاستسلام الى ميول الشباب ولذات الغرام

ثم قال ضاحكاً : لقد فاجأ الغرام ابنتنا في هذا اليوم بكل ما فيه من قوة وسلطان

فقال معن : بل فاجأنا نحن الاثنين يا مولاي من قبل ان يفاجئنا القنصل بالخطبة

واستغرب القائد وقال : متى كان ذلك واين ؟
قال : يوم استقبلت تدمر القيصر فالريان .
قال : وكانت كهيلة على هذه الشرفة ولم تترك القصر !!
فقال : اجل يا مولاي . وعلى هذه الشرفة ولد الحب، وكانت النظرات رسوله فسبح الجنان ..
ثم اعاد عليه حكاية غرامهما واخذ الاثنان يضاحكان كهيلة حتى افتر ثغرها عن الابتسام .
فقال زبدا : والان يا كهيلة ماذا ترين ؟
قالت : لم يبق لي رأي يا مولاي ولكني خائفة واخشى ان يغدر اسكندر بزوجي بمعن .
قال : ولماذا لا تخافينه علي ؟
— : لانه لا يجرؤ على التعرض للقائد العام .
فقال : كذلك لا يجرؤ على التعرض لقائد الحرس القنصلي وانا ضامن حياته .
فأشرق جبين الفتاة وقالت : لقد زالت مخاوفي الان فلتحفظكما الآلهة .
قال معن : متى يتم الزواج يا مولاي ؟
قال : تسألني عن شيء لا شأن لي به ، ان اذينة هو الذي خطب لك وهو نفسه حدد موعداً للزواج .. ولكن اظن ان هذا الزواج لا يكون الا بعد ان يستريح القنصل من متاعب الحروب .
قال : وليس امامنا غير سابور ندك اسوار عاصمته وينتهي الأمر .
قال : انك لشجاع يا معن .
— : وسأسعى لأن اكون عند حسن ظنك ..
وقضى الثلاثة ما بقي من الليل يتحدثون عن الحب والحرب حتى تنفس الصبح .

- ١١ -

اذينة وسابور

من والي سوريا وفينيقية نائب القيصر في هذا الشرق . الى اذينة القنصل رئيس الشيوخ في تدمر !

ورد عليّ كتابك ، يحمل نبأ استعدادك للزحف الى بلاد الفرس لانقاذ الامبراطور فالريان من الأسر والانتقام من سابور . فأنا باسم مولاي القيصر ابعث اليك نصف ما في الثغور من حامية الروم . وقد امرت قواد الشواطئ ليرسلوا اليك نصف ما عندهم من الرجال ، حيث يكونون لك جنوداً وتكون لهم انت سيداً تولي امرهم من تشاء من قواد العرب . اما الرسول الذي يحمل كتابي هذا فهو يحمل كتاباً آخر الى قائد الحامية في تدمر آمره فيه بأن يخضع لك مع حاميته خضوعاً تاماً دون ان ينفرد بأمر ودون ان يكون له رأي في هذه الحرب ولك ايها القنصل العظيم ان تأمر جميع القوى المقيمة في دمشق وبعلبك وحمص والكتائب النازلة في الحصون والقلاع في المدن والجبال ، فينضموا الى الجيش العربي في مدينتك الزاهرة ، ومعهم مؤونتهم وذخائرهم وكل ما يحتاجون اليه . وفقك الاله الذي يحرس تدمر : واظفرك بعدوك الذي هو عدو الرومان اينما وجدوا ، واظهاراً لاعجابي ببسالتك وصدق عزيمتك ولاهتمامي لكل شأن من شؤون حياتك وجهت اليوم الى روما مركباً حربياً يحمل رجائي الى مولاي القيصر ، ليجعلك قائداً عاماً على جميع القوى الرومانية في المشرق . فأثبت للقيصر وللعالم اجمع ، انك جدير بهذه الرتبة التي لم ينلها في الشرق احد الا القنصل العظيم »

وطوى الوالي الكتاب وقال للرسول : احمل كتابي واعجابي بمولاك ، الذي هو اصدق عربي في خدمة الرومان ..

وذلك هو الدهاء بعينه . فإن نائب القيصر ، اراد ان يخدر اعصاب اذينة بتلك الوعود التي ذكرها في كتابه ، ليبقي التدمري الجبار عاملاً من عمال الرومان يلقي هيبتهم في قلوب الخوارج ، ويبسط نفوذهم فوق الاقطار .

غير ان القنصل لا تستهويه الوعود كما تقدم . ولو لم يجرح سابور كبرياءه ويستخف برأيه ، لما خطر بباله ان يشهر سيفه في وجه الفرس ويتظاهر بالدفاع عن شرف الروم والسعي لانقاذ الامبراطور ..

فلما مثل الرسول بين يديه ، وقرأ الكتاب . قال لمن حوله من رجال : لقد وافقنا نائب القيصر في كل ما قلناه . فنظموا الصفوف ، واعدوا المضارب للرجال القادمين من الصحراء .

واخذت تلك الصحراء تقذف رجالاً .. من جميع الفروع والبطون هذا على جواده ، والآخر على ناقته ، واصوات اهازيجهم تملأ الفضاء .. حتى غطوا ظاهر تدمر بما معهم من عدة واشياء ..

وجميعهم يرددون اسم اذينة ، امير الحفر وبطل البادية ..

ولكل عشيرة شكل معروف . هذه ارخت الشعور .. وهذه حلقت الرؤوس .. والأخرى ترسل اللحي لتغطي الصدور ، فكان ذلك السهل الواسع بحراً هائجاً مواجه اجسام بشرية من كل لون وكل جنس .. وعلى رأس كل عشيرة زعيمها المطاع يفديه رجاله بالمهج ..

وبعد بضعة ايام اقبلت جنود الاقاليم ، الفرقة تتبع الفرقة يقودها ابطال الرومان المجربون ومجموع الجيش من صعلوكه الى اميره ، يعلم ان اذينة هو القائد الاكبر لتلك الكتائب الكثيرة العدد ، المخيمة في سفوح الجبال .

حتى اجتمعت القوى جميعها حول المدينة ، فلم يبق الا ان يعرضها القائد الأعظم عرض عين ، ثم يصدر امره فتزحف الى المدائن ، تحمل لتلك العاصمة المدهشة الخراب والدمار .

أما أذينة ، فكان القواد يرغبون في ان يقابلوه غير انه لم يأذن لأحد في هذا إلا بعد ان أتم مهمته الصعبة ووضع مع قواده الأبطال خطة الهجوم على بلاد

فارس والطريق المؤدي الى النصر ..

فلما فرغ من ذلك اقام ينتظر بكل هدوء وصبر اولئك الرسل الذين بعثهم الى الحدود يتعرفون ما في تلك البلاد من جيوش وقوى ، وينقلون اليه اخبار الفاتح الفارسي الذي اقلق مضاجع الرومان وبعث الذعر في قلوب القواد والأمراء .

ولم يكن سابور في بلاده في ذلك الحين بل كان غازياً بلاد عدوه في الشمال ، فاتحاً مدنها وقاهراً حاميتها جارفاً امامه كل ما يتصدى له من قوى البشر كالتيار العظيم الهائل لا يثبت في وجهه شيء ...

حتى اضطربت البلاد وسادها الرعب ، فترك الناس مدنهم لاجئين الى المواضع التي لا يصل اليها سيف الفاتح ، وذلك الجبار يواصل السير لا يهدأ ولا يستريح حتى انتهى الى انطاكية فدار جيشه حول الأسوار وطلب الراحة هناك .

غير ان هذا الأسد كان يتحفز للوثوب ، فلم ينقض يوم وبعض اليوم حتى اطلق الرجال وآلات الدمار على الأسوار فدكوها الى الحضيض ولم ينقض يومان آخران حتى اباد اهلها واللاجئين اليها قتلاً واسراً ، فأصبحت انطاكية الجميلة خرائب وانقاضاً يرقد معظم سكانها تحت الانقاض ..

وبينما كان سابور ترنح عطفيه خمرة النصر كان أذينة في تدمر قد أعد كل شيء وكانت الرسل قد نقلت اليه خبر غياب الرجل عن عاصمة ملكه .

ففي صباح يوم من أيام الربيع . رق هواؤه وصفت سماؤه ، خرج من القصر على جواده الأشهب امامه حجابه وحراسه وحوله ولده وقواد جيشه ومعني ووراءه فريق من شيوخ المدينة والموظفين والوكلاء .

ونادى المنادي بين مضارب الجند : لقد اقبل اذينة ملك الصحراء ..

فأصطفت تلك الجحافل لتحيي قائدها الأكبر ، الروم من ناحية ، ورجال القبائل من ناحية ، والجيش التدمري بما فيه رماته وحراسه في القلب . حتى اذا اطل على البادية هبت عاصفة قوية من الدعاء تجاوب صداها ذلك السهل الفسيح ..

سبعون ألفاً من الرجال رددت افواههم اسم اذينة ، ولمعت شفرات سيوفهم في الفضاء اجلالاً لذلك البطل العربي الذي وضع وطنه في اعلى مراتب العظمة والمجد .

ثم يجلس أذينة على كرسيه الذهبي ليعرض جنوده بل طاف حول الصفوف على فرسه يقرأ على وجوه الرجال مظاهر البطولة والاستخفاف بالأخطار ، ولم يكن سبق منه الى تحية اصحابه زعماء العشائر الذين وثقت البادية عرى الولاء بينهم وبينه ، فكان يمد يده اليهم فيصافحهم باسماً ويعد كل زعيم منهم بمبلغ من المال يهبه له بعد الرجوع من بلاد الفرس .

حتى انتهى الى صفوف الرومان القادمين من الأقاليم . فرأى رجالاً لا يشبهون رجال الرومان بغير اللباس .. انهم شرقيون ساقتهم روما الظافرة الى الميادين بعد ان دوخت بلادهم وقوضت اركان دولهم بحد السيف .. الا قوادهم فقد كانوا رومانيين واذا ذكرت قيادة الجيوش في العالم كله فأحن رأسك اجلالاً لبطولة قواد الرومان :

وهنالك كتيبة اخرى رجالها من الغرب ، هم فلول الجيش الذي اذله سابور وأسر قائده صاحب التاج الروماني .

فلما عرضها أذينة . خيل اليه انه يرى نفوسا ظمأى الى شرب الدماء ، وقلوباً تستهويها عاطفة الانتقام من سابور .

فقال في نفسه : انها الكتيبة الوحيدة التي يستطيع الرومان ان يفاخروا بها جيش الأقاليم ..

اما حامية المدينة فلم يعرضها القنصل بل قال لقائدها الروماني والد اسكندر : ان حامية تدمر كوكب لامع في سماء النصر واحدى مفاخر الجيش الروماني في هذه الأقطار ..

فرفع الخبيث رأسه قائلاً : وأذينة القنصل يقودها الى مواقف الفخار ..

وأبتسم القنصل لولده العاشق ، فقابله الفتى بابتسامة تخفي وراءها عاطفة حقد لو تمثل لأذينة لتراجع مذعوراً ..

ثم وقف أذينة في قلب الجيش ودعا اليه جميع القواد والأمراء من رومان وعرب وقال :

سنختار لكل صنف من صفوف الجيش قائداً عربياً من تدمر ...

فأنحنى الزعماء والأمراء العرب أما قواد الرومان فكانوا كالتماثيل لا يظهرون دليلاً واحداً من دلائل الرضى ..

فعرف أذينة انهم مكرهون على القبول بقوة الأوامر التي اصدرها نائب القيصر ولو خيروا لحربوا ان يجعلوا أذينة نفسه جندياً من جنودهم ..

لكنه لم يبال بما رآه بل قال لولده على مسمع من الجميع : لقد وليناك رئاسة العشائر يا هيروديس فأحفظ مقام الزعماء والأمراء ..

فصاح الزعماء قائلين : رضينا بقائدنا الفتى الذي خبرنا بطولته في البادية .

ثم قال لزبدا ولزباي : وانما قائد هذا الجيش كله بما فيه فرسانه ورماته وحراسه والكتائب القادمة من الأقاليم على ان يبقى لكل فرقة قائدها الذي تعرفه ، واعلموا ايها القواد ما اقدمنا على الحرب الا ونحن واثقون ببسالة جنودنا وصدقهم في القتال وطاعتهم في الميادين فاذا شهر جندي سيفه دون ان يستأذن قائده فهو مقتول .. لا شفاعة ولا رجاء .. كذلك كل من يعصي أمر رئيسه وكل من يعتدي على اخيه وكل من يسلب صاحبه لجاماً او رحالاً ، وكل من يدنس له عرض فجزاؤه القتل . ان القنصل يريد ان يكون جيشه العظيم انزه جيوش العالم واعفها ، وأشدها بأساً واصدقها طاعة ليتم له النصر ، والويل لمن تحدثه نفسه بالعصيان فان جسمه يرفع على رؤوس الأسنة وهو حي واذا مات جعلناه طعاماً للوحوش والطير ..

ايها الجنود : كلكم في هذا الجيش اخوة لا نؤثر الواحد منكم على الآخر الا بشجاعته واقدامه . الأرمني أخ لليهودي ، وابن روما أخ لأبن الصحراء ، ولهؤلاء الأخوة أب واحد هو أنا .. ونحن نعرف ان نكافئ المخلصين ونجازي الخونة ..

والتفت عندئذ الى قواد الروم يتبين ملامح الوجوه .. فاذا بتلك الوجوه قد اكفهرت وعلاها الاصفرار ..

فأبتسم وقال لهم : ان سابور ليس في بلاده اتعلمون اين هو اليوم ؟ انه يدك اسواركم سوراً فسوراً ، ويفتح اقاليمكم واحداً فواحداً ، ويقتل اطفالكم ويسبي نساءكم ويذبح رجالكم ..

لقد فتح انطاكية وهدمها ، وسيزحف الى كيليكيا فيجعلها خراباً ، وقوادكم

في الغرب والشرق ، يتنافسون على الرئاسات ، ويهتمون للخوذ اللامعة والسلاح البراق ، يتهادون به في الهياكل وعلى المسارح، والأرض تنهار من تحت اقدامهم وهم لا يبالون ..

اين قيصركم فالريان ايها القواد ؟؟ انه يرسف بقيوده في بناء صغير مظلم لا يبصر فيه نور الشمس ، وهو القائد الجبار قذفت به يد الخيانة الى ظلمات السجون وذلك الخائن الذي باع مولاه يدعو جنودكم في آسيا الصغرى الى مبايعته ، ولم يقم روماني واحد ينتقم للأسير المعذب المغلول اليدين . ! !

فأين هي روما الجبارة التي دوخت العالم واخضعت البحار ؟! واين هو جندكم الفاتح الذي روع الممالك وملأ ذكره الخافقين ؟! انه في الأقاليم تتمشى الخيانة في صفوفه ، ويستولي عليه الوهن والضعف حتى ليطمع به صعاليك الشرق وهو غافل ! ! ! فاذا كانت روما لا تعرف ان تنقذ سيدها بل لا تجرؤ على ذلك فسيد تدمر يعرف كيف ينقذ ملككم وهو وحده في هذا الشرق العربي الذي يتصدى لسابور ويهاجمه وهو في عقر داره .. نحن لا نسألكم ان تنتصروا لأذينة ، بل نسألكم ان تنتصروا لحرمتكم التي انتهكها الفارسي ، وشرفكم الذي داسه بقدميه .

فدبت الحمية في رؤوس القواد وتغيرت ملامح الوجوه .. الا قائد الحامية فكاد يقع على الأرض صريعاً من القهر .

ثم استطرد القنصل قائلاً : أما المدائن ففيها من الذهب ما يملأ القصور ، ومن اللآليء ما يغني الشرق ، فأفتحوها وخذوا ما فيها لا نأخذ منه نحن شيئاً لبيت المال ، واذا عاد سابور وانتم في بلاده ، فأطردوه منها كما يطرد الشعوب الآمنة واستبيحوا ماله ودمه كما يستبيح الدماء والمال ..

فقال قائد دمشق : نستطيع اذن ايها القنصل ان ننقذ الأمبراطور قبل ان يعود ؟

فضحك اذينة وقال : لقد غفلتم عن ملككم الى حد انكم لا تعرفون لموضع اسره ! ! انه ليس في المدائن ، وذلك البناء الذي جعلوه فيه هو خيمة من الصوف يحملونها على الأفيال في الحروب والغزوات حتى يرى سابور اسيره في كل يوم ويأمر بجلده وتعذيبه قبل ان ينقل قدماً الى ساحة القتال .. فاذا اردتم انقاذه

فاقتحموا الصفوف واقتلوا الحراس وارفعوا ملككم على الاكتاف ، ليعترف لكم العالم بأنكم شعب ناهض لا ينام على ضيم ولا يصبر على ذلّ ، والا فقد ضيعتم عظمة روما وخسرتم ذلك المجد الذي رفعكم الى الجوزاء ..

فقام احدهم فقال : سنستعيد بحد السيف هذا الشرف الذي فقدناه .

قال : احسنت ايها القائد فمن انت ؟

— انا قائد بعلبك .

— : اتنقذ ملكك ؟

— : انقذه بسيف القنصل .

فأعجبه جوابه فقال : اذا التقى الجيشان فانت القائد الذي يحصد حراس الأسير بالسيف فنجعلك حاكماً ..

قال : ومن هم رجالي ايها القنصل ؟

قال : الجنود الذين ترأسهم . فكم هو عددهم ؟

— : الف ، ولكن يجب ان يكون هنالك قوة أخرى .

— : لماذا ؟

— : واحدة تفرق صفوف الحراس ، والاخرى تشتغل بعملية الأنقاذ .

فازداد اذينة اعجاباً به وقال له : هذا هو الرأي وسنختار لك رفيقاً .

ثم وجه حديثه الى قائد الحامية قائلاً :

اختر لهذه الغاية الف رجل من حامية تدمر ؟

— : ومن يقودهم ؟

— : ولدك اسكندر فقد حان له ان يحدث حدثاً يرفعه الى رتبة القيادة .

فأمتعض القائد من هذه المهمة لكنه تمتم قائلاً : سأفعل ما تشاء .

ولولا وجود القواد والامراء ، لاعتذر عن ولده سائلاً القنصل ان يختار سواه .

ان أمر انقاذ الأمبراطور من اصعب الأمور في تلك الحرب بل يكاد يكون اكثر صعوبة من فتح عاصمة الفرس ، فكيف يقتحم الألفان من الرجال مؤخرة جيش لجب تحيط بخيمة الأسير كما تحيط الأسوار بالقلاع ؟؟

وكان اذينة يعلم ان انقاذ القيصر في مثل ذلك الشكل لا يستطيعه الروم غير انه اراد ان يجعل ذلك الأنقاذ سبباً ظاهراً لتلك الحرب ، كما قرأت فيما مر من الفصول .

ثم قال : ليقف كل قائد امام فرقته .

فتراجع القواد والزعماء الى مواضعهم .

فقال لزبدا ولحميه : احفظا نظام هذا الجيش من الان حتى نعود من المدائن ، وليكن مستعداً للزحف بعد ثلاثة أيام ..

وهم بالانصراف ، فرفع معني صوته وقال لعمه :

اعطني عشرة من الرجال يا مولاي ..

فابتسم له القنصل وقال : واي شأن لك معهم يا بني ؟

قال : اقودهم الى بلاد الفرس واجرب سيفي ..

قال : ليس لك سيفاً يا معني ، ان سيفك هو هذا الذيل الارجواني الذي تجره وراءك ..

— : اذن فأعطني سيفاً فابن خيران يريد ان يكون بين صفوف اذينة القنصل ..

فضمه اذينة الى صدره وقبل جبينه وقال للقوم : انها أمثولة يقدمها غلام عربي للجيش .. أعطه سيفاً يا زباي ونحن نعطيه فرساً من افراس القنصل ، ولكن لا نأذن لك يا معني في ان تجرد ذلك السيف ..

قال : لا خير في سيف لا يخرج من غمده .. اعطني رمحاً ..

قال : اعطيناك رمحاً لا سنان له ..

فكاد يظهر الغضب في وجه الفتى فقال : اني اوثر ان اكون رجلاً لا غلاماً .. فأعطني قوساً ارشق بسهامها رؤوس الفرس ..

قال : على ان تمكث الى جانب عمك لا تخطو خطوة واحدة دون اذنه .

قال : لقد رضيت فأين هي القوس .

فسار مربيه الى فرقة الرماة وقال لقائدها الجديد الذي هو أحد المتآمرين : لقد رقي اذينة ابن أخيه فجعله قواساً ..

فناوله القائد قوساً وما يتبعها من عدة ولم يقل كلمة .
فقال اذينة لمعنيّ : اختر لك هدفاً ترميه .
قال : على مولاي القنصل ان يختار ..
فأجال القنصل نظره فلم يبصر شيئاً يجعله هدفاً لسهم الغلام .
فقال الفتى مشيراً الى فرس عمه : ليضعوا هذه القلادة حيث يشأ القنصل فأرميها
وكانت تلك القلادة في عنق الفرس ، وهي من العاج النحاسي ، وفي وسطها
قطعة شفافة من الابنوس بحجم بيضة الدجاج
فأمر اذينة فوضعت القلادة على بعد بضع خطوات ثم قال للغلام : ارم يا
معنيّ .
فنزع معنيّ بالسهم فأصاب قطعة الأبنوس وسمع له صوت .
فقال له اذينة : لولا سنك لجعلناك قائد القواسين .. اتصيب بكل سهم من
هذه السهام رجلاً من الفرس ؟ ..
قال : اعد السهام ثم يعد القنصل جثث القتلى فاذا نقصت فلا اصلح للقتال
ثم همس في اذن اسماعيل قائلاً : لو كان رأس اذينة قطعة من الأبنوس
لنفذ سهمي منه ..
وهو يعني بذلك ، انه سيجعل رأس عمه هدفاً لسهمه او لسيفه ، عندما تدنو
ساعة الأنتقام
فقال اذينة لهيرو ديس : سيخلفك معني في القيادة بعد حين ..
قال هذا بصوت عال سمعه جميع القواد .
وكان يفكر عندئذ ، في ذلك العرش الذي يبنيه . والذي وضع له الدعائم
ثابتة . وسيكون هيرو ديس يوم يصدق هذا الحلم شريكاً له في ملكه ..
فقال معن : وماذا يفعل هيرو ديس اذا خنفه معني يا مولاي ؟
فقال : لقد اعددنا له ما يستحقه ..
ولم يزد على هذا كلمة .
وقبل ان يلوي عنق فرسه راجعاً الى المدينة قال لزباي : نحتاج الان الى ثلاثة

من الرجال الأشداء نرسلهم في مهمة ..
فأجابه زباي قائلاً : يتبعونك بعد ساعة الى القصر .
أما رفاقه في رجوعه فكانوا شيوخ تدمر ووكلاؤها بينهم معني ، وبقي القواد في ذلك السهل يهتمون لاصلاح الشؤون في الجيش ..
ومرّ اذينة بسوق المدينة ينظر الى القوافل تعود بخيرات الشرق والى طوائف الأرمن واليهود والنبطيين يحملون حاصلات الاقطار الى مدينته الزاهية والى شعبه لا من يرتع بظله في سعة العيش فقال في نفسه :
لا خير في كل ما اراده اذا كانت تدمر بدون عرش ..

* * *

ومثل الرجال الثلاثة الذين بعثهم زباي بين يدي اذينة .
فقال لهم : ايكم يعرف انطاكية ؟
فأجابه الثلاثة قائلين : نعرفها جميعاً .
قال : وبلاد الفرس ؟
قالوا ونعرف بلاد الفرس وبلاد العراق ونعد المدن والقرى فيهما .
قال : يخيل الينا ان زباي عرف هذه المهمة .
فقال احدهم : نعم يا مولاي وقد سألنا عن الذي يسأله القنصل ..
قال : يحق لنا ان نفاخر العالم بقواد تدمر ..
قال : وبرجال تدمر يا مولاي ..
— : اذن فأنتم تدمريون .
— : نعم ونبذل النفوس في سبيل اذينة ..
فأذن لهم في الجلوس ثم قال : لقد فتح سابور الفارسي انطاكية ولا نعلم اذا كان باقياً فيها ام تجاوزها الى ما بعدها من البلاد .
فقال ذلك الرجل : واذا كان في انطاكية ام في الصين ، فماذا تريد منه ؟
— : نريد ان نعلم كل خطوة يخطوها جيشه ، حتى اذا رأيتم سابور راجعاً الى بلاده ، فليترك احدكم الجيش قاصد المدائن ليقص علينا ما رآه .

— : اي ان نحصي على سابور انفاسه ثم ندلك على مرامي هذه الانفاس ..
— : احسنت ايها الفتى فأنت متوقد الذهن .
قال : وهل يستطيع مولاي القنصل ان يثبت وجوده في المدائن ، في ذلك الحين
قال : سنحاصر عاصمة الفرس ولا نعود عنها حتى نضع يدنا على جواهر تاج سابور ، لكننا واثقون بان الحصار سيطول ، وسينتهي الخبر الى الفارسي فيشد رحاله الى عاصمة ملكه لينقذها من يد العدو .. افهمت الان ؟
— : نعم يا مولاي وفي بلاد فارس سيلتقي الاثنان ملك تدمر وملك الأعجام :
فأبتسم اذينة قائلاً : ليس لتدمر ملك ايها الرجل ..
قال : سيذهب اذينة الى الحرب رئيساً ويرجع ملكاً ..
قال : اذا صدق ظنك فأنت نبي ..
فقال : وليس هنالك موضع للغرابة فسليمان بنى تدمر وهو حفيد الانبياء :
فضحك أذينة ضحكة طويلة لا يضحك مثلها لهيروديس : ثم قال :
اذهب الان في مهمتك واحذر ان تدعي النبوة في انطاكية .
ثم اعطى كل واحد منهم قبضتين من الذهب واومأ اليهم بالأنصراف .
فأخذ التدمري يقلب الدينار بيده ويقول : اني ارى على احد وجهيه صورة القيصر يا مولاي ..
قال : الا ترضيك صورته يا رجل ؟
قال : اقسم بآلهة الهيكل اني لا احمل ديناراً الا اذا كانت عليه صورة أذينة .
ثم طرح بذهبه على اقدام القنصل وقال له :
اعط رفيقيّ هذا الذهب فينفقا عليّ منه ، أما أنا فلا أمد يدي اليه ..
قال : ان البلاد ليست لنا بل هي لروما .
قال : والتدمريون لا يريدون ان يعترفوا بها .
فسر القنصل كثيراً لعزة هذا التدمري وأحب ان يقرأ ما في نفسه ، فقال :
اراك تريد امرأ لا تستطيع ان تناله .
— : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : تريد ان تجعل تدمر لك والقوة لا تريد ذلك .
قال : لان اخاك خيران استسلم للفاتحين فمدوا ايديهم الى كل شيء الا تذكر يا مولاي ان اباك كان ملكاً ؟..
ـ : اذكر ذلك ولكنهم قتلوه .
ـ : ولكنهم قتلوه غدراً في ظلام الليل ولم يجسروا على التعرض له بين جنوده :
فتمادى اذينة في حديثه مع الرجل وقال : أتظن ان هذا الجيش الصغير المقيم في تدمر يستطيع ان يبارز الجيش الروماني الفاتح الذي ملك البر والبحر ؟
قال : اذا ضممت الى جيشك الصغير تلك القوى المنتشرة في الصحراء صعب على الروم ان يذلوا هذا الجيش ويملكوا بلاده ، فأعطني يا مولاي جند تدمر ورجال البادية العراة الصدور اطرد لك هؤلاء الرومان كما يطرد العربي ابله في السهل الفسيح الارجاء ..
فقام في ذهن أذينة ان الرجل ارسلته الالهة لينفذ تلك الخطة التي وضعها لنفسه ان افكار الرجل هي افكار القنصل لا زيادة فيها ولا نقصان ..
كأن ذلك التدمري كان يقرأ تلك الأفكار مكتوبة أمامه بحروف بيضاء على لوح أسود ..
فهم القنصل بان يصرف رفيقيه في القصر مستفيداً من رأيه ولكنه رأى ان يبعده عن هذه الظنون ريثما تنتهي الحرب ، فقال له :
قد تكون مصيباً فيما قلت وسننظر في الأمر بعد رجوعك .
قال : في ان تصبح ملكاً يا مولاي ؟ ..
قال : في هذا وفي ذاك فانصرف الان فان الملك يأمرك بالانصراف ..
فبرقت اسارير وجهه عند سماعه لفظة الملك وانحنى امام أذينة وخرج مسرعاً لا ينظر الى الذهب الذي رماه .
فنادى أذينة أحد رفيقيه وقال له : خذ هذا المال تعالج به أمر صاحبك .
وأخذ القنصل يفكر فيما سمعه من ذلك النبي الذي قرأ افكاره ..

* * *

بعد ثلاثة ايام ، قبل ان يبزغ الفجر ، نفخت الحراس في الأبواق ، فأستيقظ الجيش النائم على كتف المدينة الخالدة بما فيها من امجاد .

وما هي غير ساعة حتى قرعت الطبول ومشت المقدمة ثم تبعتها الصفوف . كتيبة الرماة ، ثم كتيبة الفرسان ، ووراءهما رجال البادية ، ثم تجيء بعدهم فرق الاقاليم ، فالحرس القنصلي ، ثم القواد فأذينة .

مشى الجيش بسرعة مدهشة لم يتعودها الرومان من قبل ، حتى ليخيل اليك ان تلك القطعة الكبيرة من الناس تسبح في الفضاء .

وهذا ما اراده القنصل فلم يبق من سبيل الى مراجعته فيما اراد . كان يعتقد ان السرعة في الحرب هي احد أسباب الظفر ، وكان جيشه يعرف عادته فلو استطاع ان يطير الى الموضع المعين له لطار .

وهنالك أمر آخر يستوجب السرعة في المسير ، فان سابور بعيد عن المدائن وقد يدك أذينة اسوارها قبل ان يعود .

وهو اذا استولى على المدائن ، فقد استولى على اموال الفرس وكنوزهم وآثار مجدهم واكره سابور وجيشه على الالتجاء الى مدينة اخرى يحتمون وراء أسوارها ليدافعوا عن الشرف .

وحسب أذينة فخراً وعزا ان يسلب ذلك الفاتح الفارسي الذي دوخ الشرق ، تاجه الذهبي المكتوبة عليه سطور العظمة والفخار .

ولا سبيل الى ذلك التاج الا اذا اقتحم اسوار العاصمة الفارسية الكبرى وقذف بالتاج العجيب الى اعماق الفرات ، كما فعل سابور بهداياه ..

وكان واثقاً بالفوز تملأ تلك الثقة نفسه ، حتى انه كان يقول لقواده التدمريين : على أعلى أبراج قصر سابور سيخفق العلم التدمري ..

وهي كلمة لا يقولها غير ذلك القائد العظيم ، الحديدي الأرادة ، الثابت الجنان .

ان الرومان أنفسهم كانوا يخافون الغول الفارسي الذي يتمشى الموت أمام صدور خيله . وغاليانس بن فالريان امبراطور الرومان نفسه ، لم يكن يفكر في الزحف الى

بلاد فارس لينقذاباه الا كما يفكر المرء في الطواف حول أبواب السماء على مركبة من نار :.
أجل ، لم يكن يخطر ببال الأمبراطور ان يلعب مثل تلك اللعبة الخطرة لأن بلاد الأعجام في نظره كانت حفرة مستطيلة هائلة تدفن فيها ملكه ، وقد قام في ذهنه ان سابور الجبار لا يغلب في قتال .

ولعل ذلك الأعتقاد كان احدى وسائل الظفر الذي تم للفاتح الشرقي في اقليم الرومان .

أما أذينة العربي .. فكان يرى الجلوس على عرش الفرس اهون من الجلوس على ضفة الغدير .. ورجال الأعجام في نظره كانوا نعاجاً أمام ذئابه الخاطفة .

ان قواد الرومان كانوا يترددون في سيرهم الى القتال ، أما قواد العرب فكانوا يفكرون في الصعود فوق الأسوار .

وهكذا كان جيش أذينة ، الذعر يدب في قلوب بعض رجاله ، والاستخفاف بالأخطار يملأ صدور الآخرين .

وهو يعرف كل ذلك ويقرأه على جباه القوم ، فكان بقوة عقيدته وفصاحة لسانه يحاول أن يبعث رباطة الجأش الى نفوس الخائفين .

ولكي يحفظ حياة الجنود ويستغل راحتهم ، عدل في زحفه عن تلك السرعة الغريبة . وأمر قواده بأن يلجأ الجيش في النهار الى خيامه ، ولا يواصل السير الا اذا أقبل الظلام .

ذلك لأن أشعة الشمس في الصحراء كانت سهاماً من نار ، والأرض تحت أقدام الجنود كانت ناراً ، فاذا لج في طلب السرعة عرض جنوده لتينك النارين :.

واذا ضربت الخيام وآوى اليها القوم ، عمد مع قائديه زبدا وزباي وهيرو ديس ومعن ، الى درس احوالهم والاصغاء الى المظالم ويطوف حول الخيام يوزع الطعام بيده على المرضى والضعفاء .

ولكن .. في الجيش فتى آخر كان يقوم بدوره بما يقوم به القنصل يحمل الطعام كما يحمله ويبتسم للجنود كما يبتسم لهم ، بل يعطيهم من المال ما لا يهب بعضه أذينة نفسه .

ذلك الفتى كان معني بن خيران ، يساعده في عمله رفاقه الناقمون واذنابهم وقد كثروا حوله برغبة واقبال حتى انه كان اذا مشى بين مضارب الجند مشى خلفه العشرون والثلاثون من رؤساء العشائر والزعماء يظهرون له الخضوع والأحترام .

وهو يعرف ماذا يفعل .. انه كان يريد ان يقيم له في صدور القوم هيكلاً من الحب ويجعل له في قلب الجيش حزباً لا يقل نفوذه عن نفوذ عمه .

وذلك رأى اسماعيل مربيه وتدبيره فقد كان داهية في فنون الأكاذيب والسياسات يتظاهر بالحب حين يقتله البغض ، وبالبغض حينما يكاد يذوب حباً .

وكان معني يملك الأرض من ظاهر تدمر ما لا يملك مثله أذينة . وقد ورث من أبيه المال الكثير ، فأخذ يشتري بالمال الموروث قلوب الرجال وقد كتمهم امره حتى حسبوه في بادئ الأمر اميراً من امراء الجود والعطاء . واذينة

وأذينة يرى كل ذلك ويبتسم للفتى الجواد . وكثيراً ما كان يقول له : انك تعطي الناس اكثر مما يعطيهم عملك .! فيضحك الفتى كما تضحك الأطفال ويقول : ولكني ابذل مالي باسم هذا العم وفي ظله ..

وجعل الجندي يهمس في اذن رفيقه قائلاً : ان معني اكثر جوداً من أذينة وأقرب الى القلوب منه ..

وبينما كان القوم ينظرون الى الفتى نظرهم الى صغار الأطفال من النبلاء اذا هم يلتفون حوله والاحترام ملء الصدور ..

واسماعيل وزنباع قائد الرماة ، ينفثان السم من وراء الستار ويظهران الطاعة والولاء للملك البادية الذي يتمنيان له الموت .

حتى ان ذلك السم كاد يدب في صفوف الحراس ، ولم يكن غير ذهب براق حمله معني واتباعه الى ضباط [illegible] الفرقة الباسلة في صباح يوم من الأيام وكان معن ابن حمدان في خيمته عندما [illegible] المال يبذل لرجاله ..

فقيل له : ان معني واسم[illegible] وزنباع بين الحراس يبذلون المال للضباط .

فخرج الحمداني وهو ين[illegible] [illegible]ذا الأمر ولا يريد ان يتدخل أحد في شؤون حراسه دون ان يكون له علم .

فرأى معني ورفيقيه أمام أحد المضارب ومعهم بعض كبار الحراس .
فحنى رأسه لابن خيران ولم يلثم يده ..
فقال معني لمن حوله : يظهر ان القائد الحمداني لا يريد ان يتناول الاحسان وحده ..
فأجابه قائلاً : ما هو هذا الأحسان يا مولاي ؟
قال : مال يبذل للحرس ليحسنوا القتال في الميادين ..
قال : لا خير في جندي لا يعرف ان يصون شرفه بدون مال .. ومن يبذل هذا الذهب يا مولاي ؟
فأجابه الفتى بعظمة الملوك قائلاً : معني بن خيران ..
قال : ابأمر القنصل ام ماذا ؟
قال : ان الذي يحسن الى الجنود لا يستأذن أحداً .
فنظر الحمداني الى ضباط الحرس وقال : اما أنا فلا اسمح لجنودي بأن يفعلوا أمراً بدون اذني .. انصرفوا الى مضاربكم ايها الضباط .
فقال اسماعيل وهو يريد ان يوغر الصدور : وليطرحوا عطية مولانا معني الى الحضيض ..
قال وقد احمرت عيناه : قفوا ايها السادة .
فوقف الضباط وكانوا قد بدأوا يتراجعون الى الوراء ..
فقال معن : كل من أخذ مالاً فليرده الى صاحبه .
فهز الفتى سوطه وهو يتميز من الغيظ .
اما رفيقاه فابتسما ابتسامة الأستخفاف ..
وقد تردد الضباط في رد ما أخذوه .
فقال الحمداني : آمركم بأن تلقوا بالمال على قدمي مولانا الصغير .
ففعلوا ما امرهم به وعيونهم تنظر الى تلك المادة الوهاجة التي هي أمنية الجنود
ثم حنى رأسه ثانية وهم بالرجوع فناداه الغلام قائلاً : الا تعرف من أنا يا ابن حمدان ؟!

قال : بلى يا مولاي انك معني بن خيران شقيق القنصل ..
قال : وتتصدى لي في شؤوني ؟!!
قال : ما تصديت لك يا مولاي الا لأنك استخففت بي ..
قال : بماذا ؟
قال : بطوافك حول خيام الحرس تعطيهم مالاً دون ان يكون لقائدهم رأي في هذا .
قال : أأستأذنك فيما اصنع وأنا الآمر هنا ؟..
فأجابه معن قائلاً : لا أعرف لي آمراً غير أذينة والقائدين ..
فمشى اليه معني وهو يقول : لكني سأكرهك على اختيار واحد من أمرين :
فضحك وقال : الأمر الأول ؟
قال : أما ان تعترف بسلطاني المطلق على كتيبة الحرس ..
فقاطعه قائلاً : واما الثاني ؟..
قال : واما ان تعزل عن القيادة وتعود من حيث أتيت ..
وكانت لهجة الغلام لهجة سيد يخاطب عبداً له .

فاستند معن الى جانب الخيمة وقال : اما ان اعترف بسلطانك المطلق فهذا لا افعله الا اذا أمرني به القنصل ، وأما ان تعزلني عن القيادة فأمر العزل ليس في يدك ، واذا خيرني أذينة بين طاعتك والعزل تركت الجيش غير نادم لأني لا أطيع غلاماً يهزأ بي ..

قال : ألى هذا الحد ؟
قال : اجل فسيد قومه لا يصبح عبداً للغلمان ..

فبرقت عينا زنباع وهم بأن ينقض على خلفه في قيادة الحرس فيرمي رأسه بالسيف ..

غير ان اسماعيل كان حكيماً وهو اعقل من ان يفسح المجال لمعني ليهدم في ساعة غضب ما بناه له في قلوب الرجال .

فقال لمعن : اعتذر للامير ايها القائد .

قال : ان الأمير ورفيقيه – انت وزنباع – أجدر بهذا الأعتذار .
فقال معني : اذن اعتذر لك بهذا السوط ..
ورفع سوطه ليضربه به ، فوقف اسماعيل بين الاثنين وأومأ الى مولاه بحاجبيه ان لا يفعل .
أما معن ، فارتجفت ركبتاه وكاد يقع على الأرض من شدة الغضب .
غير انه ملك نفسه وقال : ان قائد الحرس يستطيع ان ينتزع سوطك ايها الأمير لكنه لا يفعل احتراماً للقنصل .
ثم اومأ الى الضباط الأربعة الذين اعادوا ما اخذوه من المال قائلاً لهم : ان هذا الجيش قائداً اكبر فاتبعوني اليه .
ومشى لا يلتفت الى الوراء قاصداً فسطاط القنصل ، والضباط يتبعونه من بعيد .
وكان أذينة في فسطاطه الكبير . وبين يديه زبدا وزباي وهيروديس ، واثنان من قواد الرومان احدهما قائد بعلبك .
فلما وقف معن بباب الفسطاط يستأذن عليه قال لمن حوله : نرى في عيني معن ابن حمدان بريقاً غريباً .. أدخل ايها القائد .
فاتجهت أنظار القوم الى معن فاذا وجهه أسود كالليل واذا عيناه ترسلان شرارتين ملتهبتين ..
فخفق قلب زبدا واضطربت شفتا زباي ..
أما معن فلم يبصر الا القنصل ، فاتجه اليه وجثا أمامه على ركبتيه .
فأنهضه أذينة قائلاً : ما وراءك يا معن ؟
قال : التمس من مولاي ان يسمي لي رؤسائي في جيشه .
قال : الا تعرفهم أيها القائد ؟
قال : أعرف بعضهم يا مولاي ..
قال : هذه الغاز يحدثنا بها قائد الحرس، من هو هذا البعض الذي تعرفه؟؟
قال : أعرفك يا مولاي سيد هذا الجيش الأكبر وأعرف نائبيك في القيادة زبدا وزباي.. ثم تلجلج صوته وقال: كما اني اعرف هيروديس سيداً لي لا رئيساً.

قال : نراك تعرف قوادك كما نعرفهم نحن ..
قال : ايأذن لي مولاي القنصل في سؤال ؟
فأجابه قائلاً وهو يبتسم له : نأذن لك في ان تقول ما تشاء :
قال : الم يجعل مولاي معني بن أخيه نائباً له في ادارة الجيش ؟!
فقطب أذينة حاجبيه وقال : لو لم يكن معني غلاماً لجعلناه كما قلت .. فأي
لك مع معني ؟
قال : أصبحت اليوم فاذا لي ثلاثة قواد غير من ذكرت ..
فضغط أذينة وسادة بين يديه وقال : من هم ؟
— : معني بن أخيك ، واسماعيل بن جرهم وزنباع قائد الحرس السابق
قال : ما هي حكاية قيادتهم ؟
قال : رأيتهم يطوفون حول خيام الحرس ويبذلون الذهب للضباط ..
فقهقه أذينة ضاحكاً وقال : ما رأينا لك عذراً في هذا الغضب الذي يشوه
ك الزاهي ..
قال : ولكني لم ابدأ بحكايتي بعد ..
قال : قصها علينا ونحن سامعون ..
وكان القوم في الفسطاط يحبسون انفاسهم ليسمعوا قصة ذلك الحديث العظيم
أغضب الحمداني الشجاع .
قال : فكرهت ان يستهوي معني حرس القنصل بذهبه الكثير .
قال : ليس هنالك استغواء يا معن ، انما هي عاطفة نبيلة يظهرها ابن أخيك
عمه .
قال : ما جئت لأحدثك بهذا يا مولاي بل جئت لأقول لك ان معني ليس
يعطي الحرس مالاً بدون اذني :
— : واذا كان القنصل اذن له في هذا ؟
فقال : لمولاي القنصل ان يفعل ما يشاء ولكن ..
— : ولكن ماذا ..؟

قال : ولكن القنصل لا يأمره بأن ينسى ان لكتيبة الحرس قائداً يجب أن يعرف كل ما يحدث في كتيبته ، والا فلا وجود لهذا القائد يا مولاي ولا حاجة لك اليه . ثم ان القنصل لا يأمره بأن يستخف بي أمام جنودي ورفيقيه .

قال : كيف جرى هذا الاستخفاف ؟

قال : كان الأمير يحدثني وهو يهز سوطه كما يحدث غلاماً من غلمان القصر .

قال : ليس في هذا شيءٌ من الاستخفاف لان معني لم يزل طفلاً ..

فكاد القائدان وهيروديس يخرجون من عزلتهم وينتصرون لمعن .

أما القنصل فسار في مداعبته الى النهاية دون ان تفارق جبينه مظاهر الرصانة والجلال ..

فاستطرد قائلاً : قل لنا يا معن هل نشبت المعركة بينك وبين الأطفال ؟!

قال : اذا كان معني طفلاً فرفيقاه من الرجال ، اتريد يا مولاي ان يمد جميع القواد اصابعهم بين حرسي واستسلم لهم ؟

قال : بل نريد ان تكون رجلاً لا يؤثر فيه طيش الشباب وعاطفته .. ان القائد الباسل لا يهتم لمثل هذه الأمور الصغيرة وهو زاحف الى بلاد العدو .

— : اذن لقد كنت مخطئاً في ما فعلت يا مولاي .

قال : نعم .

قال : وكان معني مصيباً حين خيرني بين ان اكون عبداً له او اعتزل القيادة !!

قال : أجل وكان عليك ان تحسن الأختيار في تلك الساعة .. فماذا قلت له ؟

فخيل الى الفتى انه في حلم ، اذ لم يقم في ذهنه ان أذينة العظيم الذي قربه اليه بمثل تلك السرعة الغريبة ، يعمد الان الى مجاراة ابن أخيه في الأستخفاف به . فقال :

لقد اخترت أحد الأمرين يا مولاي .

قال : وقد آثرت الخضوع لمعني على اعتزال القيادة ، اليس كذلك ؟

فقال : بل اخترت الأمر الآخر يا مولاي ..

فأظهر أذينة الغضب وقال : اتعتزل القيادة ؟

قال : ماكنت قط عبداً لأحد يا مولاي ولا أحب ان أصير يوماً في صف العبيد
قال : ليس بكثير عليك يا ابن حمدان ان تخضع لغلام ينتمي الينا ..
فرفع الفتى صوته قائلاً : أجعل هذا الغلام رئيساً لي فأطيعه .
قال : أما الغلام فيبقى على ما هو عليه الان وأما أنت يا قائد الحرس فليس لك ان تراجعه في أمر يريد ان يجريه في كتيبتك ..

فوضع معن يده على صدره مخافة ان ينفجر ذلك البركان الذي تتأجج النار فيه ثم قال :

ومن يكون مسؤولاً يا مولاي ؟

— : أنت ..

فاستولى العجب على الجماعة ، وكيف لا يستغربون تلك اللهجة الحادة التي يخاطب بها أذينة قائد حرسه ..

فقال هيروديس : مولاي ..

فقاطعه أبوه قائلاً : دع القنصل يتكلم الآن . أيريد صاحبنا الحمداني ان نعاقب ولدنا على اجتماعه بضباط حرسه دون أذنه ؟

فأسودت الدنيا في عيني معن وقال : بل غير هذا أردت يا مولاي .

قال : ماذا ؟!

قال : ان تولي غيري قيادة حرسك لأنني لست أهلاً لثقتك ..

ثم أخذ سيفه ووضعه باحترام وهدوء أمام قدمي القنصل ، وتراجع الى الوراء

فقال : يظهر انك خفت عاقبة القتال ايها الفتى فتركت السيف ..

فقام عندئذ قائد الجيش زبدا وهم بالكلام ،

غير أن أذينة أشار بالسكوت قائلاً : أتركوا الفتى يدافع عن نفسه الى النهاية انزلت عن القيادة يا ابن زبيدا ؟

فرفع الفتى رأسه وقال : نعم .

قال : على أمل ان تعود الى تدمر فتغازل خطيبتك واخوانك العرب يحصد السيف في بلاد الفرس دفاعاً عن الوطن .. انك لأشجع من رأيت .

فنسي الفتى موقفه وقال : لا تجرح أبائي وشرفي يا مولاي فابن حمدان ارفع من ان يقيم في القصور عندما يقتحم أخوانه نار الحرب .. واذا القيت سيف القيادة فلكي أتقلد سيف الجندي الحر الذي يخضع لنظام الجيش ولا يحني رأسه للسلطان .. أجل لقد كنت قائداً ايها القنصل . ولكني الآن جندي وسيفعل هذا الجندي في ساحة الحرب مالا يفعله قوادك الأبطال الذين عركوا الدهر وكانت شفتاه ترتجفان . والفاظه جلية واضحة ولكنها تخرج كالسهام ..

واتجهت العيون الى أذينة تنظر الى أسارير وجهه ..

فاذا ثغره يفتر عن ابتسامة طاهرة ، واذا به يمد يديه الى الحمداني وهو يقول : يكفي ان يكون بين القواد واحد مثلك ليشرف الجيش ..

ثم نهض عن وسادته وضم معناً الى صدره قائلاً :

ان الفتى الذي يعرف ان يصون شرفه في السلم يعرف كيف يصون شرفه في الحرب

وانحنى فتناول السيف وقال : لا يتقلد هذا السيف غيرك ونحن احياء ..

فتنفس القائدان وهيرو ديس الصعداء أما القائدان الروميان فقد دهشا لما رأياه :

والذي رأى معناً في تلك الساعة ، رأى دموعاً تنحدر من مقلتيه ، وبدلاً من ان يقبل ذلك السيف واليد التي تعطيه أياه . أجل . بدلاً من ان يجثو على ركبتيه ويسترجع سيف القيادة من مولاه ، لبث واقفاً كالصنم لا يخطو خطوة الى الأمام :

وخيل الى القوم أن الفتى لم يسمع ما قيل له ..

وكان أذينة أشدهم استغراباً . فقال :

الا تسترجع سيفك يا معن ؟

فأجابه الفتى قائلاً : وأي رجاء لي فيه من سيف لا أستطيع أن أجرده الا اذا أراد معني ؟!

فابتسم القنصل وقال : انك حرّ في ادارة الحرس وسيعلم معني هذا ..

قال : لقد رضيت ولكن التمس من مولاي ان يأمر بذلك الان :

قال : نأمر بماذا ؟

قال : تأمر معني بأن يحفظ لسانه ويحتفظ بماله فلا يبذله لحرس القنصل .

قال : نراك تنظر بحذر وخوف الى هذا المال ..

فهمس الفتى في اذن سيده قائلاً : لانه يبذل لغاية له ..

فوضع أذينة يده على كتفه وقال : لا تكن كثير الظنون يا معن .. ان الغلام لا يفهم شيئاً من دنياه .

— : ولكن الذين حوله يفهمون كل شيء .

فأشار القنصل على الروميين بالانصراف . ثم قال : انك تستطيع ان تحدثنا الآن بجلاء فما هو رأيك في هذا المال .

قال : رأيت الغلام واتباعه يشترون رجالاً .

فهز هيروديس رأسه وقال : امعني يفعل هذا انك لمجنون يا معن .

قال : اخشى ان اكون مصيباً في جنوني .

قال : اما أنا فأخشى ان تقول بعد ساعة ان معني يدعو الجيش الى العصيان :

قال : اما اليوم فلا، ولكنه متى امتلك القلوب هان عليه ان يستخدم السيوف :

فأومأ اليه زبدا بحاجبه يأمره بالسكوت . فرآه أذينة فقال :

ان القائد العام لم يستلذ حديث صهره ...

فقال زبدا : لان تصوره في غير موضعه ولأن الأمير الصغير اصغر جداً من ان يفكر في مثل هذا الأمر .

غير ان معناً لم يسكت . فقال : بل رأيته يا مولاي اكبر جداً مما تظن، رأيته يحدث الضباط حديثاً ساحراً يجذب القلوب ، وسمعت رفيقيه يذكران لهم جوده وعظمة نفسه فيغرسان في ذلك عاطفة الحب في صدور القوم .. ومع ذلك فهب ان عطاءه محض جود ولذة فلا يجوز لغلام مثله ان يعطي الجيش باسمه بل باسم القنصل الذي هو وحده صاحب الحق والسلطان في جيشه .

فقال زباي : اني لا أتهم معني يا مولاي ولكني لا اوافقه فيما يصنع الا اذا استأذنك فيه .

فأجابه هيروديس قائلاً : ان عطاء الغلام لا يقع تحت نظام وليس لأحد ان يعاقبه عليه .:

وكان أذينة مطرقاً وهو يفكر في ما سمعه ، ثم رفع رأسه فوقع نظره على الحراس الأربعة خارج الفسطاط . فقال لمعن ؛ :

من هم هؤلاء ؟

— : هؤلاء الذين اخذوا مال معني ثم ردوه .

قال : ليدخل احدهم .

فأمر معن اكبرهم سناً فدخل ووقف أمام القنصل وقواده وهو ينظر الى الأرض.

فقال أذينة : قل لمعني بن أخي ان يحضر مع اسماعيل وزنباع .

ثم قال للقوم : أي شأن لقائد الرماة مع معني ؟. ان اسماعيل مربيه وله ان يجاريه في أموره ، وأما زنباع فلا نرى له عذراً فيما فعل وهو قائد الرماة .. كان عليه ان يستأذن زميله قائد الحرس في هذا .. اجلس يا معن انك مصيب في كل ما رأيت الا في اتهامك معني ..

ولكن أذينة لم يكن صريحاً في قوله ، فقد أصبحت حكاية معن ملء ذهنه ، واستيقظت في فؤاده عاطفة الدفاع عن ذلك التاج الذي تعد له زينب خيوط الذهب

لم يشك اذينة قط في مظاهر السخاء يقوم به ابن أخيه في الجيش ، بل لم يخطر ببال القنصل العظيم ان في تدمر مخلوقاً ينازعه تاجه من وراء الستار ويجرؤ على التفكير في عرش يبنيه هو لذريته بقوة السيف والدهاء ..

وقد يكون معني ذلك الغلام الصغير المتمرغ في جميع اسباب الترف والعز ، طامعاً بالجلوس في كرسي الرئاسة باغراء من مربيه وسواه ، بل قد يكون زنباع نفسه قائد الرماة الجديد هو الذي نفخ في صدر الغلام روح الشر فعمد الجميع الى استغواء القلوب بالأصفر الوهاج ..

تلك كانت افكار أذينة في تلك الساعة ، غير ان جبينه الزاهي ظل على اشراقه فلم يستطع جلساؤه ان يقرأوا علائم القلق على ذلك الجبين .

واذا بالغلام على باب القبة ووراءه اسماعيل وزنباع ، وضباط الحرس الأربعة باقون في مواقفهم لا يجسرون على الانصراف قبل ان يأمرهم قائدهم بذلك ..

ادخل يا بني مع رفيقيك ..

فمشى الغلام .. والسوط في يده والزهو في بردتيه حتى قارب عمه فلثم يده وصافح هيروديس والقائدين .

ولكنه عندما وصل الى معن كان ارفع من ان يمد اليه يده ..

فابتسم أذينة وقال له : هذه وسادتك يا معني فاجلس .

وأمر الاثنين الآخرين بالجلوس .

ثم قال : الا تعلم يا معني ان أيام الحرب ستطول وانك اذا اعطيت الجيش بدرة واحدة من المال في كل يوم نفذ هذا المال ؟

فضحك الغلام وقال : لا خير في هذا المال يا مولاي ان لم يبذل في سبيل طاعتك .

فقال زبدا في نفسه : لقد اخطأ معن في إتهام هذا الطفل الذي يلمع الطهر في عينيه ..

أما أذينة فقال : ارأيت الجيش متمرداً علناً حتى تستعيد اخلاصه لنا وترده الى الطاعة ؟!

قال : لا يا مولاي لكن المال يغرس التضحية في الصدور فتنتصر قلتنا على كثرة الفرس ..

— : ولكنك كثير البذل يا معني ، فكم بدرة أعطيت ؟

— : أكثر من مئة بدرة يا مولاي .

— : اذن اصبح القنصل مديناً لك بمئة الف درهم .

فاستغرب الفتى جواب عمه وقال : ما معنى هذا يا مولاي ؟

— : معناه ان القنصل يضن بمال أخيه خيران ان ينفق على حرب توقد نارها دفاعاً عن الرومان ..

قال : لكن لم اعط الرومان شيئاً فمالي بذلته للعرب ..

قال : لكنهم لا يستحقونه ، وكان على مربيك ان يعمل على حفظه .

فقال اسماعيل : لقد وفر ماله في ظلك يا مولاي فليبذل بعضه للجنود ..

قال : أما نحن فلا نريد ان تسلبه الحرب هذا المال .. اعط معني مئة الف

عرهم يا هيروديس .

فقال : الا تأذن لي في العطاء يا مولاي ؟!

قال : لك ان تنشر مالك كله في الفضاء عندما تصبح في السادسة عشرة من العمر .

فقال الغلام في نفسه : عندما أصبح في هذه السن تكون عظامك قد نخرها السوس .. ثم قال :

ولماذا لم تمنعني عن ذلك من قبل ؟

لأننا لم نكن نعلم ان عطاءك يمسي تبذيراً .

— : بل قل يا مولاي ان هذا الحمداني اوغر صدرك الآن ..

فنظر إليه عمه نظرة غضب وقال : اترى عملك سهل القياد الى حد ان الناس يوغرون صدره ساعة يريدون ؟! قلنا لك انك احق بهذا المال من تلك الأيدي التي تمتد لأخذه .. وكيف يجوز لك يا بني ان تطوف بين مضارب الجند وتحسن الى من تختار منهم دون ان تستأذن القواد ؟

— : أهذا ذنب يا مولاي ؟

— : أجل . فعندما يولي القنصل أحد رجاله قيادة جيش ، ثم يقوم ابن أخيه فينكر على ذلك الرجل حق القيادة ، فقد اذنب الى القنصل وجرح كرامته ، ومع ذلك فنحن نغفر لك هذا الخطأ لأنك تجهل نظام الجيش .أما أنت يا زنباع فقائد من القواد وقد وليناك أمر الرماة فما بالك تتدخل في شؤون الحرس وتتجاهل وجود قائدهم ؟!

فهم قائد الرماة بالجواب فأسكته أذينة قائلاً :

ان القنصل لا يحب ان يسمع اعتذارك ، أترضى بأن يذهب معن الى فرقة الرماة فيحدث ضباطها ويبذل لهم ماله دون ان تعلم ؟.. قل نعم او لا ..

فارتجفت ركبتا زنباع وقال متردداً : لا ..

فقال : اذن يكفي ان تعلم ان القنصل لا يريد ان يراك في قبته .. اخرج الآن ولا تعد الى مثل هذا ..

فقام القائد وهو يتعثر بخجله وغضبه ..
ثم التفت القنصل الى معني قائلاً : لا اسألك عما قلته لهذا الحمداني الذي هو سيد الحرس ، لكني ادعوك الى احترام نفسك ليحترمك الناس .ويجب الا تنسى ابداً أنك سليل أعظم نبيل في تدمر ، وان ذلك النبيل لم يكن نبيلاً بأصله فحسب بل كان امير النبالة في أخلاقه ..

ولم يسمع معني مثل تلك اللهجة الحادة يوجهها اليه عمه من قبل ..

فحدق اليه قائلاً : ان هذا الحمصي قد أهانني وأنا لا أصبر على ذلك ..

فرفع أذينة صوته وقال : بل كنت البادئ بالإهانة فلا تكذب .. ألم تجرح هذا الحمداني في مجلسي الآن .

فتساقطت دموع الغلام من قهره ، ووقع السوط من يده ولم يجب ..

واستطرد أذينة قائلاً : أتدخل على عمك في قبته ولا تصافح جلساءه ؟! ! قم الآن واعتذر لقائد الحرس ..

فتلجلج صوت الفتى وهو يقول : أيعتذر ابن خيران لفتى من البادية ؟!

قال : لولا ابناء البادية لما استطعت ان ترفل بالديباج وتجر اذيال العز .. قم فاعتذر ولا تتردد ..

فعلم القوم ان صبر القنصل قد فرغ .

ونظر معني الى اسماعيل فاذا هو يشير عليه بأن يفعل ..

فنهض عن وسادته ومد يده فصافح معناً والحقد يطل من عينيه ، وقد أحس ان عاصفة البغض التي تجيش في صدره اصبحت ناراً آكلة ، وروح الثورة التي تملأ نفسه ، تضطرب في داخله ، حتى ان صورتها الهائلة انطبعت في تلك الساعة على جبينه فغدا الغلام الخلاب المحاسن شبحاً مخيفاً من أشباح الشر والانتقام .

وقد امحت من ذهنه صورة معن وامثاله من رجال عمه وقامت مقامها في ذلك الذهن الثائر صورة ذلك العم الحبيب وصورة ولده هيروديس ..

ثم قال القنصل لحاجبه البدوي : ليدخل الحراس الأربعة الذين تجدهم بباب القبة ..

فلما دخلوا قال : من أعطاكم المال الذي أمركم معن برده ؟

فأجابه أحدهم قائلاً : مولانا معني .

قال : اتقبضون ثمن البسالة التي اظهرتموها في ساحة الحرب ؟

فساد السكوت ..

فقال : تستخفون بقائدكم ولا تبالون .. انزعوا ملابس الحرس وانضموا الى صفوف المشاة الذين يسوقون النوق .. ولا تنس يا معن ان تأخذ افراسهم وتجلد كل واحد منهم عشرين جلدة .. ليعلم الجيش كله ان القنصل يعرف كيف يعاقب المستخفين .. قوموا فانصرفوا .

فخرج الأربعة وقد شاءت الأقدار ان يبغضوا أذينة ويصبحوا من حزب معني : أما معني فاستأذن وانصرف مع مربيه وهو يمسح دموعه ولا يبصر طريقه ..

* * *

١٢

على ضفة الفرات

انطاكية العظيمة التي شيد فيها الرومان هياكلهم ومسارحهم وحصونهم واقواس نصرهم . انطاكية التي كانت احدى ازاهير آسيا ومطمح أبصار الغزاة والفاتحين من رجال الشرق والغرب ، صيرها سابور بلداً قفراً بعد ان قتل بعض أهلها ونفرّ البعض الآخر فخرجوا يتلمسون لهم ملاجئ في سفوح الجبال وفي بطون المغاور الموحشة والكهوف التي يكتنفها الظلام .

ولم يثبت الرومان أمام سيف الفارسي الظافر . بل كانوا يفرون افراداً وفرقاً الى كيليكيا وما يجاورها من البلاد الخاضعة لروما وهم يحملون عار الهزيمة وذل الفرار من وجه الأسد الفارسي .

وقد سكر سابور من خمرة النصر . فأخذ يفكر مع اركان جيشه في الإستيلاء

على جميع المدن المنتشرة على ذلك الشاطئ الطويل ، وقد وثق الوثوق كله بأن قوى الرومان اضعف من ان تتصدى لقوته التي لا تغلب .

ولم يلبث حتى أمر بالزحف الى الداخل ، فمشت صفوفه كالتيار الهائج لا يقف في وجهه شيء ، فأخضع الساحل وأوغل فيه نهباً وسلباً حتى انتهى الى مدينة تدعى «بمبيوبوليس» فحاصرها وكانت قد امتنعت عليه .

لكن قائداً مستقلاً من قواد الروماناسمه كاليستوس جمع في ذلك الساحل فلول الجيش الخائف والفرق الهاربة وفاجأ الجيش الفارسي في ليلة هادئة مظلمة لا يبصر فيها المرء يده والفرس غرباء عن البلاد لا يعرفون الى أين يلجأون فتضعضعت صفوفهم وسادها الاضطراب وكاد الجيش لولا حكمة قائده العظيم وصبره في موقف الدفاع يهوي جميعه الى البحر :

أجل . ان سابور عرف في تلك الليلة ان حلمه لن يصدق . وانه اذا اصر على الدفاع الى النهاية أباد الرومانجيشه في ليلة واحدة . وقد يسقط هو اسيراً في يد عدوه فيذوق الهوان والذل ثم ينتهي أمره بالموت .

فعمد الى الانسحاب من الساحة كالقائد الحكيم يبتعد عن النار .. وعندما أصبح الصباح كانت فراسخ كثيرة تفصل بينه وبين جيش الرومان . الذي عرف ان ينتصر على عدوه في ذلك الليل :

والظاهر ان جماعات الرومان لم تهتم لقيصر الأسير فالريان بدليل انها لم تحاول انقاذه من تلك الخيمة السوداء التي كان يرقد فيها على التراب متقلباً بين سلاسله وقيوده ..

ولعل كاليستوس القائد الطامحة نفسه الى الاستقلال والانفراد بالحكم في كيليكيا لم يرد ان ينقذ الأسير خوفاً من ان يضيع استقلاله . او لعله لم يعلم ان الأسير مقيم في قلب الجيش في سجن يحمل على فيل ..

نعم ان سابور تراجع الى الوراء قاصداً بلاده وهو فار ، ولكنه لم يخسر الكثير من جيشه فقد ساعده ظلام الليل في حفظ حياة ذلك الجيش .

وفي الصباح . أجل في ذلك الصباح نفسه عندما عجل سابور بالرجوع الى

بلاده ، خرج من بين الصفوف رجلان اثنان تقدما جموع الفرس هما رسولا أذينة بل جاسوساه اللذان بعثهما ليتفحصا عن أمر العدو .

وقد درسا احوال الفرس وخبرا امورهم . فإذا قصا على سيدهما حكاية ذلك الجيش فانما هما يقصان ما رأياه وسمعاه لا زيادة هناك ولا نقصان .

وكان أذينة مواصلاً سيره الى المدائن ، وقد مهدّ أمام جيشه اسباب الراحة كما تقدم ، وتظاهر معني — بفضل مربيه — بأنه نسي ما حدث بينه وبين عمه ، كأن لم يكن هناك شيء .

ولم يبق على الجيش غير ثلاثة أيام ليصل الى عاصمة الفرس ، وهو زاحف بنظام وهدوء لا يعرض لشيء مما يراه عن جانبيه من ضياع وقرى ، فقد كانت العاصمة وحدها بغية القنصل التدمري ، وكان اعظم من ان يجرد سيفه على غيرها من مدن الأعجام . التي يمر بها في طريقه .

كان الجيش عندما تشرق الشمس يضرب خيامه ويلجأ الى الراحة حتى تغيب ، فيعمد القنصل الى قواده يجعلهم مجلس شورى اكثر من ساعتين ثم يأوي بعدذلك الى فراشه فينام نوماً متقطعاً مزعجاً كما ينام أبطال الحرب في الميادين ..

لقد نام الجيش كله الا حراسه . ولكن اذينة لم ينم . فقد كان في فسطاطه الكبير يحدث القواد ورجال الرأي ويملي عليهم تلك الخطة الرشيدة التي وضعها للاستيلاء على عاصمة سابور :

وبينما هم يتشاورون . كان الحراس يصافحون ذينك التدمريين القادمين من كيلكيا يحملان لسيدهما اخبار الجيش العائد الى بلاده ..

ثم مثلا بين يدي أذينة ينقلان اليه ما يعرفان ..

فأشرق جبينه وقال لذلك التدمري الذي لم يشأ أن يحمل ديناراً عليه صورة القيصر لقد اعجبنا حديثك يوم غادرت تدمر ، فقل لنا الآن . أرأيت جيش الأعجام؟

فقال : نعم يا مولاي وكنت ورفيقي جنديين من جنود سابور :

قال : أتجيدان الفارسية ؟

فوضع يده على صدره وقال : ان عبدك هذا يحسن جميع اللغات ..

قال : اذن تكاد تكون شيطاناً ..!!

– : بل أنا الشيطان نفسه يا مولاي .. ألم أقل لك يوم سفرنا اني لا أحمل ديناراً لا تكون عليه صورة أذينة ؟

– : واي معنى لقولك هذا ؟

معناه ان مولاي القنصل سيصبح ملكاً وسأحمل دنانيره عليها صورته وعلى رأسه التاج .

قال : وعند ذلك نجعلك وزير الدولة ايها التدمري الكثير الكلام الطويل اللسان، قال هذا وضحك وعلا ضحك القواد .

ثم قال : نسألك الآن عن سابور فأين هو ؟

فأجابه قائلاً : بعد ثلاثة أيام يعبر الفرات مع صفوفه ..

فبغت القنصل وقال : ماذا تقول أيها الرجل ؟!

فابتسم قائلاً : أقول يا مولاي اننا تركنا وراءنا الجيش الفارسي يحمل من انطاكية تماثيل الذهب واكداس االلآليء .

قال : ايرجع رجوع ذليل أم ظافر ؟..

قال : ذليل وظافر يا مولاي .

قال : حدثنا بجلاء واترك الألغاز ..

فقال : كان سابور ظافراً على طول الخط يا مولاي ، قتل ونهب وسبى وضرب والرومان يستسلمون اليه او يفرون من أمام وجهه . حتى فاجأه روماني اسمه كاليستوس فشتت شمل جموعه في ليلة واحدة فآثر الرجوح على الحرب .

قال : وفالريان الأمبراطور ؟!!.

قال : لم يزل اسيراً يا مولاي لأن الرومان لم يعملوا على انقاذه ..

فقال اذينة لقواده : ان الخيانة تنتقل من صف الى آخر من صفوف الرومان .

ثم خفض صوته وقال : لقد كتب لفالريان ان يموت في بلاد عدوه ..وماذا ترى الآن ايها التدمري ؟

قال : اتسألني رأيي في الحرب يا مولاي ؟

قال : أجل . ان لك لرأياً .

فقال : الرأي ان تدرك عدوك قبل ان يعبر الفرات ..

فسمعت في ذلك المجلس اصوات الاستحسان .

ان أذينة وهيرو ديس وجميع القواد ، كانوا يفكرون في تلك الساعة في ادراك الفرس قبل ان يجتازوا ذلك النهر العظيم .

وذلك هو الرأي الصائب الذي يضمن لأذينة الظفر .

فقال أذينة : يظهر انك خبير يا صاحبنا بكل شيء وسيكون لك شأن .. اذهب الآن واسترح مع رفيقك ريثما يتأهب الجيش للرجوع .

فهم الرسولان بالانصراف فقال القنصل : اذكر لنا اسمك ايها التدمري :

قال : لست تدمري الأصل يا مولاي اما اسمي فغريب .

قال : بل كل شيء فيك تكتنفه الغرابة .. اذكره لنا .

قال : حطان ..

قال : اسم جميل لا غرابة فيه . من أي العشائر ؟

قال : لا أعرف لي عشيرة يا مولاي . ولدتني أمي على قارعة الطريق ثم ماتت فاحتضنني رجل من حضرموت حتى السنة السادسة من عمري . ثم انتقلت الى اليمن اغزل الصوف لليهود كما تغزله فتيات العرب . فلما اصبحت في الرابعة عشرة تركت اليمن الى بصرى ثم الى دمشق ثم الى تدمر فأنا اذن يا مولاي . حضرمي ويمني ، ودمشقي وتدمري اذا أردت . ولكن في الواقع لا بلد لي ..

قال : كن من الصين فأنت على كل حال عربي .

قال : ذلك لا ريب فيه يا مولاي فلا أحب أمة غير أمة العرب . أما تدمر فهي أعز المدن علي وأحبها الى قلبي ..

— : ومتى قدمتها ؟

— : منذ أقل من سنتين يا مولاي فجعلني سيدي زباي من رجال الجيش .

قال : أواثق أنت بأنك لم تسبق جيش سابور الا مسيرة ثلاثة أيام ؟

قال : هذا ما أراه يا مولاي فان لم يصل سابور في اليوم الثالث وصل في اليوم

الذي بعده :

فأومأ اليه بالانصراف وهو معجب بظرافته وفصاحة لسانه .

فلما خرج قال لزباي : إنه من سلالة الشياطين كما قال .. ولكنه ظريف !

فقال زباي : لقد رأيت وجهه قبل أن يقدم تدمر كما أني سمعت لهجه الساحرة ولكن لا اذكر متى واين .

فقال هيروديس : اذا كان صادقاً في قلبه فهو من احسن العرب .

فأجابه أبوه قائلاً : لا أستطيع ان أثق كثيراً بمثل هذا الصنف من الناس :

قال زباي : لماذا ؟

قال : لأن خفته مظهر من مظاهر الفوضى في الآخلاق ..

* * *

عندما غابت شمس ذلك اليوم الصافية سماؤه ، كانت صفوف الجيش التدمري قد تهيأت للسفر ..

ولكن ليس الى الأمام بل الى الوراء ، لأن فنّ الحرب قضى عليها بالرجوع لاستقبال سابور ..

وقد مشى أذينة وقواده في المقدمة ، ومعنى ذلك ان الأخطار تكتنف ذلك الجيش ، وان العدو الذي يلاقونه عدو بطاش شديد المراس لا يتردد في حربه ولا يعرف الرحمة :

وخير لأذينة ملك الصحراء ان يدفع الأذى عن رجاله بقوة سيفه من ان يعرض اولئك الرجال لسيف العدو .

كان يؤثر ان يموت في اول جولة تجولها الخيل على ان يرى الأبطال تسقط حوله لتدافع عنه ..

ولم يكن يريد ان يكون ملكاً في ساحة الحرب ، ان عظمة الملك وعز الأمارة يتركهما في تدمر ، ولا يذكر في الميادين غير شرف قومه فيصبح جندياً باسلاً يقذف بنفسه الى النار ليصون ذلك الشرف .

ولأذينة في حروب الصحراء نظام عرف به والويل لقائد من قواده اذا نسي

شرطاً واحداً من شروط هذا النظام :

المشاة في القلب ، والرماة جناحا الجيش فريق عن اليمين والآخر عن الشمال ، يتبع كل واحد منهما فريق آخر من الفرسان . حتى اذ وقعت العين على العين ، تمطر الرماة عدوهم سهاماً تخرق الرؤوس والصدور ، فتتضعضع الصفوف ، يزيدها اضطراباً هجوم الفرسان من الجانبين ، ثم تنقض فرق المشاة دفعة واحدة كأنها قطعة جبل فتفعل في الجيش كما تفعل الرياح الهوج في الصحراء .

أما الحرس القنصلي فابطال الهيجاء يتخطفون الرجال كما تتخطف الذئاب الجائعة قطيعاً من الغنم لا تحميه الرعاة ..

مشى الجيش تسوده السكينة والصمت ، لا ينفخ أمامه في البوق بل لا يرتفع له صوت ، كأن السبعين الفاً من الرجال رجل واحد إذا تكلم تكلم همساً ..

وذلك هو أمر القنصل ، فقد قال لقواده عندما امرهم بالمسير : لا اريد ان يمضي الجيش بالدعاء والاهازيج ، بل اريد ان يسبق الطير في مشيه .

حتى انقضت ثلاثة أيام وطلائع الجيش لم تجد اثراً لسابور .

فقال أذينة لزباي : ليحضر حطان ..

فلما أقبل فاجأه القنصل بقوله :

كدنا نظن يا حطان انك كاذب .

فارتسمت دلائل الكآبة على جبين الرجل وقال : أما أنا فأعتقد ان القنصل محق في ظنونه ..

قال : ولكن اين هو جيش سابور ؟!

قال : لا يمر هذا اليوم حتى تخفق أعلامه .

قال : أتصر على هذا القول ؟

— : نعم وستعلم اني لا اكذب ، اتوافقني فيما أراه يا مولاي ؟

قال : ماذا ترى ؟

قال : تبعثني أنا فآتيك باخبار عدوك .

فلمعت عينا أذينة وقال : أما نحن فقد رأينا غير ذلك ، أتعرف ماذا ؟

قال : لا .
قال : نأمر حاجبنا فيضع القيود في يديك ورجليك حتّى يثبت قولك .
قال : وتقتلني اذا انتهى هذا اليوم ولم تبصر أحداً ؟..
قال : أجل ولا نقبل فيك رجاء .
— : واذا رأيت الفرس وحصدتهم سيوف رجالك فماذا تصنع بي ؟
— : تصبح حراًكما كنت .
فقال : بل تجعلني في صفوف الحرس يا مولاي .
فنظر أذينة الى الحمداني قائلاً : اترضى أن يكون بين الحراس ؟
قال : اذا أمرني القنصل بشيء فقد رضيت به .
فتردد القنصل في الجواب ..
فقال حطان : لم اسأل القنصل ليجعلني حارساً الا لأجل هذا الفتى الذي أحببته
قال هذا وأشار الى معن ..
فقال القنصل : رضينا بشرطك وسنصبر حتّى تغيب الشمس ..
ثم أمر بسلاسل الحديد فأحضرت ، فقال لحاجبه : قيد يديه اولاً ثم رجليه
فقال حطان : واحملوني على فرس فلا أحب أن أركب النوق ..
فأجابه أذينة قائلاً : بل تقيم في خيمة لنا قريبة من قبتنا لنراك في كل ساعة :
قال : أحسنت يا مولاي وهذا ما أرغب فيه ، ولكن ارجو أن تأمر قائد الحرس فيعد لي الثوب الذي سيلبسني أياه :.
قال : أعددنا لك هذا الثوب كما أعددنا السيف والنطع ..
قال : أما النطع فلا حاجة لي اليه يا مولاي .
قال : سنرى .. اجعله ايها الحاجب في خيمة لا تبعد عن قبة القنصل .
ثم قال لزبدا : ليعمد الجيش الى الراحة في هذا الموضع فسنجعله ميداناً للقتال اذا أقدم سابور ..
وكان حطان يبتسم ابتسامة المطمئن اما القواد جميعهم فكانوا يخشون ان يثبت كذبه عندما تسقط الشمس في البحر .

ذلك لأنهم استظرفوه واستعذبوا حديثه ..

وقد بلغت ثقة حطان بنفسه انه كان ينشد أناشيد الحرب عندما وضعوه في سجنه. لكنه قال للحارسين اللذين يقيمان بباب الخيمة :

اذا أقبل جيش الفرس فأطلقاني ، لأن القنصل سينسى في تلك الساعة حطان المسكين الذي لا وطن له ..

* * *

كانت طلائع التدمريين منذ الصباح منتشرة في الجانب الشمالي الغربي من ذلك السهل . وقد اتجهت العيون الى منتهى الأفق .

وكان أذينة وقواده قد هيأوا الجيش للقتال ، وعقدوا مجالسهم يتشاورون في أمر الحرب ، على ذلك الشاطئ الفسيح الذي تنبسط رماله كما ينبسط سطح البحر .

وقد انقضى نصف النهار ولم تعد طلائع الجيش .

فقال أذينة لرجاله : يخيل إلينا ان حطان خدعنا في روايته وقد يكون الرجل صنيعة الفرس .

فقال زباي : أما أنا فلم اقرأ على جبينه مظاهر الخداع . ومع ذلك فالنهار لم ينقض بعد .

قال : وتربة أذينة لئن خدعنا هذا الغريب لنجعله هدفاً لالف سهم .

فأجابه زباي قائلاً : ما نسيت قط اني ضمنت اخلاصه يا مولاي .

قال : متى ؟

قال : يوم سألتني ان اختار رجلين تبعثهما في مهمة .

قال : نراك واثقاً بهذا الغريب كأنه من أهلك .

قال : نعم ولم اكن لاحسن ظني بالناس الا اذا اختبرت .

فقال معن : ان له رفيقاً يا مولاي .

— : وأي نفع لنا من وجود هذا الرفيق ؟

قال : ان حطان سيد الدهاة يا مولاي فقد لا يكون صاحبنا الآخر مثله .

فهزّ أذينة رأسه قائلاً : اذا كانت هنالك خدعة فالاثنان متفقان ، ولكن نسمع

اقوال حطان مرة ثانية ، ادعه يا غلام . .
وكان حطان في تلك الساعة مستلقياً على الأرض وصوت غنائه يملأ السجن :
فقال الغلام لحارسه : يأمرك مولاي القنصل بارسال هذا الغريب :
قال : يظهر ان القنصل لا يهتم اليوم الا له.. قم يا حطان فمولانا أذينة يدعوك:
فقهقه حطان ضاحكاً وقال : وكيف اقوم أيها الأبله وأنا مقيد اليدين والرجلين :
قال : أ كسر قيودك اذا استطعت :
فقال : لو كانت يميني حرة لكسرت هذا الرأس الذي يشبه رأس الذئب ..
ثم عاد الى الغناء :
فقال الحارس للغلام : اطلقه واذهب به فهذا الرجل من نسل ابليس .
فلما دخل الغلام فاجأه حطان بقوله : أقدِمَ سابور أيها الفتى ؟
قال : لم يقدم أحد والويل لك ::
قال : اذن فمولانا القنصل يدعوني الى شرب كأس من الخمر ؟
قال : أجل ولا يطيب له الشراب الا اذا رآك :
ثم فكَّ قيوده وسار الاثنان الى قبة أذينة .
وعند أذينة جميع اركان الحرب ..
فجثا حطان على ركبتيه وقبل الأرض ..
فقال له القنصل : أتحسب ان مظاهر خضوعك تنسينا كذبك ؟
قال : التمس من مولاي ان لا يدعوني كاذباً قبل غروب الشمس :
قال : لقد ذكرت لنا أنك رأيت سابور أليس كذلك ؟
— : كنت أسمعه يحدث قواده كل يوم .
— : أجلس وصفه لنا .
قال : لو أمر لي مولاي بكأس واحدة من الخمر لأصبحت فصيح اللسان .
قال : كأنك لا تريد ان تترك هذا الوجود الا وأنت سكران ..
قال : نعم فلو كنت صاحياً لخفت من السيف تبرق شفرته في يد الجلاد.
قال : أعطوه حاجته من الخمر ..

ثم قال : خير لك يا حطان ان تكثر من الشرب حتى تفقد الرشد .. أنا سنجعلك هدفاً للنبال .

فهمّ بالجواب فأسكته قائلاً : خبرنا عن سابور قبل ان تعقد الخمر لسانك .

قال : سابور ضخم الجثة عظيم المنكبين ، اذا مشى فكجلمود الصخر يحطه سيل من الأعالي ، وان رفع صوته خيل اليك ان الأسد يزأر في واديه .

قال : نراك تصفه وصفاً يبعث الذعر الى القلوب ..

قال : ولكني لا أبالغ فيما أقول يا مولاي . لقد رأيت في هيكل دمشق آلهاً يمثل القوة فكدت أحسب عندما رأيت سابور انه صورة ذلك الإله ..

وهو جميل الوجه يا مولاي بل هو أحسن رجال الفرس وجهاً وافصحهم جناناً وأكثرهم بذلاً وعطاءً ولكنه قاس يا مولاي ، قاس الى حد انه لا يرحم عدوه ولو استسلم اليه . الا تعلم يا مولاي ماذا فعل برجال الرومان الذين أسرهم يوم دكّ اسوار نصيبين ؟

قال : لا .

قال : أمر بهم فربطوا بارجل الفيلة وانهالت الرجال على اعجازها طعناً بالرماح فثار ثائرها واندفعت تجري في ميدان نصيبين فتمزقت أجسام اولئك الاشقياء

قال : ذلك غدرٌ والغدر شيمة الانذال لا شيمة الملوك .

قال : ذلك فعله في عدوه يا مولاي ، ولكنك اذا رأيته بين رجاله ، اضمحلت من ذهنك صورة سابور الظالم القاسي ، وانطبعت فيه صورة أخرى تمثل الوفاء والحلم . الى حد أنك تستبدل عاطفة البغض بعاطفة حب .

فقال أذينة في نفسه : لقد بدأ الرجل يثبت لنا أنه احدى صنائع الفرس . ثم قال له :

أفأنت يا حطان أحد محبيه ؟ ؟ !

قال : ما تعودت ان احب عدو تدمر ولو كان إلهاً ، ولكني اصف لك خصال الرجل كأنك تراه .

ثم جرع جرعة وقال : اني اشرب حتى افقد رشدي يا مولاي فلا أحس بالنبال

نفذ من جسدي .. اسمع ما اقصه عليك من أحوال سابور .. انه اكثر شراسة من
نمر واطيب قلباً من انثى الحمام .. اذا اضطر شرب الدماء في ساحة الوغى كما
شرب الخمر الآن حتى ليظنه كل من رآه أنه وحش يلبس لباس الانسان ، فاذا
نلع عدة الحرب صار بشراً ونسي انه الملك العظيم الذي تخضع له الأمم ويبسط
بنوده فوق الأقطار ..

قال : وكيف ذلك ؟

قال : يجمع في قبته العظيمة كل مساء ، قواده ورجال حربه ، فيعطيهم
صوالجة ليلعبوا بالكرة ..

فضحك القوم مستخفين بما سمعوه وكان هيرو ديس اكثرهم ضحكاً .

لكن حطان لم يبال بما رآه . فاستطرد قائلاً :

ثم يتدافعون وراء الكرة كما يتدافعون في الميدان والملك بينهم يدفعه هذا ويلطمه
الآخر حتى ليقع على الأرض فتدوسه الأقدام وهو يبتسم للرجال .. اني يا مولاي
نصل ما رأيت قط ملكاً يخضب التراب لحيته وتدوسه اقدام رجاله وهو باسم الثغر .

فقاطعه أذينة قائلاً : ونحن ما رأينا قط ملكاً يتصاغر الى حد ان يجعل جسده
بطناً للنعال ..

قال : ذلك دليل على طهارة قلب الملك ..

قال : بل هذا دليل الضعف والصغار عند الملوك .

قال : ان لعبة الكرة هي التي عقد له من اجلها التاج ..

فحدق اليه أذينة وقال : لقد عقدت الخمر لسانك يا حطان .. كيف عقد
ج لسابور ؟

قال : إنها حكاية طويلة يا مولاي لا أكاد اقص بعضها حتى تحتجب الشمس

قال : لكنك واثق — بقدوم سابور عند الغروب ..

قال : نعم يا مولاي غير أنه قد يعرض له في الطريق ما يمنع وصوله في ذلك الحين :

— : وعندئذ تخترق جسمك السهام ..

فقال : لأجل ذلك لا اروي للملك رواية يأمر بقتي قبل ان تنتهي ..

قال : لا نأمر بقتلك حتى تنتهي حكايتك ..
قال : أتعدني بهذا يا مولاي .
قال : كان يجب عليك ان تعلم ان أذينة اذا قال كلمة كانت كلمته وعداً :. حدثنا ما تعلم عن علاقة الكرة بالتاج ..

فنهض حطان الى باب القبة ، وأرسل نظره يتبين الأفق فلم يبصر شيئاً فعاد الى مجلسه وهو يقول : السماء صافية ، والسهل يسوده الهدوء ، فلو أقبل سابور لتصاعد الغبار أمام جيشه كما يتصاعد الضباب من سفوح الجبال .. قتل سابور وقتل جيشه ..

ثم رفع كأسه قائلاً : اشربها على شرف تدمر يا مولاي ، واجرعها جرعة واحدة على النصر الذي سيتم لك على عدوك ..

قال : انك تحاول ان تطيل حياتك يا حطان .

وابتسم ابتسامة السكارى وقال : سواء أطالت هذه الحياة او قصرت فالموت قريب منه .. ان سابور لن يعود على ما رأيت .. بلى يا مولاي لا تمر اربع ساعات حتى ترى اعلام الفرس تخفق في الفضاء .. هذه هي الحكاية يا مولاي ..

فهمس هيروديس في أذن معن قائلاً :
ما اخفّ روح الرجل واعذب حديثه .
قال : وأقسم بالآلهة أنه صادق في كل ما رواه .

قل يا حطان .
قال : في ذلك الزمان ، كان رجل يدعى ساسان هو جدّ سابور الأعلى يا مولاي ..

وأراد هيروديس ان يداعبه قليلاً ليطول حديثه فتطول ساعات عمره . فقال :
ومن هو أبوه ؟
فعرف الخبيث غرض الأمير ، فضحك وقال :
وشير بن بهمن أيها الأمير .

قال : وهل كان ملكاً ؟

قال : لا بل كان قيماً على بيت النار في مدينة من مدن الفرس ، وكان شجاعاً كثير المطامع تستهويه العظمة وحب السلطان ، فقال يوماً لمن حوله من الرجال :

لئن ملكت يوماً واحداً من الدهر لما استبقيت احداً من نسل «اشك» وهو يعني ملوك الطوائف يا مولاي .

قال : يظهر ان أولئك الملوك كانوا ظلاماً .

قال : نعم فأخذ ساسان ينازعهم نفوذهم وينفخ روح الثورة في صدور القوم حتى التفّ حوله الأنصار زكثر مشايعوه من وجوه الفرس .. لكنه مات يا مولاي ولم يملك ، غير انه اوصى بنيه بان لا يبقوا من نسل أولئك الملوك احداً ان هم ملكوا او ملك احدهم .

— : وبعد ذلك ؟

قال : وكان اول من ملك من احفاده اردشير بن بابك ، أتعلم من هو اردشير يا مولانا هيرو ديس ؟

قال : بين ملوك الفرس كثيرون يحملون هذا الأسم . فأيهم هو صاحبك ؟

قال : هو ابو سابور . فلما ملك حصدهم بالسيف نساءهم والرجال لم يستبق منهم احداً الا جارية رآها في القصر الملكي فأعجبه جمالها وكانت ابنة الملك الذي قتله .

— : اذن عبث اردشير بوصية جده واستهواه الجمال .

قال : لا يا مولاي . لأن الجارية عندما سألها عن نسبها ذكرت له انها كانت وصيفة لبعض نساء الملك القتيل .

— : فاستبقاها في القصر وصيفة لنسائه . أليس كذلك ؟

قال : لا بل تزوجها وكانت احبّ النساء اليه .

قال : ما اسمها يا حطان ؟

فضحك ثانية وقال : لا يحضرني اسمها ايها الأمير .

فقال أذينة : لقد اعجبك حديث هيرو ديس على ما نرى ..

قال : رأيته يصغي الى حكابتي اكثر مما تصغون يا مولاي ..

— : بل رأيته يمد يده ليمنعك من الوقوع في الهوة .. امض في حديثك ..

قال : فأ كثرت الفتاة من الادلال على اردشير واكثر هو من مظاهر حبه حتى علقت منه . ثم قام في ذهنها ان حبها ينسي الملك وصية ابيه . فباحت له بسرها واعترفت بانها من نسل أشك . نعم يا مولاي .. ولكنها اخطأت في ذلك الاعتراف . لأن وصية ساسان كانت في نظر اردشير اعظم من غرامه غير انه ابى ان يقتلها بيده . فدعا شيخاً من شيوخ قصره وقال له : خذ هذه الفتاة فاقتلها فهي من نسل الملوك ..

قال حطان هذا وسكت ..

فقال له اذينة : لماذا سكت يا حطان ؟

قال : ليسألني الأمير هيروديس عن اسم ذلك الشيخ ..

فارتفعت أصوات القواد بالضحك وقالوا لهيروديس : اسأله عن اسمه ايها الأمير.

فقال : لقد سألناك يا حطان فما هو أسمه ؟

قال : لا اذكر اسمه حتى يأمرني بذلك مولانا القنصل .

فقال اذينة : ما حيلتنا اذا كان هيروديس نفسه يريد ذلك ؟ اذكر اسم ذلك الشيخ .

قال : ارى اولاً وجه هذا السماء ثم أعود ..

ونهض فمد رأسه من باب القبة يتفرس في الفضاء ، كما فعل في المرة الأولى . ثم قال :

يخيل الي ان السماء تغبر كأنها تأذن بالمطر :

ثم استوى جالساً وقال : اما اسم الشيخ الذي اراد مولانا القنصل ان يعرفه فهو : هرجند بن سام ..

وكان شيخاً عاقلاً عركه الدهر وهذبته التجاريب .

فأخذ زوجة مولاه ليقتلها فأخبرته أنها حبلى وشهدت قوابل الفرس بذلك الحبل فكره ان يقتل ذلك الجنين البريء الذي هو قطعة من كبد الملك العظيم .. ولو تعلم

ماذا فعل يا مولاي..انه عمد الى سرداب له في قصره فوضعها فيه ثم كتب الحادثة في رق صغير جعله في حق وعاد الى الملك .

فقال أذينة : لقد اصبحنا نحن من حزبك يا حطان فقل لنا ماذا كتب في ذلك الرق .

قال : ذكر السنة والشهر والساعة التي ترك فيها زوجة مولاه في نفق القصر .

فلما رآه الملك قال له : ماذا فعلت يا ابن سام ؟ قال : اقسم برأس الملك اني جعلتها في بطن الأرض .. قال : وما هذا ؟ قال : حق ذكرت في داخله بسالة تلك المرأة في استقبال الموت ..

فختم عليه الملك وأمر الشيخ فوضعه في خزانة له في غرفة نومه . ففعل ونسي الملك أمر زوجته ..

قال أذينة : وما الذي فهمناه من حكايتك ايها الخبيث ؟

قال : انك لم تسمع من حكايتي غير المقدمة يا مولاي . اتراني نسيت ان أجلي ينتهي عند انتهاء هذه الحكاية ؟!

قال : ومتى تنتهي اذاً ؟

قال : أقسم برأس أذينة أني سأظل أمضغ الألفاظ مضغاً حتى يقدم سابور :

قال : اذن فعمرك لم ينقض وأنت ستعيش بعد ..

قال : وليس من العدل ان أموت قبل أن أرى رأسك يعصبه التاج ..

قال : لقد نسيت حكاية سابور وعدت الى الاكاذيب .

قال : سيأتي يوم يعلم فيه القنصل اني ما كذبت قط . ومع ذلك فلنعد الى زوجة الملك التي تركناها في بطن الأرض تحت قصر الشيخ . لقد اقامت في ذلك النفق يا مولاي حتى وضعت غلاماً .. غلاماً وجهه مثل وردة الحقل البيضاء . وعيناه كاللؤلؤتين الصافيتين ..

فلما رآه الشيخ سباه ذلك الجمال الجذاب فسجد للنار وقال لأمه : اختاري له اسماً . أما هي فقد كانت في نظر الناس من الأموات فلم تجرؤ على ان تسميه . فأوحت النار الى ذلك الشيخ باسمه فدعاه شاه بور ومعناها بالعربية : ابن الملك :

فأخذت رواية حطان شكلاً جديداً من الجلاء . ومدّ القوم اعناقهم والشوق العيون .

قال : لكن الشيخ لم يرد ان يعلم به الملك وهو طفل . بل آثر ان يدفعه اليه حتىما يدرك ويستكمل الأدب .

ومر الزمان والملك لا يولد له . فدخل عليه الشيخ الأمين يوماً فوجده مطرقاً .

فقال : ما يحزنك يا مولاي ؟

قال : وكيف لا احزن وقد ضربت بسيفي ما بين المشرق والمغرب حتى ظفرت بحاجتي وخضعت لاسمي الأمم وصفا لي الملك ملك آبائي ، ثم أهلك لا يعقبني فيه عقب ولا يكون لي فيه بقية .

قال : أأقول وأنا آمن ؟

قال : نعم .

قال : ادع بالحق الذي استودعتك يا مولاي .

فدعا اردشير بالحق فأحضروه .

فنظر الى نقش خاتمه ففضه ثم فتح الحق فاذا فيه ذلك الرق وقد كتب فيه :

« نحن هرجند بن سام نعترف باننا لم نقتل ابنة أشك التي علقت من ملك الملوك حين امرنا بقتلها . بل اودعناها بطن الأرض وتبرأنا الى الملك من انفسنا وذلك في ساعة كذا من اليوم والشهر والسنة » .

فقال له : اتخدعنا يا ابن سام وتبقي ابنة عدونا ؟

قال : بل أبقيت زوجة الملك الحبلى وقد ولدت لك غلاماً .

فأشرق جبين اردشير ودمعت عيناه من شدة الفرح ثم قال :

أحيٌّ هو يا هرجند ؟

قال : نعم وهو أجمل فتيان الفرس وافصحهم منطقاً .

فأمره الملك بأن يهيئه في مائة غلام من اشباهه ثم يدخلهم عليه جميعاً لا يفرق بينهم في زي او في قامة .

ففعل الشيخ ذلك يا مولاي ، فلما دخلوا على الملك أخذ ينظر من بينهم الى

ولده وقلبه يضطرب في داخله دون ان يدله عليه أحد .

ثم خطر له خاطر يا مولاي ، أمر مرازبته فأخرجوا الفتيان واعطوهم الصولجانات فلعبوا بالكرة وهو على سريره حتى دخلت الكرة في الايوان الذي هو فيه ..

فقال أذينة : لقد كادت حكايتك تنتهي يا حطان .

قال : من دلك على هذا يا مولاي ؟

قال : هذه الكرة التي عقد التاج لسابور من أجلها .

فنظر حطان الى الأفق ثم قال : نعم يا مولاي ان الحكاية قد تنتهي واما حياة حطان فستبقى .. اسمع يا مولاي ماذا جرى . تدحرجت الكرة حتى لامست قدمي الملك على العرش فلم يجرؤ أحد الغلمان على الدخول الا سابور .

فاستدل اردشير بدخوله عليه واقدامه انه ولده . فقال له بالفارسية :

ما اسمك أيها الغلام ؟

قال : شاه بور .

ففتح الملك ذراعيه وقال له : صدقت فأنت ابن الملك ..

ثم ضمه الى صدره وقال لحجابه : ليدخل هرجند بن سام .

فلما مثل بين يديه سأله قائلاً :

لم يخفق هذا القلب الا لهذا الغلام أليس هو ابن الملك ؟؟

فجثا الشيخ على ركبتيه وقال : نعم هذا هو فليسلم للملك .

فلما ثبت له انه ولده . شهر أمره وعقد له التاج من بعده .. وهكذا كانت الكرة يا مولاي سبباً لوصول سابور الى العرش .

فقال أذينة : لأجل هذا احب لعب الكرة حتى لتدوسه الأقدام وهو لايبالي؟

ثم ارتسم الجلال على جبينه وقال : الا تعرف الان بأن حكايتك قد انتهت .

قال : بقيت يا مولاي اشياء لم أقصها عليك .

قال : إنها حكاية تجر خلفها الذيول .. ماذا تريد ان تقول بعد ؟!

قال : على مولانا القنصل ان يسمع وعلى عبده حطان ان يتلاعب بالألفاظ .

قال : لكنك عرفتنا بسابور وهذا كل ما اردت .

وكانت الشمس تنحدر شيئاً فشيئاً الى البحر . ولم يبق من ذلك الموعدالمشؤوم غير ساعة تنتهي بعدها حكاية حطان ثم تضمحل حياته .

وكان القواد ـ كلما هوت الشمس شبراً ـ يهتزون لدنو الموعد وتخفق قلوبهم : ذلك لأنهم ارادوا جميعاً ان يصدق حطان فينجو من الموت .

حتى ان هيرو ديس كاد يسأل أباه ان يعفو عنه ..

غير ان الحرب لا ترحم احداً . وتلك القضية الخطيرة قضية ارجاع الجيش مسيرة ثلاثة أيام ، ذنب كبير جداً لا يغفره القنصل ولو نزل الاله بعل من سمائه ..

فالويل لحطان ورفيقه اذا لم يعد سابور .. ان ذلك العقاب الذي ينزله بهما ملك الصحراء عقاب غريب هائل لم يخطر من قبل ببال الجلادين ..

فلما اخذت الشمس تصغر . وبلغت حكاية حطان الى ذلك الحد ، اسودت وجوه القوم عند تصورهم ان ذلك الشقي سيستعصي عليه الكلام فينتهي الأمر وكانت الخمر تشعشع في الكأس ، فشربها الرجل المجهول النسب شرب الناهل ، ثم مشى للمرة الثالثة الى باب القبة ، وجعل ينظر الى الأفق البعيد بعينين كعيني النسر ، ثم قال كأنه يخاطب الفضاء ..

يا مولاي القنصل ، سأختم حكايتي الان بخطاب هو أبلغ الخطب .. اتريد يا مولاي ان تعرف ما آل اليه أمر سابور بعد موت أبيه ؟

قال : قل ما تشاء فقد كاد يفرغ الصبر ..

قال : لا بأس يا مولاي والملك لا يكون حكيماً الا اذا كان من الصابرين ..

لقد ذكرت لمولاي القنصل مولد سابور ، ولم اذكر له شيئاً عن عمله بعد ان صار ملكاً . اسمع ماذا فعل يا مولاي .. ان سابور عندما استوى في عرش الفرس أمر بما كان في خزائنه من المال فوسع به على الناس وقسمه فيمن رآه له موضعاً من الوجوه والجنود وأهل الحاجة . ثم كتب الى عماله في الأقطار ان يفعلوا مثلما فعل في الأموال التي في ايديهم حتى يعم فضله واحسانه جميع الناس من رعيته دون ان يستثنوا أحداً .. نعم يا مولاي . إن سابور بن أردشير هو الذي فعل ذلك . وسابور نفسه هو الذي بعد صوته وظهرت بسالته .. فدك اسوار نصيبين ، وأخمد

ثورة خراسان .. وافتتح مدناً كثيرة من مدن الشام .. سابور الذي هدم حصون الحضر وقتل صاحبها الضيزن القضاعي والقى الرعب في قلوب أهل الجزيرة .. سابور الذي أسر فاليريان ، وساق الرومان أمامه كما يسوق التدمري النوق حتى بلغ انطاكية فجعلها انقاضاً ثم تجاوزها الى كيلكيا فدوخها وهو يطمح ببصره الى روما :

واحتجبت الشمس عند ذلك عن العيون ..

فمد حطان يده الى الأمام قائلاً :

وسابور نفسه هو الذي هزمه كاليستوس المستقل وشتت شمل جموعه ، فأجفل راجعاً الى بلاده يحمل الذل والعار فاذا اذينة ملك الصحراء ينتظره مع جنود تدمر على شاطئ الفرات ليعيد الى الروم شرفهم وينقذ قيصرهم ..

نعم يا مولاي .. هو سابور نفسه الذي ارى أعلام جيشه تخفق الان في الفضاء ولا ينقضي الهزيع الأول من الليل حتى يحصد السيف رجاله وتطوي مياه الفرات قواده وابطاله ..

ثم التفت الى داخل القبة ورفع صوته قائلاً :

سيوفكم أيها القواد فقد أقبل سابور ..

فهوت الأيدي الى السيوف ووثب أذينة وقواده يتزاحمون على الباب ..

وقد استولى الاستغراب على القوم . عندما أبصروا في آخر السهل الغربي غمامة سوداء واسعة الأطراف ، فيها نقاط خضراء تتمايل في الهواء هي أعلام الفرس ..

فقال أذينة : ويلك يا حطان فما هذا ؟! :

فابتسم الرجل ابتسامة ابله هادئ وقال :

هذا هو سابور بن اردشير يا مولاي ..

فنظر القواد الى الرجل نظرة احترام واعجاب .

أما أذينة فأومأ اليهم بأن يتبعوه وهو يقول :

لقد دنت الساعة ونجا حطان من الموت ..

فضحك ذلك الداهية وقال : ولكن لا تنس يا مولاي اني ربحت الرهان

فوضع أذينة يده على جبينه وقال :

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر



زينب ملكة تدمر

الجزء الأول

القسم الثاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

ـ أجل لقد أنستنا آعلام الفرس ما وعدناك .

ثم قال لزبدا : ألبسه أيها القائد ثوب ضابط في فرقة معن . فهو يقود منذ الآن مئة رجل من الحرس القنصلي . .

ثم قال له : أرأيت القنصل يبر بوعده يا حطان ؟

فأجابه قائلاً : بل رأيت هذا القنصل يمطر عبيده نعماً واحساناً .

وجثا فقبل ثوب اذينة ، ثم نهض فقبل أيدي القواد وقال لمعن : إني فخور بأن أكون أحد رجالك أيها القائد الفتى . . .

فقال هيروديس : ومن حظ تدمر أن يضم جيشها رجالاً لهم ذكاؤك وإخلاصك .

* * *

لم يكن في الشرق كله جيش له نظام جيش اذينة وطاعته وبطولته وإقدامه . .

وقد اضطر الرومان أن يجاروا ذلك الجيش في عاداته فإذا سمع الروماني صوت البوق كان أسبق من التدمري الى الوقوف في صفه دون أن يكون له رأي في كل ما يراه .

يفعل ذلك مكرها غير مخير . لأن قواد الرومان أنفسهم كانوا كما قرأت ، مرغمين على الخضوع لأذينة وهو في نظرهم عبد من عبيد القيصر يتصرف بأمره كيف شاء .

أجل . لم يكن في ذلك الجيش تجانس في اللغة والعادة والأخلاق . ولكن هنالك قيادة حازمة وأمير صارم لا يكاد يلمس الشذوذ في صفوفه حتى يضرب صاحبه ضربة تهلع قلوب الجنود . .

وقف زبدا أمام قبة القنصل ورفع صوته قائلاً :

الرماة . .

فإذا الرماة يصبحون فريقين ، ثم جناحين من الأمام ، وزنباع الخائن في القلب .

ثم قال زباي : الفرسان . .

ففعل هؤلاء كما فعل الأولون . .

ـ أيها المشاة :

إذا تراشق الجيشان بالنبال واهتزت الأرض تحت حوافر الخيل ، فادفعوا صفوف العدو بصدوركم حتى تتراجع إلى الوراء فتمسي هدفاً للسهام من الجانبين هذا هو الليل الذي تنبثق منه أنوار المجد ، فاثبتوا للفرس أن مجد تدمر مكتوب على رؤوس الأسنة وشفار السيوف . . أنتم رجال البادية وقد خلقتم في الميادين ، فإذا ظفرتم الليلة فأنتم الظافرون غداً ، وسينظر اليكم العالم نظره إلى أبطال الشرق الذين كسروا سيف الفرس الظافر ، وأخضعوا لسلطانهم ذلك الفاتح الجبار الذي أخضع الأمم لسلطانه وأذل قيصر الرومان .

اسمعوا أيها الرماة والفرسان ، إن المشاة يضربون بالسيف كل فارس وكل قواس منكم يولى هارباً من أمام الفرس ، فإذا خان الجلد أحدكم فخير له أن يموت في ساحة الوغى على هذا الشاطىء ، من أن يحمل العار لقومه ثم يموت من يدنا بضربة سيف ولو اعتصم بالغمام .

وأنتم يا رجال الرومان ، أنظروا إلينا وإلى قوادكم الذين شرفوا أسم روما وأنظروا إلى زبدا وزباي وهيروديس ومعن ، وجميع الرؤساء والأمراء . تجدوهم في الصف الأول يقذفون بنفوسهم الى أشداق الموت ولا يبالون . . فليتبع كل فريق قائده . وليعمل على انقاذ الأمبراطور بعزيمة ثابتة لا تعرف التردد ، ليعترف الناس لروما انها الدولة التي لا تغلب في حرب . .

ثم قال : ليحضر أبن قائد الحامية في تدمر وقائد بعلبك الروميان .

فناداهما الغلمان فأقبلا فقال : علينا بحطان . .

فأقبل حطان بثوبه الجديد وخوذته الخضراء .

فأشار أذينة الى القائدين وقال لهما :

يتبع هذين الرومانيين فريق من جنود الرومان لا يضرب في هذه الحرب ضربة إلاّ في سبيل انقاذ القيصر فإذا تلاحمت الصفوف فأرشدهما إلى موضع الأسير وساعدهما في انقاذه .

فقال اسكندر : يكفي أن يدلنا على السجن أيها القنصل .

فأجابه هيروديس قائلاً : كأنك تريد أن تبقي للرومان وحدهم شرف انقاذ الامبراطور . .

قال اذينة : من حق الرومان أن يستقلوا في قضاء هذا الواجب . . دلهم على موضع الأسير يا حطان وارجع إلى فرقتك

وكان هيروديس يبتسم ابتسامة الاحتقار فقال له معن :

أراك تبتسم أيها الأمير .

قال : أما ابتسامتي فيكاد يكون بكاء أيها القائد

- : ومن أي شيء ؟

قال : أبكي الشقي المسكين فالريان وإن كنت لا أحب أحداً من قومه .

قال : أيبكي الأمير عدوه ؟ !

قال : بل أبكي المرؤة والوفاء يعبث بهما هذا الرومي عاشق كهيلة . . أينقذ هذا الخائن مولاه وهو يؤثر أن يرقد في هذا النهر على أن يرى فالريان حراً

قال : لماذا ؟

قال : خير لاسكندر أن يرى جثة القيصر محمولة على رؤوس الحراب من أن يرى هذا القيصر محمولاً على أكتاف شعبه ليعيدوه إلى عرشه بقوة التدمريين إنه يحب فالريان فهو أصل نعمته ولكنه لا يحب أن يقول الناس أن أذينة القنصل أعاد إلى روما أسيرها وظفر بسابور .

- : إذن فأنت واثق بأن الامبراطور سيبقى في سجن الفرس . .

قال : وهكذا يعتقد القنصل وقواده وجميع أركان الجيش أتعرف لماذا ؟

قال : لأن القنصل نفسه لا يريد أن ينقذ الأسير . .

قال : ولأن قائد بعلبك وحده لا يقدر على هذا وقد كتب لفالريان المنكود الحظ أن لا يبصر نور الشمس . .

وكانت عينا اذينة في ذلك الحين مطبوعتين في الأفق وهو يحاول أن يتبين تلك الغمامة السوداء التي تحجب ما وراءها من ذلك السهل .

لكن الليل كان قد سدل حجابه . والقمر الذي سيبسط نوره فوق ذلك السهل لم يكن قد ترك خدره . .

وقد مرت ساعة واحدة على احتجاب الشمس فكانت السرعة التي تهيأ فيها الجيش احدى الأعاجيب ، حتى إن السكينة عادت بجلالها من جديد . ووقف القنصل وقواده ينظرون إلى الصفوف يحسبونها تماثيل . .

وإذا بمعن على مهره وقد أخذ قوسه وجعبة سهامه ودنا من القنصل وهو باسم الثغر.

فقال اذينة : نراك أمسيت قواساً يا معن .

قال : نعم يا مولاي وأرجو من القنصل أن يختار لي أحد الصفوف .

قال : هذا هو صفك لا نأذن لك في أن تجاوزه « وأشار إلى جانبه» .

فقال : إذن اذهب حيثما تذهب يا مولاي .

قال : لا . فإذا رأيتنا نخوض المجال فأمكث حيثما يجب أن يمكث القنصل ولا تنقل خطوة واحدة إلى الأمام .

قال : وكيف أستطيع أن أصيب أكباد الفرس ؟

قال : إذا عرفت أن ترسل سهامك فقد فعلت ما لا تفعله الأبطال . .

وأطفئت الأنوار . . فساد الصمت وساد الظلام حتى أن اذينة الذي كانت عينه ترى كل شيء . . لم يكن يسمع غير هدير المياه وهمس الانفاس . .

* * *

كان القمر يصعد إلى الأعالي من جهة الجنوب ، وقد أخذت أنواره تمزق ذلك الحجاب الأسود الذي أرخاه الليل فوق الصحراء .

وقد أصدر القنصل أمره فخرجت الأسياف من أغمادها وأشرعت الرماح ذلك لأن تلك الغمامة انجلت فاضحت بشراً ، وتلك الكتلة الكبيرة الزاحفة بهدوء فوق الرمال كانت جنوداً . .

ولـم يكن في السماء غيمـة . . إن وجههـا كان صفحـة من البلـور . . ونجومها المتلالئة كانت يسلا تحمل الأنوار لذينك الجيشين . .

والجيش لا يبعد عن الجيش أكثر من فرسخين . وقـد جعجعـت النـوق وصهلت الخيل ، واضطرب جيش الفرس عندما رأى الشاطىء على عرضه تغطيه الرجال .

كان سابور مستخفاً بجيرانه العرب ، وقد تمادى في هذا الاستخفاف الى حد أنه لم يبعث الطلائع أمام جيشه ، ولم يقم في ذهنه قط أن في العرب قوة تجرؤ على الوقوف في وجهه .

وهو راجع إلى بلاده . . وليس في تلك البادية قوى للرومان أو للعرب . . ولا يخطر ببال الفاتح الجبار أن اذينة ـ صياد الظباء في الصحراء ـ يبلغ به الغرور إلى حد أن يبارزه في الميدان . .

ومن هو اذينة قنصل تدمر ؟ ! . إنه في نظر سابور عامل من عمال روما يجمع لها خراج أرضه فيعطيها إياه ثم تحسن إليه ببعض هذا الخراج إذا بقي منه شيء .

وهب أن اذينة من أولئك الأبطال المغامرين ، ففي أي جيش يحارب الفرس وليس عنده من الرجال إلاّ بضعة الآف معظمهم عراة الصدور ضعاف الأبدان !

وكان سابور على فرسه يظلله الخز والديباج ، وتخفـق فوق رأسـه صورة الأسد الفارسي ، ووراءه فيله الأسود يقوده اثنان وحوله عشرة من الرجال .

وفي تلك الخيمة التي يحملها الفيل ، تاج سابور وصولجانه ، وعلى فيل آخر تحيطبه الفرسان ، ذلك العرش ـ من الابنوس ـ الذي يحمل له في حروبه كما مر .

وسابور العظيم لم يكن يمشي في الحرب خلف صفوفه كما هي عادة الملوك والقواد ، بل كان يتقدمها جميعاً ـ كما يفعل اذينة ـ وعن جانبيه مرازبة الفرس وأبطالهم الذين يثق باخلاصهم ويستشيرهم في الأمور .

وهو أمهر من ركب فيلاً من أبناء قومه يركبه في حالات الهجوم على الأعداء فتكون ضحايا خرطوم الفيل أكثر من ضحايا سيف سابور .

وتلك الفيلة التي يركبها تهيج في ساحة الحرب عندما يشاء فتدوس الخيل والرجال وتتلاعب بالأجساد ثم تقذفها إلى الهواء كما يقذف الفارسي الكرة بالصولجان . .

وقد يفعل الفيل الواحد ما لا يفعله الجيش الكثير وهو في حالات هياجه أطوع لراكبه من الجواد الكريم ، إلاّ إذا جرح فأنه يصبح عنئذ خطرا على صاحبه وعلى كل ما يعرض له .

ودولة الفرس دولة فتح ، وهي من أقدم أزمنة التاريخ تعني بالأفيال وتعدها للحروب ولعل أفيالها أعظم سبب من أسباب الظفر الذي تم لها على الأمم .

والفيل شديد الذكاء سريع الأخذ ، لا يتعب المرء في تعليمه بقدر ما يتعب في تعليم غيره من صنوف الحيوان .

وهو يحمل أثقالهم إلى الميادين . وتشد فوق ظهره الخيام والهوادج للنساء والملوك ، وكما ان النوق مراكب البر عند العرب هكذا هي الأفيال عند الفرس . .

كان جيش سابور أكثر من مئة الف ، فيه المشاة والقواسون والرماة كما في جيش اذينة ، غير أن تلك الفرقة التي تركب الأفيال في المقدمة لم يكن لها وجود في

الجيش العربي ، ولولا رباطة جأش العرب لكانت فرقة الفيالة وحدها كافية لأن تبعث الذعر إلى القلوب .

وقد جعل سابور فيالته في أول الصفوف وهم أشداء الفرس ورجال البأس حتى إذا نفخ في بوق الحرب صاحت الرجال بأفيالها فانطلقت إلى العدو تحمل في خراطيمها الموت .

وكان اذينة وقواده يعرفون ذلك ، وقد أمروا الجيش بأن يحسن استقبال تلك الفرقة بما أملوه عليه من وسائل الدفاع . .

كذلك كان واثقاً بأن الفرس لا يثبتون أمام جيشه العربي ، إذا استطاع هذا الجيش أن ينجو من طائفة الأفيال .

* * *

بغت سابور واضطرب فؤاده ، عندما رأى الشاطىء الرحب يموج بالرجال . وأشعة القمر تنعكس على الخوذ الخضراء والشفار المسنونة . .

ولا شيء في ذلك السهل يمنع النظر من أن يمتد إلى أبعد من فرسخين ، فليس في الصحراء شجرة ترسل ظلاً ، كما لم يقم في السماء - في وجه القمر - ما يقصر مدى نوره .

وأول خاطر خطر له هو أن أولئك الرجال من جماعة الرومان بعثهم نائب القيصر لينقذوا فالريان وهم واثقون بأن سابور بعيد عن بلاده والقيصر باق فيها . .

ولم يستطع سابور ان يتبين إعلام القوم . فقال لقواده :
الا تظنون أن هذا الجيش من الرومان ؟
فقال أحدهم : من يجسر على النزول في الصحراء غير هؤلاء . .
وقال آخر : إن العرب يفعلون ذلك ولا يبالون . .

وقال آخر : إذا كانوا عرباً فهم من عرب الجزيرة الخاضعين لنا ولعلهم يقصدون بلاداً غير بلادهم .

ولم يقل أحدهم : هذا اذينة في جيشه التدمري . .

إن ذلك القنصل لم يكن له وجود في نظر الفرس ، ولو كان سابور يعترف بوجوده لما داس رسالته وقذف بهداياه الى الفرات .

ولو قيل لسابور الفارسي في ذلك الحين أن ذلك الجيش هو جيش تدمر لقهقه ضاحكاً ، وأمر كتيبة من كتائبه بالهجوم على ذلك الجيش وأسر اذينة الذي يسمونه قنصلاً . وانصرف هو ورجاله إلى لعب الكرة ينتظرون الرجال أن يرجعوا مع الأسير . . !!!

وكثيرون من الناس يملكهم الغرور كما يملك سابور حتى إنهم ليحسبون أنفسهم في صف الالهة ، لهم القدرة والسلطان وللناس الضعف والهوان . .

حتى قام أحد القواد فقال : ليرسل الملك بعض الرجال يجيئون بالخبر .

فقال : ليحضر عشرة من الفرسان . .

فلما حضروا قال : الا ترون هذا الجيش المعسكر على الشاطىء ؟

قالوا : لقد رأيناه .

قال : اذهبوا فتفحصوا عن أمره واحذروا أن تقعوا في الشرك .

فقال فارس منهم : ليجعلنا الملك رسلاً له لا طليعة .

قال : لماذا ؟

قال : لأن السهم لا يحجب الطليعة عن العيون فإذا دنونا من القوم أحاطت بنا الخيل فنصبح في يدهم ولا يعرف الملك من امر هذا الجيش شيئاً .

قال : لكن الملك لا يبعث رسله إلاّ إلى من يعرفه ، فماذا تقولون لقائد الجيش إذا مثلتم بين يديه ؟

قال : نقول له أرسلنا ملكنا لنعرف إذا كنت عدواً أو صديقاً . .

قال : بئس ما رأيت فأنت تكاد تقتل نفسك .

قال : لماذا يا مولاي .

ـ : لأن هذا الجيش قد يكون من الرومان ، أتسأل قائده الروماني إذا كان صديقاً أم عدواً ! !

قال : إذا كان من الرومان قلت له غير ذلك . .

قال : ماذا ؟

قال : أسأله إذا كان جاء ليحاربنا أم لا . .

فبان الغضب على جبين سابور وقال لرجاله : ليكن هذا حكيماً من حكماء الفرس لا جندياً . . إنه أحدق الفلاسفة رأياً . .

ثم قال له : انصرف إلى لعنة النار . .

فخرج الرجل وهو يقول في نفسه : ما أفضل هذا الملك فقد خلصني من الموت .

أما سابور فقال لرفاقه : أأنتم من الفلاسفة أم من الجنود ؟

قالوا : نحن عبيد الملك .

قال : إذهبوا إذن وافعلوا كما أمرناكم ونحن منتظرون . .

قالوا : ولكن ربما لا نعود يا مولاي فإذا مرت ساعتان على خروجنا من المعسكر ولم نرجع اليك فقد أصبحنا أسرى .

قال : إننا نراكم من هذه القبة فانصرفوا.

فلووا أعناق الخيل ومشوا اثنين اثنين ، أما التاسع فبقي وحده وهو يكاد يلامس ماء الفرات في مشيه . .

لكنهم قبل أن يخرجوا من المعسكر مروا برفاقهم واوصوهم بأهلهم في المدائن . . ذلك لأنهم لم يكونوا واثقين بأنهم يرجعون . .

وكانت عيون التدمريين تنظر اليهم وأذينة يقول لمن حوله : نرى قطعة

صغيرة انفصلت عن الجيش ولعلها طليعة سابور ارسلها بعد فوات الأوان أن صاحبنا الفارسي مجنون . .

فقال هيروديس : وأبلغ أثر من أثار جنونه هذه الطليعة التي يقذف بها إلى الأسر .

فالتفت أذينة إلى قائد حرسه وقال : لقد جاء دورك يا معن الآن .

فقال الفتى : وأنا قد عرفت مهمتي يا مولاي . . انطلق من هنا إلى جهة الجنوب مع عشرة من الحراس ، ثم أعود من وراء هذه الطليعة فأسوقها اليك برؤوس الاسنة .

قال : لقد استطاع قائد الحرس أن يقرأ أفكارنا ولكن إجعل رجالك عشرين فقد يكون رجال سابور أكثر عدداً .

ففعل الفتى كما أمره واختار العشرين من حراسه فانطلقوا إلى جهة الجنوب .

ولكن . . ولكن سابور الذي دعاه اذينة وهيروديس مجنوناً كان أبعد منهما وأكثر دهاء .

ففي الساعة التي خرجت فيها طليعته من المعسكر أمر قائداً من قواده بان يتراجع بمئتين من الفرسان إلى وراء الجيش ، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي حتى إذا مشى مقدار فرسخين انثنى إلى الشمال حيث يقف في السهل في موضع يشرف منه على ذلك الجيش فيحمي الطليعة إذا امتدت اليها يد سؤ ولكي يحجب هذه الكتيبة الصغيرة عن عيون القوم ، أمر الفين من فرسانه بأن يصطفوا صفين مستطيلين الواحد خلف الآخر فلا تبصر العين ما وراءهما . .

وكان معن باتجاهه الى الجنوب الغربي سيلتقي بحكم الخطة التي وضعها بتلك الكتيبة الفارسية التي أرسلها سابور .

وقد عرف الملك الفارسي كيف يخفي فرسانه وراء جدار كثيف من الخيل والرجال .

وكانت خيل معن تسابق الطير وهي تسير غرباً حتى مشت أكثر من فرسخ ، ثم انثنت الى اليمين تتبين خيل الطليعة لتقطع عليها خط الرجوع .

وقد تم الأمر كما قال معن ، فإن رجال اذينة أضحوا وراء سابور ، ولم تجل الخيل جولة حتى استسلم هؤلاء وساقهم معن ورجاله برؤوس الرماح .

غير أن الجو اكفهر وجهه وتلبدت الغيوم في السماء فاحتجب القمر وراءها وساد الظلام . .

وإذا بالأرض تهتز وراء معن . . فما كاد يلوي عنق جواده حتى دهمته الخيل وأحاطت به الرجال . . .

سبحان من يغير الأحوال . . كان أبن حمدان رجل الموقف فإذا هو ضمن نطاق من رجال سابور ، وقد امتدت إليه وإلى رجاله سيوف القوم تبدو بين شفارها أشباح المنون .

فماذا يفعل معن ، أيقتحم الخيل بصدر فرسه وهو لا يكاد يخطو خطوة إلى الأمام حتى يصطدم بالسيوف فيهوي تحت ضرباتها جثة خرساء ثم يلحق به الرجال الذين حوله دون أن يبقى منهم تدمري ؟؟ وكيف يستطيع العشرون من الرجال أن ينازلوا المئتين وهم أبطال الفرس الفاتحون الذين دمروا انطاكية وقهروا فالريان ؟!!!

إن الناظر الى معن في ذلك الحين ، كان ينظر إلى نمر طوقوه بالحديد ، فأسود وجهه وبانت الشراسة في عينيه ، ثم ثار ثائره فأخذ يحاول الخروج من قفصه وهو لا يقدر على ذلك .

وإنها لمفاجأة غريبة أن يرى الفتى نفسه في دائرة تتلاحم فيها السيوف حتى

ليعجز من ضيق النطاق عن أن يضرب ضربة واحدة بسيفه أو يعيد ذلك السيف إلى غمده .

وذلك كان شأن رجاله لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم إلى الأمام أو يتراجعوا بأفراسهم إلى الوراء . .

وكان السكوت يسود القوم . . رجال تدمر ورجال سابور . . أولئك عقد السنتهم الاستغراب وهؤلاء لا يرفعون صوتاً مخافةِ أن يقضي عليهم ذلك الصوت . .

وقد شاءت الأقدار أن يخفي القمر وجهه ويستر الفريقين الظلام فلا يبصر اذينة ماذا يجري بين كتيبة الفرس وجماعة الحرس على بعد مرحلة من جيشه .

كان يسمع في تلك الساعة همس القوم يقولون بالفارسية : أذكروا من أنتم والقوا السلاح .

ومعن يتردد في الجواب وهو يرى السيوف تكاد تخترق احشاءه .

ولكن ماذا يفيده التردد والموت ماثل أمام عينيه . .

والقوم يلجون في الطلب وقد خانهم الصبر . .

فقال وقد عادت اليه رباطة الجأش :

أما نحن فمن العرب كما ترون وأمّا اسيافنا فستظل في أيدينا حتى نلفظ الأرواح .

وكان الترجمان بينه وبين القائد ، رجلاً قصير القامة صغير الرأس لكن عينيه تشبهان عيني الذئب . .

فقال القائد : ألا تعترف أيها الفتى بأنك أسيرنا ؟

قال : بلى ولكن احتفظ بسيفي حتى أرى ملككم .

فأشار الفارسي على رجاله قائلاً : ما عرفت من قبل أسيراً يحتفظ بسيفه . .

يضربوهم حتى تتكسر الأسياف .

فقال معن : لا تفعلوا قبل أن نعرف من أنتم . .

وقد تجاهل امرهم لعلهم يطلقونه .

فقال القائد : نحن من رجال سابور بن اردشير ملك الفرس . . وأنتم من تكونون ؟

فأجابه أحد الحراس قائلاً : نحن من عرب الجزيرة الخاضعين للفرس . .

فقال : كذبت أيها العربي فإذا كان اللسان عربياً فهذه الخوذ والثياب التي تلبسونها ليست للعرب . . القوا السلاح وارجعوا معنا إلى الملك فيرى فيكم رأيه . .

ولكنهم كانوا مصابين بالذهول فلم يفعلوا . .

فقال : أردت أن أحفظ حياتكم وأخذكم إلى الملك فلم تريدوا فخير لي أن آمر بقتلكم من أن يراكم سابور تحملون السيوف وأنتم اسراه .

وقد بدت على وجهه دلائل الحزم وهم بتنفيذ قوله .

فعرف معن أن بسالة حرسه لا تغلب الكثرة وأن قوته لا ترد القضاء ، فلجأ إلى الحكمة قائلاً :

الموت في نظر العربي أهون من أن يلقي سيفه فإذا رأيتم أن نرجع إلى ملككم فنحن نعاهدكم على أن نضع السيوف في أغمادها لا نشهرها في وجه فارسي ما دمنا بينكم . .

قال : ولكن سابور لا يرضي بهذا .

قال : إذا مثلنا بين يديه فليفعل ما يشاء .

فأطرق القائد ملياً يفكر في الأمر ثم قال لأحد الضباط :

ـ : أنسوقهم أسرى وهم يحملون السيوف ؟

قال : لا أرى ما يمنعنا من ذلك ونحن حولهم أن غرضنا هو أن يتفحص الملك عن امرهم :

فرفع القائد صوته قائلاً : أمشوا إذن فقد تركنا لكم السيوف .

وكان أحد الحراس من قضاعة راكباً فرساً لا يلحق وقد ملأت ذهنه فكرة الفرار ، وقد استطاع أن يبوح لمعن بهذه الفكرة فأخذ معن يهزأ في سره بما قاله له .

ولو عرف أي فرس هو تحته لما وجد سبيلاً إلى الهزء .

أما القائد الفارسي فقد احتاط لنفسه ولعله شعر بما يضمره أخو قضاعة من الرغبة في الهرب .

فأومأ إلى تلك الحلقة بأن تنفرج ليمر التدمريون ثم يحيطون بهم من جديد .

ولكن حدث في تلك الساعة ما لم يكن بالحسبان ، فإن القضاعي همز فرسه فمرق به كالسهم بين السيوف المتلاحمة والخيل التي تكاد تتلاصق دون أن تصيبه ضربة سيف . ثم ، طار به نحو الجيش العربي فخرجت خلفه الخيل فإذا بذلك الفرس يثب في عرض السهل نحو الشمال وإذا بالغبار يصبح عونا للظلام على احتجاب العربي عن العيون . .

إن اقدام ذلك الرجل على الفرار في ذلك الشكل الغريب الذي تكتنفه الأخطار كان جنوناً كما رأيت . غير أن وثوقه بفرسه دفعه الى الاستخفاف بذلك الخطر والمغامرة بحياته في سبيل حريته والرجوع إلى الجيش ليتدارك أذينة أمر معن وينقذه من يدي سابور .

كان الفرسان الذين لحقوا به بضعة عشرة رجلا على افراس تنهب الأرض ولكنهم كانوا إنساً يطاردون عفريتاً من عفاريت الجن حتى قام في أذهانهم أن الرجل تعلق بحبال الغيم الذي يغطي الفضاء .

فرجعوا وهم متحيرون فيما رأوه . وكانوا يقولون لقائدهم والتدمريون يسمعون : إن العربي الفار ليس من البشر . .

وقد رضي القائد بالتسعة عشر رجلاً يمشون في المقدمة ورجاله تحيطبهم من الوراء ومن الجانبين ، حتى أقبلوا على معسكر الفرس . . .

* * *

رأى سابور وجوها عربية وخوذا رومانية . .

فأخذ يتفرس في تلك الوجوه حتى وقع نظره على معن .

كانت صورة الفتى مطبوعة في دماغه ولكن الفاتح العظيم مثله إذا ذكر حوادث ماضيه فهو لا يذكر أشخاصها . .

فأطرق يستعرض الماضي وهو يفكر في ذلك الفتى الماثل بين يديه مستعيداً حوادث الأمس القريب ليعرف من هو . . .

وقد غطت خوذة معن نصف جبهته وبانت من تحت الخوذة قلنسوته الصفراء ، غير أن الشعاع الذي تبعثه عيناه لم يستطع الفتى أن يستره بارخاء جفنيه . .

وطال سكوت سابور وهو يعالج ذاكرته فلم يهتد فعمد إلى السؤال يستعين به على تلك الذاكرة التعبة المثقلة بصور الحروب وحادثات الزمان .

وكان القائد قد قص عليه خبر وقوعهم في الشرك فقال لترجمانه :

إنهم عرب ينضمون إلى جند الرومان فأسأل هذا الفتى عن أمرهم .

وأشار الى معن . .

فقال الترجمان : ممن أنتم أيها الفتى ؟

فكره الحمداني أن يكذب وهو إذا كذب كان جباناً .

فتردد قليلاً ثم قال :

ـ من البادية .

ـ : أتنتمون إلى جند الرومان ؟

ـ : لا ننتمي إلاّ إلى نفوسنا ..

ـ : وهذه الخوذ ؟؟ !فقال : خوذ رومانية نحن أحرار في اختيارها غطاء للرأس . .

قال : إذا كنت صادقاً فالجيش المعسكر على الشاطىء هو عربي . .

قال : نعم وفيه كتائب للرومان .

قال : من هو قائده ؟؟

ـ : لا أعلم .

فابتسم سابور قائلاً : خير لك أن تعلم أيها العربي .

قال : وإذا لم أعلم أيها الملك .

قال : تموت .

فضحك ضحكة ملأت فضاء الفسطاط . . .

قال : أتستخف بالموت ؟

قال : أجل ولو لم يأخذ رجالك سيوفنا قبل الدخول عليك لكانت مظاهر الاستخفاف أبلغ مما رأيت . .

فقال سابور وهو هادىء : أكنت تضرب الملك ؟

قال : لا بل أضرب نفسي لئلا تسومني سوء العذاب والذل .

فتلفت الترجمان يميناً وشمالاً ثم رفع صوته قائلاً :

لقد عرفت الفتى يا مولاي .

فأشرق جبين سابور وقال : من هو ؟

قال : الا تذكر ذلك الوفد الذي بعثه اليك صاحب تدمر وأنت على الشاطىء الآخر من الفرات؟

فقطب الملك حاجبيه وقال : بلى .

قال : هذا هو الفتى الذي كان يتكلم باسم مولاه .

فاهتز سابور على كرسيه لأنه ذكر معنا .

أما الفتى فكاد يقع على الأرض من تلك المفاجأة التي لم تخطر له ببال .

أجل ! إن الفتى النبيل الشجاع لا يخاف أحداً ولكن الفتى العاشق الذي ملأ قلبه عاطفة الغرام لا يذكر الموت إلاّ ويرى أمام عينيه صورة الحبيب الذي لا يريد أن يموت . .

وقلب معن ، قلب نبيل عاشق لا تكاد ترى مظهراً من مظاهر نبالته حتى يبدو لك مظهر آخر من مظاهر غرامه . . والنبالة في الصدر قد تغلب الغرام في مواقف الفخار .

كانت حياة معن لتدمر ولكهيلة ، والأثنان في ساعات الخطر تتنازعان عاطفته ، فإذا أملى عليه الشرف أن يموت في سبيل وطنه أملى عليه الغرام أن يعيش ليرى من أحب .

ومتى كان التدمري بين يدي سابور فذلك هو الخطر بعينه لأن النجاة من أسر ذلك الطاغية لم يتعودها الشرق في ذلك الزمان . .

فقامت الحرب في نفس معن أما أن يخون واجب الجندي فيعيش ، وأما أن يصون ذلك الواجب فيموت .

غير أن سابور قطع عليه مجرى أفكاره إذ قال :

لقد صدق الترجمان فانت ذلك الحمصي رسول اذينة اتنكر هذا ام تعترف به .

قال : بل اعترف به أيها الملك .

قال : نراك أمسيت من جنود الرومان . .

قال : كنت ولم أزل في الجيش العربي كما قلت لك.
- : الا تقول لنا الآن من هو قائد هذا الجيش .
قال : أما وقد عرفتني فلم يبق ما يمنعني من ذلك .
- من هو ؟.
- : اذينة قنصل تدمر ايها الملك.
- : وما الذي يفعله على هذا الشاطىء ؟
- : ذلك ما لا اعرفه لأنه من شأن القنصل وحده .
قال : أتنضم الى جيش لا تعرف الى أين يذهب ؟
قال : نعم وذلك هو واجب الجندي . . يأمرنا اذيقة بالركوب فنركب ثم يأمرنا بالمسير فنسير ، ثم يقول لنا أنزلوا فننزل ونحن لا نسأله . .
قال : ولكن تقول لنا كم هو عددكم . .
فبرقت عينا الفتى وقال : أتراني جننت حتى أذكر لك ذلك !!

فأجابه احد المرازبة قائلاً : أنا أذكره للملك عنك إن اذينة يا مولاي الملك جاء يصطاد في الصحراء . .
فقال معن : قد تكون صادقاً فيما قلت .
فقال سابور وهو يغمز بعينه : وقد يكون قدم ليحارب الفرس . .
قال ! وليس هذا ببعيد أيها الملك فإن الجيش الذي يرأسه يطمع بأكثر من هذا .
اصبت فلولا هذا الطمع لما أقدمتم على أسر طليعة الجيش وقد عرفتم إنها من فرسان سابور . .

فحاول معن أن يجيب فاسكته قائلاً :

ما نحب أن نعرف فوق ما عرفنا . .
ثم قال لحاجبه : انزلوا هذا العربي ضيفاً على فالـريان فقـد رأينـاه محبـاً للمجد . . الاّ يطيب لك أن تقيم في خيمة واحدة مع قيصر الرومان ؟ . .

قال : يطيب لي أن تأمر الحجاب بضرب عنقي فذلك خير من الأسر .

قال أما نحن فلا نريد الاّ أن نجاري العرب في تكريم الضيف . . انزعوا ثياب الفتى وخوذته والبسوه الثوب الأرجواني الذي يلبس مثله مولانا الامبراطور . . أما رفاقه فاجعلوا كل واحد منهم في خيمة على بابها حارسان . وطوقوهم بسلاسل الحديد إلاّ أصغرهم فيدوا يديه ورجليه ولا تنسوا أنه أحد القياصرة . .

فقال أحد الحجاب : والطعام يا مولاي ؟

قال : طعام فالريان نفسه مع ما يسبقه من مظاهر الاحترام . . عشرون سوطاً في الصباح ، وعشرون عند الظهر ، ومثلها عندما تغرب الشمس . . وكل ذلك قبل الطعام لتهيج قابليته . .

وأنتم أيها القواد فقد كتب لكم أن تحيوا الليل في قذف الجيش التدمري الى الفرات ، أما جلالة القنصل فلا تمسوه بأذى لأننا نؤثر أن ينام صاحب الجلالة الآخر الأمبراطور فالريان في بلاطه الملوكي . . انصرفوا بالأسرى أيها الحجاب وأوصوا حراس القيصر بأن يكرموا ضيفهم الجديد . .

فانتزع معن انتزاعاً من قبة الملك ، وذهب به الحجاب إلى ذلك السجن الأسود الذي لا يبصر ضيفه نور الشمس . .

أما الحراس الباقون فأخذوهم واحداً واحداً إلى خيام الأسرى من الأرمن والرومان الذين جعلتهم الحرب في يد سابور.

وكان فالريان ذلك الأمبراطور المنكود الحظ مضجعاً على التراب في احدى زوايا سجنه والسلاسل التي تطوق عنقه ويديه ورجليه مشدودة إلى أوتاد غليظة جعلوها في الأرض عن جانبيه .

فلما أدخل الحجاب معنا إلى خيمته ، تململ الأسير العظيم ، ورفع نظره يتبين الضيوف النازلين به في ذلك الليل . .

ولم يكن السجن مظلماً كما يتبادر إلى الذهن ، بل كان النور يملأ جوانبه كما يملأ مجلس سابور . . وذلك ليستطيع الحراس أن يروا اسيرهم ويحصوا عليه أنفاسه في كل ساعة من ساعات حياته في ذلك السجن .

وكان معن قد استسلم إلى القوة وعاد اليه رشده فأخذ يفكر في أمره والذعر يدب في قلبه من ذلك العذاب الذي اعدوه له . . .

ولولا وثوقه بفوز مولاه في الحرب واعتقاده أنه قادر على إنقاذ من الأسر لمات رعبا .

ذلك أول عهده في مصائب الزمان ، وجسمه الندي لا يطيق الجلد بالسوط في كل صباح ومساء . .

وقد ذهل عند دخوله لمرأى ذلك الامبراطور المشلول الأعضاء . .

فلما قيدوه في الزاوية الأخرى وتراجعوا هازئين به رأى شبحاً تستره الأطمار البالية . وتغطيه سلاسل الحديد من عنقه إلى قدميه بوجه أصفر يشبه وجوه الأموات . وعينين جامدتين غائرتين في جمجمته . . بل رأى هيكلاً من العظم يتحرك تحت الحديد . فابتسم ابتسامة اليائس وقال في نفسه : هذا هو امبراطور الرومان .

وأخذت الدموع تنحدر على خديه ثم تتساقط إلى صدره ويداه في الغل لا يقدر أن يكفكف بهما تلك الدموع . .

لم يذكر في ذلك الحين عظمة القيصر الروماني ومجد فالريان . ولم يذرف الدمع لما راه من مظاهر ذل ذلك الأمبراطور الاسير وعذابه ، بل لم يذكر ماضيه وعشيرته . وعظمته في تدمر وصباه . . إن دموعه كان يذرفها على حبه الجديد تعبث به يد الزمان . وعلى ذلك الهوى تتصدى له الأقدار فتمنعه من أن يرى وجه كهيله . .

أجل . إن الفتى ذكر خطيبته في تلك الساعة فاستخرط في البكاء . .

وهو لو خير في الأمر لأثر وقع السياط على جسمه الغض وهو يرى كهيلة ، على أن يجعلوه الها ويحرموه النظر إلى ذلك الجمال الذي سلبه نهاه .

وبينما هو يبكي . . خيل إليه أنه سمع صوتاً ولكنـه صوت بعيد ضعيف كالأصوات الخارجة من القبور . .

كان فالريان يتكلم . . وهو يعالج الحديد ليرفع رأسه ، ويرسل نظره إلى معن بن حمدان . .

وقد لفظ بالرومانية كلمتين اثنتين معناهما : من أنت ؟ . .

أما معن الذي يجهل لغة الرومان فقد فهم معنى كلمتيه فقال : معن بن حمدان .

قال : أأنت عربي .

فأجابه معن بالعربية قائلا : إني لا أفهم ما تقول . .

فعرف القيصر الشقي عندئذ أن ضيفه من العرب وقد ظن من قبل أنه من الرومان . .

وانطفأ فجأة ذلك الشعاع الذي أرسلته عيناه الغائرتان .

ثم ساد السكوت . .

* * *

بات ذلك الحارس القضاعي يركض فرسه في ذلك السهل وهو يظـن أن رجال الفرس وراءه . . والغيم لا يزال يحجب وجه القمر ، وقد استطال السهل أمامه ، فسبح الفرس في جهة الجنوب وفارسه يحسب انه يسير نحو الشرق .

حتى خرج القمـر من وراء السـتـر وبسـط نوره فوق الصحـراء ، فوقف الفارس حين لـم ير أحداً من مطارديه وتلفت يميناً وشمالاً فإذا هو يكاد يتيه في ذلك البر .

غير أن أبن البادية لا تخونه الذاكرة ، فما هو إلاّ أن ثاب إليه رشده . حتى عاد إلى فرسه يركضه في جهة الشرق ، وحتى أصبح بعد ساعة وراء معسكر اذينة وقد راه الخفراء .

فقال رئيسهم : سلاحكم يا قوم . .

فأجابهم قائلاً وهو لا يقف : دعوني امر فأنا من حرس القنصل.

ومرق كالسهم في الجانب الشمالي من المعسكر حتى قارب قبة مولاه فترجل عن فرسه وهو يقول : استأذنوا لي .

وكان أذنية أمام القبة مع قواده وبينهم معني واسماعيل ، واسكندر زنباع .

فلما رأى الرجل صاح به قائلاً :

ما وراءك يا أخا قضاعة ؟

فقال : أمسى قائد الحرس بين يدي سابور يا مولاي .

فبغت اذينة ونظر إلى السماء قائلاً : لقد حجبت الأفق هذه الغيوم السوداء فلم نبصر ماذا جرى . . أواثق يا رجل ؟ !

قال : نعم يا مولاي ولم ينج من العشرين حارساً غير عبدك هذا .

فأشرق جبين معني ورفاقه وكاد الفرح يخرج ابن قائد الحامية عند حده .

أما اذينة فقد فارقت جبينه علائم الدهشة وقال مبتسماً :

أجلس أيها الحارس وحدثنا بما رأيت . .

قال : كان طليعة الفرس عشرة يا مولاي فلم تتلاحم السيوف حتى أخذناهم أسرى . .

قال : وبعد ذلك ؟

قال : وإذا بكتيبة لا أعرف عددها أحاطت بنا من الجهات الأربع فأمسينا داخل دائرة ضيقة من السيوف .

- : وماذا فعل قائد الحرس .

قال : إنه شجاع يا مولاي ما رأت عيني قط أثبت جنانا منه .

قال : أكانت الكتيبة خمسين فارساً أم أكثر ؟

قال : أحسبها تجاوز المئتنين يا مولاي . .

فنظر اذينة إلى هيروديس وإلى القائدين الكبيرين .

وقال : إن لقائد الحرس عذره . .

فقال هيروديس : أما نحن فإذا لم نفاجىء سابور في هذا الليل فليس لنا عذر .

قال : إن الجيش ينتظر الأمر بالمسير فلا تمر ساعة حتى ينشر الموت ظله فوق معسكر الفرس . . ولكن قل لنا كيف فررت أيها القضاعي .

فوضع يده على صدر فرسه وقال :

وثب بي هذا الفرس وثبة تنحى لها القوم ثم مد عنقه وسبح في الفضاء . .

قال : أحسنت وأحسن فرسك أدخلوا أيها القواد .

فغصت قبة القنصل برؤساء الجيش . .

ثم رفع صوته قائلاً : كان علينا أن ننقذ واحداً فأصبح هذا الواحد اثنين في رأيكم الآن .

فقال هيروديس : إن الذي يستطيع انقاذ واحد ، يستطيع في الوقت نفسه أن ينقذ الفاً .

فقال زباي : مهما كثر الجيش فهو لا يقدر أن ينقذ أسيراً لا يعرف أين وضعوه .

قال هيروديس : نبعث حطان . .

فأجابه زبدا قائلاً : لا يكاد حطان يذهب ثم يعود حتى تطلع الشمس ـ
قال اذينة : وقد يقع أسيراً فلا يرجع .

ثم تنهد قائلاً : بل قد يخطر ببال سابور في هذا الليل أن يلقي بمعن تحت أرجل الفيل . .

فنهض هيروديس عن وسادته وأصفر وجه زبدا .

أما زباي فوضع يده على صدره في موضع القلب .

وأطرق القنصل ملياً ثم قال :
ليحضر حطان . .
فظن القواد أنه سيبعث به إلى معسكر العدو . .

فلما أقبل الرجل قال له : أتعلم ماذا نريد منك يا حطان ؟
قال : يريد القنصل أن يسألني رأيي في الحادث الذي جرى لقائد حرسه .
قال : أتعرف هذا ؟!
قال : كما يعرفه الجيش كله يا مولاي .
قال : إذن فالقنصل يريد أن يستعين برأيك . فماذا تقول ؟
قال : إن انقاذ الحمداني صعب يا مولاي .

فبانت دلائل البشر على وجوه المتامرين . .

فقال اذينة : ليهلك الجيش الفارسي كله ولينج معن .
قال : هب أنك قدرت على هذا يا مولاي فقائد الحرس لا ينجو من الأسر .
قال : لماذا .
قال : لأنك لا تعلم كيف يعمد سابور إلى الانتقام من خصمه . . إنه يأمر حراسه ـ قبل أن تدور الدائرة عليه بأن يقتلوا الاسيرين . قائد الحرس وفالريان . فإذا أنقذتهما يا مولاي فقد أنقذت جثتين .

فرأى اذينة أن الحكمة تتجلى في حديث حطان فقال :

فليس لك رأي ؟

قال : بلى يا مولاي . إن الحرب إذا استعرت نارها كان أهون على الجيش ـ يأسر الجماعة من رجال الجيش الآخر ، من أن ينقذ أسيراً واحداً أحاطوه حرس وحجبوه عن العيون .

قال : وما هو معنى هذا ؟

قال : معناه أن تقابل الفرس بالمثل وتأسر أشخاصاً يحبهم سابور .

قال : لقد فهمنا الآن . . إنك تريد إنقاذ معن عن طريق الفداء . .

قال : أجل يا مولاي وفي هذا وحده ضمان لحياة الحمداني .

ـ : ولكن من يدلنا على هؤلاء الأشخاص ؟

ـ : يدلك حطان . .

قال : أذكرهم لنا .

قال : في الجيش ثلاث نساء من نساء سابور معهن غلامان من بنيه .

قال : أيأخذ العلج زوجاته إلى ساحات القتال ؟

قال : نعم والزوجات الثلاث اللواتي يرافقنه هن أحب نسائه إليه .

قال : وكيف يمشين مع الجيش ؟

قال : إذا أمر بالمسير جعلهن على الهوادج في المؤخرة تحرسهن الرجال . ـ استراح نقلوهن إلى مضارب تقارب قبته . .

قال : وإذا حمي وطيس الوغى ؟ !

قال : يجعلهن في الموضع الذي تحفظ فيه معدات الجيش ومؤونته . فإذا ستطعت يا مولاي أن تأسرهن سألك سابور ان تقبل بالفداء .

فالتفت القنصل فجأة إلى ولده وقال :

لقد جعلنا حياة معن في يدك يا هيروديس .

فدمعت عينا الفتى وقال : وأنا أقسم بالالهة أنه لا يتنفس الصبح حتى

ن نساء الفارسي في قبة القنصل استعد يا حطان .

فابتسم ذلك الرجل المجهول النسب وقال : أما أنا فمستعد ولكن لا أرى جال . .

قال : ألا تكفيك كتائب البادية ؟

قال : نأخذ منها الفاً ونترك الباقي . .

فقال اذينة : ونحن نقوم مقام هيروديس في القيادة .

فقال حطان : ولكن التمس من مولاي القنصل أن يأمر رجاله بأن يطيعوا ان كما يطيعون هيروديس . .

قال : سنفعل كل ما تشاء . .

قال : ولا تنس يا مولاي أن في جيش الفرس طوائف تركب الأفيال .

قال : إن الحرب من شأننا وسنحسن استقبال أفيال سابور .

انهضوا أيها القواد . .

فخرجوا من القبة صامتين ومشى كل واحد منهم إلى الموقف الذي أعده له نصل ، أما هيروديس وحطان فاتجها مع الرجال إلى الجانب الشمالي من الجيش طان يقول للأمير :

بعد ساعتين يحصد السيف رجال الفرس ، وتبتلع المياه الخيل والأفيال ثم ر سابور الفرات بمن يبقى معه ، تاركاً على هذا الشاطىء زوجاته الثلاث ديه وجثث رجاله وأشلاءهم ، ولا تشرق الشمس حتى يطلق قائد الحرس ال القنصل إطلاق نسائه . .

قال : أراك تتنبأ يا حطان . . !!

قال : ليست هنالك نبؤة يا مولاي بل هي سطور كتبها نور القمر على صحة الفضاء . .

قال : ولكن لا أرى شيئاً . .

فابتسم قائلاً : لست مثلك يا مولاي في حمل السيف وقيادة الرجال . كما أنك لست مثلي في قراءة السطور التي لا ترى . .

قال : إنك يا حطان رجل عجيب !! . .

قال : بل أنا رجل عادي قذفت به الأقدار إلى وجود ليس له فيه أحد . .

* * *

سابور الحكيم الداهية ، بطل الفرس وسيدهم ، الذي قضى معظم حياته في ساحة الحرب تخفق فوق جيشه أعلام الظفر . .

سابور ، ذو الارادة الحديدية والعزيمة الثابتة والرأي الصادق ، لم ينس في ذلك الليل - وهو في قسطاطه الملوكي - أن يدبر بالسرعة والحزم أمور الجيش .

أجل ، لم يكن يعبأ بأذينة ، بل لم يكن اذينة في نظره فتى الحرب . لكنه كان يحسب للدهر حسابه إذا ادلهمت الخطوب .

وقد عرف في ذلك الحين إذ ذلك الليل لا ينقضي حتى تصبغ رمال الشاطىء بدماء الجيشين .

وكان واثقاً بالنصر ، لأن رجال البادية العراة الأبدان لا يثبتون أمام جيشه الذي يدك الأسوار ويفتح البلدان .

غير أنه أعد عدته بالرغم من وثوقه ، وتهيأ للقاء اذينة ، كما يتهيأ للقاء أبطال الروم وقياصرتهم .

فلما أخرج معن ورجاله من الفسطاط . قال لمرازبته وقواده :

ليتقدم أصحاب الأفيال فالحرب ستنشب قبل أن يبزغ الفجر .

ثم أمر بنسائه فأرجعوهن إلى الوراء وبالفرسان والمشاة فاصطفت صفوفهم دون أن يرتفع لهم صوت، كما فعل اذينة بجيشه.

وكانت لسابور معابر من خشب . تحمل على ظهور الأفيال وتربط بالحبال عند الحاجة فيعبر عليها الجيش أنهار أسيا ميدان حربه . .

فأمر بها فنقلت إلى ضفة الفرات بما يتبعها من عدة استعداداً لعبور الجيش إذا اضطر إلى الفرار .

وهي بضعة عشر معبراً من الخشب الصلب الذي لا يفنى . وضعوها متباعدة على الشاطىء ، في خط طوله ما يقارب الميل .

ووقفت حولها الرجال يشدونها بالحبال فتصبح كالزوارق المستطيلة ، ثم يدفعونها إلى المياه عندما يصدر أمر سابور .

وقد فعل الفرس كل ذلك والقمر وراء الغيوم ، فلم يبصر اذينة أشباحهم تروح وتجيء على الشاطىء .

ووقف أصحاب الأفيال في المقدمة فكانوا مع أفيالهم في ذلك السهل كالصخور السوداء يكمن وراءها الجيش متهيئاً للوثوب .

وبأيديهم مناخس الحديد يغرزونها بجلد الفيل فيهيج ذلك الحيوان الهائل ويندفع إلى الأمام يحمل بخرطومه الموت لكل من يتصدى له من بشر ومن حيوان .

والفرس أمهر شعوب الأرض في ركوب الأفيال وترويضها وتدريبها على القتال . حتى أن الفارسي ليلعب على ظهر فيله كما يلعب العربي على ظهر فرسه .

وكانت تلك الكتيبة أعز كتائب الجيش على سابور وهي كما علمت أبعد الفرق أثراً في العدو وأطولها سيفاً ، حتى أن صفوف الرومان لم تكن تتراجع إلى الوراء إلاّ إذا فاجأتها تلك الخراطيم الهائلة تتمايل كعمد الحديد في الهواء .

وفي أيام الحرب والسلم ، كان سابور كثير الحرص على فالريان كما رأيت

حتى إذا وقع يوماً أحد أنجاله أو أنسبائه أسيراً في يد الرومان جعل امبراطورهم عظيم فداء له .

ولهذه الغاية نفسه اراد أن يحتفظ بمعن ، عند اعتقاده أنه أمين سر اذينة لا يبعث غيره في المهمات .

فبعد أن ارتاح إلى حالة الجيش ، أمر رئيس حرسه بأن ينقل الأسرى إلى الضفة الأخرى مع مائة من الحرس وقد هم بأن ينقل نساءه لو لم ير أعلام التدمريين تخفق بالقرب منه .

* * *

مشى جيش اذينة بخطوات سريعة إلى الأمام تسوده السكينة والهدوء .

وما هي إلاّ ساعة حتى قارب جيش الفرس . .

لكنه بدلاً من أن يقتحم صفوفه بالسيف ، وقف عن الجانبين صفين مستطيلين وراءهما الرماة ، وتراصت الكتائب في القلب صفوفاً لا يبعد الواحد منها عن الآخر أكثر من ذراع الانسان .

وكنت تسمع همس الجنود يقول بعضهم للبعض الآخر :

إن القنصل لا يريد أن يكون البادىء بالهجوم خوفاً من الأفيال . .

وقد استعد الجيشان وكادت العيون تفترس العيون .

وإذ برجلين انفصلا عن جيش الفرس وأقبلا نحو التدمريين . .

فقال اذينة لمن حوله : لقد بعث الفارسي المتكبر رسوليه يسألنا الخضوع له قبل أن يضرم النار . . .

وقد أصاب القنصل في ظنه ، فإن الرجلين اللذين يحملان راية بيضاء كانا يسألان عن القائد الأكبر لذلك الجيش.

فمثلا بين يدي اذينة ثم قال أحدهما بالفارسية :

إن مولانا الملك يريد أن يعرف من أنت ؟

فأجابه قائلاً : ألم يعلم من نحن وقد أسر قائد حرسنا وتسعة عشر رجلاً معه ؟! نحن صيادو الظباء في الصحراء . .

قال : أقدمت لحرب الملك ؟

قال : ما قدمنا إلاّ لهذه الغاية لأننا نريد أن نجرب أنفسنا في صيد رجاله .

قال : بعثنا إليك لننصح لك بالخضوع له قبل أن يطلق عليك أفياله . .

فقال : قل لمولاك أن اذينة قنصل تدمر كان يصيد الفيلة قبل أن يصيد الظباء .

فلما ترجم الترجمان هذا الكلام . قال المرزبان :

أنصحك لآخر مرة عملاً بارادة مولاي .

فقال: ونحن ننصح لك أيها الرسول أن تغادر حالاً هذا المعسكر وتعود الى سابور.

فانثنى المرزبان وهو يتمتم بالفارسية الفاظا لم يسمعها أحد .

فإذا بالأفيال تثب وثباً وقد مدت الخراطيم .

فاهتزت الأرض تحت التدمريين وخيل اليهم أن قطع الجبال تهبط من الاعالي . .

ولم يبصروا ما وراء ذلك الحاجز من فرق المشاة والرماة والفرسان . .

وكان سابور على ظهر فيله ينظر إلى صفوف الجيش تهاجم عدوه . وقد بلغ به الاستخفاف بذلك العدو انه لم يرد أن ينازله في الميدان بل أراد أن يشهد من بعيد سقوط أولئك العرب الاجلاف تحت أرجل الأفيال.

ولكن . . ولكن حدثت في تلك الساعة أعجوبة من أعاجيب الحرب ،

فإن كتائب التدمريين تراجعت - بوحي خفي - إلى الجانبين . تراجع المضطرب المذعور ، فأمسى الجيش كله جناحين لا قلب له إلاّ بعض صفوف المشاة في المؤخرة . واندفعت الفيالة الى ذلك القلب الفارغ تريد أن تجعل الجيش العربي شطرين .

وقد دوى صوت سابور في ذلك السهل وسمعته صفوف المقدمة يقول للفرسان والرماة :

اضربوا الجناحين واتركوا الفيالة للقلب فقد بدأ العرب بالفرار . .

فتقدمت الصفوف . . وإذا بذلك الوحي الخفي ينزل ثانية على الجند العربي . فتصدت الفرسان للفرسان . والرماة للرماة . وكما يطغى ماء الفرات إذا فاض هكذا انثنت تلك الصفوف المتراجعة فشدت على الفيالة وجعلتهم بين جيشين . ثم أرسلت الرماح تطعن الصدور فتهوي الرجال جثثاً حتى عجز الفيال عن أن يلوي عنق فيله ويولي وجهه شطر الجيش الفارسي . .

إن مناخس الحديد التي يحملها الفرس كانت أضعف من الاسنة . . فإذا دفع الفارسي فيله إلى الأمام ارجعته الرماح إلى الوراء . من هذا الجانب ومن الجانب الآخر ، كان صفوف العرب برماحها المشرعة بسور من الفولاذ بشفرات حادة يتراجع عنه خرطوم الفيل مخضباً بالدم .

مشهد لم يخطر ببال سابور ولم تقع عليه عينه من قبل . .

الرجال تتدحرج عن ظهور الأفيال ، ولا يستطيع الفارسي الواحد أن يخترق ذلك السور الفولاذي راجعاً إلى المعسكر ، حتى أضحت الأفيال حرة ليس على ظهورها فارسي . ومن لم يمت بطعنات الأسنة لفظ روحه تحت أرجل الحيوان العجيب . .

ثم انفرج السور العربي من جديد . . واندفعت رجال العرب تطعن الأفيال في اعجازها فهاجت كما يهيج البحر ووثبت نحو معسكر الفرس فمزقته

صفوف المقدمة وداست بأرجلها كتائب المشاة والقواسين . .

أما فرسان سابور ورماته فلم يكونوا اكثر حظاً . فإن نبال التدمريين كانت قضاء ، وقد أقسم القواسون أنهم لا يجردون السيوف حتى ينفذ آخر سهم من جعابهم .

وذلك ما لا يريده زنباع . كان الأفضل له ولرفاقه الخونة أن يروا سهام العدو تنفذ من صدور التدمريين ولكنهم لم يجسروا على التراجع الى الوراء واذينة يرى كل شيء وعيناه تنظران إلى كل حركة من حركات الجيش . .

وسابور : سابور الذي رأى أشلاء رجاله وجثثهم تغطي الشاطىء !! وهو إله الحرب وسيد الميادين ، اضمحلت في صدره فجأة تلك العاطفة الملتهبة بنار الكبرياء ، وصغرت نفسه في عينيه وقد نسي العظمة والعز ، فأصدر أمره بعبور الفرات ، وساعده الظلام الذي يعقب نزول القمر عن عرشه . فعبر معظم ما بقي من الجيش ، ولم يستطع اذينة أن يحطم من المعابر غير اثنين قذف رجالها بأنفسهم إلى الفرات . .

لقد كان اذينة وقواده دهاة في وضعهم خطة الحرب لكنهم نسوا تلك المعابر التي يحملها جيش سابور ، كلما نقل في أرض أسيا قدماً . .

ولو طال عمر القمر في تلك الليلة لطوى الفرات جميع الجيش الفارسي الذي عبره . غير أن الظلام حجب ذلك الجيش ومعابره عن العيون ، وخاف اذينة أن تكون هنالك حيلة . فمنع صفوفه من أن تخطو خطوة واحدة في أثر الفرس .

وقد وافقه في ذلك الرأي قائداه الكبيران ، زبدا وزباي اللذان يرجع اليهما وإلى القنصل، فضل ذلك النصر السريع ، يتم لهم قبل أن يطلع الصبح .

لكنهم لم يعلموا جميعهم ماذا جرى لهيروديس في مهمته . أجل . إن الاسرى من رجال الفرس كثيرون ، لكن سابور قد لا يعد لهم بقائد الحرس

حمداني ، ولا يقبل فداء غير كفؤ بكفؤ .

إن اذينة كان في تلك الساعة والداً . كان يفكر في هيروديس وقلبه يضطرب في صدره . ولم يكن في الجيش العربي كله جندي واحد يعرف شيئاً عن ذلك الجندي الشجاع الحبيب إلى قلب أبيه

وكان معني بالقرب من عمه لم يفارقه . وقد استطاع أن يرمي بسهامه بعض رجال العدو في ذلك الليل .

فقال لاذينة : وماذا عرفت عن قائد الحرس يا مولاي ؟

فهمس القنصل في أذنه قائلاً : أتحب قائد الحرس حتى تسأل عنه ؟!

فأجابه الخبيث قائلاً : لا أحبه لأنه معن بن حمدان ، بل لأنه قائد حرس القنصل . وأخشى أن يكون الآن في الفرات . .

فاهتز القنصل لهذه الكلمة وهمز جواده فابتعد عنه وكأنه أراد أن يبتعد عن نفث الأفعى الصغيرة التي يقطر من فمها السم . .

ثم قال لرجاله : أين قائد حامية الرومان في تدمر ؟

فقال زباي : إنه مع حاميته وراء الفرسان .

قال : لقد أبلى البلاء الحسن في سبيل انقاذ مولاه لقد كان خائفاً أن ينتزعه الخيل عن فرسه ويقذف به في الفضاء . . وأين ولده البطل الآخر . . أأنقذ دبريان ؟

فسمع صوت يقول : لقد أرسل الفرس مولانا القيصر إلى الضفة الأخرى .

قال : من هو هذا الذي يتكلم بالرومانية ؟

قال : قائد بعلبك ايها القنصل

قال : تعال أيها القائد فأنت شجاع . أين تركت رفيقك أبن قائد الحامية ؟

قال : هو في المعسكر الآن .

ـ : ومن قال لك أن فالريان على الشاطىء الآخر .
قال : نقلوه قبل المعركة أيها القنصل مع قائد الحرس .

فتنفس اذينة وقواده الصعداء .

ثم قال اذينة : كيف عرفت ذلك ؟
قال : أخبرني به أسير فارسي هو احد الرجال الذين شدوا حبال المعبر لفالريان وحراسه . .
قال : كان يجب أن تقولوا لنا أنكم لم تقدروا على انقاذ فالريان .
قال : كيف ننقذه أيها القنصل وقد جعلوا الفرات بيننا وبينه ؟!
قال : على الجندي الذي يبعثه قائده في مهمة أن يراجع ذلك القائد إذا فشل فيها . . أحضر ذلك الاسير الذي أخبرك .

فأحضروه . فصعد القنصل فيه بصره فإذا هو من صعاليك الفرس وقد بدت على جبينه دلائل الخوف . . وظهرت على ثوبه البالي أثار الفقر والذل . .

فقال له : أأنت من جنود سابور ؟
قال : لا يا مولاي .
قال : وماذا تفعل في جيشه؟
قال : إني أتبع الجيوش فأعيش أتراني ألبس لباس الجنود ؟
قال : أحذر أن تكذب إذا سألناك . . من قال لك أن فالريان هو هناك . .

وأشار إلى الشاطىء الآخر .

فقال : لقد ساعدت الجنود في جر السفينة التي حملته إلى النهر .
قال : صفه لنا .
قال : لولم أر على نور القمر عينيه المتحركتين لقلت إنه جثة يا مولاي .
قال : ومن كان معه ؟
قال : ذلك الفتى الجميل الوجه الذي أسر في هذا الليل .

فقال زباي : مسكين معن لم يبرز إلى ساحة الوغى حتى وقع في شرك . .

كيف رأيته أيها الفارس ؟

قال : كان يساعد حراسه في حمل قيوده . .

ثم نظر اذينة إلى الجماعات تتألب حوله فقال لزبدا :

لينصرف كل جندي إلى صفه وليحرس أخاه . . إن الحرب لم تنته بعد .

فخلت الساحة له وللقواد ، ثم قال : أليس في الجيش الفارسي نساء سابور ؟

قال : نعم يا مولاي فيه ثلاث من جواريه .

قال : احملتهن السفينة قبل فالريان أم بعده

فتردد الرجل في جوابه . فقال اذينة :

إن التردد يقذف بك إلى الفرات . . أي فريق عبر الفرات قبل الآخر ؟

قال : ما رأيت نساء الملك يعبرن النهر .

قال : أيرسل سابور اسراه قبل نسائه ؟ !

فقال : ذلك شيء لا أعرفه يا مولاي . أفلا يجوز أن يرافقن الملك عند عبوره .

قال : إن الملك الذي يهيء السفن للفرار قبل تلاحم الصفوف ، لا يبقي نساءه في ساحة الحرب . . احضروا فارسياً آخر . .

فأسرع الحجاب إلى خيام الأسرى واختاروا أحدهم وهو بلباس فرسان الحرس .

فقال له القنصل : متى نقل سابور نساءه إلى الشاطىء الآخر ؟

فابتسم الرجل ولم يجب .

فقال له حاجب القنصل : ألا تعلم من يخاطبك أيها الرجل ؟

قال : ليكن اذينة نفسه فلا أبالي .

قال : إنه مولانا اذينة . .
قال : إذن لا يسمع مني جواباً . .
فقال اذينة : اتستخف بنا أيها الأسير ؟
قال : لا يا مولاي لكنك تريد أن تستغل أسري وأنا أريد بدوري أن أستغل هذا السر . .
قال : ليس هذا سراً وستعرفه بعد قليل .
قال : مر بارجاعي إذن فلا حاجة لك إلي .

فالتفت اذينة إلى قواده وقال : إن هذا الفارسي يملي علينا إرادته !! ما الذي تطمع به إذا بحت بسرك ؟
- : أطمع بأن تجعلني حراً يا مولاي .
قال : أتلتحق بالجيش وأنت لا تقدر على الوصول اليه ؟!
قال : لا أسألك إلاّ أن تطلقني وأنا أعرف كيف أعبر الفرات .

فأطرق القنصل ملياً ثم قال : سواء أكنت أسيراً أم حراً فلا خير فيك . قل وأنت حر .

قال : إن نساء الملك لم يغادرن هذا الشاطىء . .

فأشرق جبين اذينة وقال : وكيف ذلك
وقال : لأن الملك عندما أراد أن يرسلهن إلى الضفة الثانية فاجأه جيشك العربي .
قال : لكنه استطاع بعد حين أن يعبر النهر هو وجيشه . . أتراه ترك نساءه لعدوه ولم يبال ؟ ! .
قال : بل أراد إنقاذهن قبل إنقاذ الجيش لكنه لم يجد لهن أثراً . .
قال : إحذر أن تخدعنا أيها الرجل .
قال : ألم تجعلني حراً أيها الأمير ؟
قال : بلى .

قال : أما أنا فأرفض هذه الحرية وأبقى في الأسر حتى يظهر صدقي . إن
وجات سابور كن ، عندما نشبت الحرب ـ وراء المعسكر بين الجنود الذين
جمون المؤونة والمعدات . غير أن هؤلاء الجنود اختفوا جميعاً كما اختفت نساء
ـنث . فأنقذ سابور مؤونة جيشه ولم يهتم للفريقين . .

قال : أخشى أن تكون الأرض ابتلعت نساء مولاك .

قال : أما أنا فأرى غير ذلك يا مولاي ألم تعلم قبل هجومك أن نساء الملك
لمعسكر .

قال : بلى .

ـ : ورجال جيشك أكانوا يعرفون ذلك ؟

ـ : بلى . .

قال : إذن أراد بعض هؤلاء الرجال أن يسبوا الملكات فخرجوا في أثرهن .

فقال اذينة : ثم احتجبوا جميعهم عن العيون !!

قال : نعم . فإن الحراس عندما أبصروا الرجال ولوا الأدبار والنساء معهم
ـحقت بهم رجال العرب وهم يطاردونهم في هذا السهل .

قال : هذا ما يقوم في ذهننا الآن . .

ثم وجه حديثه إلى زبدا قائلاً : أرسل أيها القائد من يأتينا بأخبار
هيروديس .

فقال زباي : اذهب أنا بنفسي فأتيك بأخباره .

ثم همز فرسه ليختار رفاقاً له .

قال اذينة لقائد بعلبك : ألم يدلكم حطان على سجن القيصر كما أمرناه ؟

قال : نعم أرشدنا إلى موضعه من بعيد ولكن لم نره كما قلت .

قال : إذا أسر هيروديس نساء الملك نظرنا في أمر فدائه .

- ١٣ -
القائد العام

على جميع عساكر المشرق .

تنفس الصبح . وقد رق الهواء وصفا وجه السماء .

لكن سطح الشاطىء كان أغبر . والموت ينشر ظله فوق ذلك السهل . الجثث فوق الجثث شوهتها السيوف وحوافر الخيل . والأشلاء كأنها قطع الأخشاب بعثرتها الأفيال . وقد ظهرت في الفضاء أسراب الطير تحوم حول الفرائس من بني الانسان .

ومعظمها من رجال الفرس ، أولئك الجنود الأبطال الذين استخفوا بابناء البادية فنالوا جزاء الاستخفاف .

أينظر إلى الشاطىء الآخر تر سابور على جواده يطوف حول الصفوف التي لم يبق لها الفرار نظاماً . والغضب يملأ صدره . والحقد على اذينة في كل مظهر من مظاهره .

أيستطيع عامل الرومان في تدمر ، ذلك البدوي الخامل الذكر أن يقهر سابور بن أردشير سيد الشرق الذي طبق ذكره الخافقين . !!

أفي ليلة واحدة تقتل فيالة الفرس ، وتسبى نساء الملك العظيم ويفر الجيش الفارسي مضطرباً مذعوراً من رعاة النوق العراة الصدور !!

إن هذا الفرار ذل للملك الفارسي ، وعار يلزمه إلى الأبد . .

وأنظر إلى الفرات ، تر بقايا السفن التي حطمها الملك . وأجسام بعض الفيلة يطويها الماء ثم ينشرها ثم يحجبها عن الأبصار . .

أجل . إن سابور لم يعرف كيف يظفر بعدوه في ذلك الليل ، لكنه عرف كيف يترك الميدان ويحفظ حياة الباقين من جيشه الكثير الغرور .

وقد حطم جميع السفن التي عبر عليها الجيش ، إلاّ سفينة واحدة أمر رجاله بجروها إلى الشاطىء . .

ولعله أراد أن يجعلها همزة الوصل بينه وبين عامل الرومان الذي استهان به .

إنه كان يفكر في الفداء لأن نساءه لم يعبرن الفرات مع الذين عبروا من صفوف الجيش .

وقد طلعت الشمس ولم يبق في الفرات سفينة واحدة يتخذنها مطية للوصول إليه . إلاّ تلك التي جرها إلى الشاطىء كما مر .

هذا على افتراض نجاتهن من أيدي العرب الاجلاف .

فلما خاب أمله دعا مرازبته وقواده وقال لهم : يخيل الينا أن العرب الذين هاجمونا في الليل الماضي هم طوائف من الجن . .

فقال كبير القواد : لم يكن الجيش كله من العرب يا مولاي .

قال : نعرف ذلك ونحن لا نعني الرومان . . إن اولئك الرجال الذين يرسلون شعورهم إلى الأكتاف هم أبطال الحرب وهم الذين هزأنا بهم وبسيدهم اذينة فكانوا شياطين . .

وقد أحس سابور في تلك الساعة ، أنه كان مخطئاً في رده رسل اذينة ، ذلك الرد القبيح الذي كانت نتيجته الحرب .

ولو أحسن سياسيته يوم أقبل عليه وفد القنصل . بل لو فاز دهاؤه ، في ذلك اليوم . على كبريائه وغضبه ، لكان اذينة خليفة على الرومان . ولاستطاع مع هذا الحليف القوي أن يطرد الايطاليين من أسيا . ويعصب رأسه بتاج الملك

الشرقي الأكبر الذي لا ينازعه العدو نفوذه وسلطانه في الشرق .

وندم أشدَ الندم . . لكنه لم يظهر ندمه لرجال دولته فالملوك الفاتحون الذين اتعبهم الظفر لا يتصاغرون إلى هذا الحد . .

وكان الهم والغيظ يملآن صدره . ليس لظفر اذينة العربي فحسب ، بل لأن كرامته قد جرحت ، وشرفه قد أهين ببقاء أحب نسائه إليه في معسكر التدمريين .

فقال وهو يتميز غيظاً : أتفرون أيها القواد وتتركون نساء الملك ؟!

فلم يرتفع لأحدهم صوت . .

قال : تلك أمثولة قواد الفرس على العالم !! يدفعون نساءهم إلى يد العدو ويولون الأدبار !!

فقال أحدهم : ذهبت بنفسي لأنقذهن يا مولاي . .

فأجابه قائلاً : لكنك عندما أبصرت فرسان العرب نسيت نساء مولاك ولجأت إلى الفرات . .

قال : لم أبصر يا مولاي غير الخيام يصفر بها الهواء . . إن حراس الملكات فروا بهن قبل أن تصطدم الخيل . .

فهز رأسه قائلاً : تلك شجاعة لا توجد إلاّ في صفوف الفرس . .

قال : لكن الحراس قليلو العدد يا مولاي والذين هاجموهم من العرب كانوا كثيرين . .

قال : لقد سمعنا هذه الحكاية قبل الآن وكان عليكم أن تطوفوا في السهل لتنقذوا نساءنا قبل أن تنقذوا أنفسكم وأنتم رجال الحرب !!

وأطرق ملياً ثم قال : لقد ظفر العرب الآن وسيكون لنا ولهم شأن بعد حين . . قولوا لنا ما رأيكم فيما نحن فيه ، أنجعل نساءنا جواري لنساء اذينة ؟!

فقال أمين سره : ليعمد الملك الى الفداء

قال : كم هم أسرى العرب ؟

قال : كثيرون يا مولاي وعندنا فالريان والأسير الفتى الذي حمل اليك من فس رسالة اذينة .

قال : أما هذا فنعم وأما أن نطلق فالريان فذلك لا يكون . .

فقال أحد المرازبة : وإن لم يرض اذينة إلاّ باطلاقه ؟!

قال : خير للملك الفرس أن تكون نساؤه جميعهن في يد عدوه من أن يتخلى عن امبراطور الروم . . ألا تعلمون أيها القواد أن هذا الأسير الضعيف الجسم سائر بخطى واسعة إلى الفناء هو الذي شرف الفرس في نظر العالم وجعل سابور ـ الحرب ؟؟ ألا يكفيكم أن الرجل الذي يلبس أعظم تاج ويجلس على أعظم عرش هو أسيركم ؟!

قال : لكن نساء الملك أعظم في نظرنا من هذا الروماني.

قال : لا تحرق البخور على قدمي مولاك أيها المرزبان قلنا لكم إننا نجود بنسائنا ونبخل بفالريان وهذا يكفي فانظروا في أمر الفداء من وجه آخر إذا كان من سبيل اليه .

ثم وضع يده على جبينه وقال : أحضروا الأسير الفتى غير مروع ولا خائف. وإذا كان حراسه قد جلدوه فليحضروا معه . .

فأسرع حاجب الملك لينفذ الأمر . .

فقال سابور : لو لم يكن هذا الفتى قريباً من اذينة لما جعله من قبل رئيساً ـ ومه ولما جعله أمس قائداً لطليعة الجيش . فإذا رضي باطلاقه على أن يطلق نساء ـث . فقد تم الفداء وانتهى الأمر وإلاّ فقد كتب لاشرف النساء نسباً أن يخدمن ـدوي في قصره . وأن يرسفن بقيود العار والذل .

وعاد سابور في ذلك الحين إلى نفسه . فذكر العز والمجد اللذين يكتنفان ـمه ، وكره أن يبقي زوجاته في معسكر العرب وهو قادر على انقاذهن باطلاق ـ ـريان إذا أصر اذينة على هذا . .

فقال في نفسه : إذا أصر اذينة على انقاذ فالريان فلا كان فالريان ولا كانت أمة الرومان . .

ثم أقبل الحاجب بن حمدان وقد خدمه الحظ فلم يجلده الحراس في ذلك الصباح .

ففاجأه سابور بقوله وهو يبتسم :

أذكر لنا أسمك أيها الفتى فقد نسيناه . .

فلم يتردد الفتى في الجواب . فقال :
معن بن حمدان .
قال : ما هي وظيفتك في الجيش العربي ؟
قال : لا أعلم . .
قال : إن الملك لا يريد بك شراً أيها الفتى .
قال : أجل فقد أنزلني الملك في فسطاط تكدست فيه وسائد الخز والديباج . ! ألا تريد لي الشر أيها الملك وقد طوقتني بسلاسل الحديد وقيدت يدي ورجلي كأني من المجرمين!
قال : أترى مولاك ينزل أسيره في قصور تدمر ؟
قال : لا ولكن إذا أنزلته في كوخ من القصب فلا يأمر حراسه بأن يجلدوه ثلاث مرات كل يوم . .
فقال والابتسامة لا تفارق ثغره : ولكن لا نرى في جسمك أثار الجلد .
قال : إذا ذهل الحراس عن جلدي في هذا الصباح فسيذكرون أمر ملكهم بعد قليل ويعمدون إلى السياط فتعمل في جسمي ما تعمله في جسم أسيرك القيصر المنكود الحظ . .
قال : لا تتدخل في شؤون الملك أيها الفتى . . أما أنت فقد أمرنا حراسنا بأن ينقلوك من سجن فالريان . .

فقاطعه قائلاً : إلى سجن آخر لا يزعجني فيه غير قرقعة الحديد . .

قال : بل إلى سجن نجعلك فيه حراً ونجعل حارسك فيه خادماً لك .
قال : وبماذا استحققت هذا منك ؟
قال : لأن الملك يريد أن يعقد معك اتفاقاً . .

فبرقت عينا معن لأنه ذكر في ذلك الحين عادة الفداء .

وكان الفرح يملأ صدره لذلك الفوز الشريف السريع الذي تم لمولاه .

فقال : أيعقد الملك اتفاقه مع أسير مقيد اليدين والرجلين ؟!
قال : نأمر بأن تكسر هذه القيود . . أجلس أيها الأسير .

فحلت قيود معن وجلس بين القواد .
فقال سابور : من تكون أنت يا معن ؟
قال : قائد حرس القنصل .
قال : إن قومك أسروا نساء لنا وغلامين .
فكاد معن يقع على الأرض من شدة فرحه .
فقال : لقد عرفت الآن ماذا يريد الملك .
قال : ماذا ؟
قال : تريد أن تفدي نساءك بمعن بن حمدان .
قال : أصبت وذلك حفظاً لحياتك لأنك في مقتبل العمر . .

فضحك معن وقال : الدهر يفعل العجائب أيها الملك فبينما أنت تأمر حسدي إذ بك تشفق على صباي . . إن ذلك منتهى العجب . . وكذلك يفعل مولاي القنصل أنه إذا أطلق نساءك فلكي يحفظ حياتهن . .

فعرف سابور أن ذلك الفتى من دهاة العرب وأبطالهم كما أن معنا عرف في تلك الساعة مقامه الرفيع فبدأ بالدلال . .

ثم قال الملك : لنعمد الآن إلى الجلاء .
قال : ذلك خير لنا ولك .

قال : إنك مع حراس القنصل تبلغون العشرين .

قال : بل نحن عشرون لم ننقص . .

قال : وعندنا من العرب أكثر من خمسين أسيراً .

قال : نعم وأن الملك يطلقهم جميعاً إذا أطلق القنصل نساءه وولديه .

قال : بل نشرط على مولاك أن يطلق جميع رجال الفرس الذين وقعوا في الأسر .

قال : وفالريان . .

قال: أما هذا فلا شأن لمولاك معه فهو روماني وأسير قديم . . أتضمن قبوله بهذه الشروط.

- : لا أضمن شيئاً فقد يصر القنصل على اطلاق الأمبراطور .

قال : إذا كان هذا فأنت باق ضيفاً على فالريان حتى تأتي ساعتك .

لكن معنا لم يظهر الخوف . فقال : وتبقى نساء الملك الفارسي جواري في قصر القنصل يملأن القرب من الغدير ويحملنها على الأكتاف . .

فاكفهر جبين سابور وقال : لكنك تموت تحت السياط .

قال : وتموت نساؤك وولداك تحت السيوف ثم تجعل أجسامهم على رؤوس الحراب . .

قال : أيسألني مولاك أطلاق أسير ليس من رجاله ؟

قال : قد لا يسألك ذلك أيها الملك ولكني افترض .

قال : نبعث اليه أمين سرنا وكبير المرازبة .

قال : ألا تثق بوفاء العرب ؟

قال : ما معنى هذا ؟

قال : إبعثني مع رسوليك لأقنع القنصل بالعدول عن إنقاذ القيصر .

فقدر سابور أن يغتصب ضحكة طويلة ثم قال : أتحاول أن تخدعنا أيها الفتى ؟

قال : بل أحاول أن اخدمك بارسال نسائك . وبقبول القنصل هذه
ـ ـوضـ التي ذكرت . وأما أنك تظن أنها حيلة للفرار من الأسر فذلك ما لا يخطر
ـ ـ ـن حمدان وما كنت قط كاذباً .
ـ : وما هو غرضك من الذهاب ؟ . .
قال : لقد فهمت الآن أنك أبخل من أن تجود بفالريان .
قال : نعم فالرجل ليس عربياً كما قلت وقد أخذناه أسيراً في حرب لم يكن
ـــ بيها .
قال : وأنت تخشى أن يسألك اذينة إطلاقه من الأسر فترفض سؤاله وتستبد
ـهـ ـ بنساء الملك .
قال : وبعد ذلك ؟
قال : فإذا قابلت مولاي القنصل استطعت إقناعه بترك فالريان كما قلت ثم
ـعت إليك .
قال : ذلك قول لا نحب أن نسمعه فلا تعد اليه .
ثم التفت إلى أمين أسراره وكبير مرازبته وقال :
ـيعد الجنود لكما السفينة واستعدا للرحيل . .
ثم أمر الترجمان بأن يكتب كتاباً إلى اذينة .

وكان معن يعلم أن مولاه يبغض الرومان ولا يريد انقاذ القيصر ولكنه أراد
. ـتـهـر باقناعه ليثبت لسابور أن اذينة البدوي استخف به إلى حد أنه لا يريد
ـ ـ لأمبراطور إلاّ بقوة السيف .

فلما لم يرض سابور بهذا . عمد إلى السكوت وحلق في سماء الأحلام
ـ ـ ـي كهيلة . .
وكان كتاب سابور إلى قنصل تدمر كتاباً مختصراً لكنه رصين اللهجة .

فناوله إلى أمين سره وقال له :

إحذر أن يخسر الفرس شرفهم بالتخلي عن امبراطور الرومان .

ثم قال لمعن : أما أنت فقد جعلناك مع رجال العرب في خيام ثلاث وأنتم غير مقيدين .

قال : وإن لم يرض بالشروط التي كتبت ؟

فنهض قائلاً : عندئذ ننظر في الأمر دون أن نستشيرك أيها العربي . إنصرف الآن .

فلما انصرف معن ، قال سابور لرجاله :

لو كانت قلوبكم مثل قلب هذا الفتى لافتتحتم روما .

- ١٤ -

قال حطان لهيروديس : هذه سرادقات النساء يا مولاي .

والقمر لم يكن قد احتجب بعد .

فقال هيروديس لرجاله : إذا تصدت لكم الجبال فاقتحموها بالسيف . . هذه نساء سابور فاقتلوا من حولهن من الرجال واحذروا أن تصيبوهن بأذى .

ثم همز فرسه وتبعه القوم أمامهم حطان الجني . .

غير أن الساحة كانت خالية وليس في الخيام أحد . .

فمرت غشاوة سوداء أمام عيني هيروديس . .

أما حطان فكان يبتسم وعيناه تنظران إلى القمر يحتجب نوره . .

ثم لوى عنق فرسه إلى جهة الشمال وقال :

اتبعني يا مولاي فأنا أسمع وقع حوافر الخيل . .

قال : تلك خيول المتحاربين يا حطان .

قال : بل هي خيول الهاربين . .

قال هذا وركض جواده لا يلتفت إلى الوراء .

فأومأ هيروديس الى جنوده قائلاً : اتبعوا هذا الشيطان الذي يسمع ما لا نسمعه ويرى ما لا نراه . .

وقد أصاب حطان في عمله ، فإن زوجات الملك كانت على خيل تنهب السهل ووراءهن الحراس وهم لا يجاوزون .

وقد جروا في السهل شوطاً بعيداً حتى أن هيروديس كان يظن أن أفراسه تعجز عن أن تدرك أفراسهم . .

وكان يقول لحطان : بل أكاد أرى هؤلاء النساء تسبح أفراسهن في الهواء .

واشتد العدو وعلت أصوات القوم . فكانت جماعة الفرس تشبه طائفة من الظباء يطاردها الصيادون . .

وقد تعبت الخيل واستغاثت النساء بالحراس . . وحطان في طليعة المتمريين لا يتعب ولا يمل .

حتى أحاطت خيل هيروديس بالهاربين وسدت عليهم منافذ السهل . .

فصاح حطان بالقوم قائلاً : أطرحوا سيوفكم أيها الجنود فانتم أسرى القنصل ملك الصحراء . .

فولولت النساء وأرسلن أصوات الخوف . .

غير أن هيروديس كان قد أوقف فرسه وقال لحطان :

قل للملكات أنهن في أمان .

ثم أمر فقيدت الرجال على ظهور الخيل . واستراحوا في ذلك الموضع منتظرين طلوع الصبح .

وكانت النساء الثلاث أجمل حسان الفرس واحسنهن وجهاً وخلقاً وهن م
بنات الملوك اللواتي نشأن في أحضان العز والدلال .

فكبر عليهن أن يسبيهن الجند العربي ويستبد بهن عدو الفرس الظافر
طاب له الاستبداد .

فأخذن في البكاء وحطان يخاطبهن بالفارسية ويعدهن بالنجاة .

حتى ولت جيوش الظلام وظهر السهل للعيون .

فقال هيروديس : أفراسكم أيها القوم .

فعلت الرجال ظهور الخيل وهيروديس يكاد يحمله الشوق الى ساحة القتا
وهو لا يعلم ماذا جرى للجيشين المتحاربين .

وكان زباي القائد يطوف في السهل كما مر . فوقعت العين على العي
وابتسمت الشفاه .

ثم قال زباي : نساء الملك أيها الأمير .

قال : نعم وهؤلاء حراسهن .

فقال : إذن نجا معن بن حمدان .

قال : وماذا فعلتم بسابور ؟

قال : لقد قذف الفرس بانفسهم إلى السفن فعبروا الفرات قبل أن يبز
الفجر .

قال : أينسحب الفاتح الفارسي انسحاب الذل ؟ !

قال : بل هو الفرار الشائن عمد اليه سابور قبل أن يضمحل جيشه .

قال : وكتيبة الفيالة ؟؟

قال : كان الجيش العربي كالبحر الهائج يفتح فاه للسفينة الهاوية ؛
يطبقه . . لقد جعلنا الفيالة بين أربعة أسوار من صدور الجيش .

قال : ثم فاجأتموهم بالسهام . .

فقاطعه قائلاً : بل بالاسنة فهووا جثثاً ثم عاد البحر ففتح فاه وقذف
بل من جوفه تطعنها الرجال من الوراء فثار ثائرها فمزقت صفوف الفرس .

فأشرق جبين الفتى وقال : إذن نبؤة القنصل كما رواها ما نقصت حرفاً .

قال : نعم وإذا جعلوا للحرب إلهاً فأبوك يا هيروديس اله الحرب . .

ثم أخذا يتحدثان همساً وزباي يقول للأمير :

كلما نظرت إلى حطان ذكرت إني رأيت هذا الوجه من قبل . .

فقال هيروديس : لقد تحيرت في أمري أأدعوه حكيماً أم شيطاناً . . إن
له تكاد تكون أعاجيب .

وحطان وراءهما وهما يظنان أنه أبعد من أن يسمع ما يقولان . .

وإذا به يقول لهيروديس :

خير لك يا مولاي أن تدعوني شيطاناً وينقضي الأمر . .

فالتفت إليه الاثنان وهما يضحكان . . فقال لزباي : وأما أنت أيها القائد
فذكر أني رأيت وجهك من قبل كما تقول . .

قال : ويلك أسمعت كل شيء ؟!

قال : إن الشياطين تكمن في أثواب الناس . .

وارتفعت أصوات الثلاثة في الضحك . .

وكانوا يسيرون مسرعين وهم يسمعون أصوات الملكات الباكيات . .

حتى قاربوا الجيش فتزاحم الجنود أمام قبة القنصل ينقلون اليه بشرى
ع هيروديس مع نساء الملك .

فوقف في باب القبة ينتظر وصول ولده حتى أقبل فضمه إلى صدره ثم دخل
لت القواد بينهم معني .

وجلس القوم حول القنصل يسمعون حكاية الفتى الشجاع إلاّ حطان فقد ظل واقفاً . .

فقال له اذينة : لقد أمرناك فاجلس يا حطان .

قال : بل قل يا شيطان . .

قال : لماذا ؟

- : لأن مولاي هيروديس أراد ان يشرفني بهذا الأسم .

قال : ألا ترى أنه خير الاسماء . .

- : بلى يا مولاي كما رأيت الأمير هيروديس نابغة في الاختراع . ولكن . .

- : ولكن ماذا ؟

- : إني أتكلم الآن عن القائد زباي يا مولاي

فقال اذينة : ماذا تقول عنه أيها اللعين ؟

قال : أقول أنه كان يفقد ذاكرته أيها القنصل .

فضحك زباي وهيروديس . أما القنصل فلم يستحسن هذا المزاح . فقال :

أتبلغ بك الوقاحة يا حطان إلى حد أن تذكر زباي بكلام السوء ؟ !

قال : لا تغضب يا مولاي فأنا قادر على إثبات ما أقول . . إن مولاي القائد يظن أنه رأى وجهي قبل اليوم وهو لا يعرف متى كان ذلك . فقل لي يا مولاي ، أيستطيع هو أم سواه أن يبصر وجه الشيطان ثم ينساه ؟

قال : ليست القضية إذا قضية جد . .

قال : بلى يا مولاي وفي الحياة مواقف يفقد فيها المرء ذاكرته بل ينسى نفسه . . ألم تنس رسلك الذين بعثت بهم إلى أنطاكية أيها القنصل ؟ .

قال : وكيف نسيناهم أيها اللعين وأنت أحدهم ؟!

فابتسم حطان ابتسامته الغريبة وقال: أذكر يا مولاي أنك أرسلت ثلاثة رجال فرجع اثنان . . .

فالتفت أذينة الى رجاله وقال لهم :

أصحيح ما يقول هذا اللعين .

فأجابه حطان قائلاً : إن إبليس لا يعرف الكذب يا مولاي فاسمع أقص عليك ما جرى .

لقد تركنا تدمر ونحن ثلاثة والقائد زباي نفسه هو الذي اختارنا من بين الجنود وبعثنا إليك لترسلنا في أثر سابور . . أليس كذلك ؟

فأطرق زباي قليلاً ثم قال : بلى كنتم ثلاثة .

قال : وكنا في أنطاكية ثلاثة . غير أن أحدنا وهو أرمني الأصل كاد يخون القنصل ويفشي سره لسابور لو لم أقتله في ليلة مظلمة وأدفنه تحت الرمال في حفرة عميقة يرقد فيها إلى الآن .

فنظر القوم بعضهم إلى البعض الآخر وهم يصغون إليه .

ثم قال : وقد رجعنا اثنين لا ثالث لنا يا مولاي مع ذلك فلم يسألنا القنصل بل لم يسألنا أحد عن ذلك الرفيق الثالث النائم هناك على شاطىء البحر . . أليس في الحياة مواقف يفقد فيها المرء ذاكرته يا مولاي ؟ . .

فقال هيروديس : لقد أصاب الرجل فلم يسأله أحد منا عن ذلك الرسول الذي لم يرجع . .

قال اذينة : وما هو غرضك من هذا يا حطان ؟

قال : إذا جاز للمرء أن يفقد ذاكرته فمولاي زباي لم ير وجهي من قبل .

فرماه اذينة بوسادة كانت بين يديه وقال له : لقد أخطأ هيروديس إذ دعاك شيطاناً فأنت زعيم الشياطين إجلس الآن . . فجلس في وسط القبة .

فقال القنصل : لقد سبينا نساء سابور يا حطان فكيف نبدأ إذن في قضية الفداء .

قال : القائد الظافر لا يكون البادىء في هذا . .

قال : وإذا لم يبدأ به سابور ؟

قال : أتظن يا مولاي أن الملك الفارسي يترك نساءه بين يديك ؟
قال : قد تمنعه كبرياؤه من أن يخاطب اذينة في هذا الأمر .
قال : لقد انقضى الآن دور الكبرياء وجاء دور الندم إن سابور يهب الآن نصف ملكه . لمن يجعل اذينة ملك الصحراء حليفاً له . .
قال : نخشى كثيراً أن تفقد ذاكرتك في هذا يا حطان
قال : ليس في الأمر ذاكرة بل حكمة وأنا الضامن يا مولاي . .
قال : الويل لك إذا ترك سابور الشاطىء ولم يهتم لنسائه . . إننا نضطر عندئذ إلى صنع السفن وللحاق به إلى عاصمة الفرس .

فانبرى معني قائلاً : وما الذي يدعوك إلى مثل هذا يا مولاي .
قال : لأن القنصل لا يترك قائد حراسه أسيراً في معسكر الأعجام ، فإن لم ننقذ الحمداني بطريق الفداء أنقذناه بحد السيف .
قال : أيستحق هذا الحمصي أن يطوح القنصل جيشه في مغاور الفرس لينقذه من الأسر ؟ !!

فبان الغضب في وجه اذينة وقال :

بل يستحق أن يسفك القنصل دمه ودماء رجاله ليعيده إلى تدمر . . احترم نفسك يا معني ولا تعد إلى مثل هذا .

ثم قال لرجاله : لقد أصبح أبن أخينا أكثر اهتماماً منا لأمر الجيش الذي نقوده .

فهم بالجواب فاسكته هيروديس قائلاً : إن لم نفعل هذا في سبيل أبن حمدان فعلناه في سبيل التدمريين الكثيرين الذين يعانون العذاب والذل في سجون الفرس . .

فقال أحد الجلساء في نفسه : ضح بجيشك يا اذينة وانقذ فتاك أبن حمدان فإن لم يقتل اليوم قتل غداً . .

وكان ذلك الرجل اسكندر الروماني !!

وساد السكوت قليلاً والقنصل يفكر . .

ثم رفع رأسه وقال لحطان : أين ملكات الفرس ؟
قال : وراء قبة القنصل .
قال : علينا بهن وباثنين من كبار حراسهن .

فخرج حطان واقبلت صفوف الجيش تنظر إلى الملكات اللواتي تملأ عيونهن الدموع . .

فلما مثلن بين يدي القنصل ؛ أحاطهن القوم . بنطاق من النظرات . واستولى الصمت بجلال وروعة على جميع قواد اذينة رجال الشدة وأبطال الحروب . .

وأخذ القنصل يتفرس فيهن وفي الحارسين . وشعاع الرصانة مطل من عينيه الصغيرتين .
ثم قال : يا حطان . لقد جعلناك ترجماناً .
فقال : وقد أحسنت الأختيار يا مولاي .
قال : أية ملكة تنزل عن كبريائها وتخاطب القنصل العربي . . ؟

فأعاد حطان كلام القنصل بالفارسية .

فأجابته إحداهن وهي تغص في البكاء قائلة :

لقد كنا ملكات الفرس أما الآن فنحن جواري القائد الظافر .
فقال اذينة : إنهن ملكات في الأدب على ما نرى .

وأومأ اليهن بالجلوس ثم قال :
أين الغلامان ولدا سابور ؟

فبكت تلك التي كانت تتكلم وقالت :

هناك في خيمة من الصوف . .

فهز ذينة رأسه وقال : وهذه القبة التي تضرب للقنصل هي يا سيدتي الملكة من الصوف . . نحن الآن في صحراء لا قصور فيها ولا عروش . فقولي لنا الآن كيف رأى سابور حرب العرب العراة الأبدان ؟

قالت : تركنا المعسكر ولم نره والحرب سجال أيها القائد .

قال : إن الأمر لكما تقولين لكن سابور لا يعترف بهذا كم يبلغ عدد زوجاته ؟

فعرف القوم أن من وراء هذا السؤال الغريب غرضاً للقنصل . ولعله أراد أن يعرف إذا كان سابور يملك من الزوجات ما يغنيه عن الاهتمام للسبايا الثلاث .

فقالت الملكة : النساء يملأن قصوره أيها القائد

قال : وأنتن أعز عليه من الجميع .

قالت : قد يكون ذلك ونحن اللواتي نرافقه في حروبه

ـ : إذن سيبذل سابور ما يبذل في سبيل الفداء

فقالت : أتقبل الفداء أيها القائد ؟

قال : نعطي على قدر ما نأخذ أيتها الملكة .

فدب اليأس في الصدور وانحدرت الدموع .

فقال : ما فهمنا معنى هذا البكاء الآن .

قالت : وما الذي تريد أن يعطيكه الملك لتطلقنا ؟!

قال : يعطينا فالريان فنعطيه زوجاته وولديه ، ثم يعطينا قائد حراسنا ومن يتبعه من التدمريين فنعطيه رجال الفرس المقيدين في السجون . .

قالت : وإذا أطلق جميع رجالك ولم يطلق القيصر؟

قال : نطلق له جميع رجاله ولا نطلق الملكات . .

قالت : إسمح لنا نرسل إليه رجلاً يأتينا بأخباره . .

فابتسم قائلاً : إذا أحب سابور نساءه فليبدأ هو بالكتابة الينا لأننا سادة الموقف الآن .

لكن اذينة كان يخشى ان يجيبه سابور الى طلبه ويخلي سبيل الأمبراطور . .

وهو لا يريد ذلك ولا يرغب فيه الآن . . ومع ذلك فقد تظاهر بتلك الرغبة ليخدر أعصاب الرومان بالظواهر والمواعيد .

ثم قال للملكة : إن سابور يدعونا صيادي الظباء في الصحراء . غير أن هؤلاء الصيادين يريدون أن يثبتوا له أنهم أرفع مقاماً وأكرم خلقاً من الملوك . أتعلمين يا سيدتي ماذا أعد لكن صياد الظباء ؟ . .

فتلجلج صوتها وهي تقول : لا . .

قال : لقد أعددنا لنساء سابور قصراً يشبه قصر زوجتنا زينب . وسنملأه جواري وخصيانا على عادة الفرس في قصورهم . ونحيطه بطائفة من الحرس القنصلي تأتمرهن وتسعى أمامهن في الرواح والمجيء . في أسواق تدمر وهياكلها ليعلم سابور المتكبر أن اذينة البدوي يرعى حرمة الملوك فلا يعذب أسراه بالجلد والنار كما يفعل هو بقيصر الروم . .

قالت : أتأخذنا إلى تدمر أيها القنصل ؟

قال : أجل . إذا لم يطلق زوجك قيصر الرومان

فاستولى الذعر على قلوب الملكات ولجأن على عادتهن إلى البكاء .

فقال أحد الحارسين : ألا يطيب لك أيها الأمير أن تحتفظ بنا وتطلق نساء الملك .

فأومأ إليه بالسكوت قائلاً : لم يجيء دورك بعد . .

* * *

وأقبل الحجاب يقولون :

إثنان من رجال الفرس على الشاطىء يحملان راية بيضاء .

فأشرقت وجوه الملكات .

أما حطان فقال : هما رسولاً سابور ينقلان شروطه إلى مولانا القنصل .

فقال اذينة : نحن نملي على سابور هذه الشروط يا لعين .

ثم قال لحجابه : لا تمنعوهم من الوصول إلى هذه القبة . .

وما هي غير ساعة حتى عرفت الملكات أمين سر الملك وكبير مرازبته . .

فسلما ومد أحدهما يده بالكتاب .

فتناوله حطان وهم بأن يسلمه إلى أذينة .

فقال له : اقرأه يا حطان .

فقرأ : من سابور بن أردشير ملك الملوك إلى أذينة بن الصميدع أمير تدمر .

« يحمل إليك رسالتنا أمين سر الملك وكبير مرازبته فإذا أردت أن نتبادل الرأي في أمر فداء الأسرى فهما مفوضان» .

ففاجأهما أذينة بقوله : ما الذي يريده ملك الملوك ؟ .

ففهم الرجلان أن القنصل بدأ يظهر الاستخفاف . فقال المرزبان : لقد أمرنا الملك بأن تكون أنت البادىء .

قال : أيعترف ملك الملوك أن صياد الظباء ظفر به . ؟

فقال : لو لم يكن معترفاً بهذا لما أرسلنا إليك .

قال : نبدأ إذن بطلب فالريان .

قال : أطلب ما تشاء غير ذلك أيها الأمير .

قال : إذا كان هذا فالملك قد أملى عليكما شروطه فما هي هذه الشروط

قال : يبذل الملك لك نصف ملكه ولا يطلق فالريان .

قال : أيظن سابور أننا نسأله مالاً ليتم الفداء

قال : لا بل يقوم في ذهنه أن فالريان ليس عربياً وأن أمير تدمر الظافر يسأله إلاّ أن يطلق له قومه العرب .

قال : وإذا أصر هذا الظافر على إطلاق القيصر ؟ .

قال : لا أحسبه يصر على إنقاذ رجل ليس من قومه أن العدل يسود بلاد العرب فليكن أمير تدمر عادلاً في طلبه .

ـ : إذن فسابور لا يتخلى عن الأمبراطور .

ـ : هذا ما أمرنا أن نقوله لك .

قال : إذا كان هذا فنحن لا نتخلى عن زوجاته فلننظر في الأمر من وجه آخر .

قال : لا سبيل إلى ذلك أيها الأمير فإن لم تطلق الملكات فالملك لا يبحث في الفداء . .

قال : لا يبق إذن إلاّ أن ترجعا إلى الشاطىء الآخر . أعطهما يا هيروديس عشر بدر من الذهب ولينصرفا . .

قال : ألا ترحم شباب فتى تغطيه سلاسل الحديد ؟

فتظاهر أذينة بالذهول وقال : من هو هذا ؟

قال : قائد حرسك أيها الأمير .

قال : ليبق في الأسر ولتهذبه التجاريب .

قال : لقد أقسم الملك أنه سيربطه في ذنب الفيل إذا فشلنا في المهمة .

فاهتز جسم أذينة وقال : أيفعلها الفارسي ؟

قال : نعم لو قتلت زوجاته وولديه .

قال : إذا كان لا بد من هذا فقد أمرنا بقتلهم الآن . سيفك يا حطان . .

فترجم حطان قوله وجرد السيف .

وإذا بالملكات اللواتي يرفلن بالديباج ويبرق في معاصمهن وأعناقهن الذهب واللؤلؤ انطرحن جميعاً على قدمي أذينة يستحلفنه بشرفه والهته أن يرحم ضعفهن .

وقد تم الأمر كما أراد القنصل ، وكما أراد أن يفعل معن لو أذن له سابور في المجيء إلى مولاه .

أي أن الفرس استعطفوه ليغض طرفه عن إطلاق فالريان .

وفي تلك الساعة كثر المستعطفون . .

فإن أمين سر سابور جثا على ركبتيه وقال :

أيها الأمير العربي إن ملكات الفرس ينتظرن رحمة العرب .

وإذا بهيروديس يقول : التمس من أبي أن ينقذ أبن حمدان . .

ثم قال زبدا : إن لم يكن في أسر سابور غير معن فمروءة أذينة تقضي بأن يفديه بكل من عنده من أبناء الفرس . .

وقال زباي : أسألك باسم زينب أن تستجيب طلب سابور .

وكان حطان أبلغ المستعطفين إذ قال :

يا مولاي القنصل : أتنفذ هيكلاً من عظام ؟ ! ! !

فتظاهر أذينة بالأصغاء إليه وقال :

أتعني الأمبراطور ؟

- : نعم يا مولاي فبين الأمبراطور وبين القبر خطوه واحدة . . أرأيت قصبة ضعيفة الساق يسترها الجلد جعده المطر والرياح الهوج ؟ . . هذا هو فالريان .

قال : هب أنه جثة فلا بد من انقاذه ثم نحمله إلى تدمر فندفنه في هيكل بعل .

قال : متى كان أذينة بن الصميدع حفاراً للقبور ؟ ! !

فقال معني : إنه لعار على العرب أن ينقذ القنصل أبناء قومه ويترك قيصر الروم .

فأجابه هيروديس قائلاً : إن الأصرار على إنقاذه يقتل معنا .

وهذا ما أراده الأمير الثائر . فقال :

خير للعرب أن يقتل أحدهم من أن يغضبوا روما .

فقال القنصل : لا تخوفنا بروما يا معني فالقضية قضية نبالة لا قضية
حـب . . ما رأي قواد الرومان في هذا ؟

فقال قائد بعلبك ـ وهو وحده بين قواد الرومان لا يبغض أذينة ـ :

إذا أنقذت الأمبراطور أيها القنصل فقد ملكت قلوب الرومانيين . .
قال : نسمع رأي قائد الحامية في تدمر .
فقال ذلك القائد : لا رأي لي في هذا فالقنصل وحده صاحب السلطان .

فعرف قواد تدمر أن الحسد يملأ صدر ذلك الروماني .

أما أذينة فقال : نعمل برأينا لا نستشير أحداً .

لكنه قبل أن يتم حديثه قال حطان :
بل تعمل برأيي يا مولاي .
قال : لقد أتحفتنا بهذا الرأي منذ ساعة .
قال : بل هو رأي جديد خطر لي الآن .
قال : ما هو ؟
قال : ألم يقل لك هذان الفارسيان إن القنصل إذا لج في طلب فالريان
سابور الى الانتقام فقتل أسراه ؟
قال : بلى .
قال : إذن فأنت تريد قتل القيصر لا إنقاذه .
قال : يقوم في ذهننا أن هذا القول مظهر من مظاهر التهديد .
قال : أما أنا فأعرف سابور أكثر مما يعرفه القنصل فإذا لم تعدل عن إطلاق
ـ ضور فكأنك سلحت يد سابور بخنجر ذي حدين يطعن به أولاً صدر
ـ ـ ثم ينثني إلى معن فيغمده في قلبه .

فأطرق أذينة متظاهراً بالتفكير ثم قال :

وماذا نفعل لأجل ذلك القيصر المسكين ؟

قال : إذا لم يستطع أذينة إنقاذ القيصر بالحسنى عمد إلى الأكراه . .
قال : وكيف ذلك ؟
قال : أنقذ رجال العرب الآن وأترك فالريان ثم سعرها حرباً أخرى تظفر فيها بالفرس وتنقذ القيصر إذا بقي حياً . . أتعجز عن هذا يا مولاي ؟
قال : ما كنا لنرجع عن سابور ونحن قادرون على حمل السيف .
قال : لقد اتفقنا إذن يا مولاي .

ثم رفع نظره إلى العلاء . ومد يده اليمنى إلى الأمام وهو يقول : تخيل إلي أني أسمع صوتاً منحدراً من السماء . .

قالها وهو هادىء . . وقد ارتسم الجلال على جبينه وأشرق من وجهه نور قوة دهش له القوم . .

فقال له القنصل : ما هو الصوت الذي سمعت يا حطان ؟

فأجابه قائلاً وهو لا ينظر إليه : صوت يحمله الهواء من تدمر يا مولاي .

قال : ومن هو صاحبه أيها النبي ؟
قال : كهيلة بنت زبدا التي تذرف الدموع . .
فنهض زبدا عن وسادته وأخذ يحدق الى حطان .
فقال أذينة : ماذا تريد بنت زبدا ولماذا تبكي ؟ !
قال : إنها تستغيث بالقنصل لينقذ حبيبها أبن حمدان وهي تبكي خوفاً عليه من سابور الفارسي .
قال : وكيف عرفت أيها النبي أن حبيبها أسير في معسكر الفرس ؟ !
قال : نقل إليها الخبر رسول من فوق . .
قال : ما أسم هذا الرسول ؟
قال : لا أسم له يا مولاي لكنه مشرق الوجه بل هو أشد أشراقاً من الشمس وله جناحان .
قال : لعله طير من الطيور التي تحوم فوق الفرات . .

قال : بل هو أعظم من ذلك يا مولاي . إنه ملاك الحب الباسط جناحيه فوق المحبين . .

فتناول أذينة سوطاً كان بيد معني ورمى به الرجل قائلاً :

قل لصاحبة الصوت أيها اللعين إننا أنقذنا معنا . .

ثم التفت الى قواد الرومان وقال : لقد شاءت الأقدار أن يبقى القيصر الذي حاربنا لأجله مكبلاً بقيود سابور.

وقال للفارسيين : إنصرفا وقولا لسابور أن يرسل الينا من عنده من أبناء العرب نرسل إليه من عندنا من أبناء قومه . وليهيء أفياله لحرب أخرى ننقذ فيها فالريان . .

* * *

وتهادت السفينة في الفرات تحمل الرسولين

أما الملكات فقد نقلوهن الى خيمة الصوف التي أعدوها لهن . .

وكان سابور يتمشى وراء فسطاطه وهو كالنمر الهائج لا يعلم أيسبي اذينة نساءه إلى الأبد أم يعيدهن اليه .

وقد ازمع أخيراً أن يجود بفالريان إذا لم يرض أذينة إلاّ به .

ذلك خير من أن يعيره العالم فيقول :

إن نساء سابور الذي دوخ الشرق يخدمن في قصور أذينة البدوي !-! . .

فلما أبصر السفينة دخل فسطاطه وقلبه يخفق وركبتاه ترتجفان . .

إن ذلك الجبار الشرقي لم يكن يطيق التصور أن عربياً قذراً يأكل لحم النوق يستطيع أن يقهره ويذله في مثل تلك السرعة العجيبة التي كانت في نظره حلماً من الأحلام . .

وأقبل أمين الأسرار والمرزبان . فقال :

أرضي العربي بالفداء ؟

فاجابه المرزبان قائلاً : نعم يا مولاي وكما أراد الملك .

فانفجرت شفتاه عن ابتسامة الفرح ثم قال : أيعيد نساءنا وولدينا ولا نعيد إليه فالريان ؟

قال : نعم ففالريان لم تكتب له الحياة .

قال : أرأيتما الملكات والصغيرين ؟

قال : أما الملكات فقد رأيناهما في قبة أذينة ينطرحن على قدميه . . أما الأميران فلم يأذن لنا في أن نراهما .

فكشر عن أسنانه قائلاً : نساء سابور ينطرحن على قدمي البدوي ؟ !

قال : نعم وكبير مرازبة الفرس يجثو على ركبتيه يستعطفه . .

قال : على من تسعطفونه ؟

- : على الملكات يا مولاي وقد أمر بقتلهن . . وأخذ يقص على مولاه ما جرى في قبة القنصل .

فهز سابور رأسه وقال : لقد خدعكما الرجل بمظاهره الكاذبة .

قال : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : إنه لم يكن يريد أن يقتل النساء لكنه عرف كيف يذلهن .

قال : ولا ينقذ فالريان إلاّ بقوة سيفه .

قال : أيخطر ببال الرجل أن يحاربنا بعد ؟

قال : أجل وهذا كلامه نقلناه اليك .

قال : كان ظفره بنا نتيجة استخفافنا به . فلا بأس وسننظر في أمره بعد حين .

ثم قال : قولا للحراس أن يطلقوا الأسرى وليلبسوا كلا منهم ثوبه الذي كان له . . واحضروا قائد الحرس .

ففعل الرجلان ما أمرهما به الملك ودخل معن الفسطاط .

فقال : لقد أطلقناك أيها الفتى وأطلقنا قومك . فقل لمولاك أن يجمع جموعه من جديد .

فأجابه قائلاً : لا نحتاج إلى هذا أيها الملك . فالسيوف مشحوذة والرماح مشرعة . والرجال على ظهور الخيل .

قال : وليس أمامك إلاّ البراز . ! !

قال : نعم . لقد حاربناك اليوم على شاطىء الفرات أما غداً فموعدنا عاصمة ملكك !!

فارتجفت شفتا سابور من الغضب وقال :

ألا تخاف الملك أيها الفتى ؟

فقال : العربي الذي لا يخاف الموت لا يخاف أحداً . لقد كان عليك أيها الملك أن تهين مولاي وأنت في ساحة القتال وليس في الفسطاط .

قال : إن نساءنا اللواتي جعلهن القدر تحت رحمة مولاك هن السبب في حفظ حياتك الآن . . أخرج إلى لعنة النار .

فخرج معن وهو يشكر الالهة على نجاته من يد هذا الظالم . فرأى رفاقه لحراس والأسرى العرب أمام فسطاط الملك تحيط بهم الجنود .

فرفع صوته قائلاً : يعيش أذينة أيها العرب .

فرددوا دعاءه بصوت واحد اهتزت له أعصاب سابور . وكانت صفوف الفرس تنظر اليهم وهم ذاهبون إلى الشاطىء والعيون تقدح شرر الضغينة والحقد حتى وصلوا إلى السفينة فتقدمهم إليها كبير المرازبة وأمين السر وهما مترددان .

فقال لهما معن : أراكما مترددين أيها الأميران .

فقال احدهما : نخشى أن يغدر بنا صاحبك فلا يطلق قومنا .

فاحمرت عينا الحمداني وقال : شيمة العرب الوفاء وأنتم الغادرون . أما

والـذي أجـرى الفـرات لا نغـادر السفينـة حتـى تضعـوا أيديكم في أيدي أصحابكم . . ثم أرسل نظرة إلى الشاطىء الآخر وقال :

لقد كان أذينة أسبق إلى اطلاق أسراه . أنظروا نساءكم ورجالكم تحرسهم الحراب . .

وكان الشاطـىء الآخـر يمـوج بالنـاس . وقـد أقبلـت القـواد والرؤسـاء يستقبلون معنا ورفاق معن يتقدمهم حطان .

فلما قاربوا الضفة الثانية علت أصوات الهتاف وقام حطان يلقي خطابه . .

وقبل أن يقفز معن إلى البر قال لزبدا :

لقد أقسمت لهؤلاء أني لا أترك السفينة حتى يترك أصحابهم معسكر العرب .

قال : أيتهموننا بالغدر ؟

قـال : لا بأس فإذا أطلقنـا الملكات اليوم فلأننـا ارفع من أن نحتفـظ بالنساء .

ولكن سيأتي يوم يجر فيه سابور نفسه سلاسل الحديد . .

ثم قال للحراس ساعدوا النسـاء والرجـال فقـد كانـوا أسرى وأصبحـوا ضيوفاً .

وهكذا خلا الشاطىء من أبناء الفرس .

فصافح معن كبير المرازبة وقال له : أحمل شكر العرب لسابـور على تلك العناية التي احاطنا بها ونحن في ضيافته ، ولعلنا نستطيع أن نظهر احترامنا له يوم يصبح ضيفاً علينا . .

ثم قفز إلى البر وتبعه التدمريون ، فعانقه القواد ورؤساء العشائر ومشوا جميعاً يريدون قبة أذينة .

ويظهر أن المتامرين خرجوا من وراء الستار فكانوا أرفع من أن يستقبلوا معنا مع جماعة المستقبلين . .

حتى أن معني كان يقول لمن حوله : لو رأى الغريب قواد الجيش يستقبلون هذا الحمصي لحسب أنه أحد أبطال الحرب الذين شرفوا قومهم !!

وجاراه في هذا القول اسكندر الروماني وأخذ يطعن بالقول على الفتى والناس يستمعون

أما معن فلم يلفت غياب معني ورفاقه لأنه كان قد انتقل بالروح إلى تدمر يخاطب حبيبته التي ودعته بالدموع وقد برح به الغرام .

وقد هاجت في صدره ـ في تلك الساعة ـ عاطفة أخرى لا تقل عن عاطفة شوقه إلى كهيلة هو أنه أمسى مدينا بحياته لأذينة فلا بد له من أن يقوم بوفاء هذا الدين

* * *

كانت ساعة اللقاء ساعة سرور وبهجة في تاريخ اذينة بذل فيها الذهب لصعاليك العرب الذين يرافقون الجيش ، وأمر القواد بأن يأذنوا للجنود في ترك صفوفهم ، والأنتشار في الفرات . .

ولكن . . بينما كانت مظاهر التكريم تقام في قبة القنصل لقائد الحرس الحمداني ، كانت مظاهر الاستخفاف والسخرية تقام أمام القبة لذلك القائد نفسه وقد رفع اسكندر صوته قائلاً :

أضفروا أكليلاً من الغار واجعلوه على رأس الحمداني ليدخل تدمر تحت أقواس النصر . .

ولم تكن كلمته هذه استهزاء بأبن حمدان فحسب ، بل بأذينة نفسه الذي أراد أن يكرم قائد حرسه !!

فتناقلت أفواه الجنود والقواد قوله حتى بلغ أذينة وقد أذن في الشراب .

فقال لزبدا : لقد اجترأ علينا هذا الروماني وما كنا لنصبر عليه بعد الآن ناده يا غلام .

فعرف الناس عندئذ أن صدر القنصل الذي أوغروه بمظاهر الاستخفاف من حين إلى حين . سينفجر كما ينفجر البركان ويقذف النار .

ولم يستول الاستغراب على الروماني عندما دعوه إلى المثول بين يدي القنصل .

غير أن أباه الذي يتظاهر بالهدوء واللين ، أحمرت عيناه ولمع فيهما بريق الضغينة والحقد .

وقد ارتسمت دلائل الكآبة على وجهه وسأل القنصل أن يغفر للمستخفين به . .

أما القنصل فلم يستجب طلبه بل أومأ إليه بالسكوت .

ولم يدخل الروماني وحده . بل تبعه معني واسماعيل وزنباع وبعض رجالهم حتى غصت القبة بهم وأذينة لا يمنع أحداً من الدخول .

وكانت الخوذة على رأس الروماني ويده اليسرى على قبضة السيف وهو يبتسم . كأنه أراد أن يتوغل في الاستخفاف . .

فقال أذينة وصوته يرتجف من الغضب :

من هو رئيسك في هذا الجيش أيها الفتى ؟
فقال دون تردد: أبي الذي يقود الحامية . .
قال : ومن هو رئيس أبيك ؟
قال : نائب القيصر في بيروت .
قال : لا نسألك عن هذا بل نأمرك بأن تذكر لنا أسم القائد الأكبر لهذا الجيش .

قال : أنت أيها القنصل .
قال : وكيف خطر لك أن تهزأ بقائد الحرس والقائد الأكبر يأمرك باحترامه ؟ !
قال : لأني لا أريد أن أخدع نفسي . .

قال : أوضح لنا ما تقول .
قال : رأيت هذا الحمصي لا يستحق الاحترام فلم احترمه .
قال : وتعترف بهذا ايها الروماني ؟ ! !
قال : أجل فأشراف هذا الجيش أرفع من أن يكرموا رجلاً استسلم إلى الفرس ولم يشهر سيفاً . ! !
قال : إذن فالقنصل كان مخطئاً فيما فعل .
قال : لك أن تقول ما تشاء أيها القنصل أما أنا فلا أعترف بقائد حرس كان حبس مقيداً في سجون الفرس .

فعض القنصل شفته كي لا ينفجر . . ثم قال :

ماذا أقترحت على الجيش ؟
قال : أن يضفروا له إكليلاً من الغار فيدخل تدمر كما دخلها الفاتحون الرومان من قبل .
قال : لقد أصبت في اقتراحك وجاء دورنا الآن في الأقتراح . . أتعلم بماذا نأمرك ؟
قال : لا .
قال : بأن تضفر أنت بيدك هذا الأكليل وتجعله على رأس معن على مرأى من صفوف العرب والرومان . .

فضحك الشقي ضحكة هاج لها غضب أذينة وقال : لو أمرني القيصر نفسه بأن أفعل هذا لهزأت بأمره .

وأنت ترى أن مثل هذا التمرد من الجندي يخرج القائد عن حده . .

فنظر أذينة إلى هيروديس وقال له : نأمرك بأن تجرد هذا الغر من ثوبه

فنهض هيروديس لينفذ أمر أبيه . .

فتصدى له قائد الحامية قائلاً :

انتزع ولدي من الجيش أيها القنصل ؟

قال : بل انتزع كل من ينتصر له ولو كان قائد الحامية .

فذكر الروماني عندئذ أنه السيد المطاع في بلاد العرب . فقال : الا ترعى حرمة الرومان ؟

قال : لا نعاقب الرومان الآن بل نعاقب جندياً تمرد على القائد . . أفعل ما أمرناك به يا هيروديس .

فقال الفتى : سلم سيفك .

وعندئذ تدخل قائد بعلبك فقال : أسألك أيها القنصل أن تصفح عنه .

فأجابه قائلاً : ما نحب أن نرفض طلبك فأنت من أفضل قواد الرومان ولكن صاحبك تمادى في قحته حتى ليحسب نفسه أنه سيد الجيش .

قال : ومثلك من يعفو عنه حفظاً لمنزلة أبيه .

قال : إنه لا يستحق العفو وأما أبوه فسنخاطب نائب القيصر في شأنه . . خذوا سيفه وإن أبى فاضربوه بالسياط .

فهم معني يأن يراجع عمه لو لم يهمس اسماعيل في أذنه قائلاً :

ألا تقرأ الغضب في عيني أذينة ؟ إنك إذن تقذف بنفسك إلى النار .

وقبل أن يلقي الروماني بسيفه . رأى الناس معن بن حمدان جاثياً على ركبتيه أمام مولاه وهو يقول :

استحلفك برأس مولاتي زينب أن تتجاوز عن ذنبه .

فالتفت أذينة إلى قائد بعلبك وقال :

أتضمنه أيها القائد ؟

فسكت المسكين لأنه كان يعلم طيش ذلك العاشق المغرور .

فقال للقوم : من يضمنه منكم أيها الناس ؟

فلم يسمع جواباً .

قال : تسألوننا الرحمة وتهربون من الضمان ؟
فنهض معن وقال : لقد ضمنته يا مولاي .
قال : أنت .
فأجابه ذلك النبيل قائلاً : نعم يا مولاي وأنا مسؤول عن ذنبه .

فاستولت الدهشة على الأمراء والقواد . .

ثم قال أذينة : أتدري ماذا تفعل يا معن ؟!
قال : أفعل ما يفعله العربي الكريم مع عدوه .
قال : إنه عدو غير شريف . .
قال : أنا لا أريد أن يعترف بجميلي ولكن لا أحب أن يعاقبه القنصل على ما هو فوق طاقته .
قال : ما الذي تعنيه ؟
قال : أعني أنه لا يستطيع أن يحبني والذي لا يحب لا يستطيع أن يحترم ...
قال : كفى فقد رضينا بضمانك .

لكن اسكندر نفسه لم يرض . فقال لأبيه : خير لي أن أموت من أن يذلني هذا الحمصي .

ومعنى ذلك أن حياته في الجيش ـ وابن حمدان حي ـ هي حياة شقاء وذل .

غير أن معني لم يحسن تفسير هذا القول فقال لعمه :

أنا أضمن الرجل يا مولاي .

فقال : أما أنت فاضمن نفسك فقد انتهى الأمر الآن .

ثم أشار إلى القوم بالانصراف .

فخرج قائد الحامية وولده وهما يلعنان ويشتمان . أما معني فلم يكن يبصر طريقه عندما خرج من قبة أذينة .

أجل . إن القنصل أراد في تلك الساعة أن يظهر للناس رضاء عن قائد حرسه .

لكنه عقد نيته على أبعاد قائد الحامية وولده عن تدمر برسالة يكتبهـا إلى نائب القيصر وينقضي كل شيء .

وهو لو أطلق العنان لغضبه لأمر بقتل الأثنين . كي لا يقال أن في تدمـر واحداً يتصدى لأذينة في شأن من الشؤون .

على أن القضاء كان أطول باعاً من أذينة وأنفذ قولا .

فإن قائد الحرس ما كاد يخرج من القبة ، في مساء ذلك اليوم . حتى خرج من وراء إحدى الخيام رجل بلباس الرومان ، تستر وجهه قطعة قماش سوداء ، وبيده حربة قصيرة هم بأن يطعن بها معنا من الوراء . .

لو لم يدو بين الخيام صوت رجل آخر يقـول للفتـى : وراءك يا قائـد الحرس . .

فوضع معن يده على سيفه ومشى خطوتين إلى الأمام ثم التفت فرأى حربة القاتل تكاد تلامس وجهه . وهاله بريق تينك العينين من وراء ذلك الحجـاب الشفاف .

وقبل أن يلفظ كلمة أهوى له الروماني بالحربة يريد أن يضعها في القلب .

غير أن معنا كان أسبق بالضرب فقد طارت حربة القاتل وقام مقامها سيف ذو حدين واشتبك السيفان .

ولو أرسلت نظرك إلى وراء خيمة هناك لرأيت عيوناً تقدح شرراً تنظر إلى الأثنين .

تلك عيون الغادرين معني ورفاقه ، وعلى رأسهم قائد الحـامية نفسـه . الذي ترك قبة القنصل وصدره يغلي بنار البغض والأنتقام .

على أن عينين آخريين كانتا تريان ذلك المشهد ، هما عينا حطان الذي منع صوته حربة اسكندر من أن تخترق ظهر سيده قائد الحرس .

وكان اسكندر هائجاً في قتاله وأبن حمدان يضرب ضرب المطمئن .

وقد خلت الساحة من الجنود فقد انصرفوا قبل غروب الشمس الى ضفة الفرات يضجعون على الرمال .

وحطان يقول في نفسه : لقد كان الروماني مثلاً بليغاً في حفظ الجميل . .

حتى تعب ساعد الروماني وأبصر الموت بصورته المخيفة ظاهراً على شفرة السيف .

فتراجع إلى الوراء . . وأبن حمدان يضرب ولا يمل ولا يفارقه الهدوء إلى أن سقط سيف اسكندر ووقع هو على الأرض مستغيثاً . .

وعندئذ ظهرت المرؤة والنبالة بكل ما فيهما من قوة وجلال . .

فإن معنا مد يده بالسيف الى صدر الفتى وقال له : إنهض الآن فقد عفوت عنك .

ولو انقضت الصاعقة على رؤوس المتامرين الخونة لكان ذلك أهون من أن يروا ما رأوه .

وبدلاً من أن يعتذر الروماني للقائد النبيل الذي حفظ حياته . لجأ إلى ما يلجأ إليه الجبان النذل .

فإنه نهض قائماً وركض إلى موضع السيف ليأخذه ويعود إلى تمثيل الرواية من جديد .

لكن حطان كان أسرع منه فوضع رجله على ذلك السيف وصاح بأعلى صوته قائلاً .

قم يا مولاي وأنظر ما يفعل الرومان بقائد حرسك .

فسمع أذينة وقواده صوت حطان . . غير أن قائد الحامية قد فاجأ معنا بضربة قاتلة أصابت الخوذة فوقعت على الأرض وهم بأن يضربه الثانية فيقضي عليه .

فثار ثائر الفتى . ونسي في تلك اللحظة مرؤته وأخلاقه . وبضربة واحدة أرسلها من سيفه جعل الروماني صريعاً على قدميه . .

وظهر أذينة وقواده بين الخيام . . فرأوا سيف معن يقطر دماً والفتى ينظر بذهول الى الجثة . . ورأوا حطان يداعب الروماني الآخر محاولاً أبعاده عن السيف . .

ولم يكن في الساحة غير هؤلاء . فإن معني وأتباعه تغللوا بين الخيام واتجهوا نحو الشاطىء دون أن يبصرهم أحد . .

فاستولت الدهشة على أذينة ومن حوله . ووقفوا متحيرين ينظرون إلى جوانب الساحة وقد هالهم ما رأوه .

ولم يلبثوا حتى زالت دهشتهم . فمشى القنصل بخطوات هادئة وبعظمة الملوك حتى قارب حطان فقال له :

حطان !!

فابتعد الرجل عن الروماني وأغمد سيفه .

فقال أذينة : أي شأن لك مع هذا ؟

فهز حطان رأسه قائلاً : لا شأن لي يا مولاي إلاّ بأن أمنع هذا النذل من الوصول إلى قائد الحرس .

وكأن أذينة فهم كل شيء . فقال للقواد .

أقبضوا على هذا الروماني . .

ثم تابع سيره يريد معنا وجسمه يضطرب من الغضب .

لكنه قبل أن يخاطبه أخذ ينظر إلى جثة القائد وغاص في بحر من التفكير .

وقد عاد معن إلى نفسه . فوضع سيفه على جسم القتيل قائلاً للقنصل : لست مجرماً يا مولاي لكني قتلت بحكم الدفاع .

أما أذينة فلم يجبه بل أومأ إلى حطان بأن ينقل الجثة إلى قبته قائلاً له :

ضعها هناك وانفخ في البوق ليحضر القواد والرؤساء .

وانثنى راجعاً وهو لا يكلم أحداً لأن نفسه كانت مضطربة وصدره هتجاً . .

ولعله ذكر عندئذ موقف معن . فقال له : ضع سيفك في غمده ولا تمسحه من دم القتيل . .

ففعل الفتى ما أمره به وهو لا يعرف ما الذي يريده من قوله . .

* * *

فقال القواد في أنفسهم : لقد بدأت المحاكمة . .

وكانت قلوب زبدا وزباي وهيروديس تخفق من الخوف . .

ثم قال أذينة : قم يا معن . .

فنهض الفتى قائماً والدموع في عينيه . . .

إنه كان يبكي الرجل الذي قتله . .

فقال القنصل : أأنت قاتل قائد الحامية ؟

ـ : نعم يا مولاي .

ـ : لماذا ؟

ـ : لأنه أراد أن يقتلني ولم أنج من سيفه إلاّ بقتله .

قال : ذلك عذر يلجأ اليه المجرمون . . حدثنا بما جرى لك .

فقال اسكندر : إنه غدر بأبي بعد أن حاول الغدر بي .

فقطب أذينة حاجبيه قائلاً : الويل لمن يتكلم دون أن نأذن له . . كيف قتلت الرجل يا معن ؟

قال : عندما خرجت من قبة القنصل . لحق بي هذا الروماني حاملاً حربته يريد أن يطعنني بها من الوراء ، ولولا حطان لنفذت حربته من الصدر .

قال : ماذا فعل حطان ؟

قال : حذرني منه فالتفت فإذا هو يهم بالطعنة فأهويت له بالسيف فكسرت حربته وتلاحم السيفان . .

قال : اسكندر فعل هذا ؟!

قال : نعم يا مولاي وأخذ يضربني وأنا أضيع الضربات بالسيف حتى سقط سلاحه من يده فأرجعت سيفي وعفوت عنه .

- : وبعد ذلك ؟

قال : كنت واثقاً بانه سيعتذر لي أتعرف ماذا فعل؟

مرت ساعة قصيرة على تلك الحادثة التي هي الأولى من نوعها في جيش أذينة .

فاجتمع رؤساء العشائر والقواد في قبة القنصل وقد سادهم صمت رهيب . .

واصطفت فرق الرومان حول القبة وهي بين غاضب وثائر تنتظر حكم أذينة على القاتل . .

وكان اسكندر يبكي أباه . ولو قرأت تلك السطور المكتوبة في أعماق نفسه ، لرأيت أنه كان يبكي فشله في قتل أبن حمدان .

وقد استيقظت في صدره ، في تلك الساعة الرهيبة عاطفة الغرام من جديد فبات لا يرى إلاّ كهيلة بجبينها الزاهي وقامتها الهيفاء . ولئن مات أبوه وهلك الجيشان جيش العرب وجيش الرومان . فذلك خير في نظره من أن يرى غادته الحسناء تزف إلى معن بن زبيد الحمصي .

إن تلك العاطفة وحدها كانت أبلغ دليل على جنونه .

وكثيراً ما حاول معني ، أن ينفخ روح الثورة في صدور الرومان . متظاهراً بأن العرب لا يحبون معنا ولا يعترفون به قائداً لحرس القنصل . .

فكانوا يجيبونه قائلين : ننتظر حكم أذينة . .

إلاّ قائد بعلبك فقد كان أعقل القواد وأكثرهم حكمة إذ قال لرفاقه : ليس

لأذينة أن يعاقب رومانيا إلاّ في هذه الحرب لأنه سيد الجيش وقائده . وقيادته من والي سوريا الذي يمثل القيصر .

وكان يردهم إلى الصواب . ويخمد برأيه الرشيد نار الثورة التي تتأجج في صدور زملائه . .

فلما جلس الناس قال أذينة لحطان :

أخرج من هنا ولا تعد حتى ندعوك .مولاي ؟ إنه جرى ليأخذ سيفه ويعود إلى القتال .

وكنت مضطرباً يا مولاي وأنا أفكر في أمري ولا أدري كيف أفسر خصومة رجل وإذا بسيف آخر يقع على خوذتي وأقسم برأس القنصل أني رأيت الموت بمع منه . فضربت بغية الدفاع لا بغية القتل . فنفذ القضاء وكان قائد الحامية هو القتيل الجاني على نفسه .

فأسودت وجوه الرومان وبرقت عيون القواد التدمريين .

ذلك لأن معنا ـ في نظر شريعة تدمر التي هي شريعة روما ـ كان بريئاً .

أما أذينة فلم يبد على وجهه دليل من دلائل الارتياح بل قال لأسكندر : قم ت الآن وقل لنا كيف هاجمك الحمداني .

فرفع المجنون صوته قائلاً : لولا ذلك العربي الأبله لوضعت حربتي في صلبه .

قال : إذن كان معن صادقاً فيما رواه .

قال : لا أعرف هذا بل أعرف أن الحمداني سيموت من يدي .

فاختلجت شفتا أذينة وقال : أتعترف بأنك لو استطعت قتله لفعلت ؟ !

قال : نعم وسأقتله ولو كان في حضن الأمبراطور . .

فنظر أذينة إلى قواد الرومان قائلاً : هذا درس جديد في العصيان . . ثم قال :

ليدخل حطان .

فدخل الرجل . فقال له القنصل :

قص علينا ما رأيت .

فأخذ الداهية يروي الحادثة كما جرت وكما رواها قائد الحرس . .

فقال أذينة : ما رأي قواد الرومان فيما سمعوه ؟
فقال قائد بعلبك : إن قائد الحرس بريء أيها القنصل
قال : وقائد الحامية وولده ؟
قال : متى كان معن بريئاً فهما مجرمان .
فقال معن : وهذا البريء يسأل مولاه العفو عن المجرمين . .

فنظر إليه زبدا وزباي نظرة غضب .

أما القنصل فقال له : لو أردنا أن نأخذ البريء بذنب المجرم لأمرنا بقتلك الآن لأنك ضامنه . .

ثم نهض عن وسادته وأومأ إلى الناس بالخروج .

فخرجوا ووقف هو بباب القبة وقال لحجابه . .

ضعوا جثة القتيل في الساحة .

فوضعت حيثما قال : فقال لزنباع :
أين فرقة الرماة أيها القائد ؟

قال : بعضها في الساحة والبعض الآخر لجأ إلى الخيام .

قال : اختر عشرين قواساً يحسنون الرمي
قال الآن يا مولاي ؟ .
فأجابه بهدوء قائلاً : في هذه اللحظة .

فهلعت قلوب الناس لقول القنصل وباتوا يتهامسون قائلين : سينطوي هذا الليل على حادث تقشعر له الأبدان . .

حتى أقبل الرماة يقودهم زنباع . فقال القنصل للحجاب :

أقبضوا على هذا الروماني وشدوا يديه بالامراس وأشار إلى اسكندر . .

ومن يجسر في تلك الساعة على أنِ يراجع أذينة في أمره ؟ . .

كانت عيناه جاحظتين . وشفتاه صفراويين . ووجهه من الغضب أشد سواداً من الليل .

حتى أن هيروديس الكثير الدلال على أبيه . كان يخشى أن يلتمس العفو فيسمع ما لا يحب .

فقيدوا الفتى وهو يهزأ بالقنصل . .

فقال : لتقف فرق الرومان على طول الخط صفين متقابلين ، وليصطف الحراس أربعة صفوف الواحد وراء الآخر ، ثم قال :

أيها الرومان : لقد ولانا نائب القيصر قيادتكم في هذه الحرب . فظن هذا المغرور أنه أرفع من أن يخضع لنا فتمرد وعفونا ثم تمادى في تمرده حتى ليهزأ بنا أمام الجيش وهو لا يبالي .

الا فليعلم الرومان أننا لا نكون حلفاءهم إلاّ إذا كنا سادة أنفسنا لا عبيداً وليس أحد في هذا الجيش يفضل أخاه إلاّ باخلاصه . فإذا قام فيكم من يظن غير ذلك فقد جنى على نفسه كما فعل هذا الروماني .

إننا لا نحب أن يقتل قائد حرسنا صعلوكاً من صعاليك العرب أو الرومان إلاّ إذا أمرناه بقتله والويل له او لسواه إذا فعل غير هذا . ولكنه إذا قتل مضطراً بحكم الدفاع عن نفسه فهو بريء ولا ذنب عليه إن الذنب علي أولئك الذين يسعرون النار .

وكانت لهجة القنصل لهجة قاض يلفظ حكم الأعدام وقد ارتسمت على محياه دلائل الغضب مقرونة بمظاهر العز .

وقد عرف الجيش أن اسكندر سيموت . . وإلاّ فأي شيء يستوجب وجود عشرين رامياً يحملون أقواسهم والنبال . .

فدب الذعر في القلوب وعقد الخوف السنة القوم فلم يجرؤ أحدهم على أن يشفع إلى أذينة في ذلك الروماني المنكود الحظ .

وكان معني ورفاقه أكثرهم خوفاً . ليس على ذلك الرفيق الذي ستخترق السهام قلبه . بل كانوا يخافون القنصل الغاضب لكرامته . على أنفسهم الملوثة بالخيانة والداعية الى العصيان . .

إن رفيقهم المسكين لم يخطر لهم ببال وهو على باب قبره ، لكنهم كانوا يخشون أن يعترف للقنصل بأسماء رفاقه قبل أن يموت . وهذا هو البلاء .

ذلك هو شأن الخائن لا يهتم في كل دور من أدوار حياته إلاّ لنفسه الساقطة . .

وزاد خوفهم عندما رأوا القنصل يحدق إلى اسماعيل بعينين ملتهبتين وهو يلقي خطابه . والألفاظ يقذفها فمه قذفاً فلا يفهمها السامع .

حتى قال وهو هادىء : لقد سمعتم معنا وحطان يرويان لكم حادثة القتل كما جرت ، غير أن القنصل لا يصدر حكمه إلاّ إذا اعترف الجاني بجنايته على مسمع من الرؤساء والقواد قبل أن توجه إلى صدره سهام الموت . .

فاعترف ايها الروماني :

فرفع المجنون رأسه وقال : لقد اعترفت وانتهى الأمر

قال : اتعمدت قتل أبن حمدان .

قال : أجل وسأقتله إن بقيت .

ولم يقم في ذهن الفتى قط أن أذينة يأمر بقتله ويعرض نفسه لغضب الرومان .

لقد كان واثقاً ، في تلك الساعة الرهيبة أن أذينة يهدده ويخوفه بالموت وهو لا يجسر على تنفيذ ذلك التهديد . .

أيقتل الحمصي قائد الحامية في تدمر . وهو أحد عظماء الرومان . ثم يقوم

القنصل فيقتل بدوره أبن ذلك القائد واضعاً جثته فوق جثة أبيه دون أن يهتم الثورة تلتهم نارها صفوف الجيش ؟ ؟ ! ! إن هذا لا يكون .

ولو عرف المسكين أن جزاءه القتل لانطرح على قدمي القنصل يسأله الرحمة ، ولو كان مجنوناً .

فقال أذينة ، بصوت مرتجف : أطلب إذن ما تشاء .

فارتخت ركبتا الفتى وكاد يقع على الأرض لو لم يستند إلى ذراع أحد الجنود .

قال : نسألك عما تشاء فلا تجيب ؟ ! !
فقال : وقد دمعت عيناه : أتقتلني وقد قتل أبي ؟ !
قال : أما أبوك فقد قتله غدره ونحن لا نأسف عليه . فاذكر حاجتك الآن .

فأجال الشقي نظره في القوم فلم ير من يشفع به .

فقال : لقد دنا الأجل فلم أجد صاحباً .

فتقطر قلب معن وكاد يستغيث لو لم يهمس هيروديس في أذنه قائلاً :

إن المسكين يفتش عن نصير له فسأكون أنا ذلك النصير . .

أما أذينة فقال : أرأيت كيف خانك الأصحاب أيها الروماني . .

فأرتفع صوته بالبكاء وظل ساكتاً . .

فاستطرد أذينة قائلاً : من هم رفاقك من العرب ؟؟

فاصفرت وجوه التدمريين الخونة وحبست الأنفاس.
فقال : كنت وحدي ولا رفاق لي .
قال : إن المتامرين يكونون عادة أكثر من اثنين ألم تتخذ لك من جنود العرب صاحباً ؟ . .
قال : كان الكثيرون من قبل أصحابا لي . .

قال : وبينهم من أوغر صدرك على أبن حمدان وقذف بك إلى اشداق المنون .

قال : لم يكن هذا الصدر بحاجة الى من يوغره .

قال : لعلك تنفع نفسك إذا ذكرت لنا واحداً من أصحابك .

فبرقت عينا الفتى ونظر إلى اسماعيل ثم إلى معني .

لكن القنصل لم ينتظر جوابه . .

إن تلك النظرة القصيرة كانت كافية لتجعل الشك يقيناً في صدره . .

لقد كان يظن أن يد معني هي التي تلعب من وراء الستار لكنه لم يرد أن يوغل في ظنه قبل أن ترى عيناه

وقد استطاع أن يقرأ سطور العتب والاستعطاف بادية في عيني الروماني . .

ففاجأ الناس بقوله : سهامكم أيها الرماة فالغادر لم يجد له صاحباً .

فنزع الرماة أقواسهم وتهيأوا لتنفيذ الحكم .

فاغمي على المسكين بين يدي حراسه وأخذوا يعالجونه حتى استفاق والدموع تنحدر الى عنقه .

لكنهم قبل أن يعصبوا عينيه ـ كما يفعلون اليوم بالجندي المحكوم عليه بالموت ـ رأى القواد هيروديس ومعنا يشهقان بالبكاء . ثم سمعوا هيروديس يقول لأبيه لقد وجد المنكود الحظ صاحباً له هو أنا . .

فبغت أذينة وقال له : ماذا تفعل يا هيروديس ؟ !

قال : أشفع اليك بهذا الجاني الذي تركه أصحابه .

قال : اتسألنا العفو عنه ؟

قال : نعم يا مولاي إنك صاحب الحق في قتله وأنا صاحب الحق في الرجاء . .

قال : وهل تطلب الرحمة لفتى يستخف بأبيك ؟

قال : بل أطلب الرحمة لمجنون . وأحب أن يكون صدر القنصل العظيم أوسع من أن يهتم بالمجانين :

قال : لقد رأيناه أعقل مما تظن يا بني . . رأيناه يكمن بحربته للأبرياء ويكافىء المحسن إليه بالأصرار على قتله .

قال : وهذا هو الجنون يا مولاي . ألم تر هذا المستخف ترتجف ركبتاه ويقع على الأرض من خوفه ؟

قال : ذلك فعل الجبن لا فعل الجنون . وأما أن نطلقه يدعو الى العصيان ويتصدى لقوادنا وجنودنا فهذا ما لا افعله .

والتفت إلى الحراس قائلاً لهم : أعصبوا عينيه فقد أمرنا بأعدامه .

فتوسط هيروديس الساحة وقال : قل للرماة أن يصوبوا سهامهم الى صدري يا مولاي .

فكاد قواد الرومان يهتفون للفتى النبيل الذي يسأل أباه العفو عن عدوه .

فقال أذينة : لا تراجعني فيما أفعل وهذا الفتى لا يبقى في الجيش وأنا حي . .

قال : أطرده يا مولاي وأحفظ حياته .

قال : خير للناس أن يموت هذا اللعين فيموت شره .

قال : بل خير لي أن أموت يا مولاي من أن تخيب رجائي .

قال : إن في بقائه موتاً لقائد الحرس . أتراه يسلم من سيفه بعد اليوم وهو ما كاد يضمنه حتى غدر به .

قال : إن معنا نفسه يسألك العفو يا مولاي .

فاستغرب أذينة أصرار هيروديس على إنقاذ الرجل وكاد يفقد هدوءه ثم التفت الى معن فإذا هو يستعطفه بعينيه . فقال في نفسه : لقد تحالف الاثنان على إنقاذه فلتكن مشيئة الالهة .

وأخذ يفكر في الأمر من ناحيته السياسية فبدأ له أن قتل الاثنين في يوم واحد خطأ سياسي لا يغتفره الرومان وقد يجعلونه سبباً لحرمانه العرش الذي يحلم به .

أجل . إنه كان يبني دعائم العرش من وراء الستار فلا يشعر به الرومان إلاّ بعد أن يعصب رأسه بتاج الملك ، وتكثر من حوله قوات العرب المنتشرة في الصحراء أما اليوم والعرش لم تبن دعائمه ، فإذا تصدوا له أفسدوا عليه أمره ومنعوه من السير في طريق العلاء الذي مهد أسبابه .

إن ذلك المجد الذي يضع أذينة أسسه بيده . كان في نظره أثمن) من أن يضيعه دم غر من اغرار الرومان .

فقال لهيروديس : أتطلب حياة الخائن يا بني ؟

ـ : نعم .

قال : ستندم على ما طلبت وسنندم نحن على ما فعلنا . ثم أمر الجنود باحضار اسكندر . فلما مثل بين يديه قال له :

ألا تعترف الآن بأنك تستحق الموت وبأننا عفونا عنك.

فتلجلج لسانه وهو يقول : نعم يا مولاي أن عفوك أعظم من ذنبي .

قال : الا تعود بعد الآن إلى الغدر بقائد الحرس ؟

ـ : أحلف بالالهة إني لا أغدر به .

قال : أنظر إلى هذه الجثة جثة أبيك واقسم بها أنك لا تفعل .

فحدق الروماني إلى الجثة بعينين دامعتين ثم قال : أقسم بجثة أبي أني لا أغدر بأبن حمدان .

فتمتم أذينة قائلاً : لا يثق بقسمك إلاّ الأبله . . فكوه أيها الحراس . ففكوه وعلا هتاف الرومان يدعون للقنصل ولولده .

وبرقت عينا معني من الفرح بنجاة رفيقه .

أما اسكندر فتراجع الى الوراء وهو يتمتم الفاظ الشكر . وقد أحس في تلك الساعة أن عاطفة الحقد على معن ، تلك العاطفة التي تملأ صدره ، أمست بما فيها من وحشية وقوة . بغضاً هائلاً يضمره النذل لأذينة نفسه . تاركاً غرامه وكل ما في الوجود من مشاهد وصور لا يذكر غير ذله بين يدي القنصل . وعلى

العراي ومسمــع من صفــوف الجيش . يستعطفــه ليعــدل عن الحــكم عليه بطلوت . . ! !

وهيروديس ! ! ذلك الفتى النبيل الذي أنقذ حياته . أصبح في نظره غولاً مروعاً لا يطيق النظر إلى وجهه !

إن نفس ذلك لروماني كانت أداة شر للمجتمع البشري . .

* * *

كان حطان يهز رأسه كل ما نظر إلى جثة القتيل والأبتسامة التي لا تفارق ثغره كانت ابتسامة رضى وارتياح .

على أنه لم يكن راضياً عما رآه من تدخل هيروديس في أمر اسكنـدر . وكأنه كان يؤثر أن يرى جثة الأبن تعانق جثة أبيه . .

وزباي نفسه . ذو الطبيعة الهادئة الرضية . كان يبتسم للجثـة المضرجـة بالدم . وقد ارتسمت على جبينه تلك الدلائـل التـي يراهـا الناظـر على جبـين حطان .

أما الباقون من القواد . قواد العرب وقواد الرومان وبينهم زبدا وهيروديس ومعن . فقد كانت مظاهرهم مظاهر أسف تعلو وجوههم دلائل الكآبة والحزن .

ولم يكن في الجيش كله من هو أشد سروراً من قائد بعلبك . فذلك الرجل الهادىء كان يحب أذينة كما تقدم حباً لا غرض له فيه . كما يحب الفتى الكريم فتى كريماً . بل كما يحب الجندي الباسل قائده العـظيم المستهـين بالأخطار ، وكان يخشى كثيراً أن يضم الثرى جسدي الوالد والولد . فتثور صفوف الرومان وتبلغ الحادثة القيصر فيعمد إلى الانتقام من أذينة وتدور الدوائر على ملك الصحراء .

وكان القنصل يفكر عندئذ في ذلك القائد ، وقد نوى ـ بعـد وصولـه الى تدمر ـ أن يكتب الى نائب القيصر مقترحاً عليه تعيين قائد بعلبـك خلفـاً لقائـد الحامية في عاصمة البادية .

وفي الوقت نفسه ، كانت فكرة الخيانة التي يتهم بها معني ابن أخيه . قد ملأت ذهنه ، لأن تلك النظرة التي وجهها اليه اسكندر في ساعة يأسة كانت أبلغ من الاعتراف الصريح تلفظه شفتاه . وقد اكفهر وجهه عند ذلك التصور واحب أن يفضي به إلى المخلصين من رجاله ليتبادلوا الرأي .

فأومأ إلى قائد بعلبك قائلاً له : أتبعني إلى القبة مع قواد العرب والرومان .

والتفت إلى اسكندر قائلاً : أما أنت فابك أباك قبل أن يدفنوه ثم تحجب عن الناس وأبك نفسك . .

ثم قال للقوم : أدفنوه كما يدفن القواد . .

ومشى إلى فسطاطه يتبعه الرؤساء . .

إلاّ معنا فإن حطان دعاه إلى البقاء قائلاً : لي كلمة أقولها لسيدي القائد .
قال : الآن ؟ ! .
قال : نعم قبل أن تنصرف إلى فسطاط القنصل
قال : ذلك لا يكون الآن لأنه أمرنا بأن نتبعه إلى قبته .

وخطا خطوتين يريد الذهاب .
فقال له : أذكر أباك يا أبن حمدان .

فانتفض جسم الفتى لذكر أبيه ونظر إلى حطان نظرة استغراب . .

أما الرجل فكأنه لم ير شيئاً بل استطرد قائلاً : ألم يكن لك يا مولاي والد قتله الرومان ؟ ؟

فتلألأ الدمع في عينيه وقال : بلى فكيف عرفت أنهم قتلوه .

قال : أما كيف عرفت فهذا أمر لا يعنيك . وأما أن تسكت عن ثأرك وتنسى دم أبيك فهذا ما لا أريده لسليل الشرفاء . .
قال : أأنت يا حطان تحدثني بهذا ؟ ! .

فرفع الرجل نظره إلى العلاء كأنه يستوحي الالهة ثم قال :

ليس الحارس حطان الذي يخاطبك الآن بل حطان النبي .

فتردد معن في الجواب قليلاً ثم قال :

إن طاعة القنصل أفضل في نظري من حديث الأنبياء .

فابتسم الشيطان قائلاً : أراك تهزأ بي كأنك لا تريد أن تعرف قاتل أبيك .
قال : أو تعرفه أنت ؟ !
قال : إن حطان الحارس لا يعرف شيئاً لكن حطان النبي يعرف كل شيء .

فأزدادت حيرة الفتى ودهشته . ثم قال : إذن انتزع من فمك أسم القاتل انتزاعاً ثم انصرف الى فسطاط القنصل .

فضحك حطان وقال له : خير لك أن تطيعني فتعلم كل شيء . من أن تهددني فلا تعلم شيئاً . .

فقال معن في نفسه : لقد كثرت الأسرار حول قاتل أبي وأنا لا أعرف من هو وكان علي أن أسأل زباي الوفاء بوعده فقد أمسيت قائداً . . ثم قال :

أستأذن القنصل ثم أعود .
قال : إني أضمن لك رضى أذينة فلا تستأذنه .
قال : ماذا تريد الآن ؟
قال : أريد أن تتبعني إلى مرابط الخيل .
قال : لماذا ؟
قال : لأطلعك على أسم القاتل فقد حان لك أن تعرفه .

فتنهد الفتى قائلاً : لقد اخترت لهذا الأمر شر الأوقات يا حطان . فهب أني عرفت قاتل أبي فماذا أصنع به الآن وقد قتلت قائداً عظيماً من قواد الرومان وأنا لا أدري ماذا يكون جزائي .
قال : إن المدافع عن نفسه لا يجازي .

قال : أأذكر للقنصل أسم القاتل وأسأله أن ينتقم لي ؟ أم أقتله دون أن أسأل أحداً فأخضب يدي بدماء ضحيتين ؟ لا يا حطان إني إذا رجعت إلى نفسي

سألتك أن تخفي الآن ذلك الأسم اللعين لأن ساعة الانتقام لم تأت بعد .
قال : سأجعل أسم القاتل سلاحاً في يدك أيها القائد .
قال : وفي وجه من أشهر هذا السلاح ؟؟
- : في وجه كل من يسألك عن قتل قائد الحامية . .
قال ذلك ومشى قاصداً مرابط الدواب .

فتبعه معن وهو يقول : تلك الغاز لا أعلم أخير هي أم شر . . أمش يا حطان إن لم يمهد لك سبل الحياة . وتقدمه سائراً وراء الخيام وقد بدأ الليل ينشر ظله فوق ذلك السهل .

حتى وصلا إلى المرابط وتجاوزا مواقف العبيد والحراس . إلى كثيب من رمال .

فقال حطان : أجلس يا مولاي وأخفض صوتك إذا تكلمت . .

فوضع معن يده على قبضة سيفه والتفت إلى الوراء .

فقال له : الا تثق بي يا قائد الحرس ؟ !
قال : لقد أصبحت في زمن لا أثق فيه بنفسي . .
قال : أما أنا فأدعوك إلى الوثوق بي كما تثق بزباي .
قال : سأرى إذا كنت أهلاً لذلك . .
قال : أحسنت فقل لي من هو ذلك التدمري الذي باح لك بسر أبيك ؟
قال : القائد زباي .
قال : ولم يذكر لك أسم القاتل ؟؟
قال : لا فقد كان يخشى أن أطلب بدمه فأخسر حياتي .
قال : وكيف ذلك ؟
قال : لأنه كان يقول أن القاتل من عظماء الرومان وأنا أكاد لا أعرف بين الناس .
قال : لكنه عذر ضعيف يا مولاي :
قال : أجل وقد اضطررت الى قبوله بالرغم من ضعفه .

قال : أراك صبرت صبر الجبان على الذل .

قال : نعم ولو لم أكن جباناً لضربت عنقك بهذا السيف قبل أن أمسحه بدم الروماني . أتقول إني جبان وأنا قائدك ؟ ! ! .

قال : لا تذكر القيادة إلاّ في ساحة الحرب . أما الآن فإنك تخاطب نبياً أرسلته السماء ليكون عوناً لك . .

ثم غير لهجته فجأة وقال بلهجة الأمر : أتصبح قائداً لحراس أذينة وتسكت عن ثأرك؟

قال : لقد انستني الحرب أبي وكان علي أن أخدم أذينة قبل أن أخدم نفسي .

قال : بل أنساك الغرام ذلك الوالد الذي قتل غدراً . . لقد انتهت الحرب الآن فماذا تقول :

قال : إني الآن أضعف مني فيما مضى . لقد قتلت قائداً لم أتعمد قتله ولم يسيء إلي من قبل فإذا عرفت قاتل أبي فيدي لا تطيق أن تحمل السيف .

فعرف حطان أن وجدان الفتى الطاهر يتألم كلما ذكر القتيل . فقال : أنادم أنت على ما فعلت ؟

قال : نعم وسيرافقني هذا الندم إلى القبر .

قال : إذن فستندم إذا قتلت قاتل أبيك . .

قال : لا إن ذلك القاتل يستحق الموت .

وجاشت في صدر الفتى عاطفة الانتقام فقال :
أهو في هذا الجيش ؟

فأرسلت عينا حطان نوراً غريباً وقال له : أجل إن القاتل هو أحد قواد الجيش قالها وهو يبتسم ابتسامة المطمئن .

فأصفر وجه معن وقال : أيكون القاتل في جيش أذينة وأنا أراه كل يوم ؟ ! .

قال : ويستشيره أذينة في شؤونه . .

قال : أذكر لي أسمه يا حطان فسأدعوه الليلة الى البراز . .
قال : لم يبق لك القضاء سبيلاً إلى هذا . .
قال : لم أفهم ما تقول .
قال أن الرجل أعز من النجم الآن .
قال : أنطرح على قدمي أذينة وأسأله أن يأذن لي في برازه .

فأجابه قائلاً وهو هادىء : وأذينة نفسه لا يستطيع الوصول إليه .

قال : أسألك بتربة أبي أن تبوح لي بأسمه .

فخفض حطان صوته قائلاً : لقد شاء القدر يا بني أن تقتل بيدك قاتل أبيك .

فتلعثم لسان الفتى وقال : أهو قائد الحامية . . ؟ ! !

قال : نعم هو بعينه وقد أراد أن يغدر بك كما غدر بذلك الوالد من قبل .

فوضع الفتى رأسه بين يديه واستخرط في البكاء . .

قال : ما الذي يبكيك يا بني . أتبكي أباك أم قاتله ؟

قال : أبكي أبي الذي لم يعرف ولده أن يثأر به .
قال : ولكنك قد ثأرت به الآن . .

فقال : كان علي أن أضربه ضربة ثائر فأعلم الرومان كيف يكون الغدر .

قال : دعنا من هذا الان فقد لاقى الغادر جزاءه .

فأخذ معن يردد قوله : الغادر لاقى جزاءه . . ! ! ولماذا دعوتني إذن وأنت تعلم أني قتلت قاتل أبي وأنا لا أعرفه ؟ ! . .

قال : دعوتك لما هو أعظم من هذا فإن قاتل أبيك حي في ولده . .
قال : أتريد قتل الولد أيضاً يا حطان إنه إذن سيموت .
قال : بل يجب أن تكون أحرص الناس على حياته .
قال : لقد عدت إلى الألغاز وأنا لا أطيق هذا .

قال : سأحدثك بوضوح وجلاء ، ألا تعرف بأن أذينة هو أفضل المحسنين .

قال : بلى فأنا لا أنسى إحسانه .

قال : ولو كان لك أخ أفلا تعترف بأن هيروديس أكثر عطفاً عليك من أخيك .

قال : بلى . .

قال : وإذا رأيت شبح الموت يتبع أذينة وهيروديس ليمد اليهما يده فماذا تقول .

فجحظت عينا الفتى قائلاً : أتصدى لشبح الموت بهذا السيف .

قال : إذن فاعلم أن حياة الاثنين في خطر يا بني .

قال : لقد بدأت أعتقد أنك تهزأ بي .

قال : لماذا ؟

قال : لأن الموت نفسه لا يجسر على التفكير في من ذكرت .

قال : ولكن الساعي بهما أكثر جرأة من الموت.

فقام في ذهن معن أن اسكندر هو الذي عناه حطان ، فقال : إن الروماني أضعف من أن يقدم على ذلك أيها النبي . .

قال : مسكين هذا الروماني فهو آلة في يد سواه .

قال : ومن هو إذن ؟ . .

قال : غلام لم يبلغ سن رشده . .

قال : هذا معني .

قال : نعم ففي الجيش عصابة يرأسها هذا الغلام .

فأطرق الفتى ملياً ثم قال : إذن لم أكن مخطئاً فيما تصورت ، ومن هي عصابته .

قال : نائبه في الرئاسة مربيه اسماعيل ، بل هو الرئيس الذي يخترع أساليب الشر من وراء الستار . وأركان حربه زنباع قائد الرماة الذي خلفته في قيادة الحرس ؟ وقائد الف آخر من قواد الرومان . أما رئيس أركان الحرب فقد

كان قائد الحامية يقذف اللعين بولده إلى أشداق الموت وهو يهزأ بالأخطار . .

قال : أواثق أنت بما تقول يا حطان ؟

قال : لا يقول لك حطان شيئاً إلاّ إذا لمس بيده ذلك الشيء . . وأما رجال المتامرين فكثيرون معظمهم من أبناء تدمر الطامعين بالرتب ، المتظاهرين بالولاء للقنصل وهم يطلبون له الموت . .

فدهش معن لما سمع وقال : وماذا يطلب من قائد الحرس الآن ؟

قال : أما ما يطلب منك فهو أن تسهر على حياة مولاك وحياة ولده .

قال : أهذا كل ما يريده النبي ؟ . .

قال : نعم فإن حياة الأميرين في يد معن بن حمدان ويد حطان الذي لا يعرف أباه .

- : ولماذا لا تذكر للقنصل ما ذكرته لي فينتهي أمر المتامرين .

قال : أأذكر للقنصل أمراً لا أستطيع إثباته ؟ إني إذن جاهل لا أعرف ماذا أصنع .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : لا أبوح بأمر المؤامرة إلاّ إذا قبضت على زعمائها متلبسين بالجريمة فاحذر أن تقول للقنصل أو لهيروديس شيئاً من هذا قبل أن تستشيرني فيه واقسم لك بكل ما على الأرض من الهة إني سأحصي على المتامرين أنفاسهم ولو جعلوا مجالسهم فوق الغمام .

قال : إنك نبي عجيب يا حطان وقد وثقت بك .

قال : وفي هذا الوثوق ينجو القنصل من خنجر أبن أخيه . .

قال : ولكن قل لي متى يصبح القنصل ملكاً . .

فمد النبي يده إلى الأمام قائلاً : هذا هو أذينة يحمله الهواء فوق مضارب الجنود . فذعر معن وأرسل نظره إلى حيث أشار . . ولكنه لم ير مولاه في ذلك الفضاء.

فقال : إني لا أبصر شيئاً يا حطان . .

فقال وهو يخفض صوته : أما أنا فأرى أذينة يبرق على رأسه تاج الملك ،

وصولجان الذهب يلمع في يده غير أني أرى فوق رأسه عمامة سوداء يتدلى منها خنجر ذو حدين . . !!

فخيل إلى معن أن صوت النبي ينحدر من فوق . .

واستولى على قلبه الرعب . .

أما حطان فكان يتنهد ثم استطرد قائلاً :

وعن يمين أذينة ملك صغير تحجب الغيوم وجهه . . لا . . فقد تبدد الغيم وبان هيروديس تغطي جبينه عصابة من الذهب . . إنه ملك مثل أبيه ولكن أثار الدماء على صدره . . ! أنظر يا معن . هؤلاء هم القواد . . الرومان والعرب . . أما زبدا وزباي فلا أراهما ولم يقع نظري على قائد الحرس القنصلي معن بن حمدان . . !!

كل القواد الأمناء لا وجود لهم . . أما أولئك الجالسون أمام الملكين فهم أعداء يلبسون لباس المخلصين .

ثم تنفس الصعداء واختنق صوته في صدره وهو يقول : أولئك هم رجال السوء . . أولئك هم المتامرون يقودهم معني . . !!

فأخذ معن يرتجف من الخوف وساد السكون . .

لكن حطان نهض قائماً كمن لم يقل شيئاً وقال له :

لقد نسيت يا بني أن القنصل في قبته مع رجال الجيش . . قم نذهب إليه وإذا سألك عن القتيل قائد الحامية فقل أنه قاتل أبيك ولا تخف . .

ومشى أمامه دون أن ينظر إلى الوراء .

فتبعه معن وهو ساكت . وقد أثر في نفسه ذلك المشهد الخيالي الذي وصفه له حطان وهو لم يره . .

***

لقد بدأ أذينة ينظر إلى معني ابن أخيه نظره إلى عدو صغير يتمشى الخبث والحقد مع دمه . .

وكان الغضب يملأ صدره حتى أنه لم يشيع جثة القتيل الذي هو أعظم قائد في جيشه بين قواد الرومان ولم يأذن لمن حوله من الرجال في قضاء ذلك الواجب الأدبي .

فلما جلس في قبته أومأ إلى الناس في الجلوس وقال لقائد بعلبك :

لقد فوضنا اليك قيادة الرومان الذين قتل قائدهم على أمل أن نجعلك قائد الحامية في تدمر بعد أن نكتب إلى نائب القيصر . . إنك من المخلصين ونحن نعرف كيف نكافىء هذا الصنف من الناس .

وكانت قيادة الحامية في عاصمة أذينة ، من أعظم مناصب الجيش في الأقاليم لأن صاحبها لا يكون قائداً فحسب ، بل هو سفير دولته في المدينة ووكيل نائب القيصر في جميع الشؤون .

أجل . أنه لم يكن مطلق الارادة في كل شيء ، ولكنه كالسفراء له الرأي المسموع والكلمة المحترمة في مجلس والي فينيقية ومجلس روما . .

ونائب القيصر . بل القيصر نفسه . لم يكن يحدث حدثاً في تدمر إلاّ بعد أن يسمع اقتراح السفير ورأيه .

وليس لقائد بعلبك ، أو لغيره من قواد الأقاليم أن يطمعوا بقيادة الحامية في مدينة أذينة لأن ذلك القائد أو السفير لا يختارونه من هؤلاء بل ترسله روما من قواد الأقاليم في ايطاليا نفسها . عند اعتقادها ان الرجال الذين تبعثهم إلى الشرق لا يصلحون للسياسة وإن كانوا يصلحون للحرب . .

فامتلأ قلب الروماني سروراً وقال : ذلك عطف لا أستحقه أيها القنصل .

قال : بل تستحق أكثر منه فأنت خير من رأيت من رجال الرومان .

قال : ولكني لم أفعل شيئاً يستوجب رضاك . .

قال : إن القنصل لا يسأل رجاله غير الأخلاص له وقد وثقنا باخلاصك

قال : حسبي أن يشرفني مولاي بحسن ظنه . .

قال : والآن ما هو رأيك في ذلك الغادر ؟

قال : الرأي لك يا مولاي .

قال : لقد رأينا أن نستأذن نائب القيصر في أمر أرساله إلى حامية حمص أو حامية دمشق .

فقال معني وهو يلعب بسوطه : وما الذي يمنع بقاءه في تدمر يا مولاي .

فنظر إليه وهو يبتسم ثم قال : نخشى أن ينتقل البغض من صدره إلى صدر سواه .

قال : ولكنه ندم على ما فعل كما قال . .

فأجابه قائلاً والأبتسامة لا تفارق شفتيه :

أجل ، ولكنه لبليغ ذلك الندم يظهره المرء لينجو من الموت . . أتؤثر بقاءه في تدمر يا معني ؟

قال : نعم لئلا يقول الناس أن القنصل يعمد الى الانتقام . .

فقطب حاجبيه وقال : أما الأنتقام يا بني فلم تأت ساعته والويل لأولئك الذين يخونون القنصل إذا أتت تلك الساعة . .

ثم قال : لقد أمرنا ببقاء أسكندر تنفيذاً لرغبة ولدنا معني .

وكان ذلك منتهى الدهاء . .

نعم . أنه أمر ببقائه ليبث عليه وعلى معني العيون .

وكان ذلك الغلام الصغير العابث بسوطه يقول في نفسه في ذلك الحين :

« انتقم يا عم إذا اتسع لك مجال الانتقام . . ! » .

وقد ذهل أذينة وقواده عن معن حتى ذكرهم معني فقال هازئاً :

القواد والرؤساء في قبة القنصل إلاّ معن بن حمدان .

فأجال أذينة نظره في القوم ثم قال : أين قائد الحرس ؟

فتردد زباي وزبدا في الجواب أما هيروديس فقال :
يخيل إلي أنه يبكي ذلك القتيل . .

فقاطعه معني قائلاً : بل يخيل إلي أنه قائم على قبره يرثيه بالزفرات . .

غير أن أذينة كان أرفع من أن يأمره بالسكوت فقال لحاجبه : أدع قائد الحرس فقد يكون في خيمته . .

فقال معني : وقد تراه شاهراً سيفه يفتش عن روماني آخر يضربه به . . إن صاحبنا أبن حمدان يجرب سيف القيادة برقاب الرومان . . !؟
فقال زبدا : ماذا يعني الأمير بقوله . ؟
فأجابه قائلاً : أعني أن صهرك يريد أن يمتحن شفرة السيف كما قلت .
قال : لو أراد أن يمتحنها مرتين لقتل صاحبك الذي تشفع له قبل أن يقتل أباه . .

واحمرت عينا القائد الأكبر من الغضب .

فهمس أذينة في أذن معني قائلاً :
خير لك ألا تذكر قائد الحرس بسوء .

ثم رفع صوته قائلاً : ليذكر كل واحد منكم أن معن أبن حمدان هو قائد حرسنا . . إذهب أيها الحاجب . .

ولكن لم يخط البدوي خطوتين حتى أقبل معن يرافقه حطان .

فعاد الحاجب وقال : قائد الحرس بالباب يا مولاي .
فقال : ليدخل فنحن بحاجة اليه وإلى هؤلاء .

وأشار إلى القائدين الكبيرين وهيروديس .

ثم أشار إلى معني وجلسائه العرب والرومان قائلاً : أما أنتم فانصرفوا .
فقال معني مستغرباً : أأنصرف أنا يا مولاي ؟
قال : أجل فالفتى مثلك يستلذ المشي على ضفة الفرات في مثل هذا الليل . .

إذهب يا بني وليقص عليك اسماعيل شيئا من حكايات العرب ففي قبة المتصل تزعجك السياسات . .

وأنت ترى أن في ذلك القول ما فيه من مظاهر الاستهزاء والأستخفاف

فاسودت الدنيا في عيني العدو الصغير وخرج من فسطاط عمه يحمل في صدره ما تستطيع الصدور الهائجة أن تحمله من الحقد . .

وتبعه اسماعيل وهو يقول في نفسه : سأقص على معني تلك الحكايات التي تبعد أبن الأخ عن عمه الظالم .

ثم دخل معن ووجهه كوجوه الأموات ، أما حطان فوقف بالباب وأذينة لا يراه .

فقال أذينة : نحن بحاجة إلى حطان فمن يدعوه ؟

فقال معن : هو ببابك يا مولاي .

قال : ليدخل .

ثم قال لمعن دون أن يسأله عن سبب غيابه : كل من ينظر إلى وجهك يخيل إليه أنك خارج من القبر . . أفأنت خائف ؟

أجل ، إن معنا كان خائفاً ومضطرباً لما سمعه من النبي . . فقال : إن قلبي لا يعرف الخوف يا مولاي ولكنه كئيب .

فأراد أن يمتحن شجاعته فقال : ألا تعلم يا معن أن القيصر سيطلب دماً يعلم .

قال : القتيل من الرومان وهو سفيره . .

قال : وأي شأن للقيصر مع الجيش ؟ !

قال : وهل يجوز لهذا السفير أن يقتل من يشاء ساعة يشاء ؟ !

قال : كل ما يجوز للقيصر يجوز لسفيره ونحن لا قبل لنا برد طلب الامبراطور إذا أمر نائبه بقتلك .

قال : إذن فقد كنت مخطئاً في الدفاع عن نفسي يا مولاي ! !

قال : أجل وكان عليك أن تفر .

قال : أمولاي القنصل يدعو قائد حرسه إلى الفرار ؟
قال : إنه يدعوه إلى مثل هذا لينجو من الموت .

فنهض الفتى قائماً والدموع تجول في عينيه ثم قال : ورأس أذينة لو تصدى لي القيصر كما تصدى لي قائد الحامية لأغمدت سيفي في صدره ولو كان جزائي أفظع من الموت .. أتكون حياة الناس للقيصر ولسفيره يستبدان بها كما يريدان ؟ ! وهل يرضى القنصل بأن يكون قائد الحامية في عاصمته الها تنحني له الجباه وتخضع له العرب ويقتل الأبرياء كلما خطر القتل بباله والقنصل ينظر إلى دماء رجاله يسفكها النذل وهو ساكت ! ؟ إنها شريعة لا يخضع لها غير الأذلاء وأنا أضن بعز أذينة أن يجيزها في بلاده .

قال : ولكن القنصل مكره على قبول ما يريده القيصر فقل لنا الآن أتؤثر الموت في تدمر أم نبعثك إلى نائب القيصر في بيروت فتموت هناك ؟؟
قال : إذا كان لا بد من الموت فخير لي أن أموت في روما ..
قال : لماذا ؟
قال : لاني لا أريد أن يدفن جسدي في أرض يستسلم أهلها إلى الذل والهوان .

فأخفى أذينة ابتسامته وقال : بل نرى أن ترقد عظامك في تدمر لتذرف كهيلة الدموع على قبرك كل صباح .
قال : ولتمت كهيلة فلا خير في حياة هي ملك الآخرين ..

وكان حطان والقواد يبتسمون أما الفتى فقد أعماه الغضب فلم يبصر تلك الابتسامات .

ثم أطرق قليلاً وقال : أقسم لمولاي القنصل أني لا أخاف الموت ولكني لا أريد أن أموت الآن

فضحك أذينة قائلاً : لو خير أثبت الناس جناناً بين الحياة والموت لما أراد أن يموت .

قال : علي واجبان أقضيهما ثم تفعل ما تشاء ..

فقام في أذهان القوم أنه ذكر حبيبته إلاّ حطان فقد عرف مغزى قوله .
فقال أذينة : ألا تذكر لنا هذين الواجبين أيها القائد .
قال : أذكر أحدهما وأكتم الآخر . فأجعل لقتلي أجلاً أمت مطمئن البال .
قال : نقتلك إذن بعد شهر .
قال : أما الشهر فلا يكفي أيها القنصل فاجعله سنة .

فتمتم حطان قائلاً وهو ينظر إلى الأرض :

والسنة ليست كافية يا أبن حمدان . .
فقال أذينة : أيعرف حطان سرك ولا نعرفه نحن ؟ !
قال : لولا حطان لما عرفت شيئاً عن هذا السر .
قال : وما هو ذلك الواجب الذي تستطيع أن تبوح به .

قال : ان احد قواد الرومان قتل أبي ولم أعرف أسمه إلاّ اليوم .

فخفق قلب زباي وأخذ يحدق إلى حطان .

أما أذينة فقال : أيقيم القائد في تدمر ؟
قال : نعم وهو من أعظم قواد هذا الجيش . .
قال : ومتى قتل أبوك ؟
قال : أسأل زباي فهو أكثر اطلاعاً مني على حادثة قتله . .
قال : سنسأله بعد الآن أما أنت فلا تريد ان تموت قبل أن تقتل قاتل أبيك ليس كذلك ؟
قال : إن ذلك القاتل اللعين هو الذي قتل اليوم . .

فدهش القواد لحكاية الفتى وقال هيروديس :
أقائد الحامية هو ؟
قال : نعم انه القاتل النذل الذي غدر بأبي وهو في ميدان السباق في دمشق . .

فنظر أذينة إلى زباي قائلاً : أتعرف هذا يا زباي .

قال : نعم يا مولاي وكان زبير صديقاً لي وقد تنبأ بموته أحد الكهان في تلك المدينة الكبرى الاهلة بالعرافين .

- : وكيف قتله .

قال : كان أسبق منه في المجال فغدر به وهو يقود فرسه . ولا تزال الفاظ ذلك العراف ترن في أذني .

قال : وأين كان معن في ذلك الحين ؟

قال : كان في حمص وقد قيل له أن أباه مات .

قال : إذن فأنت تعرف قائد الحرس منذ كان صغيراً .

قال : ما كنت أعرفه يا مولاي ، غير أن ذلك الكاهن قال لزبير : إن أبنك يكاد يقتل في تدمر من يد غريب ، يوم يمر بالمدينة قيصر الرومان ، ثم أشار إلى خط عريض في أصل أبهامه قائلاً : لكن رجلاً تدمرياً يحفظ حياة ولدك .

وقد تمت نبؤة الكاهن يا مولاي ، فإن اسكندر نفسه كاد يضع حربته في صدر معن ، يوم كان فالريان ، ضيفاً عليك في طريقه الى الرها فكتب لي أن أنقذ حياته وأنفذ وصية أبيه .

قال : ثم ذكرت له مقبل اليه في دمشق ونفخت في صدره روح الانتقام من قاتله .

قال : أجل لكني لم أذكر له اسمه بل وعدته بذلك يوم يصبح قائداً ويثق القنصل باخلاصه .

- : وكيف عرف اسمه اليوم .

قال : لا أدري يا مولاي فلعل وحيا نزل عليه من السماء . . .

فقال أذينة لمعن : من ذكر لك أسم القاتل يا معن ؟

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : حطان .

فهز القنصل رأسه قائلاً : يظهر أن حطان يعرف كل شيء . . . !

ولو نظر القوم الى زباي ، لرأوا عينيه الكبيرتين تحدقان إلى حطان تحديقاً غريباً والرجل مطرق ينظر إلى أرض القبة وقد قطب حاجبيه .

ثم قال أذينة : وما الذي يريده قائد الحرس بعد أن انتقم لأبيه ؟ .

فقال معن : إني لم أنتقم أيها القنصل فقد قتلت الرجل وأنا لا أعرفه . .

قال : ولكنه قتل على كل حال وهذا ما ترغب فيه .

قال : بل أرغب في أن أضربه ضربة ثأر لا ضربة دفاع . .

فضحك أذينة وقال : أتقتله مرتين ؟ !

قال : بل أقتل ولده وكل من يمت اليه بقرابه حتى امحو أسمه وأسماء ذريته من هذا الوجود .

قال : إذن فأنت تطلب البقاء لتحدث قتلاً آخر ! !

قال : نعم . ولأصنع أيضاً حدوث قتل يهتز له الشرق .

فرفع حطان عينيه إلى السماء ثم أرخاهما . .

وقد اضطربت شفتا أذينة واصفرت وجوه القواد :

فمن هو ذلك الذي يضطرب لقتله الشرق إن لم يكن أذينة ؟ ! ! وما هي تلك الكلمة الجوفاء يقذفها فم معن فترتجف لها قلوب القوم ؟ !

قالها الفتى وتساقطت دموعه على خديه .

فقال هيروديس : لقد كثرت أسرار قائدالحرس في ساعة نحن أحوج فيها إلى الجلاء . .

قال : ذلك شأن الرجل يحكم عليه بالموت أيها الأمير .

فقال أذينة في نفسه : يجب أن ينتهي هذا الدور الهزلي الآن . . ثم قال :

لماذا تبكي يا معن ؟

قال : أبكي حياتي التي ستضمحل قبل أن أخطو خطوة واحدة في سبيل تدمر .

فأشرق جبين القنصل وقال : أن هذه الحياة لا تصل اليها يد الرومان وأذينة حي .

فضحك القائدان وهيروديس . أما حطان فلم يرفع رأسه . .

فقال معن : أكنت تهزأ بي يا مولاي ؟

قال: كنا نمتحن صبرك في الملمات. .. أما الآن فقد ثأرت لأبيك وانتهى الأمر لكن شيئاً آخر لم ينته بعد. . أرفع رأسك يا حطان وأسمعوا أيها القواد.

فمد القوم أعناقهم ليسمعوا السر الخطير الذي دعاهم لأجله .

قال : يكفي أن يقتل قائد الحامية في حالة دفاع ليكون معن بريئاً .

فلم يسمع القوم شيئاً جديداً في شريعة ذلك الزمان .

ثم قال : ويظهر أن القضاء سلح يد الفتى وأرسله ليثأر بأبيه من حيث لا يعرف القاتل . .

فقال زبدا : وهذا ما أفكر فيه يا مولاي .

قال : وقد أمسيت كثير الوثوق بهذا القضاء ومن المؤمنين بأحكامه . . ألم تروا كيف مهد لقائد الحرس سبيل الأنتقام لأبيه؟

قالوا : نعم .

قال : وفي الوقت نفسه مهد لنا الاطلاع على مؤامرة يرأسها خصوم للقنصل من أسرته ! . .

فرفع حطان رأسه في تلك الساعة وتظاهر بالاصغاء .

أما معن فابتسم ابتسامة الخبير الواثق بما يقوله مولاه .

غير أن الثلاثة الباقين أظهروا الاستغراب .

وعاد أذينة الى حديثه فقال لمعن :

ما هو ذلك الحادث الذي طلبت الحياة لتمنع وقوعه ؟

قال : لا أستطيع يا مولاي أن أبوح به . .

قال : احتفظ به ما أردت فقد عرفناه . . أن معني بن خيران المتمرغ في أسباب النعيم يتآمر على عمه . !!

فساد القوم صمت رهيب سمعوا فيه همس الأنفاس .

لكن هيروديس كان أسبقهم إلى الكلام فقال :

ومتى كان الغلمان أمثال معني يتامرون ؟

فأجابه بصوت مرتجف قائلاً : عندما تكثر أموالهم . ويرون الرؤوس تحني لهم . والرجال الخونة عشاق أنفسهم يلتفون حولهم .

ـ : ذلك أمر لا يقدم عليه معني يا مولاي .

فقال معن : بل يقدم على أعظم منه ولا يبالي . أنسيت أيها الأمير بذله الذهب لضباط الحرس ولجميع فرق الجيش يشتري به القلوب ؟

فضحك هيروديس قائلاً : لو رأيت الخنجر في يد معني يهم بأن يطعن به صدر عمه لما قام في ذهني قط أنه يريد قتله . .

فقال معن : أما أنا فلو رأيت في يده مخفقة من جلد لخفت أن يحولها حقده إلى سيف يضرب به رأسك ثم يهوي به إلى رأس أبيك . .

قال : لماذا ؟

قال : لأنه يريد أن يعصب جبهته بتاج تدمر . .

وكان أذينة يصغي إلى ما يقولان وقد عرف كيف ينتزع سر الفتى .

فارتفع صوت هيروديس في الضحك وقال : ذلك وهم يصوره لك البغض .

قال : بل هو الواقع الذي ستلمسه بيدك . أن البغض لا يبلغ بأبن حمدان إلى حد أن ينم بين الناس . .

فقال زبدا : أما أنا فلا استغرب أقدام الغلام على الشر فنفسه نفس خبيث شرير . غير أني لا أستطيع أن أصدق أن في بني السميدع رجالاً يوافقونه في رأيه . فمن هم رفاقه يا مولاي .

قال : سنعرف هؤلاء الرفاق بعد حين .

فقال هيروديس : أواثق أنت بوجود المؤامرة يا أبي .

قال : الوثوق كله يا هيروديس فلا تنهج مع أبيك منهاج الوكلاء « أي القضاة» .

فبرقت عينا قائد الحرس وقال : أما وقد باح مولانا القنصل بسر المؤامرة فاعلموا أني لم أطلب البقاء في هذا العالم إلاّ لأحفظ حياته وحياة هيروديس

فتلألأت الدموع في عيون القائدين لنبالة هذا الفتى ورباطة جأشه.

ولكن . كيف استطاع معن أن يعرف عن المؤامرة ما عرفه القنصل نفسه . أتراه قرأ أسرارها في تلك النظرة التي أرسلها الروماني في ساعة الخطر . كما قرأها أذينة ؟ أم أن أحد المتامرين افضح رفاقه وباح لقائد الحرس بمداراه ؟ !

ذلك ما أراد القنصل أن يعرفه . فقال :

يا معن . . ألم تبح بسرك الآن ؟

قال : لو لم أسمع القنصل يذكر هذا لما بحت به

قال : وكيف عرفته ؟

قال : حدثتني به السماء بلسان حطان

فاتجهت إلى حطان العيون . .

وإذا بالقنصل ينهض عن وسادته ويضع يده على كتف النبي ويقول : ويلك يا حطان أتعرف كل شيء ؟

فقال الرجل وقد رفع نظره كأنه يخاطب سقف القبة : أجل يا مولاي كما أني أعرف جميع المتامرين . .

قال : من هم ؟

فأخذ الرجل يعد رؤوس المؤامرة وهو يبتسم بدهاء .

وقال : وماذا ترى أن نصنع الآن ؟

قال : تمطر المتامرين نعماً وتتجاهل وجودهم حتى تسمع وترى . .

قال : وكيف وضعوا خطتهم ؟

قال : لا أعلم الآن ولكني أظن أنهم عندما يشهرون السيف لا يضربون به ضربة واحدة بل ضربتين . .

فقال هازئا : واحدة لي والأخرى لهيروديس . .

- : نعم يا مولاي فعلى قوادك والمخلصين لك ان يحفظوا حياتك وحياة ولدك الذي لا يتهم ابن عمه . .

فأجابه هيروديس قائلاً : من يثبت لنا أنك صادق فيما تقول يا حطان ؟

فوثب زباي من مكانه وقال : لا تسألوه اثبات قوله فهذا هو كاهن دمشق وقد عرفته الآن .

***

مشى الجيش بعد ثلاثة أيام يريد تدمر . وأذينة يرغب في أن يحارب سابور بعد حين ، إذا توثقت عرى الولاء بينه وبين الرومان .

أي أنه لا يستطيع أن يعرف موقفه إلاّ بعد أن يتضح له موقف القيصر فيما يعني سياسة الشرق .

وقد عدل نظره السياسي ، فبينما كان يبني دعائم دولته متستراً منفرداً عن أبناء روما إذا به يصبح ميالاً إلى وضع يده بيدهم ، إذا هم وافقوه في بناء المستقبل الذي يشاء .

وتلك الكبرياء التي لمسها بسابور الفارسي هي أحد الأسباب التي أكرهته على تغيير رأيه .

كان الجيش يسير في الصحراء . متبعاً نظامه الحربي في صفوفه وفرقه وأعلامه .

إلاّ أذينة فقد خرج من تحت رايته وابتعد عن الصفوف يفكر في أمره . لا يرافقه غير حاجبه البدوي ، وذلك الغريب الداهية كاهن دمشق ونبي التدمريين .

أجل . إن حطان أضحى رجل مشورته وأمين سره . بعد أن رأى ما رآه من صحة نظره في أمور الناس .

ولم يكن يعتقدكما يعتقد غير أنه نبي . بل كان يثق بقوله وثوقه برجل من خاصته هذبته التجارب . فبعد نظره واستقام له الرأي .

وجميع القواد المخلصين لأذينة كانوا يثقون به . أما هيروديس فلم يكن يصدق أنه أصاب فيما اتهم به معني بن خيران .

لأجل هذا كان القنصل وقواده حزباً على الغلام . أما هيروديس . . هيروديس وحده ، فكان حزباً له يستعين ببلاغته وبيانه لأقناع أبيه .

على أن اقناع القنصل لم يكن هيناً . فكلما قام في صدره شيء من التردد في الموضوع ، مثلت أمام عينيه تلك النظرة القصيرة التي قرأ قبلها معاني الأخلاص الكاذب يظهره له أبن أخيه .

وقد أمسى كثير الحذر شديد الحرص على حياته ، فالحاجب وحطان لا يفارقان قبته . وإذا نام أحدهما قام الآخر على حراسة القنصل المهدد بالموت . .

وكل قائد من القواد أصبح عينا لأذينة على جماعة المتامرين . لكن هؤلاء ـ واسماعيل رئيسهم ـ كانوا أعظم من أن يسقطوا في شرك حطان ويثيروا حولهم الظنون . . ذلك لأنهم رأوا تغيراً في نظام حياة القنصل فتظاهروا بالسذاجة وحسن الخلق . واذا تخاطبوا تخاطبوا بالعيون . .

لكن حطان لا يؤخذ بالظواهر . فكلما ازدادت العصابة خبثاً ازداد هو دهاء وحرصاً ، ولم يكن يهتم بأحد من المتامرين اهتمامه باسماعيل رئيس الخونة الأكبر ودماغهم الحديدي .

فقال للقنصل وهما يسيران وراء الجيش :

من هو اسماعيل هذا يا مولاي ؟

قال : هو مربي معني . وقد كان من قبل رئيساً لمجلس الشيوخ ، دون أن يجلس في كرسي الرئاسة .

قال : تريد أن تقول أن خيران كان رئيساً بالأسم .

قال : أجل . وموت التدمريين وحياتهم في يد اسماعيل يلين ويجفوا لهم ما طاب له الجفاء واللين فلما ضعف نفوذه بعد موت خيران أراد أن يستعيد ذلك النفوذ بقتل القنصل . فنفخ روح الثورة في صدر معني واختار لتنفيذ غرضه جماعات الغاضبين والطامعين .

قال : أيصعب على مولاي أن يستريح من شر هؤلاء ؟

قال : إن الرجل الذي يهاجم سابور في بلاده لا يصعب عليه قتل اثنين أو

علامة من رجاله ، لكن قتلهم وهم الأبرياء ـ في نظر الناس ـ خطأ لا يقدم عليه فتينة ، لئلا يقول العالم إننا نبني عرشنا على جثث الأبرياء .

قال : ولكني خائف يا مولاي . .

فقال : لا تخف فلو اشترى معني جيش الرومان كله ونصف التدمريين لكان أضعف من أن يخطو خطوة واحدة الى حياة عمه . . إن قيصر الرومان نفسه ينظر إلى قنصل تدمر الآن ، نظره إلى حليف له في يده مفتاح الشرق . .

قال : أعرف كل هذا يا مولاي ومع ذلك فأنا أخشى ذلك الغلام .

قال : سترى أنه أضعف مما تظن . .

ثم قال : والآن فأذكر لنا من رأيت وراء تلك الخيمة من المتامرين

قال : ما كاد اسكندر يتبع معنا بحربته حتى رأيت عيون المتامرين ترسل من وراء الخيام أشعة الانتقام .

قال : وأنت واثق بذلك يا حطان ؟

قال : نعم يا مولاي وقد رأيتهم كما قلت لك واحداً واحداً كما أرى هذا الفرس الآن . . إسماعيل وزنباع ، ومعني بينهما ، وقائد الحامية القتيل أمام الجميع . . ثم رأيتهم يحجبون وجوههم بأكمامهم ويثبون إلى جهة الفرات .

فضرب أذينة فرسه بسوطه وقال : حسناً فلنتحدث الآن عن الرومان فما رأيك فيهم ؟

قال : إنهم أكثر نفعاً من الفرس يا مولاي .

قال : سنبعث إلى القيصر رسلاً ينقلون إليه خبر سابور . أتذهب أنت ؟

فقال دون تردد : إني ما تركت العرافة في دمشق إلاّ لأكون من رجالك . .

قال : وإذا قابلت القيصر فاحفظ كل كلمة يقولها لك ولمن حوله . . إن موقف تدمر سيتغير بعد هذه الحرب . والويل للرومان إذا استهوتهم الكبرياء كما فعل سابور .

قال : إني أرى القيصر باسطاً يده ليصافح ملك الصحراء . .

قال : إذا كان هذا فقد وضعنا الدعامة الأولى للعرش الذي نبنيه . . أمش يا حطان فسنلبس تاج الشرق على رغم الزمان . .

وهمز فرسه فجرى كالبرق بين صفوف الجيش والعز والخيلاء في بردتيه .

كانت تدمر بما فيها من طوائف الناس خارج السور والقوم بثياب العيد يستقبلون الجيش ورب الجيش الظافر . وعلى رأسهم زينب في عربة القنصل . وعن يمينها طفلها البكر وهبلات ، ووراء العجلة صف من عذارى المدينة يرفلن بالديباج . في مقدمتهن كهيلة بنت زبدا تحمل الأزاهر . . وشيوخ تدمر ووكلاؤها ومحافظوها عن الجانبين والبشر يطفح فوق الوجوه . . وقد أطل على قمة الجبل جيش المشاة يقوده زبدا ، القائد العام . وظهر في الجانب الآخر رجال البادية أمامهم هيروديس ، وحطان . . أجل حطان لا سواه وهو بلباس الحرس . قائم عن شمال عربة زينب ، يسمي لها فرق الجيش المنحدرة إلى ذلك الوادي المهيب . وقلوب الرجال والنساء تخفق من الفرح ، أشدها خفقاناً وأكثرها شوقاً واضطراباً قلب كهيلة الحسناء ، الحامل عاطفته الملتهبة ، وشعوره الصافي . وغرامه الشريف .

نعم ، لقد رأت أباها يتقدم الجيش واعلام النصر تخفق فوق رأسه ، ولكنها لم تبصر ذلك الأسير الحبيب الذي خبرها حطان بأسباب أسره يوم وصل إلى تدمر يحمل أنباء الجيش . وقد استولى الحب على قلب كهيلة فلم تبال بتلك الجموع تنظر إلى دمعها الغزير يتساقط على خديها النضيرين . . ثم أطلت فوق الرومان وظهر بعدها الفرسان بقيادة زباي . وما لبث القوم حتى رأوا صفوف الرماة والحرس القنصلي بقيادة معن بن حمدان ، ووراءهم جميعهم قاهر سابور على فرسه وإلى جانبه عدوه الصغير . معني ! !

فعلت أصوات الهتاف وضج الوادي بالدعاء لملك الصحراء .

وعندما أمسى الجيش وراء المدينة ، أصدر زبدا أمره للصفوف بأن تدور حول السور بقيادة صغار الضباط ، وتدخل من الباب الجنوبي الغربي ، إلى الميدان الكبير القائم على ضفة الغدير . ثم انتظر القواد وصول أذينة فأحاطوا به جميعهم من الجانبين ، ومشوا يريدون الباب الآخر حيث ينتظرهم القوم . .

مشهد عظيم مدهش لم ير القوم مثله يوم قدم فالريان . اجل إن تدمر

جميعها استقبلت في ذلك اليوم قيصر الرومان . غير أن ذلك الاستقبال كان مظهراً من مظاهر الزلفى . وهذا مظهر من مظاهر الأعجاب والحب .

السور وأبراجه تغص بالنساء والغلمان ، والسهل الفسيح أمام السور يموج بالتدمريين ، وعذارى تدمر ينثرن أزاهيرهن على أذينة الظافر وينشدن لسيد الشرق الأناشيد . حتى قارب أذينة عجلة زينب . فقفز عن ظهر فرسه ، وتركت هي وهبلات بين يدي المرضع . وتصافح الزوجان . . ثم تقدم الشيوخ والكهان فصافحوه وأقبل زباي وهيروديس فعانقا زينب ، ولم تنس تلك المرأة العظيمة أن تهز يد زبدا وتقول له : إن مجلس الشيوخ في تدمر يعد لك ولقوادك الأبطال أكاليل الغار .

أما معن فجثا على قدميه ، وسمع الناس زينب تخاطبه قائلة : إنهض أيها الحمداني فقد أمليت على الجيش إخلاص الجندي وعزة الشريف العربي . ثم ومأت إلى كهيلة وهي تقول : هذا أبوك وخطيبك يجران ذيول الفخار .

فارتمت كهيلة على صدر أبيها وهي تبكي ، ثم صافحت معنا وهي لا تراه ، لأن الدموع سدلت حجاباً بين العاشقين . . وقبل أن يدخل القنصل عاصمة بلاده . أخذ طفله وهبلات بين يديه وقبله قائلاً : يكفيك فخراً أيها الصغير أن أباك قهر سابور بن أردشير .

***

لم تستسلم تدمر إلى النوم إلاّ في الهزيع الأخير من الليل أما كهيلة ومعن بن حمدان فلم يغمض لهما جفن كانا يتشاكيان الهوى . . ويتحدثان بلغة الآلهة . .
وكلما ذكرت كهيلة ذلك الليل الذي قضاه معن ضيفاً على فالريان . . بل كلما ذكرت الفرات وذكرت معه حربة العاشق الروماني وسيف أبيه الغادر ، انتفض جسمها للذكرى ، واسترسلت في ذرف الدموع .
وقد حفظ معن سر المؤامرة فلم يبح به لكهيلة ، خوفاً من أن ينفجر ذلك القلب الملتهب بنار الغرام . ولأن القنصل ـ من جهة أخرى ـ أوصى رجاله بكتمان السر حتى يقبض على المتامرين . . ثم أخذ يمسح دموعها ويقول : لقد انتهى ذلك

الدور أيتها الحبيبة وشاءت الأقدار أن أنتقم لأبي من حيث لا أريد .

قالت: ولولا حطان لاستطاع النذل أن يغمد حربته في عنقك . .

قال : أجل فللرجل فضلٍ عليَّ لا أنساه وقد دعاه أذينة حكيم الجيش . .

قالت : وهو الذي دلك على قاتل أبيك اليس كذلك .

قال : نعم ، فهل خبرك الخبيث كل شيء .

قالت : لقد قصى علي ما أهتم له من حديثه وترك الباقي . . إن في عيني حطان قوة وسحراً أيها الحبيب فمن أي بلد هو ؟

فضحك قائلاً : لا يكاد يقول أنه من دمشق حتى يبتسم قائلاً إنه من حضرموت .

لكنه في كل حال رجل عجيب وهو نفسه ذلك الكاهن الدمشقي الذي تنبأ بموت أبي يوم قتله . وقد قال للقنصل اليوم انه يهودي ، كان من قبل حفاراً في فلسطين ، ثم صار تاجراً يبيع البخور في صيدا ، ثم أمسى عرافاً في الشام ، وبعد ذلك ترك العرافة لاجئاً إلى تدمر ، لينضم فيها إلى قومه اليهود . ويجرد سيفه في خدمة أذينة وزينب .

قالت : لقد جاء في الأساطير أن في اليهود أنبياء كثيرين .

ـ : نعم لكن القنصل لا يثق بهذه الحكايات .

قالت : وماذا يفعل القنصل بعد أن قهر الفرس ؟

قال : سيبعث حطان إلى القيصر يستشيره في أمر أبيه فالريان .

فتجهم وجه الفتاة وعادت إلى ذرف الدموع .

فقال : أتبكين يا كهيلة ؟

قالت : نعم فالحرب لا تخمد نارها على ما أرى .

قال : وإذا طالت الحرب ؟

فتنهدت قائلة : إذا طالت الحرب خاض معن بن حمدان غمارها وانفردت كهيلة بنت زبدا في تدمر تندب حظها وتبكي نضارتها التي يذيبها الحب .

قال : أتفكرين في أمر لا وجود له ؟

قالت : وهل تظن أن القيصر يصبر على ذل أبيه وقد رأى أذينة قادراً على انقاذه .

قال : هبي أنه لا يصبر على هذا فماذا يفعل ؟
قالت : يبعث إلى أذينة بالقاب الشرف ، ثم يسأله أن يسعر نار حرب أخرى ـــ فيها أباه .
قال : إذا كان هذا فنحن مكرهان على الصبر .
قالت : أما أنا فلا أستطيع ذلك ولا أريد أن تحجبك الصحراء عن عيني بعد ذلك .
قال : وما هو الرأي ؟
قالت : نستشير القنصل في أمر الزواج لعله يأمر به .
قال : بل نستشير حطان قبل أذينة فهو خير من نظر في أمور الناس .
فوافقته في قوله ، وقضيا ذلك الليل يبتسمان للغد ويتعللان بالأمل حتى ـــ الصبح .
وكان حطان في قصر أذينة يتهيأ للذهاب إلى القيصر النازل في مصر ، فأرسل ـ الفتى أحد الغلمان وأقام ينتظره في قصر زبدا ليسمع نبوءته في شأن زواجه .
فلما أقبل كان زبدا قد انضم إلى العاشقين
فقال معن : أجل نحن في تدمر الآن ولسنا على الفرات . .
قال : أصبت فعلى ضفة الفرات تكثر الجثث تحت أرجل الأفيال ، أما هنا ـ في قصور الأمراء تكثر في ظلام الليل أحاديث الحب . .
فضحك زبدا قائلاً : تلك لغة سكان الجنة يا حطان . .
قال : بل هي لغة المحبين يا مولاي ، أفلا ترى هذه العيون السود التي يدب ـ النعاس . تبوح بما في القلوب من أسرار الهوى ؟ !
قال : بل رأيت حطان ينهج مناهج أهل الغـرام وهـو نبـي . !! أتفاجئنا ـ حديث الحب دون أن نسألك ؟
قال : لقد قرأت فيون العاشقين تلك السطور المكتوبة في صدريهما . . لماذا ـ دعوتني يا مولاي؟
قال : دعـاك معـن لتشرب الصبـوح معـه وتقص على كهيلـة حكاية ذلك ـ الروماني الغدار .

قال : أما تلك الحكاية فقد عرفتها كهيلة قبل أن يقدم الجيش ، وأما الخم فقد أحسست أني سكران قبل أن أراها . . ثم أرسل نظره الى جانبي القاعة وقال :

لنفرض يا مولاي أني شربت عشرين كأساً وصرعتني الخمر . .

قال : وبعد ذلك ؟

قال : ثم أخذت أهذي وأنتم تسمعون ذلك الهذيان وتضحكون . .

قال : ثم نقول عنك أنك هذاء ، والناس يظنون أنك من الأنبياء . .

قال : أما والقضية قضية افتراض فلك ان تقول ما تشاء . . لنفرض أيضاً .

قال : ماذا ؟ .

قال : إن كهيلة ومعنا قضيا ليلهما طائرين في سماء الخيال . .

قال : نعم .

قال : وإن الحب الذي يبسط فوقهما جناحيه جعل أحلامهما أمالاً ومنى . .

قال : نعم .

قال : ثم برز لهما شبح بثيابه السود . . فذكرا ساعات الوداع وأخطار الحرب . وأخذا يبكيان .

فنظرت الفتاة إلى خطيبها نظرة الأستغراب . . أما حطان فمضى في حديثه قائلاً : وقلب كهيلة يا مولاي . قلب طاهر يذيبه الحب ولا يصبر على بعد الحبيب ، فلما قام في ذهنها أن الحرب ستفصل ثانية بينها وبين معن ، فكرت في ذلك الرابط القوي الذي يجمع الحبيبين . وافترض يا مولاي أن الأثنين من نصف الليل الى هذه الساعة يفكران في الزواج . . نعم يا مولاي . . ومن حق هذين الفتيين أن يتحدا . . ولكن ليس للقائد العام أن يزف أبنته إلى قائد الحرس قبل أن يستشير القنصل . فاقترح معن على كهيلة أن يستشير حطان اليهودي قبل أن يستشير أذينة . وبعث إليه ليحضر فيسقيه الصبوح ولكن من دون خمر . . !!

فأخفت كهيلة وجهها من الخجل . أما القائدان فقهقها ضاحكين . . ثم قال ربدا : يا غلام أسقنا الصبوح .

فأجابه حطان قائلاً : أخشى أن تعقد الخمر لساني فيضيع الأفتراض . .

فقال معن : إذا ضاع عوضتنا منه بحديث النبوة فما هو رأيك الآن .
قال : أتسألينني يا كهيلة هذا الرأي ؟
قالت : نعم ولأجله دعوناك كما قلت . .
- : إن أذينة كثير المطامع يريد أن يبني عرشاً في هذا الشرق .
فقال زبدا : نعرف هذا .
قال : وقد رأيت الأفق ينذر بعاصفة هوجاء في بلاد الفرس .
قال : وهذه العاصفة لا تكون إلاّ حرباً .
قال : أجل وقد يخوض أذينة غمار حرب أخرى فلا يعود من ساحة القتال إلاّ ليجلس في عرشه . . فرقص قلب زبدا من الفرح وقال : أيصير أذينة ملكاً ؟
قال : هكذا أرى وقد يجد الراحة بعد ذلك . . ثم غير حديثه قائلاً : ليعمد قائد الحرس إلى الزواج والفتن تملأ الشرق والأخطار تكتنف تدمر . وأعداء القنصل يشهرون سيوفهم ليقتلوه ؟ . . !
فقال معن : وهل يمنعني الزواج من حمل السيف والدفاع عن أذينة ؟
قال : لا ولكن القائد الذي يرى مولاه صاعداً في سلم المجد ، لا يستأذنه في أمر زواجه قبل أن يصل إلى القمة . . إنك تعرف سياسة مولاك يا معن وطموح نفسه . فإذا رآك منصرفاً إلى لذتك . قام في ذهنه أنك ذلك الفتى العاشق الذي لا يستطيع إخفاء عاطفته تحت مظاهر الجلد والصبر . . وأنك تؤثر هواك على ذلك العمل العظيم الذي يسعى إليه من وراء الستاء . .
قال : لقد جاء دورنا في الافتراض الآن . .
قال : افترض ما تشاء .
قال : هب أن أذينة فشل في مهمته ولم يستطع الوصول إلى العرش ! !
قال : عندما يخون أذينة الحظ . يلقي سلاحه أمام القدر وينتهي ذلك الواجب الذي حاول المخلصون لأذينة أن يقوموا به . وفي ذلك الحين ، أجل في ذلك الحين تصبح كهيلة بنت زبدا زوجة لمعن بن حمدان . . ثم التفت الى الفتاة فرأى الدمع يتلألأ في عينيها السوداويين .
فقال : ألا تحبين معنا ؟
فأجابه زبدا قائلاً : هذا سؤال سكران . .

قال : إذا كانت تحبه فلتصرفه عن التفكير في الزواج .

حفظاً لمنزلته عند مولاه . وإذا أراد القنصل نفسه أن يزفها اليه فلترفض قائلة : إن مصلحة تدمر فوق عواطف المحبين . . فأشرق جبين القائد وقال : أحلف بالالهة أن هذا هو الرأي ، فماذا تقولين يا كهيلة ؟

فأخذت الفتاة تعبث بجدائل شعرها ولم تجب .

فقال حطان : وأنا أحلف أن سياسة العرش انتصرت الآن على العاطفة . .

فشهقت كهيلة بالبكاء وارتمت على صدر أبيها وهي تقول : إذا كان عرش تدمر لا يقوم إلاّ على جثث العاشقين فلتسلم تدمر ولتمت كهيلة . .

فأومأ معن إلى حطان بالانصراف . . وقبل أن يغادر القصر كان يقول في نفسه : لو قرأت للناس تلك الخطوط السود التي ترى في آخر الأفق . . لارتعدت فرائص التدمريين خوفاً ورعباً . .

وعمد القائدان ، زبدا ومعن ، الى كهيلة يضاحكانها حتى افتر ثغرها ، وأخذ الثلاثة يعيدون قول حطان وينظرون فيه من كل نواحيه ، ثم بدا لهم أن يجعلوا ذلك الزواج في يد القضاء . . .

***

ألا ترين يا زينب أن نرسل حطان إلى مصر ، يحمل أخبار الحرب إلى غاليانوس الأمبراطور ؟

فأجابته زينب قائلة : إذا كان لا بد من ذلك فليعجل حطان قبل أن يعود القيصر إلى روما .

فقال أذينة : إن القيصر لا يترك مصر إلا بعد شهرين .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

أخبرني به فارس من حامية الشواطىء قدم أمس من بيروت . .

ـ ألم تكتب إلى والي فينيقيا ؟

قال : بلى وقد اقترحت عليه تعيين قائد بعلبك قائداً لحامية تدمر . أما حي ورفاقه العرب والرومان ، فقد احطناهم بنطاق من العيون .
قالت : أمن نظرة واحدة ـ قد تكون طائشة ـ تتهم أبن أخيك ؟ !
قال لقد رآهم حطان يكمنون لقائد الحرس كما قلت .
قالت : إن قائد الحرس هو غير أذينة .
قال : نعم ولكنهم يريدون قتل المخلصين أو أبعادهم ليتفرغوا لقتل قنصل .
ففكرت زينب في الأمر قليلاً ثم قالت :
ـ أحب أن أرى حطان قبل أن يذهب .
ـ إنه في هذا القصر وسأدعوه . ثم أمر الحاجب باحضاره .
فقالت زينب : أتعرف مصر يا حطان ؟
قال : أعرف من أرض مصر الاسكندرية فقط .
قالت : قد يكون القيصر في تلك المدينة فيجب أن تراه .
قال : إن الكتاب الذي يدفعه إلي مولاي القنصل لا يتناوله من يدي إلاّ القيصر .
فابتسمت هازئة ثم قالت : أتحسب بلاط قيصر الرومان كبلاط أذينة . .
قال : ليس للقيصر بلاط في مصر . . إنه اليوم ضيف على الوالي . .
قالت : أعرف ذلك ، غير أن القصر الذي يقيم به يحيطه الحراس والحجاب بالحراب حتى يصبح أمنع من قصره .
فقال : أما بلاط أذينة فسيسمى بلاط الملك الشرقي حليف القيصر . . وأما ن الرومان يلتفون حول ملكهم فسيعرف حطان كيف يصل الى ذلك الملك ولو كان فوق الهواء .
قالت : أتعرف لغة الرومان ؟
قال : إذا اضطرت عرفت لغات الشرق والغرب . .
ـ وكيف يصبح هذا البلاط لملك شرقي ؟
قال : إنها قضية سهلة يا مولاتي . . إذا لبس أذينة مثلاً تاج الملك أمست زوجته ملكة . وأضحى القصر الذي هو اليوم قصر قنصل ، بلاط ملك .

قال : سمعت من مولاك انك صادق الرأي حسن السياسة . . .

ـ يريد مولاي أن يشرفني برضاه وأنا لست أهلاً لهذا الرضى .

قالت : إن المهمة صعبة يا حطان . أواثق أنت بأنك تستطيع المثول أمام الأمبراطور ؟

قال : لا أعرف من مهمتي إلاّ أني أحمل كتاباً فيه أخبار الحرب التي نشبت على ضفة الفرات ، وإلاّ أن أحفظ ذلك الكلام الذي سيفوه به القيصر . أما الباقي من هذه المهمة فلا أعرف عنه شيئاً . .

قالت : لم يبق منه شيء فكن في مصر ذلك الرجل .

وكان أذينة يبتسم وهو ساكت .

فقال حطان : أتسمح لي مولاتي بأن أزيد على مهمتي واجباً آخر ؟ . .

فقال أذينة : نسمح لك به إذا عرفناه . .

قال : سأحمل من الاسكندرية إكليلاً من الذهب يضعه نائب القيصر على رأس القنصل ، ولا أنسى يا مولاي أن اشتري قطع الذهب الذي يصوغون منه التاج لهذا الرأس نفسه . . !!

فضحكت زينب قائلة : إن الذهب كثير في بلاد العرب يا حطان . .

ـ : نعم ولكن خير لنا أن نشتريه من مصر . .

قالت : لماذا ؟

قال : لأن ذهب القوم أكثر صفاء من ذهبنا . . وقد أراد بقوله ، إن المصريين أشد أخلاصاً وأطهر قلوباً من أهل تدمر .

أما زينب فلم تفهم ما عناه . فقالت له : أفعل ما أنت فاعل ولكن أحذر أن يغادر القيصر مصر قبل أن تصل اليها أنت .

قال : لو ركب البحر إلى روما لسبقته على ظهر الناقة فأعطني الكتاب يا مولاي .

وكان أذينة قد أعد كتابه فقال : أتعلم ماذا يفعل القيصر في مصر ؟

قال : لا .

قال : قدمها ليخمد فتنة الجيش .

قال : أتقوم الفتن في جيش الرومان يا مولاي ؟

ـ : أجل فالخونة في الأرض كثيرون . . قل لنا يا حطان ، إذا سألك القيصر عن العرب فماذا تقول ؟ فأطرق ملياً ثم قال :

أقول لولا أذينة لكان الصوت الداعي إلى الفتنة في بلاد العرب يملأ الفضاء .

فطابت نفس أذينة وقال : كما تملأ الحكمة صدر صاحبنا حطان . . فاذهب مشمولاً ببركات الالهة وإذا أردت رفيقاً فاختر من الجيش من تشاء .

قال : خير لي أن لا أختار رفيقاً يفسد علي أمري . . ثم جثا على ركبتيه أمام زينب فمدت اليه يدها فقبلها باحترام ، وانثنى فلثم يد القنصل وخرج وهو يقول : أسأل إله اسرائيل أن يطيل أيامي لأراكما ملكين . .

***

لتكن جميع الرسل كحطان . . يمشي النهار والليل ولا يشعر بتعب . وتحته ناقة ضامرة البطن طويلة الساق تسبق الطير . . وقد عرف من أبناء قومه اليهود أهل فلسطين أن القيصر باق في مصر . كما سمع منهم الحكايات الكثيرة عن حرب أذينة وسابور . ولم يكن حطان وحده في ذلك الطريق الطويل بل كانت الوفود من جميع الأقطار تقصد إلى مصر . حاملة هدايا الأمراء والقواد إلى ذلك الأمبراطور في مصر « في بلد لا يذكر التاريخ اسمه » عندما وصلت وفود الاقطار ورسول أذينة فمكث حطان ثمانية أيام ينتظر انصراف الناس ليستطيع أن يقابل القيصر . وذلك القصر الذي ينزل فيه . كان كما وصفته زينب ، تحرسه فرق الجنود بالحراب . وتقوم ببابه طوائف الحراس والحجاب . وفي مصر يعرفون أذينة كما تعرفه العرب . يعرفونه بشهرته التي ملأت الشرق . وقد انتهت اليهم أخبار ظفره بالفاتح الفارسي فنهض حطان في صباح اليوم التاسع يحمل للقيصر رسالة القنصل . وهو بلباس العرب . فتصدى له رئيس الحجاب قائلاً :

من أنت أيها العربي ؟

فقال : رسول أذينة قنصل تدمر

قال : وفي أي شيء قدمت ؟

قال : أحمل كتاباً لمولانا الأمبراطور

قال : إن صاحب الجلالة لا يأذن لأحد في مقابلته إلاّ إذا كان من الأمراء . فأعطني كتابك وأنا أعود اليك بالجواب .

قال : لقد امرني اذينة بأن لا أسلمه إلاّ للقيصر . .

فضحك الحاجب من بلاهته وقال : أتظن القيصر شيخاً من شيوخ القبائل الذين نراهم في هذا القطر لتناوله كتابك ؟ ! إن القيصر أيها الرسول أبعد من النجم .

- : إذن فعلى من يريد مقابلته أن يكون فوق النجوم . ! فاستظرفه الحاجب وقال : أو فليركب ظهر طائر حتى يبلغ سطح القصر ثم يهبط عليه من فوق . .

قال : ومن لم يرض بما قلت فماذا يفعل ؟

قال : ألا تعطيني كتابك ؟

قال : لا أقدر على ذلك ؟

قال : إذن ترجع إلى تدمر وتنقل إلى مولاك ما رأيت وسمعت . . ثم دار وجهه وأخذ يروح ويجيء في ذلك الفناء الواسع وهو لا ينظر إلى حطان . فأرسلت عينا حطان ذلك الشعاع السحري وقال : كلمة أخرى أيها الحاجب .

قال : ماذا ؟

قال : وإذا زحف سابور الفارسي الى مصر والقيصر في قصره لا يعلم شيئاً من أمره . فمن يكون الجاني على جيش الرومان .

فذعر الرجل وقال : ومن أين لسابور أن يصل إلى مصر ؟

قال : قد يقوم هو وجيشه على ظهور الأفيال في ساعة من ساعات الليل فيدك الأسوار والأبراج وأنتم غافلون .

قال : هب أن الفرس على أبواب مصر فماذا يفعل كتابك ؟

- : يطلع القيصر على رأيه في الدفاع .

قال : إذا كان هذا فلقواد الرومان رأي كرأي مولاك وأنا لا أستطيع أن أسمح لك بالدخول . وفيما هو يهم بالرجوع . أبصر رجلين اثنين يلبس أحدهما ثوب قائد خارجين من القصر . ثم رأى الحجاب ينحنون أمامهما ويمدون أيديهم

ـسلام ، وكان أحدهما من أمناء القيصر والآخر قائد الحامية . فتقدم حطان
ئلاً : كيف يستطيع الغريب أن يدخل على القيصر ؟

فقال أحدهما للآخر : أنه عربي يحمل رسالة . ثم قال : أرسول أنت ؟

ـ : نعم وأنا أحاول الدخول منذ ساعة وهذا الحاجب يمنعني منه .

قال : ليس على الرسول إلاّ أن يدفع رسالته ثم ينتظر الجواب .

قال : لكن مولاي القنصل لم يأمرني بهذا .

قال : من هو مولاك ؟

قال : أذينة بن المسيدع .

فقال لرفيقه : القنصل الذي كان يحدثنا الآن عنه . ماذا قال لك مولاك أيها
رسول ؟

ـ : أمرني بأن أعطي القيصر الرسالة وقال لي : إن لم تقدر على الوصول
يه فارجع .

قال : لقد أذنا لك في الدخول ونحن نستأذن لك على الأمبراطور . ثم
ـ إلى الحجاب فأخذوا « يفتشونه» وهو يضحك . ذلك لأنه لم يكن في ثيابه
غير الرسالة . فمشى أمين الأمبراطور والقائد ومشى وراءهما في دهاليز وأروقة
ـ صدين غاليانوس .

وكانت القاعة الكبرى تغص بالنبلاء والمقربين من فلسطين ومن أهل
مصر .

فلما دخل الأمين وخاطب القيصر بأمر حطان انصرفت تلك الجموع باشارة
ـ يد الأمبراطور ودخل رسول القنصل . وكان فاليانوس بن فالريان يناهز
أربعين من العمر وهو طويل القامة ضعيف الجسم يلمع الذكاء في عينيه ويحف
جلال بذلك العرش الذي أعدوه له . وإلى جانبه ولده سالونينوس وهو في الثامنة
عشرة . ورجل ايطالي آخر كساه الشيب حلة من الوقار . هو مستشاره الخاص .
ـمشى حطان حتى قارب القيصر فجثا على ركبتيه وناوله الرسالة فأخذها المستشار
وبدأ يقرأها وجبين القيصر يزهو وعيناه تبرقان حتى قرأ تلك العبارة القائلة أن
ـلريان باق في الأسر فعبس وجهه وأخذ ينظر إلى الرسول . ثم تناول الرسالة من
ـ مستشاره ووضعها إلى جانبه على العرش وقال لحطان :

أأنت من أشراف العرب ؟

- : لست من أشرافهم يا مولاي ولكني من حرس القنصل .

- : إذن فقد كنت بين صفوف الجيش الذي حارب سابور . .

- : نعم يا مولاي وقد استطعت أن أرى مولانا فالريان في سجنه غير أني لم أستطع انقاذه .

فقال : أجلس أيها العربي وحدثنا بما رأيت . وكان غرض حطان أن يصف للقيصر حالة أبيه ثم يعود بالاشتراك معه الى النظر في امر انقاذه . وتلك حيلة شيطانية كما ترى . أراد بها أن يثبت لقيصر الرومان أنه ليس هنالك من ينقذ فالريان من يد سابور غير أذينة فقال : بماذا يريد مولاي أن أحدثه ؟

قال : صف لنا الأمبراطور فالريان في سجنه .

قال : وأنا آمن ؟

قال : قل وأنت آمن ؟

قال : قبل أن أصير من حراس القنصل كنت عينا لأذينة في كيليكيا على سابور .

- : أي قبل أن تنشب الحرب على الفرات .

- : نعم يا مولاي . وكنت أرى الأمبراطور الأسير كل يوم تنهال عليه سياط الحراس ، واسمعه يستغيث ويستحلف سابور بالهته ليكف عن تعذيبه .

فاصفرت شفتا القيصر وقال : امبراطور الرومان يضرب بالسياط كل يوم ؟ ! .

- : بل كنت أرى الفارسي يضع نعله على رأسه ثم يرفسه هازئاً به قائلاً :

قم أيها الأمبراطور فالحرس الأمبراطوري يحييك ، وأبوك يا مولاي مضجع على الأرض لا يكاد يرفع يداً أو رجلاً حتى تجذبه سلاسل الحديد الموثقة بالأوتاد فرأى الناس دمعتين سقطتا على خدي سالونينوس أشفاقاً على جده .

أما أبوه فكان مطرقاً يرفع صولجانه ويخفضه ويداه ترتجفان ، ثم قال : ما اسمك أيها العربي ؟

قال : حطان .

قال : كيف كنت ترى الأمبراطور كل يوم ولا تقدر على انقاذه .

قال : هذا شيء وذلك شيء آخر يا مولاي . إني كنت ولا أزال أضعف من
قدم على هذا أتعلم لماذا يا مولاي ؟

قال : لا .

قال : لأن الحراس الذين يحيطون بسجن أبيك العظيم أكثر عدداً من
قيصر الرومان ، وعلى سابور يا مولاي أن يراه كل صباح ومساء .

قال : ولكن الحيلة تعمي أبصار سابور وحراسه .

قال : أجل لو لم يكن هنالك مانع أعظم من كل ما سمعت .

فقال سالونينوس : ما هو ؟ فأرخى حطان نظره الى الأرض وقال :

إن فالريان ليس انساناً بل هو صورة إنسان : أرأيت رجلاً القوه عارياً
خضيض واستمروا يجلدونه حتى بانت عظامه ونضب ماء الحياة من
. . هذا هو جدك أيها الأمير !! إن حطان إذا قدر على كسر قيوده فهو غير
على أن ينفخ في جسمه قوة الرجال .

فقال القيصر : أي أنه لا يستطيع الفرار ماشياً متحجباً وراء الخيام .

قال : بل لا أستطيع الركوب أيضاً لأن جسمه من عنقه حتى قدميه يكاد
جرحاً واحداً يبين منه لحمه اسمع يا مولاي . إن الفرس عندما ينقلونه من
آخر يضعونه على ظهر فرس ثم ايربطونه بالأمراس كما يربطون الشلو .
حسون الفرس برأس السنان فيركض به وتلك الأمراس تنزل في جروحه . .

فاختنق صوت القيصر ولو لم يذكر عز الملك لبكى كما تبكي النساء .

ثم استطرد حطان قائلاً : أما صفوف الفرس يا مولاي فكلها حراس على
يان . وليس أحب إلى قلب سابور من النظر إلى الامبراطور يستعطفه ويسأله
حمة به . فقال وعيناه جاحظتان : إذن فقد قضي على الأمبراطور أن يموت في
حبه .

أجل يا مولاي إلاّ إذا فاجأ جيش أذينة جيش الأعجام ومنع الحراس من أن
روا بأسيرهم .

قال : وكيف فاتكم انقاذه على الفرات ؟

قال : أمر سابور بنقله إلى الضفة الثانية قبل أن يصطدم الجيشان . . ولقد
القنصل كل ما يبذله الظافر لعدوه من استعطاف ورجاء ، ليقبل الفارسي

بالفداء فلم يرض . حتى أنه أباح لأذينة قتل نسائه الثلاث وولداه الأثنين . ولما يطلق فالريان . .

وقال : إن هذا الواجب الذي قام به قنصل تدمر لا ينساه له الرومان .

وكان إنقاذ فالريان واجباً في نظر غاليانوس .

فقال : إن أذينة بطل الشرق وسيده يا مولاي .

قال : أجل وسيعترف له القيصر بهذه السيادة . وكيف كان قواده ؟

قال : أكثر اهتماماً منه لأنقاذ الأسير .

قال : لا نعرف أذينة وقواده ولكن سنعرفه بعد حين ، أجمعيهم من العرب ؟

ـ : نعم يا مولاي بينهم واحد مصري .

قال : ليحذر أذينة المصريين فهم أهل فتنة .

فضحك ذلك الخبيث وقال : وبين العرب يا مولاي أصحاب فتن لولا أذينة لغير وجه الشرق . .

ـ : وماذا يطلبون ؟

ـ : ينفخون روح الثورة في صدور الناس ليسودوا أنهم يا مولاي طلاب شهرة وطلاب مال .

قال : لقد كثرت الفتن في هذا الزمان فلم يبق أمامنا غير السيف .

قال : أخمدها في الغرب يا مولاي وأترك الشرق للقنصل .

قال : إن الشرق واسع الأطراف وسلطان أذينة أضعف مما تظن .

قال : بل قل يا مولاي أن ذلك السلطان يمتد إلى أبعد من هذا ولكن الجيش ضعيف .

قال : أي جيش تعنيه ؟

ـ : جيش أذينة العربي يا مولاي . لولا ذلك لطاف القنصل في الأقاليم وخنق تلك الأصوات التي تدعو إلى العصيان . .

قال : سنجعل ذلك الجيش كثيراً وقوياً أيها الرسول .

قال : وأنا بصفتي جندياً في ذلك الجيش أضمن الفوز في كل قطر .

قال : إنك كثير الأعجاب بمولاك يا حطان .

قال : لو عرفت أذينة يا مولاي لعرفت عندئذ أن الشرق ما أنبت أعظم منه .

قال : ونسمعهم يقولون أن لزوجته زينب عظمة الرجال .

قال : إن عظمة أذينة نفسه تضمحل أمام عظمة زينب يا مولاي .

فهمس القيصر في إذن مستشاره بضع كلمات ثم قال لأمينه : أخرج مع هذا الرسول الى الرواق وسندعوه بعد قليل .

فقام حطان فخرج وهو يقول في نفسه : لقد ملأت هيبة أذينة نفس لأمبراطور . . ثم قال غاليانوس لمن حوله : ما رأيكم فيما سمعتموه ؟

فقال المستشار : كنت تقول يا مولانا قبل أن يقدم الرسول أنك ستكافىء ذينة العربي .

قل : أجل وسننظر الآن في أمر هذه المكافأة . ماذا ترى يا بني .

فأجابه سالونينوس قائلاً : أكتب إلى نائبك في سوريا ليجعله من رجال مشورته

فتكلف القيصر الابتسام وقال :

- إن أذينة في قومه يا بني أعظم من هذا النائب .

فقال قائد الحامية : لتخضع له حوامي الشواطىء كلها ندبها لقتال .

قال : إنها في الحرب خاضعة له على كل حال . .

فقال المستشار : إذا عطف القيصر على رجل من رجال دولته فليكن هذا لعطف عظيماً . ألا تريد يا مولانا أن تنقذ أباك الأمبراطور ؟

قال : إذا لم ينقذ الامبراطور انقذ الدولة الغارقة في بحور من الدماء . فتنة في بلاد مصر . ومثلها في أقاليم آسيا . وسابور لا يكاد يحتجب في عاصمة ملكه حتى يزحف من جديد إلى البلد الأمن فيفتحه ، والحصن العالي من حصون ملكك فيدكه . وقوادنا المنتشرون في الغرب والشرق ليسوا آلهة ليصونوا الملك ويحموه . فإن لم يكن لك في بلاد الغرب رجل قوي في هيبته ونفوذه . قوي في عشيرته وجنوده . تقسم الطامعون دولة الرومان التي هي دولة العالم . واستهان

الفرس بروما الى حد أنهم يهاجمونها ولا يبالون ويستوي الفارسي في عرش الرومان .

قال : إن أسر فالريان أضعف القوى المعنوية في الدولة فإذا أنقذه العربي استقوى الرومان واستعادوا شرفهم .

قال : لا ننظر إلى هذا وحده يا مولانا . إن نجاة أبيك لا ترفع الدولة الى ذروة المجد ، وبقاءه في أسر سابور لا يحطها إلى حضيض الهوان . . لنفرض أن سابور أمر رجاله فقتلوا فالريان . . فليقتل يا مولانا . . أجل ليقتل فملوك كثيرون قبله حصدهم السيف وهم يدافعون عن الشعب . . ولكن يجب ان يعلم الفرس أنه إذا قتل فالريان فقد أنجب قبل موته ولد إذا هز سيفه ارتعدت فرائص الملوك . . وأبوك أيها القيصر في العقد السابع من العمر . فإن لم يمت اليوم مات غداً أما حتف أنفه أو في ساحة حرب . . فانظر إذن إلى دولتك . واطفيء هذا اللهيب المتصاعد من الأقليم . إن الأهتمام لحياة الشعب كله خير من الاهتمام لحياة رجل واحد ولو كان الأمبراطور . . وكان ذلك القول قول حكيم خبر الزمان وأهل الزمان . فأصغى اليه القيصر وشعر ببعض العزاء . ثم قال : انجعله نائباً لنا في سوريا .

قال : إن سوريا لا تسع أطماع رجل كأذينة. لا سيما والجيش في فتنة كما قلت ، فإذا نحيت نائبك عن منصبه الآن انضم إلى ذلك الخائن مكرينس الذي خان أباك في الرها ودفعه إلى يد سابور . والذي يوقد الآن نار الثورة والعصيان في الأقطار طامعاً بعرشك .

إن الجنود المقيمين في الشرق لا يصلحون لغير الشرق ، فاجعل أذينة سيدهم جميعاً وابعثه إلى أعداء العرش . واحفظ للملمات قوى الرومان المنتشرة وراء البحار . فأعجب القيصر رأي مستشاره وقال لقائد الحامية في مصر : أدع رسول القنصل . . فدخل حطان وخفق قلبه من الفرح عندما رأى القيصر يبتسم لدخوله .

فأومأ إليه القيصر بالجلوس وقال : لقد قدرنا جهاد مولاك في سبيل دولة الرومان فأحسنا اليه أتعرف بماذا ؟

قال : بأكليل من الذهب كالأكليل الذي أراه على رأس مولاي الأمير . .
ـ إلى سالونينوس . .
قال : إن مولاك رجل حرب لا يهتم للأكاليل . . إننا ولينـاه القيادة في
ـ . .
قال : إن مولاي القيصر لا يراجع في قوله . ولكنه لم يحسن الى اذينة كما
ـ
فظن القيصر أن حطان لم يفهم قوله فقال : يخيل إلينا أنك لم تفهم ما
ـ . .
قال : فهمت يا مولاي أنك جعلت أذينة قائداً في بلاده وأنا لا أعرف في
ـ رجلاً أو قائداً أعظم منه . . فضحك الأمبراطور وقال : لم نعن تدمر فيما
ـ بل أردنا الشرق . لقد جعلنا قنصل تدمر قائـداً عامـاً على جميع جنودنـا
ـين في المشرق من أطراف فلسطين إلى أقاصي كيليكيا ومن سواحل البحر إلى
ـ الجبال . . أفهمت الآن ؟
فتهلل وجه اليهودي وقال : إنك يا مولانا خير المحسنين كما أنـك خـير
ـ في هذا الجبل . .
قال : ولكن شرطنا عليه أن يواصل حرب الفرس لينقذ الأمبراطور . .
فقال في نفسه : كان على الولد أن يهتم لأنقاذ أبيه قبل أن يتربع في عرشه أن
حنث لا ينقذونها من القبور . . ثم قال : مولانا القيصر يأمر وأذينة يطيع . .
قال : ولقـد فوضنـا إليه أن يعـزل ويولي من يشـاء من القـواد دون أن
ـشيرنا في ذلك . . وأن يجرد السيف في وجه العصاة ولو كان ولدنا منهم .
قال : ونائب القيصر يا مولاي ؟؟
قال : ليس لذلك النائب ظأن يتصدى لقنصل تدمر في شؤونه وسنكتب
ـ الى الاثنين . وليعلم أذينة أن القيصر يمد يده إليه كالملك يصافح ملكاً مثله
ـعوه أخاه . . فرأى حطان أن يمد أصبعه في الأمر على رغم ذلك الجلال الذي

فقال : أيكون يا مولاي ملكاً ولا تاج له ؟!

قـال : إذا لم يلبس الآن تاج الملك فسيلبسه بعد أيام .. ثم ق
لمستشاره :

أكتب فيما سمعت كتاباً إلى نائبنا في فينيقيا وأذكر له فيه رضا القيصر
قنصل تدمر . أما أذينة فنكتب إليه غداً . . متى تسافر يا حطان ؟

- في افساعة التي يكتب فيها مولانا القيصر رسالته إلى القنصل .

- إذن ترجع إلينا غداً عند الصباح . . وكأنه لم يشأ أن يغادر حطان مصر
قبل أن يعرف كل شيء عن عدوه سابور . فقال :

- كم كان عدد الجيش العربي يا حطان ؟

قال : كنا سبعين ألفاً مع جنود الرومان .

- وجيش سابور ؟

- أكثر من مائة الف بينهم الفيالة يا مولاي .

قال : إن قوة الفرس في ذلك الفريق الذي يركب الأفيال .

قال : أجل ولكن لم يبق أذينة منهم رجلاً ؟

قال : إن أهل فارس جميعهم يركبون الأفيال فإذا قتلت هذه الجماعة الي
قام غيرهم غداً يخوض على ذلك الحيوان الهائل ميادين الحرب .

قال : وسيكون مصير هؤلاء الفناء . إن قوة الأفيال وقوى الرجال تتلاشى
جميعها أمام ذلك القائد العربي الذي هو مفخرة الشرقيين . .

قال : ومن هو أشجع قواده ؟

قال : إن الناظر اليهم يا مولاي لا يعلم أيهم أشجع ، كلهم فتيان الحرب
يشبهون القنصل . .

- يقال أن كبيرهم الذي يدعى زبدا هو أطول رجال العالم قامة واضخمهم
جسماً . . فكاد حطان يقهقه ضاحكاً لو لم يذكر موقفه .

فقال : هذا غلو في الوصف يا مولاي فكبير قواد تدمر يشبه حطان . . أنظر
يا مولاي أني ربعة في الرجال وزبدا مثلي ضعيف التجسم عصبي الزاج . .

قال : أترى القنصل يشهر الحرب مرة أخرى على سابور .

قال : بل أنا واثق بذلك يا مولاي إذا كتب اليه القيصر أن يفعل .

قال : على أن الحرب ستكون هذه المرة في المدائن .

قال : أجل وسيدك الجيش افعربي أسوارها على رؤوس الفرس .

فطابت نفس الأمبراطور وقال : إذن فلأذينة ينشي إلى العرش بخطى سعة .

فنهض حطان ثم قال : إذا امرتني بالرجوع غداً إلى القصر فمر الحجاب حين يملأون الأورقة بأن يأذنوا لي في الدخول .

قال : سيتنحى لك الحراس غداً فقد عرفوك الآن .

***

- أتظن أيها المستشار أن رسول أذينة كثير الكلام ؟

قاف : في أي شيء يا مولاي ؟

- فيما ذكره عن مولاه وقواد مولاه .

قال : أما أنا فاعتقد أنه قصر في الوصف وأن كنت لا أعرف الرجل . ألم ... ظفره بسابور في لظيلة واحدة دليلاً على عظمته وبطولة قواده ؟ فإن لم يستطع ...ة إلاّ أن يقف في وجه الفرس ويمنعهم من الطواف في الأقاليم فاتحين فهذا ...ني . .

قال : أحسنت وخير للقيصر أن يغمر هذا العربي بنعمه فيصون مصلحة ...رمان من أن يخص قواد الأقاليم بهذه النعم فيغمطوها وينصرفوا إلى ...عديات . أكتب الآن ما تراه فننظر فيه .

فخرج المستشار وقام غاليانس يتمشى في القاعة وهو يفكر في ذلك الملك ...سع تكتنفه الأخطار . . وعاد مستشاره بعد قليل يحمل الرسالتين فقال ...مبراطور : اقرأ رسالة أذينة . فأخذ يقرأها وهذا ما كتب فيها :

من غاليانوس قيصر امبراطور الرومان إلى قنصل تدمر . . . .

لقد حمل الينا رسولك انباء الحرب التي انتهت بفوزك على سابور . على ...عيء الفرات . وكانت مصر قد تناقلت أخبارها قبل أن تصل رسالتك الينا .

فالقيصر يشكرك على ما فعلت ، ويرغب اليك في أن تواصل حرب الفرس

حتى تقهر سابور وتفوز ذلك الفوز النهائي الذي يمهد لك وللرومان سبل الراحة في بلاد العرب . ولكي نظهر للعالم كله أنك أهل لرضا القيصر وعطفه فقد جعلناك قائداً عاماً على جميع من في المشرق من جنود وقواد . تاركين لك الحق في الحرب وعقد الصلح والمعاهدات . بل نترك أمر دولتنا في بلاد العرب بين يديك .

على أننا نريد أيها القنصل أن ننفذ الأمبراطور فالريان من يد ذلك الظالم فإذا قدرت على هذا عرفنا كيف نظهر لك ارتياحنا مرة ثانية . . واعلم أننا نائبنا في سوريا بأن لا يتصدى لك في شأن من شؤون الجيش الشرقي . كما أننا كتبنا إليه أنك مستقل في هذه الشؤون لا تشاور فيها إلاّ مجلس الشيوخ في تدمر» .

وكتب المستشار في ذيل الكتاب يوصيه بتحسين موارد الجمارك والخراج فاكته القيصر قائلاً : أمح هذا فنحن لا نجد ما يدعو إليه الآن .

ثم قرأ رسالة الوالي التي لا تختلف في معناها عن رسالة القنصل .

وبعد ذلك أمر باحضار قواد الجيش المصري لأخذ العهود والمواثيق . قبل أن يسير إلى « اخائية» في بلاد اليونان .

***

ما كاد حطان يبتعد عن تدمر ، حتى قام المتآمرون يعقدون مجلسهم في ظاهر المدينة . تحت شجرة كبيرة كانت وحدها ترسل ظلاً في ذلك المكان ، وذلك الرجل الذي يرأس المجلس هو اسماعيل . وكان مجلسهم في ذلك الحين ، يشبه كثيراً دائرة إحصاء في إحدى الحكومات . تعد سكان الأراضي الواقعة في بلادها .

قال اسماعيل : أواثق أنت برجالك الرماة يا زنباع ؟

قال : ثمانون في المئة ينضمون إلى لواء الأمير عندما يرتفع أول صوت . وقائدهم السابق الذي عزله أذينة عن القيادة يتبعه ألف رجل من صعاليك قومه .

وقام الروماني اسكندر فقال : وحامية الرومان التي يرأسها قائد بعلبك ، لا نرى ما يمنعها من استعمال السيف عندما يبرز معني الى الساحة . .

قال : إن قائدها نصير أذينة ويكاد يكون أميناً لسره . .

قال : أما الحامية فإذا خرجت على أذينة فإنما هي تخرج على رغم ذلك
ـقائد الضعيف الذي تستهويه الرتب والألقاب .

فقال معني : وكم يبلغ عدد الرجال الذين يتبعون أبن خيران ؟ . . وهو
ـعني نفسه . . فقال :

ـ ثلث الحراس والفرقة الأولى من جيش المشاة . . وبعض الفرسان .

قال : إذن لم يبق أمامنا غير العمل فانظروا فيه الآن .

فقال : لا تتعجل هذا العمل يا مولاي فساعته لم تأت بعد .

قال اسكندر : أنا أول من يطعن أذينة في صدره . .. فابتسم معني ابتسامة
ـاستهزاء وقال له : لا تمتد إليه وإلى هيروديس يد قبل يدي . إنني أريد أن
ـرف هذا الخنجر بدماء الأثنين . وكان بينهم تدمري آخر من اتباع اسماعيل
ـب : اتقتلونه وهو في القصر ؟

فأجابه اسماعيل قائلاً : بل يريدون قتله وهو في كرسيه . وحوله قواده
حرسه يدافعونه عنه .

فقال معني : وكيف نقتله إذا وهو دائماً بين الجنود والحراس ؟ ! .

قال : إنك لا تقتله وتجلس في كرسيه . حتى ينهض قواده فيخلعوك عن
ـرشك قبل أن يستقيم لك الأمر . ولكن سيأتي يوم يكون فيه زبدا وزباي وأبن
ـن خارج تدمر . وليس عنده غير هيروديس وحطان . . فنضرب الاثنين
ـربتين ليس غير ويفر حطان الغريب الى بلاد قومه . ثم لا يعود القواد حتى يروا
ـيساً جديداً من حوله الجيش والشعب . فيهتف لك زبدا وزباي ويتبعهما معن
ـن معهم من الرجال . . قل لي يا مولاي . أتهاجم قصر القنصل اليوم ورجاله
ـثر من رجالك ؟ !

قال : لا .

قال : أتذهب إليه منفرداً فتغمد خنجرك في صدره وصدر ولده ويقوم في
ـهنك أنك تخرج من القصر حياً ؟

قال : لا .

قال : إذن ليس أمامنا إلاّ الصبر فأما أن يكثر رجالنا حتى يصبحوا ضعفي عدد رجالـه . وأمـا أن يبتعـد عنـه أولئـك القـواد المخلصـين له . . وبينا هم يتحدثون ، رأوا مثلثماً بعباءته يطرد ناقة له في سفح الجبل وهو ينظر اليهم .

فقال اسماعيل : قوموا نرجع إلى المدينة فهذا عين لأذينة .

فقال معني : كلما رأيت شبحاً من الأشباح خيل إليك أنه من الرقباء .

فهمس في اذنه قائلاً : أخشى أن يحمل الهواء أصواتنا إلى قصر القنصل فنموت جميعاً في ساعة واحدة . . . فنهضوا ومعني يتنهد ويقول : لقد كتب لي أن أكون غريباً بين شعبي وفي قصر أبي . . .

***

قيل لأذينة وهو خارج من مجلس الشيوخ مع قواده : لقـد أقبـل حطـان فخفق قلبه لأنه لم يكن يعلم أيحمل حطان كبرياء الرومان كما حمل معن كبرياء سابور . أم يحمل الأقرار بالجميل ومظاهر الوفاء من الأمبراطور .

وأسرع القواد يسألون عن حطان . فقال ذلك الغلام الذي خبرهـم عن وصوله لقد استدعته مولاتنا زينب . . وكانت زينب تقرأ رسالة غاليانوس عندما دخل زوجها ورجال دولته . أجل كان لزينب أن تقرأ رسائل القنصـل وتهتـم لشؤون البلاد كما يهتم لها أذينة نفسه . وهي التي تقوم مقام ذلك الزوج العظيم إذا غاب .

فكاد القنصل يقرأ سطور الرسالة مطبوعة على جبين زوجته الوضاح . على أنه لم يسألها عما تقرأ بل أومأ إلى قواده فجلسوا حوله ومد يده إلى حطان قائلاً :

ـ أرأيت الأمبراطور ؟

فقبل حطان تلك اليد وقال : نعم يا مولاي .

ـ أفي الأسكندرية أم في داخلية البلاد ؟

ـ إن القيصر لم يعرج على الاسكندرية يا مولاي .

ـ وكيف رأيته ؟

قال : أحسن من رأيت من الرجال .

فعرف القنصل عندئذ أنْ القيصر كان رجل خير لا رجل شر . . وفي تلك ساعة انتهت زينب من الرسالة . . فنظر إليها أذينة يسألها بعينيه . فقالت : لقد حعلك غاليانوس قائداً عاماً في الشرق كله دون أن يكون لوالي سوريا شيء من سلطان . . فلمعت عيناه ببارق فرح ما لبث حتى أخفاه تحت مظاهر الرصانة عز ثم أخذ الرسالة ودفعها إلى هيروديس قائلاً : أقرأ يا بني .

فجعل هيروديس يقرأ والقنصل مطرق حتى بلغ إلى قوله « نترك أمر دولتنا بلاد العرب بين يديك» ، فقال :

ـ لقد عرف غاليانوس كيف يجعل التدمريين حراساً لعرشه . . . وبعد أن هيروديس القراءة ، نظر أذينة إلى قواده فإذا الدموع تتلألأ في العيون فقال :

ـ أتبكون أيها الأصحاب ؟

فقال زبدا : إن عيوننا لا تعرف البكاء إلاّ في ساعات الفرح .

فقال : لم يحدثنا حطان بما رآه في مصر .

فقال : رأيت جيوشاً تروح وتجيء تتهيأ لأخماد الفتنة .

ـ والشعب المصري ؟

قال : أما الشعب المصري فمنصرف إلى عمله في الظاهر ولكن يقولون أنه يتحفز للوثوب . .

قال : إذن فقواد مصر خونة يضمرون لدولتهم الشر .

قال : قد يكون ذلك لأني رأيت القيصر يوثق العرى بينه وبين أولئك القواد .

قال : هذا دليل الضعف . أيلمس القيصر خيانة رجاله ويصبر على ذلك ؟

قال : وماذا يفعل يا مولاي وهو بعيد عنهم والجيش في مصر بأيديهم أكثر مما هو في يده !!

قال : لعل له في هذا عذراً . ومن يرافقه من الرجال ؟

قال : رأيت في مجلسه ولده سالونينوس ومستشاراً له ما عرفت أسمه . ولكن اعترف يا مولاي أن ذلك المستشار داهية الرومان بل هو خير من خدم الملوك رجال الرأي . لقد سمعته يصف أحوال الشرق كما يصفها الشرقي الخبير ، وينصح للقيصر بحفظ قوى الروم قائلاً له : إذا رأيت أن تصون نفوذ الرومان في بلاد العرب فاجعل أذينة ملكاً . . فاهتز أذينة في كرسيه ، إن لفظة الملك كانت شرارة كهرباء . . ثم قال : وكان القيصر يستخف بقوله ! !

- لا يا مولاي بل رأيت منه استسلاماً لا أدري أهو ضعف أم رغبة في جعل مولانا القنصل صاحب تاج . . .

قال : أعد علينا قوله يا حطان . .

قال : قبل أن أخرج من قصره ، مد إلي يده قائلاً : قل لمولاك أنه سيلبس تاج ملك بعد أيام .

فقالت زينب : القيصر نفسه ؟ !

- نعم يا مولاتي القيصر نفسه . وكنت أرى وجهه يطفح بشراً والأبتسامة لا تفارق شفتيه . .

فقال أذينة : سيكون لهذه الكلمة شأن يا حطان !

قال : بل سيكون لها شؤون يا مولاي أن الأمبراطور سليم القلب وقد قرأت في عينيه صفاء قلبه .

قال : نخشى أن يخدعك الرومان بمظاهر الولاء .

قال : أما أنا فلا أخشى إلاّ أن يدب الحسد في صدور المبغضين عندما تلبس التاج .

- إذن فأنت واثق بما سمعت . .

- كما أثق بأن مولاي القنصل سيدعو مجلس الشيوخ وأعيان تدمر ليطلعهم على أمر القيصر ثم ينصرف إلى أمر الحرب من جديد . إن العرش تبنيه معارك الظفر يا مولاي . . .

قال : إذا كان هذا فقد بنيناه . . ما رأيكم في الحرب أيها القواد ؟

فأجابه حطان قائلاً : أتسأل القواد عن رأيهم في حرب تخلق للقنصل تاجاً ! !

قال : أجل فسيوف قوادنا هي التي ترفع هذا التاج .

فقال زبدا : ننتزع مجد تدمر من أشداق الموت ، فقال القنصل لزوجته :

ـ لا خير في اذينة إن لم يسد الشرق بمثل هؤلاء ، ثم قال : أتظنون أننا نستطيع إنقاذ فالريان هذه المرة ؟

فقال هيروديس : إذا كان جسم الأسير قد بلى وهو حي فما الـذي يريده الرومان من إنقاذه ؟

قال : ننقذ شرفهم يا بني . .

قال : نبني شرفنا أولاً ثم نرى . . فلمعت عينا حطان وقال :

ـ إن غايتنا أسر ملك لا إنقاذ ملك . يجب أن يغادر سابـور هذا الشرق لأذينة وحده .

قال : وإلى أين يغادره يا حطان ؟

قال : إلى النار يا مولاي فالشرق لا يتسع لأطماع ملكين . .

فقال : سيشيع أحد هذين الملكين جثة الآخـر . . قالهـا وعـزة الملك في نفسه . .

ثم قال : الحرب في المدائن هي غيرها على الفرات ، إن سابور سيحتمي مع جيشه وراء الأسوار إذا غلبناه . . .

فقال هيروديس : وندك أسوار مدائنه على رأسه ورؤوس ذلك الجيش . .

قال : لا تنس يا هيروديس أن الفرس أكثر عدداً منا وأمنع في عاصمتهم .

فقال زباي ! أما أمنع فنعم . وأما أنهم أكثر عدداً فلا . .

فنظر إليه القنصل وقال : ما هو رأيك ؟

قال : نفني بعض هذا الجيش قبل أن يلجأ إلى أسواره .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : نهاجم الأقاليم التي ضمها سابور إلى دولته في الجزيرة قبل أن نهاجم المدائن .

قال : وبذلك يخسر الفرس فريقاً من الجيش . . لقد أحسنت يا زباي فيما رأيت فسنبدأ بالجزيرة ونزحف منها إلى عاصمة سابور .

قال : وسينضم إلى التدمريين أولئك الأشداء من العرب الذين أخضعهم سابور .

فقال معن : ما هي تلك الأقاليم يا مولاي ؟

قال زبدا : أقليماً نصيبين وحران اللذان هما أوسع الأقاليم في بلاد الجزيرة . .

فأحب أذينة أن يمازح قائد حراسه فقال : أتزور فالريان هذه المرة يا معن ؟

قال : إذا فاجأني سابور بمثل ما فاجأني به من طلائع جيشه فسأنزل ضيفاً على الأمبراطور . .

قال : ولكن نخشى أن تبقى ضيفاً إلى الأبد . . فقد يرفض سابور الفداء . .

فضحك الفتى قائلاً : هذا ما أتمناه يا مولاي .

قال : أترغب في الموت أيها القائد ؟

قال : نعم يا مولاي بل أموت على رجاء أن تحيا للعرش . .

قال : وتنسى كهيلة ؟ !

قال : لا يا مولاي بل أموت على رجاء أن تحيا كهيلة في ظل ملك الشرق وملكته . . وقبل أن الفظ الروح الفظ أسم تدمر ثم أطبق شفتي على أسم كهيلة . .

قال : تقول هذا وأنت غير خائف ؟

قال : إن أبن حمدان الذي خاض أباؤه الميادين لا يتهيب جيش سابور . أجل إني أؤثر الحياة على الموت يا مولاي . ولكنه إذا داهمني رسوله في ساحات الشرف ابتسمت شفتاي لذلك الرسول . . فبان الجد في عيني القنصل وقال :

ـ أما نحن فنؤثر أن تصبح قائداً لحراس الملك كما أنت اليوم قائد لحراس القنصل . . متى تريد أن تزف كهيلة اليك ؟

فخفق قلبه وقال : ليس لي في هذا رأي يا مولاي . .

قال : الرأي إذن للقائد العام ماذا تقول يا زبدا ؟

فقال : أمري وأمر كهيلة في يد القنصل فله وحده أن يقول كلمته .

فالتفت أذينة إلى زوجته قائلاً : ماذا ترين ؟

فقالت : إذا كان لا بد من الحرب فخير للخطيبين أن يتزوجا . إن الأرض في ميادين القتال تفتح فاها فتبتلع الناس . فمن يعلم ماذا يخلف الزمان ؟ !

فرفع حطان نظره إلى العلاء ثم قال : إذا إذن لي مولاي القنصل نظرت في أمر .

قال : إنك لا تنظر إلاّ إلى فوق تستوحي السماء . . قل ما تشاء .

قال : أتركوا أمور الزواج الآن . .

قال : لماذا ؟

قال : لأن القوم الذين يبنون دولهم بحد السيف لا ينصرفون إلى الملذات قبل أن يتم ذلك البناء . . وخيل إلى الجماعة أن نظر الرجل يخترق سقف القاعة ليتيه في الفضاء .

فقال أذينة : إنها حكمة لا نرضاها يا حطان .

قال : ليس علي أن ترضي يا مولايّ . ولكن . .

ـ : ولكن ماذا ؟

قال : على أن أذكر للقنصل ما أعرفه من أسرار هذا الكون . .

قال : وما الذي تعرفه عن زواج أبن حمدان ؟

قال : لا أعرف شيئاً خاصاً ولكن أرى أن تزف كهيلة إليه وأنت ملك . .

فضحك قائلاً : أهذه هي أسرار الكون التي عرفت ؟

قال : نعم فعندما يستوي ملك الشرق في عرشه وتحتفل قوى العرب والروم بتتويجه تحتفل تدمر عند ذاك بزواج قائد حرسه . . ولم يشأ ذلك اليهودي البعيد النظر إلاّ أن يكتم مخاوفه . . فقد كان واثقاً بأن ذلك التاج لا يسلم صاحبه إذا ضرب أعداءه قبل أن يرفعه إلى رأسه . . وإذا هبت العاصفة الهوجاء وزعزعت قوائم العرش زعزعت في الوقت نفسه أركان تدمر . وقذفت بجميع الرجال الذين يلتفون حول القنصل إلى مواقف الهواة والذل . . فخير لمعن أبن حمدان إذن أن يصبر إلى النهاية ريثما يستقيم الأمر لمولاه لئلا يجرفه التيار ويجرف زوجته ويحملهما إلى الأعماق . . أجل . إن حطان كان يرى في تلك المؤامرة ما لم يكن يراه أذينة . كان أذينة مستخفاً بأولئك الضعفاء وحطان يقرأ الخط مكتوباً في حر الأفق بحروف من نار . .

فقال أذينة : وإذا فشل ملك الشرق في مهمته ؟ . .

قال : ينزل معن بن حمدان عن حقه بالزواج . .
فقام معن فقال : لقد أصاب في قوله يا مولاي .
قال : نراك تقول هذا وأنت واثق ! !
قال : ماذا تقول أيها القائد ؟
قال : أقول أني لا أريد أن أتزوج الآن . .

فاستغرب أذينة تلك اللهجة الحازمة وقال له : أترفض الزواج بمن تحب يا
ي .

فظهر الأباء على جبين الفتى وقال : إني لا أرغب في الحياة إلاّ لأجل
نتين ، تدمر وكهيلة . ولكن تدمر يا مولاي فوق الجميع . .
قال : إن تدمر تدعوك إلى هذا .

فأجابه قائلاً : بل تدعوني إلى امتشاق الحسام في سبيل مولاي . . إن
هيلة لا تصبح زوجة لي إلاّ على أقدام العرش . . وكانت عزة نفسه في ذلك الحين
اطب أذينة . وقد استطاع أن يخفي عاطفه غرامه التي استيقظت في صدره
طلت من عينيه . .

فقالت زينب : نخشى أن يطول زمان الحرب على المحبين . .
قال : أما أنا فلا أخشى أن يفقد مني الصبر طول الزمان . .

فأشرق جبين حطان وقال : وهذا معناه أننا أنتهينا من أمر الزواج الآن . .
يس كذلك يا مولاي ؟

فقال هيروديس : لا نعلم لماذا يحاول حطان أبعاد موعد الزواج . .

قال لأني لا أريد أن يبني أحد في تدمر بيته قبل أن يبني القنصل دولة
شرق .

فقال أذينة لكبير قواده : أليس لك رأي في هذا الآن ؟

قال : لقد رأيت ما رآه الأثنان . معن وحطان . .
- : واذا لم يرض القنصل بما تقولون ؟ .

فقال معن : مولانا القنصل أعظم من أن يذل قائد حرسه . . وتربة جدي حمداناني أقتل نفسي إذا أمر القنصل بالزواج اليوم . . وأنت ترى أن ذلك الفتى باسل كتب بيده في لوح مستقبله سطراً غير مفهوم أملاه عليه الخلق العالي ونبالة القصد . وكتب لكهيلة أن تنفرد في تدمر كئيبة النفس تنتظر صعود أذينة في سلم المعالي لتزف إلى ذلك الحبيب . . فسكت أذينة ملياً ثم قال :

هكذا شاءت الأقدار فلنصبر ريثما نبلغ الغاية من سابور . .

فقال حطان في نفسه : إن في قصور تدمر رجالاً أشد خطراً من عدوك الفارسي وغير أذينة الحديث . .

***

حرب الجزيرة .

حصار المدائن ـ الأضطراب العام ـ القياصرة الكثيرون .

ـ أذينة اليوم غيره فيما مضى . . ـ

ـ ١٥ ـ

كان بالأمس ذلك الثائر المخيف الـذي يريد أن يقـوض أركان رومـا . فأصحى اليوم قائداً من قواد الروم يبني دولته في ظل دولتهم ويقوم الأخلاص في مقام ذلك البغض الذي لا تعرف الصدور أشد هولاً منه . . كان عدواً فأمسى صديقاً . بكل ما في هذه اللفظة من قوة ومعنى . . وكان ينظر إلى عرش الرومان نظر الهادم المدمر يسعى من وراء الستار ليحطمه على رأس صاحبـه . فأصبـح جندياً جباراً يشهر سيفه ليحمي العرش ورب العرش في قطره العربي . . !!

وقد نسي دم أبيه الذي قتله الرومان في ظلام الليل أنساه أياه طمعه بالمعالي وحبه المجد . وأكرهه اللقب الجديد الذي أحسن به إليه القيصر عن النزول عن ذلك الثأر الذي منعه الكرى . في ماضيه . ولعـل له عذراً في ذلك الأنقـلاب الفجائي . فبينما هو يعد عدته ليسود الشرق بحد السيف وبذل دماء الرجال ثم يتفرغ ليقذف قوى الرومان إلى البحر إذا بهؤلاء الرومان أنفسهم يطرحون تلك السيادة على قدميه ، وإذا بالقيصر نفسه يخصه بنعمه ، ويستعطفه لينقذ أباه واعداً أياه بتاج الملك الذي يذوب شوقاً إليه . فخير له أن يلبس تاجه برضى الرومان فيحفظ حياة جيشه . من أن يلبسه على رغمهم بخسارة نصف الجيش . .

إن للمقادير شأنا كبيراً في تغيير حياة الناس وتطور أخلاقهم . ولكل نابغة من نوابغ العالَم أحوال خاصة أثرت في موقفه السياسي . وكيف يرفض أذينة تلك هبة التي أرسلتها اليه السماء !! أيجعله القضاء ملكاً في الشرق كما هو القيصر منك في الغرب ويظهر الدلال ؟ !! إن هذا هو الجنون . . الرومان في بلاده جنود ه يبعثهم إلى ساحات الحرب ساعة يشاء كما يبعث رجاله العرب . يفتح المدن سيفهم ويقتحم الأسوار بصدورهم وقد تسقط دولة الفرس تحت ضرباتهم بستقل بالشرق كله . . أفتستغرب بعد ذلك خمود نار البغض والعداء في صدره ؟ تلك هي الحكمة فيما فعل أذينة . إنه إذا كان ترك دم أبيه فلكي يرفع مر إلى ذروة العلاء والبناء كان في نظره أفضل من الهدم الذي لا يضمن ثماره .

هكذا اتجهت سياسة القنصل اتجاهاً جديداً ظاهراً عرفه كل من حوله . حتى أن زينب التي لم تكن أطماعها تقف عند حد ، أحست بعد أن أصبح وجها قائد المشرق أن تلك الأطماع لا تبلغ تلك الغاية إلاّ إذا وضعت تدمر يدها في يد روما القوية الجبارة . ومشت الإثنتان في سبيل التوسع والمجد . وقد وضع دينة الحرب أمام عينيه ، وأظهر رغبة فيها لجميع التدمريين قبل أن يكتب إلى لأقاليم . وكان الحسد قد دب من جديد في صدور المتامرين حتى أن معنى صغير لم يهتف لقائد المشرق العام عندما هتف له الشعب في مجلس الشيوخ . قد رآه أذينة وحطان يبتسم ابتسامة الأحتقار لتلك القيادة ويعض شفته من غهر .

على أن الهاتفين لأذينة ، الداعين له بالظفر ، لم يكونوا جميعهم مخلصين في ضن . فإن تلك الوجوه السوداء والشفاه الصفراء كانت دلائل بغض تغلل في صدور . . وحطان يقرأ ما كتب على تلك الوجوه من سطور الخيانة والرياء . قد ملأت الكآبة نفسه . وأخذ ينظر إلى المستقبل بعينين باكيتين ولكن لا تظهر فيها الدموع . . إن تلك الجماعات التي شهدت حفلة المجلس ، كان معظمها مخلصاً لأذينة ولكن في الظاهر ، وهذا معناه أن المتامرين توسعوا في دعوتهم ساعدهم الحظ . . كان المال يبذل بدون حساب . والدعوة تزداد انتشاراً في ليالي السوداء . . وقائد المشرق لا يعبأ ولا يهتم إلاّ لتلك الأفعى الصغيرة التي

تنساب في قصره وكانت الحفلة قصيرة . ولكنها بليغة في مظاهر العظمة والجلال . . فلما انتهت وهم الناس بالانصراف قال أذينة : تهيأوا للحرب أيها القوم فهكذا يريد القيصر . . فتهامس الناس قائلين : إن أطماع القنصل ستقذف بشباب تدمر الى أشداق الموت . ولكنهم لم يظهروا غير الطاعة والرضى بما سمعوه . . ثم قال : الرومان والعرب في الشرق اخوه يقودهم الى القتال رجل واحد هو قنصل تدمر. فإذا قام من هؤلاء الأخوة واحد يفسد هذا الولاء فجزاؤه الموت . .

فقالوا : لقد بدأ أذينة يحب الرومان . .

ثم قال : ولا نقتحم حرباً إلاّ في سبيل الأثنتين روما وتدمر . . ولكنه لو سمع في تلك الساعة همس النفوس لامتلأ صدره غيظاً . كان الخونة يقولون في سرهم : كذبت يا أذينة فأنت تحابِ لتصير ملكاً واستطرد قائلاً : وسننقذ فالريان من أسره هذه المرة ولو كان جثة خرساء فقالوا : يظهر أن دعائم عرشك لا تبنى إلاّ على هذا الانقاذ . . تلك هي حال أولئك التدمريين الذين يحيطون بأذينة ويحرقون البخور على قدميه ، غير أن حطان كان يقرأ ما في تلك الصدور من عواطف وأسرار . فلما غادر القنصل مجلسه مشى وراءه وهو يخاطب نفسه قائلاً : إذا كتب لتدمر أن تخسر أذينة بن السميدع فقد كتب لها الشقاء إلى الأبد .

***

مشت رسل أذينة إلى الأقاليم تحمل للقواد والأعيان كتاب القيصر لأذينة وتدعوهم إلى الاجتماع في تدمر مع ما يتبعهم من جنود وقوى ليزحفوا إلى الجزيرة ثم إلى بلاد الفرس . وكان أذينة في مدينته يعد عودته من جديد ولكن بسرعة وحزم لم تعرفها تلك المدينة من قبل . وقد بعث رؤساء العشائر إلى حلفائهم سادة القبائل المنتشرة في البادية يدعونهم إلى امتشاق الحسام بأسم القنصل العربي . . وبينما كان القائد العام الجديد ينظم صفوفه ليرفع الأسم العربي إلى ذروة العلاء ، كان انسباؤه الطامعون ينظمون صفوفهم ليسودوا العرب ويسلبوا سيدهم ذلك الشرف الذي يسعى لأجله . . وكانت كهيلة ترى الصفوف تتزاحم

في المدينة بعينين دامعتين وقلب تملأه الكآبة . وقد استطاعت أن تكتم عاطفتها بشيء من الصبر . يوم نقل إليها أبوها وخطيبها ذلك القرار الذي اتخذاه مع المنصل بشأن الزواج حتى أنها لم تقل لمعن كلمة عتاب . . إن ذلك القلب العاشق الذي برح به الغرام كان قطعة من قلب زبدا أبيها ، الذي يصون عزته وشرفه في اليوم العصيب وإذا كان معن بن حمدان كبيراً في خلقه فذلك لم يكن دليلاً على خمود نار الهوى في فؤاده . بل كان دليلاً على سمو عاطفته في ذلك الغرام .

***

قبل أن يزحف الجيش إلى الجزيرة ، ولدت زينب غلاماً ثانياً دعاه أذينة حيران ، فاحتفلت تدمر بالمولود الجديد . ومشى ذلك الجيش الجرار إلى ميادين الحرب ، بعد ثلاثة أيام . ومعني . ! أجل أن ذلك الولد العجيب لم يكن يفارق عمه إلاّ لأمر ، وعندما كان ذلك العم يترك فرسه ليركب ناقة له ، كان الفتى الصغير يترك فرسه لاسماعيل . ويعلو ظهر ناقة مثلها ليساويه في كل شيء . .

مظاهر أذينة ، مظاهر قائد عظيم يفتح بسيفه الأقطار التي اغتصبها سابور من الرومان . ومظاهر معني ، مظاهر قائد عظيم وضع يده في يد ذلك الفاتح يقاسمه شرف النصر . . أذينة رب الجيش الظافر الذي يبسط نفوذه ويرفع لواء مجده في سماء الشرف . ومعني في نظر نفسه كان سيداً لذلك المغتصب الذي احتفظ بالرياسة وسيحتفظ بالعرش لنفسه متمتعاً بما خلفه له أخوه من عظمة وسلطان . .

لم يزرع أتباع معني في صدر الفتى غير البغض ولم يزينوا له غير الانتقام من بطل الصحراء الطامع ، حتى أنهم لم يتركوا له مجالاً للتفكير في أن تدمر لولا أذينة لكانت نهباً مقسماً لفاتحي الرومان . . كذلك لم يكن يفكر كما قرأت فيما تقدم من الفصول ـ في أن رياسة الشيوخ في تدمر لم تكن بالوراثة . . إن ذلك الحق الذي صوروه له فأخذ يدعيه كان وهماً كاذباً . ولو أمعن فيه نظره لاتضح له أن الرومان لم يجعلوا رياسة المجلس في ذلك البيت إلاّ لأنهم رأوا نفوذ أعضائه

يمتد إلى بوادي العرب . ولأن مصلحتهم في ذلك القطر كانت تقضي بتولية البيت القوي في نفوذه . . وقد ملأت الخيلاء نفس الفتى . واستهواه الزهو الذي يدب في عروق الفتيان الأشراف عندما يرون رؤوس القوم تنحني لهم ، ودخان البخور والزلفى يملأ أنوفهم . أولئك الفتيان الذين تحدروا من أصل كريم فسادوا قومهم بحكم الارث لا بقوة الخلق الطيب والعمل المشكور . . وكلما كثر أتباع معني وحزبه ، أزداد الفتى غروراً وزهوا . وقام في ذهنه أنه ابن الالهة ، وأن عمه وأولاده ومن يتبعهم من رجال وأنصار خونة ومغتصبون . وازداد إدلالاً واجتراء على عمه . . لا يبالي بواجب الاحترام تكرهه عليه منزلة أذينة وشخصيته وأذينة يبتسم لمظاهر استخفافه ولكن بمرارة نفس . وهو يأبى أن يفضحه أمام الجيش ويفضح أصحابه . . غير أنه كان أشد حرصاً على حياته في ذلك الحين منه في كل زمان ، ذلك لأنه كان يرى العداء ظاهراً في كل أعماله . والبغض القاتل بادياً في عينيه ومكتوبة سطوره على جبينه الصغير . وحطان النبي ! ! وحاجب القنصل البدوي يتناوبان على حراسة بابه . وعيون القائدان الكبيرين زبدا وزباي وهيروديس ومعن وأركان حربهم تحيطبخيمته في جلوسه وقيامه ، ويقظته ونومه . على رغم ذلك الواجب العظيم الذي يملي عليهم حفظ النظام في الجيش . أجل ان أولئك القواد أنفسهم كانوا يحرسون القنصل دون أن يقيموا الدلائل على تلك الحراسة . . وكانوا يعرفون بفضل حطان . جميع الرؤوس الخائنة التي تضمر الشر لقائد المشرق العام . على أن هيروديس لم يكن يوافقهم فيما يقولون عن معني ، وأن واقفهم في اتهام مربيه والرجال الذين يلتفون حوله . وكان يردد قوله السابق : إن هذا القلب الصغير لا يعرف الحقد . . وإذا هو سهر على حياة أبيه ، فعن رغبة في التحفظ وليس عن خوف . . أي أن القواد كانوا حزباً وهيروديس ـ كما تقدم ـ حزباً آخر فيما يعني الوارث الثائر . معني . .

وللأقدار يد في هذا . فإن الحوادث التي عقبت ذلك الاعتقاد انما هي نتيجة الرأي الفاسد الذي كان يراه ابن أذينة . بل هي نتيجة حسن الظن الذي وضعه في موضوع لا يصلح له . . وكان اسماعيل وزنباع ورجال المؤامرة جميعاً واثقين ـ بالنظر إلى انتشار دعوتهم ـ بأنهم سيصبحون سادة بل سادة العرب بعد أن تنتهي حياة أذينة بالشكل الذي دبروه . كما كانوا واثقين بأن

ـنصل ورجاله لا يعلمون من أمورهم شيئاً وبأنهم إذا ضربوا ضربتهم فإنما ـعلون ذلك وراء حجاب كثيف من الأسرار .

هكذا كانت المؤامرة تمشي بخطى واسعة إلى الأمام يزيدها توسعاً سكوت ـينة وصبره على ما يراه . .

***

خيم الجيش التدمري على بعد مرحلتين من نصيبين ونصيبين كانت في يد ـ ومان . فطردهم منها سابور الفاتح كما طردهم من جارتها حران . وجعل في ـبنتين حامية من أشداء الفرس . يردون غارة الرومان الطامعين إذا هم أرادوا ـ يسترجعوا شرفهم الذي خسروه في الاثنتين ، وكان جيش أذينة اليوم أكثر عدداً ـ وهو على الفرات . وقواد الرومان الذين يخضعون له أبعد نظراً ، وأطول سيفاً ـ ولئك الذين رافقوه في الحرب الأولى . فلما استراح الجيش دعا إليه قواده وقال ـ : هذه نصيبين كانت للرومان فاغتصبها سابور . وهي مدينة كثيرة الخيرات ـعة الأطراف سنضمها إلى تدمر بقوة السيف . فمن يفتحها غداً ؟ ؟ قالها ـختبر بطولة رجاله وبسالة قواد الرومان . .

فأخذ القواد من الفريقين يتسابقون للحصول على شرف الفتح .

أما زنباع فقال : يجب أن تعلم عدد الجيش الفارسي يا مولاي .

فأسكته أذينة قائلاً : عار على قائد الرماة في تدمر أن يسأل مثل هذا ـؤال . أتخشى كثرة العدو أيها القائد الشجاع ؟ . .

فتصدى معني لعمه وقال : هذا سؤال رجل خبر الزمان وخاض ـحين . .

قال : بل هو سؤال رجل جاهل وجبان . أتكون حامية الفرس أكثر من ـ الجيش الزاحف إلى المدائن ؟ ! وهب أنها أكثر عدداً أفيقوم في أذهان الأبطال ـ كثرة العدد تغلب القوة ؟ !

قال : نعم وهكذا أسمعهم يقولون . .

قال : تسمع جبانا مثل هذا . . أما نحن فلا نحب أن يكون في جيشنا من يسأل عن عدد العدو . .

فقال اسماعيل : إن مولانا القنصل يريد أن يكون قواده مثله لا يسألون عن شيء . .

ففهم أذينة مغزى كلامه فقال : إلاّ عن الأخلاص والطاعة . ونظر إليه نظرة غضب وشفتاه ترتجفان .

فأجابه ذلك الداهية قائلاً : ليس في جيش مولانا من هو غير مخلص . .

فكاد يقول له : أما غير المخلصين فأنت ورفاقك . ولكنه عض على شفته ولم يستحسن أن يفضحهم في ذلك الحين . فقال : أحسنت يا اسماعيل ولكن في الجيش بعض الجبناء . .

قال : قد يكون ذلك يا مولاي غير أن زنباع ليس منهم .

فخشى معن أن يخرج القنصل عن حده فقال : أتأذن لقائد حرسك يا مولاي في أن يهاجم نصيبين ؟

قال : أنت ؟ ! .

- : نعم يا مولاي فأني أريد أن أمتحن نفسي . .

قال : ليس لك عهد في الفتح يا أبن حمدان .

قال : أتراني حملت السيف لأنني عطفي أمام الجنود ! ! .

قال : بل حملته لتحسن الدفاع عن مولاك لا لتكون فاتحاً . .

فنهض الفتى قائلاً : قتلني بعل إن لم أحسن غير الدفاع . . أعطني فرقة من الجنود يا مولاي !

قال : ولكنك لا تعرف نصيبين قبل الآن .

قال : أعرفها عندما أدخلها دخول الظافر . .

فضحك أذينة وأجابه قائلاً : إن القائد الذي يثق بنفسه مثل هذا الوثوق ، لا نرد له سؤاله . . لقد أذنا لك أن تضرب نصيبين .

قال : ولي كلمة أخرى يا مولاي . .

قال : ما هي ؟

قال : أن تبعث معي حطان . .

فقال القنصل : لقد عرفت أن تختار يا معن بل عرفت كيف تضمن النصر ـ حطان هو وحده نصف الجيش .

فقال اليهودي : لست من رجال السيف يا مولاي .

قال : ولكنك سيد الرجال في حكمة نفسك أتعرف المدينة ؟

قال : نعم وكان لي فيها بعض الأهل ففروا من وجه الظالم الفارسي .

قال : أنتم اليهود تملأون الأقطار ولكنكم مضطهدون كأتباع الناصري سننظر في أمر هذا الأضطهاد بعد قليل . . وكأنه أراد بقوله أنه سيهتم ـ بعد أن سي ملكاً ـ لأولئك المضطهدين الذين يستظلون بظله .

فقال حطان : هذا ما ينتظره الشرق يا مولاي . .

فالتفت أذينة عندئذ إلى ولده وقال : وأنت أيضاً ستهاجم نصيبين يا هيروديس ، معن من الجنوب وأنت من الشرق فتتلاقيان عند ذلك الحصن عظيم الذي بناه الرومان والذي تقيم فيه على ما نرى حامية الفرس .

قال : أتبعث إلى المدينة قوتين يا مولاي ؟

قال : أجل . ونقف نحن على بعد فرسخ واحد نزحف إليها إذا خانكما حظ . . إننا لا نبالي من جهة ، بكثرة عدد الفرس . ولكننا لا نستهين من جهة حرى بقوة العدو . . ففهم هيروديس أن أباه يعطي قواده أمثولة في التحفظ ورباطة الجأش .

فقال معن : إذن سيكون لنصيبين فاتحان .

قال : هكذا تملي علينا الحكمة التي يتبعها هذا الرأي .

قال : إنك صاحب السيف يا مولاي كما أنك صاحب اليهودي . . ألا توافقنا فيما نقول يا حطان ؟

قال : لقد انتهينا من هذا الآن . . إن هيروديس ومعنا يمشيان قبل أن يتنفس الصبح فلا تطلع الشمس حتى يحطما الأبواب ويدكا الأسوار .

فقال معن : ستسقط أسوار نصيبين أمام هيبة أذينة .

فقال : ونحن مع زبدا وزباي لا ندخل المدينة حتى تأذنا لنا في الدخول . . أكتب الآن يا أسماعيل .

من قنصل تدمر أذينة بن السميدع القائد العام لجنود الرومان في المشرق الى القائد الفارسي في نصيبين :

لقد جئناك فاتحين باسم روما وتدمر ، فإذا تناولت كتابنا فافتح أبواب المدينة لندخلها وأنتم أمنون ، وإلاّ دخلناها عنوة وأعملنا فيكم السيف .

ثم قال لحطان : ليس لنا غيرك في المهمات فاحمل هذا الكتاب إلى حامية الفرس فأذينة لا يكون غادراً .

قال : أتنذرهم يا مولاي ؟

قال : بل نخيرهم بين أن يستسلموا أو يمتنعوا .

ـ : ولكنها مهلة يمتنعون بها في أبراجهم فوق الأسوار .

قال : وهكذا نريد نحن فلا تهتم لهذا الامتناع .

فتناول حطان الكتاب وقال : إذن أذهب الآن .

قال : أجل لتعود في أول الليل ويستطيع ـ الفاتحان ـ هيروديس ومعن أن يزحفا عند الفجر .

فخرج اليهودي وهو يقول في نفسه : إن عظمة هذا الرجل وعزته تضيعان في صبره على المتامرين . . ولو كنت أذينة قنصل تدمر لضربتهم ضربة لا ينهضون بعدها لأمر ولو قيل أني أظلم الناس . . ثم ركب راحلته وهو يفكر في الاستيلاء على نصيبين إذا امتنع أهلها في أبراجهم . وكانت الشمس قد توسطت فلكها عندما وصل إلى الباب الجنوبي . فتصدى له الحراس بالحراب . فقال لهم : كلما طرقت بابا تصدى لي حراسه بحرابهم كأني أحد الفاتحين . . أفلا ترون أني أعزل وأني رسول يحمل كتاباً إلى صاحب نصيبين ! !

فقال أحدهم بالفارسية : أأنت عربي ؟

قال : نعم ورسول قائد العرب . .

قال : من هو هذا القائد ؟

قال : أذينة صاحب تدمر . . فتراجع الحـراس الى الوراء واستولى عليهم الاضطراب ، ذلك لأن أسم أذينة ملأ الجزيرة جلالاً وهيبة بعد ظفره بسابور على ضفة الفرات . . ثم قال الحارس : وأين هو الآن ؟

قال : على بعد بضع مراحل . . أتخافون أيها القوم ؟ فاستطاع الرجل أن يظهر في غير مظهره فقال : إن جنود سابور لا يخافون . . ما هو غرض مولاك ؟

قال : أما غرضه فلا يعلمه مثلي . أمرني بأن أحمل رسالته إلى قائد نصيبين بعثت . أتأذن لي في الدخول أم ماذا ؟

قال : أحب أن أعلم إذا كانت هنالك حرب قبل أن أستأذن لك .

قال : ما أظن أن القنصل يجتاز الصحـراء لأجـل الصيد . . قد يكون غرضه ما ذكرت .

قال : وهل أنتم كثيرون أيها الرسول ؟

فضحك حطان ضحكة طويلة ثم قال : يخيل إلي أنك من نبهاء الفرس وقادتهم ولـو لم تكن من هذا الصف لما جعلوك سيد الحرس على الأبواب . . اسمع يا مولاي ! إن الجنود التي يقودها أذينة من العرب والرومان أكثر عدداً من ذرات الغبار الذي يتطاير في أيام الخريف حول نصيبين . . أرأيت كثبان الرمل التي جمعتها الرياح في الشمال الشرقي من هذه المدينة إن رجال أذينة أكثر منها . . فاصفر وجه الفارسي ووجوه رفاقه وأخذوا يفكرون .

فقال حطان : أعتقد أن قائدكم سيسلم إلي المفاتيح .

فهز الحارس رأسه وقال : إن القائد أبن عم لسابور فلا يترك المدينة إلاّ إذا قهروه .

قال : استأذن لي وسأقص عليك عند رجوعي ما يدور بينـي وبينـه من حديث .

فانصرف كبير الحراس يستأذن رئيسه وقلبه يرقص في صدره من الخوف .

فقال له ذلك الرئيس : إن هؤلاء العربان لا يستطيعون أن يقتحموا أسوارنا ولو هبطوا من السماء فدعه يدخل واحفظ الباب .

فدخل حطان . ولكنه لم ير عن الجانبين غير وجوه عربية أخضعها سابور .

أجل ! إن في نصيبين طوائف من الفرس والأرمن وغيرهم من الشعوب ولكن العرب يزيدون على هؤلاء وهم ينفرون من الفرس ، واجتاز هو ورفيقه الساحات والأسواق يمران بين بيوت مستطيلة يحاذي بعضها البعض الآخر بشكل غريب لا وجود فيه للنظام وللفن حتى وصلا إلى بناء عظيم هو الحصن الذي تقيم فيه الحامية وقائدها الأكبر . فأخذ حطان يدرس موقعه ويقيس بنظره المسافة القصيرة التي تفصل بينه وبين السور من الجانب الشرقي ، ثم دخل الآثنان .

وكان القائد ينتظر وصول حطان وعنده وجوه أصحابه فلما أقبل عليه رأى رجلاً ضخم الجثة طويل القامة يرسل إلى صدره لحية سوداء لمعت فيها بعض الشعرات البيض فحنى حطان رأسه ومد يده بالكتاب .

فقال الفارسي : أيطمع بنا مولاك أيها العربي ونحن في الجزيرة ؟ !

فأجابه قائلاً : أجل أيها القائد أن مولاي كثير الطمع حتى أنه يحدث نفسه بالجلوس في عرش الفرس .

قال : وهو لا يعلم ماذا تعد له من مظاهر الاحترام . .

قال : الرجل الذي يجاوز طمعه الغاية لا ينظر إلى ما حوله . .

قال : وهكذا يفعل صاحبك . ألم يقم في العرب من ينصح له بالعدول عن زيارة نصيبين ؟ !

قال : لقد تمادى في طمعه فهو لا يقبل نصحاً . .

قال : وقد غره ذلك الفوز الذي تم له على الفرات .

قال : والمرء من طبعه كثير الغرور . . !

قال : وقد فاته أن جيشنا الذي حاربه في ذلك الليل كان منهوك القوى وقد أتعبه الفتح . . قال : أصبت يا سيدي فأذينة لم ينظر إلى هذا !

قال : أراك فصيح اللسان-أيها العربي فماذا يسألنا مولاك في كتابه؟

فابتسم حطان ابتسامته المعروفة وقال : يسألك ما لا أجسر على ذكره يا مولاي . فأقرأ الكتاب . . فأومأ إلى أحد الضباط فقرأه وأصحابه يسمعون . وقد

حمرت عينا القائد من الغضب ثم قال : يسألنا صاحبك أن نستسلم اليه وسنأتمر
مره . . قم يا غلام فاطعم الرسول . . فعرف حطان أن الرجل يريد أن يباحث
ركان حربه . فنهض وقال : أأنتظر الجواب ام أعود؟

فنظر الفارسي إلى ضباطه ثم قال : أنتظر وسننظر في هذا الأمر . . وأخذ
لقوم يتشاورون .

فقال القائد : ليبد كل منكم رأيه فيما سمع الآن .

فقال أحدهم : أتعرف أذينة يا مولانا ؟

قال : لا ولكن وصفه لي أحدهم فبالغ في الوصف .

وقال آخر : سندافع عن نصيبين ولكن من وراء الأسوار . فأجابه آخر
قائلاً بل ننازل العرب خارج المدينة ولاّ نلجأ إلى الحصون إلاّ إذا كتب لهم
نصر .

فقال القائد : عندنا عشرة الآف وتريد أن تنازل بهم عشرين الفاً على الأقل
نعلم كم هو عدد العرب؟

قال : لا وعلينا أن نعرفه من الرسول قبل أن نكتب الجواب .

قال : لم يبعث اليك أذينة رسولاً أبله يطلعك على أسرار جيشه . إن هذا
العربي الذي يحمل الينا كتاب مولاه قد يكون من أعظم القواد . . ومع ذلك
سنسأله عن كل شيء . فقام ضابط أبيض اللحية والرأس فقال : إن الجيش
العربي قبل أكثر منا عدداً على كل حال ولا قبل لنا بالحرب خارج نصيبين . وكان
ابن عم سابور يحترم رأي ذلك الشيخ فقال : وإذا سقطت الأسوار واستولت
العرب على المدينة أفلا يقول سابور أننا جبناء ؟ !

قال : خير لقواد الجيوش أن يتبعوا طرق الحكمة من أن يسلكوا سبل
الجهل أن الخروج لقتال العرب هو الانتحار نفسه .

قال : نراك خائفاً أيها الضابط .

قال : أنك أعلم الناس بأني لا أخاف . وإذا عرفت الخوف فعلى شباب
الفرس الذين تفتك العرب بهم وليس على نفسي .

قال : أتوافقونه في هذا الرأي أيها الضباط . . فارتفعت أصواتهم
قائلين . .

نعم وعلينا أن نبعث الرسل إلى قائد حران ليرسل الينا بعض جنوده .

فقال الشيخ : لا نكاد نرسل أحداً حتى يفاجئنا أذينة برجاله .

فقال القائد : وعندئذ يصبح التدمريون بين جيشين حامية حران من ..اء ونحن من الأمام . ثم أمر بحطان فاحضر . فقال له : لقد اتضح لنا أن ..ك رجل الحرب فلا تستطيع نصيبين ان تقف في وجهه . ولكننا سنحتمي وراء ..ارنا . وندافع عن المدينة دفاعاً لا يقوم في ذهننا أننا نفوز فيه . ولكنه واجب ..دي الشريف في مواقف القتال . فإذا فتح أذينة المدينة كنا أول من يظهر له ..ضوع وإذا تراجع فلا تتبعه جنودنا لأننا لا نريد قتاله ولا نضمر له الشر . .

وكانت لهجته لهجة نبيل هادىء حسن الأسلوب حلو اللسان . . فقال ..ودي في نفسه : أرى هذا الفارسي الضخم الجثة ينصب لي شركاً . . وقد ..م أن يجاريه في الدهاء . . ثم قال القائد : في أي شيء يفكر مولاك بعد فتح ..يبين ؟

قال : سمعته يقول أنه يذوب شوقاً إلى حران ثم إلى المدائن !

فابتسم قائلاً : أبعشرين الفاً من الرجال ؟! فاطرق حطان متظاهراً ..تفكير ثم رفع رأسه وقال : كنت أحب يا مولانا أن أبوح لك بأشياء . .

قال : وما الذي يمنعك من ذلك ؟ . .

قال : لا أستحسن البوح بها أمام الناس . . فبرقت عينا الرجل وأومأ إلى ..اله بالانصراف ثم قال : لقد خلا لنا الجو الآن فقل ما تشاء . فتلفت اليهودي وشمالاً وخفض صوته قائلاً : اعلم يا مولانا أني لا أحب ذلك الرجل . .

- : أي رجل هذا ؟ !

قال : أذينة صاحب تدمر الذي يثق بي .

قال : ولماذا لا تحبه .

قال : لأنه ذبح أبي وأمي على عتبة الهيكل في تدمر .

قال : يفعل هذا وتبقى في خدمته ؟ !

قال : إنما بقيت لأنتقم لهما ولقومي الذين أذلهم . .

قال : وهو عدو قومك أيضاً ! .

- : نعم يا مولانا قتل منهم من قتل وطرد الباقين فرحلوا إلى فلسطين ودمشق .

- : وما هو سبب العداء ؟

قال : سببه أنا من اليهود وأقسم لك يا مولانا برأس سابور أني سأذبح أذينة في خيمته قبل أن يصل إلى المدائن . . فأخذ الفارسي يعبث بلحيته ويقول :

إنه لا يصل إلى المدائن ولو اتخذ الهواء مطية له . ما رأيك الآن في الدفاع ؟

قال : أرى أن الظالم سيدكَ أسوار نصيبين ولو كانت الحامية ألف ألف . .

قال : أيحمل أذينة « المنجنيق» .

قال : يحمل الجيش جميع الآت الحصار . ولنفرض يا مولانا أنه لا يحمل شيئاً من هذا فسيوف رجاله ورماحهم تخترق الجدران وتنفذ من الحديد . .

قال : إنك كثير الأعجاب به وهو عدوك ! !

قال : لئن أظفرني الله به لأشربن دمه . ولكن هذا هو الواقع ولا أريد أن أخدعك .

قال : أيقود أذينة الرومان الذين في سوريا ؟

قال : أجل وقد انضمت إلى جيشه جميع قبائل العرب المنتشرة حتى أضحى عدد الجيش أكثر من مئة وخمسين ألفاً عليه الأمراء والقواد . . فاضطرب الفارسي من الخوف وحطان إنما أراد أن يبعث الذعر الى تلك الجثة الضخمة التي حاولت أن تخدعه بالمظاهر الكاذبة . ثم استطرد قائلاً : فإذا رأيت يا مولانا أن تستسلم إلى الظالم فقد حفظت شباب قومك ثم ننظر بعد ذلك في أمر القضاء عليه قبل أن يغادر حران . . وقد نال حطان بغيته فإن الذعر استولى على قلب القائد وجعل يفكر في ذلك الاقتراح . . لكنه لم يجرؤ على تنفيذه خوفاً من سابور ، أيستسلم أو يفر وهو أبن عم الملك وسليل الملوك ؟ .

ولكن إذا أسره فأي عار يلحق به من ذلك الأسر ؟ ويظهر أن حطان عرف ما يجول في خاطره . فقال له : أظن أن مولانا يستصعب الاستسلام .

فتنهد الفارسي وقال : كما نستصعب الفرار من وجه عربي لم يزر الجزيرة قبل اليوم . . ولكن لنا رأي . .

قال : وما هو ؟

قال : ندافع حتى تسقط الأسوار ثم نفر إلى المدائن فتتهيأ لصاحبك . إن مئة وخمسين الفاً من الرجال لا تثبت أمامهم نصيبين . فقال حطان في نفسه : لقد قتله الخوف . ولم يشأ أن يتمادى في نصحه خوفاً من أن يشك فيه . فقال : إذا كان هذا فاكتب ما تراه الآن لأنصرف بالجواب إلى قاتل أبي وأمي . .

قال : أتستطيع أن تعين لنا ساعة وصول الجيش العربي ؟

قال : سمعت أذينة يقول لقواده : ستزحفون إلى نصيبين غداً بعد الظهر . .

قال : حسناً وهل تزحف قوى الجيش جميعها فتهاجم المدينة من الجهات الأربع ؟ .

قال : هذا لا شك فيه فالمئة وخمسون الفاً يثبون وثبة رجل واحد فيهتز لوثوبهم السور وما تحت السور ، وتتزعزع أركان هذا الحصن الجبار ثم يسقط على المقيمين فيه .

قال : إنه لا يسقط وفيه واحد من الفرس .

ثم أمر غلمانه فنادوا الضباط . فقال لأحدهم : أكتب إلى صاحب تدمر ما نمليه عليك :

من حاكم نصيبين وقائدها بأمر سابور بن أردشير ملك الملوك . إلى أذينة العربي :

كل ما ورد في كتابك يدل على غرور . فاعلم أن نصيبين لا تستسلم حتى يمر جيشك على جثث الفرس وتفنى الحامية التي تعرف أن تصون شرفها في مواقف الدفاع . فافتح المدينة عنوة إذا قدرت وليلبس جيشك الدروع يتقون بها النبال تسقط من فوق الأسوار .

فأخذ حطان الكتاب وقال : أأذهب الآن يا مولانا ؟

فقال أجل وتستطيع أن تصف لمولاك ما رأيت .

فنهض قائلاً : وعسى أن نتلاقى وراء أسوار المدائن وينقضي ذلك الأمر.

فابتسم الفارسي ابتسامة الواثق أما أصحابه فلم يعلموا معنى ذلك الابتسام .

وخرج حطان وهو يهزأ بذلك النبيل الطيب القلب الذي ولاه سابور قيادة حامية في مدينة عظيمة كنصيبين . وخلا القائد برجاله فقال لهم : اعرفتم عدد الجيش العربي ؟

فقالوا : قد يكون ضعفي الحامية . .

فقال : بل خمسة عشر ضعفاً ليس غير . . ! فكأن قذيفة انفجرت في حسهم .

إن جيش العرب يوازي جيش سابور نفسه فكيف تثبت نصيبين أمام سنوفه !

فقال الضابط الشيخ : إذن فالمدينة تصير إلى الفناء !

قال : نعم وعندما يستولي العرب على هذا الباب نفر نحن من الباب الآخر إلى حران .

قال : وإذا هاجموا المدينة من البابين ؟ . .

فأطرق ملياً ثم قال : نخرج للقائهم ونستبسل في الدفاع حتى نموت . لينصرف الآن كل منكم إلى فرقته وليتهيأ للقتال .

فقال أحدهم : إن في قول الرسول ـ عسى أن نتلاقى وراء أسوار المدائن ـ لهجة تهديد . .

قال : بل هي لهجة حليف لنا يبغض أذينة وقد عاهدنا على الفتك به . .

فقهقه الشيخ ضاحكاً وقال : لقد استطاع اللعين أن يعرف أسرارنا ولم نعلم نحن له سراً . أتظن أيها القائد أن صاحب تدمر يجعل عدواً له رسولاً بيت ؟ . .

قال : هو يثق باخلاصه والرجل يضمر له الشر لأنه ذبح أبويه . ومع ذلك
ننظر في أمرنا الآن . . وأخذ يعين مواقف جنوده تعيين قائد خبير ثم قال :

إذا فاجأنا أذينة من الجنوب ومن الشرق لجأنا جميعنا إلى الباب الشرقي
بقينا مئتين من الرجال يحرسون الباب الآخر .

قال : وما هو الغرض من هذا ؟

قال : حتى إذا خرجنا للقاء العرب خرجنا مجتمعين

قال : ولكنهم يقتحمون المدينة من بابها الجنوبي .

قال : ليفعلوا فنحن لا نخرج إلاّ لنجول الجولة الأولى ثم نفر إذا بقينا . .

فعرف محدثه أن نصيبين ستصبح لأذينة . وقام في ذهن القائد ـ كما قال له
طان ـ إن الهجوم سيكون غداً عند الظهر .

***

ما وراءك يا حطان ؟

قال : ورائي جنود لو ندبتهم إلى الموت لاستقبلوه بالصدور . .

قال : وقوادهم ؟

قال : لم أر في كل ما رأيت مثل أولئك القواد . .

قال : أتخوفنا يا حطان ؟

قال : لا يا مولاي فحامية الفرس في نصيبين صورة لالهة الحرب التي
رأها في الاساطير . .

وحطان لا يضحك ولا تظهر الابتسامة على شفتيه . .

قال : كم هو عدد الحامية ؟

فقال دون أن يتردد : خمسون الفاً يا مولاي .

فأجابه قائلاً : كذبت يا لعين فجيش الفرس كله لا يجاوز أربعة أضعاف
هذا العدد . هات الكتاب . فناوله أياه ، فقرأ وهو يبتسم ثم قال لزبدا أقرأه
أعطنا رأيك فيه . فلما قرأهة زبدا قال : هذا كتاب قائد استولى عليه الخوف .

فقال أذينة : كيف عرفت هذا ؟

قال : إن الجنود الذين يستقبلون الموت بصدورهم لا يحاربون من وراء الأسوار ، وانتقل الكتاب من يد قائد إلى يد آخر وهم يرون ما رآه كبير القواد .
وعندئذ ضحك حطان . .

فقال القنصل : حدثنا الآن بما رأيت . .

قال : رأيت ابن عم لسابور يكاد جسمه يملأ نصف هذه القبة ولكن لا نسب له .

قال : أهو جبان إلى هذا الحد ؟

قال : أجل وسيجعل دفاعه وسيلة للفرار . ثم أخذ يقص عليه حكايته معه إلى أن قال : وقد وثقت هذه الزيارة عرى الولاء بيني وبينه وتعاهدنا على قتلك قبل وصولك إلى المدائن . .

قال : لماذا أيها الخبيث ؟

قال : لأنك ذبحت أبي وأمي وطردت قومي اليهود من تدمر ، ولأنك مستبد ظالم تقتل الأبرياء ساعة تشاء فردد معني ذلك الكلام ولكن في أعماق صدره .

أما أذينة فقال : لقد أصبحنا إذن أبالسة في نظر الفرس .

قال : إنك على كل حال لست في نظرهم من الالهة . والتفت إلى ابن حمدان قائلاً له : أتقود إلى المدينة غير الحراس ؟

قال : أقود من يأمرني مولاي القنصل بقيادتهم .

فقال أذينة : اتحتاج نصيبين إلى أكثر من عشرين الفاً ؟

فقال حطان : لو فاجأنا الفرس بالفين لتوهموا أننا مئة وخمسون الفاً من الرجال . . إن حطان يضمن لمولاه النصر قبل أن يشهر سيف . .

قال : إذن نبعث عشرة إلآف مع الأثنين وأنت ضامن .

قال : بل أضمن لك أمراً آخر يا مولاي .

قال : ما هو ؟

قال : ندخل المدينة عشرة الآف ونخرج منها ونحن عشرون ألفاً . .

قال : لقد رجعت إلى المزاح .

قال : بل أنا جاد يا مولاي . إن في نصيبين طوائف كثيرة من العرب نفرتها خشونة الفرس ، فإذا تم لنا الفتح انضمت إلينا تلك الطوائف وزحفت في مقدمة جيشنا إلى المدائن لتنتقم من أولئك الأجلاف الذين ساموها الذل والهوان . .

فقال القنصل لقواده : أرأيتم رجلاً أبعد نظراً وأوسع حكمة من هذا اليهودي ؟

فقال زباي : كلما رأيت بريق عينيه ذكرت تلك الساعة التي رأيته فيها في منزله في دمشق يقرأ أفكار الناس . . أنه أعظم من رأيت يا مولاي . .

قال : سنسلم إليك نصيبين يا حطان قبل أن نغادرها إلى حران ، فماذا تقول ؟

قال : أترفض الولاية وغيرك يبذل نصف حياته ليصير والياً ؟ . .

قال : أما غيري فأخشى أن تنقلب الحال معه فيمسي عبداً . . ولم يشأ أن يزيد كلمة لأن اسماعيل كان حاضراً وقد يعرف مغزى ذلك القول .

***

أضربوا عند الفجر يا هيروديس ونحن نترك هذا الموضع عندما يطلع الصبح .

قال : كأنك لا تريد أن تصل إلى نصيبين إلاّ والعلم التدمري يخفق فوق الأسوار .

قال : أصبت فعلم تدمر يرتفع عندما ترتفع الشمس وكان الليل قد ولى نصفه عندما مشت فرق الجيش التي يقودها ابن أذينة وابن حمدان . وحطان يمشي بين الأثنين وهو يصف لهيروديس خبث ابن عمه معني وسوء قصره . والفتى مصر على اعتقاده لا يصدق كلمة من ذلك الوصف .

حتى أن حطان تمادى في قوله . فهمس في أذن الفتى قائلاً : إن لم تضربوا رأس الحية فلا تسلم تدمر .

قال : أتعني معني .

قال : نعم وكنت أرى أن يصبر القنصل على ما يراه حتى يلمس الجريمة بيده ولكن غيرت رأيي الآن .

قال : أتريد أن يعمد القنصل إلى العقاب وهو لا يجد ذنباً ؟
قال : يقبض على صعلوك من صعاليك المتامرين .
فقال : لكم أن تفعلوا ما تشاؤون ولكن اتركوا معني فيعترف له بكل شيء .
قال : إنه روح المؤامرة يا مولاي وهو الذي سلح يد اسكندر الروماني ويد من بعده ليقتلا معنا
قال : تلك حادثة خاصة لا يدخل فيها القنصل .
قال : وسيسلح أتباعه ليقتلوك ويقتلوا أباك .

فضحك هيروديس قائلاً : ذلك وهم يملك عليك عقلك يا حطان .
فقال معن : تكاد تقرأ الشر يا مولاي في عيني ابن عمك الذي تدافع عنه .
قال : أما أنا فلا أقرأ غير الشعور الصادق والحب .
قال : أخشى أن تندم يوماً أيها الأمير . .
قال : وعندئذ أكون وحدي الجاني على نفسي . . إن أذينة نفسه لا يصل معني وأنا حي . . فقال حطان في نفسه أن ملاكاً من السماء ينتصر ـــ ! . . وقد رأى أن البحث معه لا يفيد فقال : بعد ساعة تتجه أيها الأمير حنب الشرقي ونواصل نحن السير إلى الأمام .
قال : يظهر أنك تؤثر الدخول من الباب الجنوبي يا حطان .
- : نعم يا مولاي فعلى ذلك الباب يقوم حارس هو من الأصحاب . .
قال : وعسى أن ندخل في وقت واحد فنتلاقى في المدينة ونزور سحبك .

***

على طول الخط من الخارج ، من الباب الجنوبي إلى الباب الشرقي جعل ـــ ن ، هيروديس ومعن جنوداً كثيرين يبعد الواحد منهم عن الآخر زهاء ـــ متراً ينقلون الأخبار للجيشين ويقومون مقام الهاتف « التلفون » اليوم وكانوا ـــ من أن تصل إليهم سهام الفرس من أعلى السور . ثم بدأو عند الفجر حطيم الأبواب والصعود إلى الأسوار . فنهض الفرس للدفاع ولكنه دفاع خائف

مذعور يرى سيف أذينة فوق رأسه ، وأشباح الموت تكمن له في مرامي النبا
والأبراج التي يحتمي بها . . وقبل أن تطلع الشمس . سقطت المدينة ودخ
الجيشان وكان صراع هائل بين الخصمين تكسرت بعده الأسياف فقتل معظ
الحامية ولجأ البعض إلى الفرار من البابين ، واستسلم أولئك الذين لم يجدوا سـ
إلى النجاة .

وقائد الحامية أول من فر وهو يلعن حطان الذي خدعه فوثق بأن العرب
يزحفون قبل الظهر . . وقامت العرب تنادي في الأسواق : الشعب أمن
نصيبين وكل فارسي يستسلم فقد دخل في الأمان ، ولكن لم يبق في المدينة غير
قلائل من الفرس احتجبوا عن العيون لتتهيأ وسائل الفرار ، أما الشعب العر
في المدينة فقد تنفس الصعداء وأقبل على هيروديس وأبن حمدان يعرض علي
سيفه كما تنبأ اليهودي . . إن خمس ساعات أو أقل ، أي من بزوغ الفجر ح
طلوع الشمس كانت كافية ليفتح في أثنائها جيش كجيش أذينة . مدينة مث
نصيبين ، فلما أقبل أذينة أستقبله الشعب كما كان يستقبل سابور فخطب فيـ
خطبة الفاتح وتوجه إلى الحصن . وكانت ضحايا العرب في ذلك الفتح أكثر
ظن القواد .

فقال لهم القنصل : إن الفاتحين يخسرون الرجال ولكنهم يربحون الشر
والفخار . ثم قال لحطان كيف رأيت قائد الحرس في هذه الحرب ؟

قال : كنت أحسبه نمراً يصارع طائفة من الثعالب .

قال : إنك تحسن الوصف في كل شيء يا حطان

وسنشهد صراع هذا النمر أمام أسوار المدائن بعد قليل . ثم قال للقائد
الصغيرين : كيف استطاع القائد الفارسي أن يفر ؟

فأجابه حطان قائلاً : كيف استطاع الفرار غيره من الرجال . . إنه كا
الشوق إلى أبن عمه الملك وهو ينقل إليه بشرى سقوط نصيبين على يد أذ
العربي . .

قال : أتظن أننا نراه في حران ؟

ـ بل أرى أنه لا يجسر على الوقوف إلاّ في قصر سابور . .

قال : يظهر أنه نسي ذلك العهد . .

وسألته أن يقوم بنفسه بذبح القنصل في خيمته . .

قال : أجل وإذا رإيته في المدائن دعوته إلى تنفيذه فضحك القوم إلاّ معني
مكان عابس الوجه .

***

لم ينم أذينة وقواده في تلك الليلة ، فإن ذلك النهار الذي قضوه في نصيبين
لم يكن كافياً وحده لتنظيم الشؤون ، أطلق السجناء وأعطى العطايا . وأهتم في
الوقت نفسه لاصلاح ما تهدم من السور . ولصنع بابين آخرين يشبهان أبواب
تدمر التي لا تفنى . وجعل الحامية من العرب والأرمن أهل نصيبين ، وولى أمور
المدينة رئيساً من رؤساء القبائل يحترمه أصحابه ، ولم يشأ ذلك الجبار أن يستريح
في نصيبين أكثر من يوم فالراحة لا يعرفها الفاتحون إلاّ إذا استوفوا قسطهم من
المعاني ورفعوا أعلامهم إلى سماء العظمة والعز .وقد تهيأ الجيش جميعه للزحف
إلى حران . فإذا كانت نصيبين وهي أمنع مدن الجزيرة . لم تثبت أمام العرب غير
بضع ساعات ، فحران ستسقط أمام سيوفهم من أول جولة . ثم يمكث فيها
الفاتح يوماً آخر ويواصل سفره إلى عاصمة الفرس . . أجل ، تلك كانت خطة
أذينة في حربه . . إن الزمان كان في نظره أثمن من أن يضيع في الراحة والخمول .

مشى الجيش عند الصباح ، وفي صفوفه جميع شباب العرب الذين كانوا في
نصيبين . إلاّ من بقي منهم مع الحامية الجديدة فهؤلاء لم يسعدهم الحظ بأن
يرافقوا الغازي الظافر في حروبه . . وهم كجميع عرب البادية في بسالتهم يوم
تصطدم الصفوف وتتلاحم السيوف .

وكانت فلول الفرس الهاربة من نصيبين قد مرت بحران وحملت لحاميتها
نبأ العرب فلجأت تلك الحامية إلى السلاح والخوف يملأ القلوب .

إن استيلاء أذينة على نصيبين ، وذلك الفرار الشائن الذي أكره عليه ابن
عم سابور ، أضعفا قوى الفرس في الجزيرة . وافقداهم تلك البسالة التي عرفوا
بها من قديم الزمان ، حتى أن العربي الواحد يستطيع أن يبعث الذعر إلى قلب

الجماعة منهم دون أن يقوم فيهم من يمد يداً اليه . وذلك الدفاع الذي كانوا يقومون به ، لم يكن دفاع قوم نبلاء يسقطون ضحية شرفهم في الميادين بل كان مظهراً من مظاهر الضعف يتذرعون به خوفاً من سابور ، وكما سقطت نصيبين ، هكذا سقطت حران ولكن حاميتها كانت في نظر العرب أشد وأشرف من حامية نصيبين ، ذلك لأن الجيش العربي بأجمعه شهر عليها السيف .

وفي هذا بعض العذر ، وقد استطاع الفاتح العربي أن يضم شباب العرب فيها إلى جيشه ، ويمشي على رأس تلك القوى العظيمة إلى عاصمة سابور ، إلى حيث يرفع أسم العرب إلى قمة المجد ، أو يحطه إلى دركات الذل ، وكان السفر شاقاً والحر يشوي الأجساد . لكن أذينة لم يبال ، ولولا مصلحة الجيش لمشى الليل والنهار دون أن يستريح أو يغمض له جفن .

***

قالوا لسابور : إن أبن عمك والي نصيبين بالباب ! فذعر الملك وقام في ذهنه أن ذلك القدوم الفجائي لم يكن لخير . وقبل أن يجثو أبن عمه أمام العرش فاجأه بقوله : لماذا تركت نصيبين دون أن تستأذن الملك ؟

فقال وصوته يضطرب : لقد أصبحت نصيبين للعرب يا مولاي ! . .

قال : أعمد أهلها إلى الثورة ؟
قال : لا يا مولاي ولكن أذينة صاحب تدمر فتحها بالسيف .

فاضطرب جسم الملك اضطراباً ظاهراً وردد قول الوالي : أذينة صاحب تدمر فتحها بالسيف ؟

ـ نعم يا مولاي وهذا هو كتابه إلي قبل أن يهاجم المدينة . ودفع إليه الكتاب فكاد الدمع يجول في عيني ذلك الملك العظيم الجبار . أجل ، لولا عزة الملك لبكى سابور . . . ولم يكن خائفاً فحسب ، بل كان نادماً على ما فاته من صحبة أذينة وهو الملك الذي لم يعبأ قط بقياصرة الرومان في أيام الحرب وأيام السلم ، إن أذينة وحده في ذلك الشرق كان يلقي الرعب في قلب الفاتح الفارسي الذي دوخ بسيفه الأقطار . ولكن ندمه في ذلك الحين لا ينفعه ، وليس عليه إلاّ أن يتدارك

الأمر فيمنع التدمريين من الوصول إلى عرشه الذي جعله فوق الجوزاء ، فقال لابن عمه : أيهدم أذينة الأسوار وأنتم وراءها ؟

قال : ومتى كانت الأسوار تثبت أمام العرب وهم أكثر من رمال الصحراء .

قال : كم هو عددهم ؟

قال : مئة وخمسون الفاً من العرب والرومان .

قال : لقد زحف الينا إذن جميع العرب !

قال : وجميع قوى الرومان النازلة في الأقاليم .

قال : وكيف استطعت الفرار ؟

- عندما سقط السور وتلاحمت السيوف .

- إذن فقد أثبت لمولاك أنك ذلك الجندي الباسل الذي يبذل حياته ليدافع عن شرفه . .

قال : ما فررت يا مولاي إلاّ بعد أن ارتوى السيف من دماء العدو . .

فاغتصب الملك ابتسامة ظهرت على شفتيه ثم اختفت . وأطرق يفكر في ذلك القائد العربي الذي لم يؤثر في صفوف جيشه الأفيال ، ثم بان الغضب في وجهه وقال : يا ابن عمنا ، اتفر من وجه العرب وتترك الحامية ؟

قال : إن جنود الحامية تسابقوا في الفرار يا مولاي . فبعضهم عرج على حران والبعض الآخر أصبح في المدائن . .

فهز رأسه قائلاً : وعلى هذا القياس ستسقط حران وسيواصل أذينة زحفه إلى المدائن . .

قال : أجل يا مولاي أن في نية العرب الزحف إلى العاصمة وحران كما رأيت لا تثبت أمام أولئك الشياطين . .

فقال : يا وجوه الفرس . إن صاحب تدمر زاحف الينا بجيش عظيم وسيصل بعد أيام ، وقد دعوناكم لتتشاوروا .

فقال كبير المرازبة : وهل يحتاج الأمر إلى مشورة يا مولانا ؟

قال : أجل فأذينة ليس كمن رأينا من قواد الرومان .

قال : هب أنه إله الحرب فيجب ان نخرج لقتاله .

قال : أتغادر المدائن ؟

قال : نعم فملك كملك الفرس لا ينتظر عدوه ليهاجمه في عقر داره . إن الالتجاء إلى الأسوار عار على سابور بن أردشير ، ثم قال كبير القواد :

- نجمع لهذا العربي جيشاً وننتظر قدومه ، فإذا احتدمت نار الحرب وتقدمت جنوده ، تراجعنا نحن إلى المدائن وأغلقنا الأبواب . متى يصل أذينة يا مولانا ؟

قال : نظن أنه غادر حران منذ أيام .

قال : أفتح حران ؟

قال : كما فتح نصيبين قبلها واستولى على الأثنين . وجاءنا أبن عمنا والي نصيبين ينقل إلينا بشرى فراره وذله . . وأنتم ما رأيكم أيها القواد ؟

قالوا : نحن عبيد الملك والحرب في جوار المدائن خير منها ونحن منقطعون إلى الحصون والقلاع .

قال : إذن فليكن ما رأيتم وليهتم كل قائد لما يعنيه ، ثم بعث عشرين رسولاً من المجوس إلى جميع الأقاليم في بلاد فارس يندبون الجيش والعامة إلى قتال القنصل التدمري . وجعل موعد اجتماع الجيش بعد شهر أمام عاصمة ملكه ، واهتم سابور بنفسه لتعبئة جيشه وتدريبه على قتال العربان .

***

في سهل واسع يبعد ثلاث مراحل من عاصمة الفرس التقى الجيشان ، جيش أذينة وجيش سابور . في يوم كثرت غيومه واكفهر وجه سمائه . وكان ذلك اللقاء التاريخي في مستهل العام ٢٦١ بعد المسيح ، إذا نظرت إلى ذلك السهل حسبته بحراً يموج بطوائف الأنسان ، وطوائف الحيوان . وليس في هذا القول وجه للغرابة . فإن أكثر من ثلاثمائة ألف رجل . بخيولهم وأفيالهم ودوابهم ومؤونتهم منتشرون من منتهى الأفق إلى منتهى الأفق ، وقد انعكس نور الشمس على الشفار فتلألأت وبسطت على المتحاربين نورها الغريب الخلاب . . وحمي وطيس الوغى وعلا الصياح . فاحمر أديم الأرض من دم الناس يسيل من الجثث

ـ لأشلاء وداست الخيل والأفيال أجسام الجنود من الفريقين فتكسرت العظم وتحطمت الرؤوس ! . . إن الوحشية التي تكمن في صدر الانسان . الانسان الذي تكتنفه مظاهر التمدن الكاذب . هي أشد خطراً من وحشية الضواري التي تقودها الغريزة إلى الافتراس ! . . خذ لك مثلاً ما يفعله البشري بأخيه عندما تروج سوق الموت في الميادين ! وكان أذينة يدير الدفة . . وقواده زبدا وزباي وهيروديس ومعن في مقدمة الفرق يقتحمون صفوف الفرس ويصرعون الفرسان . والرومان من ورائهم يستهينون بالموت ليستعيدوا ذلك الشرف الذي خسروه ، ولم يكن سابور ورجاله من الجبناء . فهم الأبطال الذين قهروا الرومان من قبل . وأوشكوا أن يطردوهم من شواطىء آسيا في الشمال ، أجل ! ـ الجيشين كانا مفخرة من مفاخر الأمم . إذا ذكرت القواد والجيوش . ولو اتخذا ـ أذينة وسابور رواق ملكهما فوق روما نفسها التي لا تغلب .

واشتد الصراع بين الفريقين ، تارة تتقدم العرب إلى الأمام ويتراجع الفرس وتارة يتقدم هؤلاء وتتضعضع العرب حتى غابت شمس اليوم الأول ولم يكتب لأحدهما النصر ، وكلا الأثنين سابور وأذينة ، واثق بأنه سيغلب رفيقه غداً وينتهي الأمر . فلما لجأ القوم إلى خيامهم اجتمعت قواد العرب في قبة القنصل وقدم حطان يسأل أذينة ذلك السؤال نفسه الذي وجهه هو إليه منذ أيام قال :

ـ كيف رأيت معنا يا مولاي ؟

قال : إنه من أولئك الأبطال الذين نفاخر بهم غاليانوس الأمبراطور .

فقال هيروديس : والرومان ؟

قال : ما رأيت جنود الرومان يقاتلون قط كما قاتلوا الفرس اليوم . . من ينتصر غداً يا حطان ؟

قال : إن النصر لنا إن لم يكن غداً فبعد غد .

قال : وكيف عرفت هذا ؟

قال : أخبرني به آلهة اسرائيل . .

قال : وننقذ فالريان ؟

قال : دعنا من هذا يا مولاي فقنصل تدمر لا يحارب سابور لينقذ أسيراً بل

ليسود الشرق . . ومع ذلك ففي الريان اليوم في المدائن والوصول اليه أصعب من الوصول إلى سابور نفسه . .

قال : سندخل المدائن كما دخلنا نصيبين .

قال : وقبل أن تمد يداً لأنقاذه يقتله الفرس كما يقتلون الدابة الجرباء .

قال : سنحاول انقاذه على كل حال . . ثم قال : لا تذكر شيئاً من هذا أمام قواد الرومان لئلا يفسدوما بيننا وبين القيصر . فابتسم حطان ابتسامة صفراء ، وقال :

ـ لقد بدأت بالصعود في القمة فلا يستطيع القيصر أن يتصدر لك . . إن العالم سيكون فيه قيصران .

قال : وعلى الأثنين أن يثبتا على الولاء ليبسطا نفوذهما فوق هذا الكون .

ثم عادوا الى حديث الحرب ، فقال أذينة : في هذا الليل يقود زبدا فرق المشاة إلى الجانب الأيمن ويكمن هناك حتى الصباح . وزباي يتقدم الفرسان الى الجانب الأيسر . أما الرماة والحراس وأبناء البادية فيتبعون القنصل بقيادة هيروديس ومعن وزنباع . . . اسمع يا زنباع . أنسيت تلك المعركة التي نشبت بيننا وبين سابور على الفرات ؟ إنك إذا رأيت الفيالة غداً يتقدمون الصفوف فليرسل الرماة سهامهم إلى الرؤوس والصدور ليختل نظام تلك الفرقة وتدوس الأفيال جثث الرجال وعلى رجال البادية أن يعيدوا غداً ما فعلوه بالأمس لينخسوا الأفيال بالاسنة فتهيج وتمزق الصفوف .

فقال معن : وماذا بقي لي يا مولاي ؟

قال : وأما أنت فستضرب في الجهة التي يضرب فيها القنصل وتكون حيث نكون .

قال : وحطان ؟

قال : من يستطيع أن يعين لهذا الشيطان موقفاً أنه سيكون في كل مكان . .

***

عندما طلعت شمس اليوم التالي برزت الصفوف للصفوف . وكان الصراع في ذلك اليوم أفظع كثيراً من صراع أمس ، فإن الجيشين استبسلا حتى ليقوم في ذهنيهما أن الموت في تلك الساحة تحت حوافر الخيل أجل وأفضل من الحياة وهما ذليلان ، وسابور يدفع جنود العرب بصدر فيله وتسقط الرجال تحت ضرباته والسهام ترسل إليه وهي لا تصيبه !! كأن سابور محاط بطلاسم الساحر لا يصل إليه سهم من سهام أصحاب زنباع ؟ !! إن تلك العناية التي حفظت سابور من الموت ، هي عناية زنباع نفسه . لأن الخائن لم يرد أن يقتله لئلا يخلو الجو لأذينة الغاصب !! ثم تقدمت صفوف الفرس على طل خط القتال والعرب تتراجع إلى الوراء حتى أيقن سابور أنه أمسى سيد الموقف وأن الرومان والعرب الأجلاف سيرقدون إلى الأبد في تلك الرمال . . وإذا بجنود زبدا وزباي من الجانبين ، وقد دارت حول العدو حتى أصبحت كالسور وأضحى الجيش الفارسي داخل ذلك النطاق الفولاذي يتلمس وجوه الفرار فلا يجد غير الخيبة والفشل .

وفي تلك الساعة نشر الموت ظله وطاف ملاكه حول المتحاربين يخطف الأرواح بدون حساب . فثار ثائر سابور وأصدر أمره إلى قواده بالاتجاه إلى الجانب الشمالي ليحفظ طريق المدائن ويستطيع الرجوع إليها إذا أكرهته الحال ، ولم يشعر الجيش العربي إلاّ وصفوف الفرس تركض ركضاً إلى مرفأ النجاة .

فصاح أذينة والقواد قائلين : أتبعوا الهاربين ، فردد الجيش ذلك القول ولكن سابور كان قد مرق من بين الصفوف كما يمرق السهم وتبعه جيشه واضعاً عاصمة البلاد أمام عينيه ولم يقدر ذلك السور العربي أن يمنعه من الفرار . وحاول معن بن حمدان أن يتبع الملك الفارسي فمنعه حطان قائلاً : لا تقذف بنفسك إلى أتون النار ، إنك لتستطيع أن تتصدى للعدو يهاجمك بسيفه ولكنك لا تستطيع أن تقف في وجه الفار الذي استولى اليأس على قلبه . هكذا قدر سابور مرة أخرى أن يترك ساحة الحرب بشيء من النظام . وكان أذينة يقول لمن حوله : لو كان هذا الفارسي ماهراً في صناعة الحرب كما هو ماهر في صناعة الانسحاب من الميدان لكان أعظم الناس . . . وارتفعت أصوات القواد مرة أخرى يقولون لفرق الجيش : لا تتبعوا الهاربين . . ذلك لأن أذينة رأى أن انتشار جيشه في أثر الفرس

يضيع نظام ذلك الجيش فأمره بالبقاء في الساحة والاهتمام للجرحى ، على أن يخيم غداً أمام سور المدائن ويحصر سابور في قصره ، إن فرار فريق من الساحة معناه فوز الفريق الآخر بدون جدال ، ذلك ما كان يقوله أذينة لقواده ، أما هؤلاء فكانوا يقولون وهم متفقون في الرأي : إنه فر ليحتمي بعاصمته ويشهر علينا السيف من فوق الأسوار . . والفوز في نظرهم لا يكون إلاّ إذا دكوا تلك الأسوار وانتزعوا سابور من قصره .

***

غصت المدائن بالمحاربين وأغلقت الأبواب . وسابور يتلفت إلى الوراء فلا يبصر أحداً من العرب ، فقال لمن حوله : لقد كتب لنا أن نفر مرتين من وجه هذا العربي . فقال أحد القواد : ليس هذا فراراً يا مولانا بل هي الخبرة والدهاء .

قال : نترك الساحة ولا يتبعنا من رجال أذينة أحد ؟ إن هذا من أعجب ما رأينا في الميادين . . فماذا تقولون أيها القواد ؟

قال أحد أركان الحرب : سمعت قواد العرب يقولون لجنودهم اتبعوا الفرس .

قال : وكنا نحسب أنهم يطاردوننا حتى يمنعونا من الدخول .

فقال أحد حراس الملك : لقد غير صاحب تدمر أمره الأول وأشار إلى جنوده بالوقوف .

وقال المرزبان الأكبر : لعله اعتزم الحصار وأراد أن يستريح الليلة مع جنوده قبل الأقدام غداً على هذا الأمر .

قال : هذا ما يبدو لنا وإلاّ فليس للعرب عذر فيما فعلوه .

ثم قام آخر فقال :

ـ وقد يكون قتل عظيم من عظماء الجيش فاهتموا لموته ولم يعبأوا بما رأوه .

فأجابه سابور قائلاً : لا يخطو عربي خطوة بدون أمر أذينة ، فإذا كانوا ترددوا في أمرهم فلأنه أشار عليهم بذلك ونحن لا نعلم غرضه . ثم جعل يتنهد

ويقول : سابور قاهر القياصرة يقهره أذينة البدوي ؟ ! إن هذا لعجيب والتفت إلى رجاله قائلاً : انصرفوا أيها الناس . انصرفوا إلى حصونكم وراء الأسوار فقد يقتحمها الجيش العربي وأنتم غافلون . . وكأنه ذكر في تلك الساعة حقده على فالريان فقال لحجابه : أحملوا إلي الأمبراطور .

فقال القواد في أنفسهم : قتل فالريان . وكان مقام القيصر في قصر الملك . . .

وكان في سرداب لا يدخله النور . فحملوه إلى سابور وكأنهم يحملون جسداً بلي في ثوبه . . وكان سابور في تلك الساعة نصف مجنون . . فجعل يضرب الشقي بسوطه لا يعرف أين تقع ضربته وذلك السوط يرسم على جسم القيصر خطوطاً حمراء هي سطور عريضة من الدماء . . حتى تعب الملك . أما القيصر فكأن السوط كان ينزل على جسم غير جسمه . . إن ذلك الجسد الهاوي كان قد طلقه الحس ولم يبق فيه بقية حياة إلاّ في عينيه الجامدتين . . ثم رفسه برجله كما تعود أن يفعل كل مرة وقال له : أيهاجمنا أذينة البدوي لينقذك يا فالريان ؟ وتربة أردشير لو كتب للمدائن أن تسقطعلى أصحابها ولعرش الفرس أن يتهدم لما أطلقناك . . . أحملوه . . . فلما توارى الأمبراطور ، خرج سابور إلى ذلك الرواق الطويل الذي يصل القصر بالسور ، وأخذ يعد مع أركان الجيش عدة الدفاع ولكن بهدوء وسكون . . إن الغضب كان يعقد لسانه والخوف يملأ قلوب رجاله فساد الصمت الفريقين .

كانت المدائن من أعظم مدن العالم في ذلك الزمان . . بذل فيها أصحابها أقصى ما يبذله الملوك المسرفون ذوو النفوذ والعز من عناية ومال . حتى أصبحت مدينة الشرق الكبرى وأمست قصورها وحصونها مفخرة من مفاخر البناء ، وقد ضرب المثل بعد ذلك ، بعاصمة الأكاسرة وبذلك الأيوان العجيب الذي بناه كسرى حتى قامت شعراء العرب فنسب بعضهم بناءه إلى الجن كما نسب إليهم تدمر وكل بناء جبار ، ولم يكن أذينة يعرف المدائن من قبل ، فلما تنفس الصبح كان جيشه الظافر يحيط بها من الجهات الأربع وقد نصب عليها المجانيق والآت الحرب « المنجنيق الة ترمى بها الحجارة الكبيرة» ، لم يقم في ذهن القنصل

التدمري أن يغادر موقفه إلاّ إذا تم له الفتح العظيم الذي كان يحلم به . أما وقد رأى الرومان يعدون له التاج فليضمحل من الشرق إذن كل ملك غيره يلبس تاجاً ذلك ما كان يطمع به في تلك الحرب ، إنه كان يريد أن يمحو أسم سابور من صفحة الحياة ، كي لا يذكر معه ملك شرقي آخر إذا ذكر الشرق . وقد خطب بجيشه قائلاً : لو قيل لنا أن المدائن لا تسقط إلاّ بعد حصار سنتين لما خطر لنا أن نعود إلى تدمر قبل أن نرى حجارة السور تتكسر تحت حجارة المنجنيق . .

أحصروا المدائن سنتين وثلاثاً بل أحصروها عشرين سنة فلسنا براجعين عنها حتى يهوى عرش أصحابها ، ولكن . . . ولكن القدر ليس عبداً لأذينة ، بل هو سيد الموقف الذي يملي إرادته على الزمان . فبينما كان سابور يخاطب مرازبته بشأن التسليم وقد أوشك أن يلتمس الأمان . وبينما كان أذينة واثقاً بالظفر وقد مضى على الحصار أكثر من شهرين . . إذا برسول من نائب القيصر يستأذن عليه ، فذعر القنصل لقدوم ذلك الرسول لا سيما وقد عرف أنه من قواد الشواطىء ، وجعل يقول في نفسه : لو لم يكن الأمر خطيراً لما كان الرسول واحداً من القواد ، ثم دعا رجاله ودعاه إليه وقال : من أرسلك إلينا أيها القائد ؟

قال : نائب الأمبراطور يا مولانا .

قال : وفي أي أمر أرسلك ؟

قال : في أمر تهتز له أعصاب الدولة وتضطرب له القلوب .

فاسودت الدنيا في عيني أذينة وقال : أمات القيصر ؟

قال : لا يا مولانا ، بل هو متمتع بنضارة الشباب .

فتنهد القنصل قائلاً : إذن لم يبق ما تهتز له أعصاب الرومان . . خبرنا الآن لماذ قدمت ؟

قال : ألا تذكر ذلك القائد الخائن الذي أضل مولانا فالريان في الرها ؟

قال : مكريانس ؟

قال : نعم فإن هذا الخائن أصبح امبراطوراً . . . ! فلم يضطرب أذينة بل أجابه بهدوء قائلاً : ألا يكفي النذل أنه باع سيده حتى يطمع بأن يستوي في عرش الرومان ؟ ! أين هو الخائن اليوم ؟

قال : بويع له في أقاليم أسيا الصغرى والأسكندرية ومصر وضرب نقوداً باسمه !

ـ ومن تبعه من قواد الرومان ؟

ـ إن الذي ساعده في أمره هو كاليستوس القائد الذي رد سابور عن كيليكيا ، وقد جعله نائباً له . . فضحك قائلاً : وبعد ذلك ؟

قال : ثم أرسل الخائن قائداً له أسمه بيرون يستولي على بلاد اليونان . فلما علم الوالي اليوناني أن الرجل زاحف إليه أدعى الملك لنفسه وبايعه جيشه . .

قال : وصار امبراطور ؟ !

ـ نعم يا مولانا كما أن بيزون نفسه استطاع أن يستميل جنوده فاختاروه ملكاً ! . . فالتفت أذينة إلى قواده قائلاً : لقد انقسمت على نفسها دولة الرومان ، حتى أضحت قياصرتها أربعة .

قال : بل أكثر من هذا يا مولانا فان المغتصب الخائن لم يغادر مصر حتى نهض أمليانس القائد ، فادعى الملك .

قال : لقد علمهم الخائن أمثولة في العصيان . . وكيف ترك مصر وهي أمنع من آسيا ؟

قال : تركها ليقيم في دمشق . .

فبان الاضطراب عندئذ في وجه القنصل وقال : وقد يزور الخبيث تدمر . .

فقال : زبدا لا أظن أن أحداً يطمع بهذه الزيارة وأذينة حي . . أي لا يجرؤ أحد أن يضمها إلى ملكه . .

فقال أذينة : إذا خسر المرء شيئاً من عقله فقد يقدم على أعظم من هذا . . أما معني فقال في نفسه إذا بقيت حياتك أيها العم بقيت لك تدمر . . ثم قال أذينة :

ـ أبقي لك ما تقوله أيها القائد ؟

قال : بقيت لي أشياء وأشياء يا مولاي . .

قال : أذكرها .

قال : منها أن قائداً يدعى بستوموس خرج على سالونينوس أبن الأمبراطور وقتله . . فنهض حطان وقال :

ـ مسكين ذلك الفتى فقد عرفته في مصر إحدى أزاهر الشباب . . فجعل أذينة يهز رأسه ويقول : جرى كل ذلك في الأشهر القصيرة التي مضت على تركنا تدمر . ؟

ـ نعم يا مولانا ما كاد القنصل يغادر عاصمته حتى وردت على نائب القيصر الأخبار . .

ـ وماذا فعل القيصر بقاتل ولده ؟

ـ لم يفعل به شيئاً حتى الآن لأنه بعيد عنه وقد استولى على الأقاليم الغربية !

قال : كل أقليم يستقل بعد أقليم حتى تمسي دولة الرومان خمسين دولة عليها خمسون قيصر . . أسمعتم يا قواد الرومان ماذا فعل أخوانكم الخونة ؟ !

وهل فيكم بعد من يطمع بعرش أو بلقب امبراطور ؟ ! لقد صرتم جميعكم قياصرة وصارت بلادكم دولاً فالذي يريد أن يخرج عن الطاعة فقد أذنا له الآن فليخرج ، فتساقطت دموع المخلصين من الرومان ولم يقل أحدهم كلمة .

فقال : يجب أن يتنحى الكذبة المتظاهرون بالاخلاص وإلاّ نحيناهم بحد السيف .

فقام أحدهم فقال : رضينا أيها القائد أن تنحي الخونة منا إذا كان فينا من يخون دولته .

قال : سنترك المدائن وسنفعل فقد كتب لسابور ، أن يبقى صاحب عرش . ثم قال للقائد : لقد ضيعت علينا أخبارك ثمار الفتح في بلاد الفرس .

قال : سينتقل القائد العام من نصر الى نصر .

فابتسم أذينة قائلاً : أخطأت أيها القائد فإن اخضاع الف رجل من خوارج الرومان لا يوازي سقوط حجر واحد من هذا الجدار الضخم الذي يحيط بعاصمة سابور . . أتحمل كتاباً من نائب القيصر ؟

قال : لا يا مولانا إن حوادث الدولة لا يتسع لها كتاب ولكنه أعطاني خاتم النيابة لتثق بما أقصه عليك وهذا هو الخاتم . .

قال : أتعلم أين يوجد الأمبراطور اليوم ؟

قال : إنه يرد غارات البرابرة من الالمان والفرنج الذين أخذوا يغزون جزائر الأرخبيل وشواطىء اليونان . . فضحك ضحكة طويلة ثم قال : لقد كثرت مصائب الرومان حتى أضحكتنا . . أذكر كل ما تعرفه دفعة واحدة لننظر فيه .

قال : وقد ظهرت قبائل القوط تغير على بلاد اليونان وسواحل آسيا فتنهب البلاد وتفتك بالسكان . .

قال : وهل بقي شيء ؟

قال : لا . .

فتجهم وجه أذينة وقال : لو نقلت الينا خبر خراب دولة الرومان لكان ذلك أخف شراً . . إن الحظ خدم سابور ولكنه لم يخدم أولئك الطامعين بغاليانوس الأمبراطور . . . يجب أن يعلم الخوارج أن الجالس في عرش روما اليوم يبقى وحده صاحب العرش . . . وأذينة وحده يعرف كيف يحفظ له عرشه . . وأطرق ملياً ثم قال : أعداء من الداخل وأعداء من الخارج . . أما الذين من الداخل فلا عذر لنا إذا صبرنا على طمعهم وسنبدأ برأس الحية الذي أوجد روح العصيان في الأقاليم . . وليهنأ سابور بعاصمته وبلاده فقد كانت الأقدار حليفة له ونحن لا قبل لنا بالوقوف في وجه الأقدار . . . ماذا ترى يا حطان ؟

فاستغرب الرجل سؤاله وهو بين عظماء تدمر وسادتها وقواد الرومان لم يسأل أحداً منهم رأيه في الأمر الذي يفكر فيه فقال : أتسألني رأيي يا مولاي ؟

قال : أجل فأنت صاحب الرأي في أيام المحن .

قال : في أي شيء تريد أن يبدي حطان رأيه ؟

قال : في أن نبادر إلى حفظ الدولة أم نبقى في هذا السهل حتى يستسلم سابور !

فبرقت عينا اليهودي وقال : ألا يأذن لي مولاي في أبداء هذا هذا الرأي بعد حين .

قال : أتدخل الأسوار في رأيك يا حطان ؟

قال : لا يا مولاي ولكن أخشى أن يجيء رأيي فاسداً فتسمعني ما لا أحب .

ففهم أذينة أن للرجل غرضاً لا يذكره إلاّ إذا خلا به ، فخرج من قبته وقال له : أتبعنا يا رجل الأسرار ، فمشى إلى جانبه وهمس في أذنه قائلاً : أدع قوادك يا مولاي . فقال القنصل لزبدا :

ـ أتبعنا مع هيروديس وقائدي الفرسان والحراس ، فنحن وراء المنجنيق . . فانصرف القوم وخرج قواده يمشون وراءه ، فقال لحطان : الا تبدي لنا رأيك الآن .

قال : بلى يا مولاي أن رأيي أن تغادر غداً بلاد الفرس . . .

قال : لقد ذكرنا منذ ساعة أننا سنترك المدائن إلى حيث تخمد فتنة الخائن الذي أضرم النار في الدولة . ولكن إذا خلونا إلى نفسنا رأينا أن ترك الحصار والرجوع اليوم إلى تدمر رجوع عما بدأنا به من أعداد العرش . .

قال : أما حطان فلم يفهم شيئاً يا مولاي .

قال : ألا تعلم أن سابور هو الملك العظيم الذي ينازعنا النفوذ والسيادة في الشرق ؟

قال : أعلم ذلك . .

قال : وإن التاج الذي سنسلبه لا نريد أن يكون تاج أقليم بل تاج الشرق كله .

قال : أعلم ذلك . .

قال : فإن بقي سابور كان هو في نظر العالم سيد الشرق وكنا نحن عمالاً للرومان منحونا العرش والتاج كما يمنحون قوادهم القاب الشرف .

فابتسم حطان وقال : أأنت اليوم صاحب تاج يا مولاي ؟

قال : لا .

قال : ألم تهاجم سابور في عقر داره وتحصره في قصوره ؟

قال : بلى .

قال : فكيف تستطيع إذن أن تغلب الفارسي وأنت قائد ، ولا تستطيع أن تغلبه وأنت ملك ؟ !

قال : فسر لنا قولك أيها النبي . . .

فخفض صوته قائلاً : إن مولانا القنصل يريد أن ينزع التـاج عن رأس سابور ليحفظ تاجاً آخر لا وُجود له . . فنظر إليه مستفهماً ومد القـوم أعناقهـم يصغون إلى ما يقول ، فاستطرد قائلاً : أين هو تاجك يا مولاي ؟ !

فجاش العز في صدر أذينة وقال : أتقول أن هذا التاج لا وجود له ؟ إنه في قصرنا في تدمر نعصب به رأسنا ساعة نشاء . .

قال : إذا كان هذا فيجب أن يرى الشرق رأسك المتوج ليحني لك رأسه بل يجب أن تنزع التاج الفارسي لتضعه على رأسك الذي تعود لبس التيجان . . خير لأذينة أن يظفر بسابور وهو ملك من أن يظفر به وهو قنصـل يقـود جيش سواه . . إنك لو ارتفعت الى الجوزاء وليس على رأسك تاج لبقيت في نظر العرب والعجم عاملاً للقيصر . وكل نصر يتم لك في الميادين يعود الفضل فيه إلى ذلك الذي رفعته الأقدار إلى العرش . . . فارجع إلى تدمر يا مولاي . وليرَ شعبـك تاجك وعرشك ، ثم تنصرف بعد ذلك إلى إخماد الفتن وإخضاع الأقاليم . .

قال : ولماذا لم تر أن نلبس التاج قبل الزحف إلى المدائن ؟

قال : لم تكن الساعة قد أتت يا مولاي . إن الثورة اليوم تملأ الأقـاليم والقيصر منصرف إلى طرد الفرنج الذين غزوا بلاده ، فإذا ناديت بنفسك ملـكاً ومشيت مع قوادك إلى إخضاع الثائرين ينظر إليك القيصر نظره إلى منقذ العرش ولن يهتم للتاج وضعته على رأسك بدون إذنه ، فسمع صوت من ورائهم يقول : يصبح ملكاً دون أن يستأذن الرومان ؟ فاهتز القوم لذلك الصوت لأن صاحبه كان معني .

فقال أذينة : من دعاك إلى الحضور يا معني ؟

قال : لم يدعني أحد يا ملاي ولكني رأيت هؤلاء القواد يجرون سيوفهم وراء القنصل فجئت أسأل القنصل سيفاً أجره ورائي . .

قال : أتريد أن نجعلك قائداً ؟

قال : لا بل تجعلني في الحرب صاحب سيف . .

فقال : نخشى أن تضرب بهذا السيف أقرب الناس إليك ، انصرف يا بني فلم ينقل الفتى قدماً .

فقال القنصل : أنأمرك بالذهاب وتبقى يا معني ؟

قال : أأنا وحدي الغريب بين قوادك ؟

قال : إنك لو شئت لكنت أقرب المقربين . .

قال : ما معنى هذا يا مولاي ؟

قال : معناه أن القنصل يريد أن يخلو بقواده وهو ليس بحاجة إليك . . ! ومشى لا يلتفت اليه . .

فقال هيروديس : ألا تأذن له في أن يرافقنا يا أبي ؟

قال : بل نأمره بأن يعود من حيث أتى دون أن يتردد . .

فأجابه قائلاً : أصبت يا عم فنحن أحقر من أن نرافق القواد . . ثم وجه إليه نظرة هي البغض كله وقال في نفسه : نفترق الآن على أمل أن نخدمك يوماً كما يخدمك هؤلاء . . ورجع إلى خيمته والدموع تتلألأ في عينيه من القهر . أما أذينة فكأنه لم يبصر معني . فقال : إذن أنت ترى أن نبدأ بالتاج يا حطان ؟

قال : نعم يا مولاي وإذا انتظرت غاليانوس الأمبراطور أن يفعل قضيت العمر كله بالانتظار . فقال لقواده : أتحفظون التاج الذي يلبسه القنصل .

فقال زبدا : نفديه بالنفوس يا مولاي .

قال : لم يبق أمامنا إذن إلاّ أن نستوي في العرش ، فجثا حطان على ركبتيه وقال : لم يبق إلاّ أن نجثو أمام الملك الجديد ونهتف قائلين :

ـ يعيش أذينة الثاني ، فارتفعت أصوات القواد وراء صفوف الجيش المحاصر :

ـ يعيشْ الملك ! ! يعيش الملك ! ! ولم يعلم الجند معنى ذلك الهتاف .

***

الملك ! الأمبراطور ! ملك الملوك ! !

- ١٦ -

نام سابور ليلته والهم يملأ قلبه ، والكبرياء تذوب في صدره . . كان يفكر في تسليم المدائن الى عدوه العربي الذي استخف به أولاً وبهداياه ، وكاد يقذف برسله الى الفرات . . لكن الفاتح الفارسي لا يستسلم بدون قيد وبدون شرط . فقد وضع للتسليم شروطاً كان واثقاً الوثوق كله بأن أذينة لا يرفضها لأنها من مصلحته ، منها أنه يضع يده في يد القنصل ويتعاونان على طرد الرومان واقتسام الشرق ! وأن حران ونصيبين أحداهما تكون له والأخرى لأذينة ، الأولى تدخل في حدود الفرس والثانية تبقى للقطر العربي ! وإن الفريقين ـ الفرس والعرب ـ إذا مشيا الى حرب مشيا بقيادة الاثنين حتى إذا ظفرا كانت حصة الواحد مثل حصة الأخر ! إلى آخر ما هنالك من شروط لولا كبرياء سابور في بادىء الأمر لوافقه أذينة أو في بعضها وسار الأثنان في طريق المجد الذي أعده قنصل تدمر ، وبات يفكر فيمن يحمل هذه الشروط غداً حتى اهتدى إلى أحد المرازبة فاستسلم إلى الكرى والهم يعكر عليه صفاء نومه كما مر ، لكنه عندما أصبح رأى العجب ، ناوله حاجبه كتاباً جاء فيه : لقد كتب لنا أن نعود عن المدائن قبل أن تسقط في يدنا ولكن سنزور بلاد الفرس بعد حين . . وفي الكتاب توقيع أذينة . فقال لحاجبه : ويلك من اعطاك هذا الكتاب ؟

قال : دفعه إلي أحد حراس الأبواب يا مولاي ، فجعل قلبه يرقص في صدره من الفرح . ثم قال : يا غلام أدع المرازبة والقواد . فقال : إنهم جميعهم بالباب ينتظرون الأذن في الدول .

قال : ليدخلوا فنحن لا نصدق ما قرأناه .

فلما دخلوا فاجأهم بقوله : ما هي حكاية الجيش العربي ؟
فقالوا : أصبحنا ونحن نرى صفوف هذا الجيش في آخر الأفق .

قال : وهل عرف أحدكم سبب تراجعه عن المدائن ؟ فساد السكوت لأنهم لم يكونوا يعلمون ذلك السبب . .

قال : إن لهذا الرجوع واحداً من سببين ، أما أن قائداً عربياً خرج على أذينة أما أن حادثا عظيماً نزل بدولة الرومان . على كل حال سنعرف ذلك بعد قليل ، فاصدروا الأوامر ليخرج الناس من المدائن فقد انتهى أمر الحصار الآن .

هكذا خرج الفرس من عاصمة ملوكهم يتنفسون الصعداء ، وهم لا يعلمون أي إله أنزل عليهم رحتمه في ذلك الليل .

***

كان وصول القنصل إلى مدينته وصول ظافر ، لكنه لم يشأ أن يستريح قبل أن يستوي في عرشه ويضع التاج على رأسه وقد ردد التدمريون فيما بينهم اسم الملك لأنهم عرفوا أن القنصل سيصير ملكاً ، ولو شاء أذينة أن يحمل صولجان الملك من أول يوم لاعترف به الجيش والشعب . غير أنه أراد أن يشاور نائب القيصر كما يشاور السياسي المسلطعلى كل شيء صديقاً له لا حول له ولا طول . أجل ! إنه لم يكن ينتظر رأيه ولكنه ما أحب أن يحذو حذو الخوارج في ما فعلوه من ادعائهم الملك . إن كل رجل في تدمر كان يحدث رفيقه بقضية التاج . حتى أن نساء المدينة كن يتناقلن خبره ، ليتهيأ للأمر كل تدمري قبل أن تصدر الأرادة فيه . . . وكهيلة ومعن كانا يتحدثان كثيراً عن ذلك الأمر ، لأن ساعة هنائهما هي ساعة هناء وراحة القنصل العظيم الذي سيمسي صاحب العرش ، وأنت ترى أن في نشر الخبر شيئاً من الشورى والاستفتاء ، وقد عبر الشعب عن رغبته في جعل سيده ملكاً ، بمظاهر الفرح والاستبشار يبديها في ساعات ليله ونهاره . . يفعل ذلك على رغم تلك السعايات التي قام بها المتآمرون من وراء الستار . . وعلى كثرة هؤلاء المتآمرين لم يجسر أحدهم على أن يتظاهر بعدم الرضى أو يحتج على ذلك الفعل ، إلاّ معني فهو وحده بينهم صاحب الجرأة في القول إذا أوعز إليه اسماعيل

وهذا لم يشأ أن يقول كلمته في قضية التاج ، أجل ، أن العيون كانت تنطق بما في الصدور من حسد وعاطفة شر . لكن ذلك وحده لا يكفي ولا يدعى احتجاجاً ، لم يعد رسول أذينة من فلسطين إلاّ بعد أن عين موعد الاحتفال بتتويج الملك . . وكان نائب القيصر قد اضطر إلى ترك بيروت والالتجاء إلى الأراضي المقدسة منذ استولى مكرنيس الخائن على سوريا وآسيا الصغرى ومصر . وللرسول عذره في ذلك الأبطاء . فإن جيوش الخائن كانت تملأ الشواطىء والجبال وكلما مر بها عابر سبيل عمدت الى تفتيشه ، والقبض عليه إذا لم يكن على دعوة مكرنيس ، فلما دفع جواب النائب إلى مولاه ، عرف أذينة ـ قبل أن يقرأه ـ أن ذلك الرجل جبان لا يستطيع لخوفه أن يبدي رأياً فيما يعني عرش تدمر .

فقال للرسول : ألم يقل لك الرجل شيئاً ؟

قال : بلى يا مولاي أنه لا يريد أن يكون له رأي فيما كتبت اليه .

قال : ونحن بغنى عن رأيه . ماذا قال لك بعد ذلك ؟

قال : سألني عن اليوم الذي تزحف فيه إلى اخضاع القيصر الجديد .

قال : يظهر أن مكرنيس أوجد الرعب في قلوب خصومه الرومان .

قال : نعم يا مولاي ونائب القيصر يخافه حتى أنه يخشى أن يعجز القنصل عن الفتك به .

قال : ألم تسمع في فلسطين أين يقيم هذا القيصر ؟

قال : عرفت من أحد الجنود أنه كان في دمشق ثم انتقل منها إلى حمص .

قال : هذا خبر قد سمعناه من قبل وقد بعثنا الرسل إلى أبعد من حمص ينقلون إلينا أخباره .

قال : وسمعت خبراً غير هذا يا مولاي .

قال : ما هو ؟

قال : إن الباغي في البلاد التي تخضع له يضطهد المسيحيين ويسومهم الذل .

قال : وهذا أيضاً قد سمعناه حتى أن بعض مسيحيي الشام لجأو الى تدمر فراراً من ظلمه . . أعندك شيء آخر ؟

ـ لا يا مولاي .

فقال : انصرف الآن وقل للقواد الواقفين في الرواق أن يدخلوا ، فخرج الرسول وجعل أذينة يحدق إلى ذلك التاج البراق الذي أعدوه له ووضعوه على أسطوانة من رخام في تلك القاعة العظيمة التي بنوا فيها عرشاً وستصبح قاعة العرش . . أجل . إن تلك القاعة التي هي مجلس القنصل الخاص والتي تعد الثانية في ذلك القصر بعد قاعة مجلس الشيوخ . سيجعلونها بعد قليل أعظم وأفخم قاعات ذلك القصر العجيب .

***

في قاعة مجلس الشيوخ التي تغص بالتدمريين ، دوى صوت زبدا قائد الجيش العام يقول : باسم الجيش الذي أرأسه أنادي بمولاي أذينة قائد المشرق ملكاً . .

وقام كبير الشيوخ فقال : وأنا باسم الشعب اعترف بهذا الملك . . وعندئذ ارتفعت سيوف القواد ورؤساء العشائر وهم يقولون : نقسم يمين الأخلاص لجلالة ملكنا أذينة الثاني . . وعلت أصوات الهتاف والدعاء ، ساعة واحدة هي أعظم ساعة في تاريخ المدينة ، انتقلت فيها تدمر من حال الى حال . . كانت في نظر الشريعة الرومانية مستعمرة تخضع في الظاهر لعاهل الرومان ، وكان رئيسها عاملاً من عمال القيصر ولو مد رواق ملكه فوق أقطار المشرق ، فصارت دولة مستقلة لها ملكها وما يتبع الملكية من مناعة وشأن، واتخذت لها من تلك الساعة نظاماً خاصاً وموقفاً دولياً أسوة بجميع الدول! إن أذينة عندما استوى في عرشه ووضع التاج على رأسه ، كتب في تاريخ الأجيال سطراً خالداً من سطور العظمة التي لا يزول لها أثر . وجعل لغيره من الملوك مثلاً يتخذونه شعاراً لتلك العبقرية والبطولة اللتين تنطبق عليهما الصدور . لم يكن واثقاً بتلك المظاهر الكاذبة تظهر بها الملوك أمام الناس . ولم تكن نفسه الكبيرة لتهتم إلاّ لوضع الشيء في موضعه . حتى أن تلك الحفلة العظيمة التي جعل نفسه فيها ملكاً لم يكن ليرغب فيها إلاّ لأنها كانت أمنية شعبه . فلما اسدل الستار عن الفصل الآخر من فصول تلك الرواية ، وضج الشعب بالدعاء لمليكه ، أحس أن التاج يتعب رأسه فرفعه بيديه ووضعه أمام هيروديس قائلاً له والناس يسمعون : خذ عني هذا التاج يا

يني فإذا كنت قد خلقت لأكون ملكاً فأنا لم أخلق لألبس تاجاً . . ثم قال لزينب قد تصلح التيجان للنساء ولا تصلح للرجال فالبسي تاجك يا سيدتي الملكة وأجلسي في العرش أما نحن فسنذهب إلى الميادين . ثم خرج من المجلس الى الرواق الأعظم ووراءه القواد . والشعب يهتف له فنظر إلى معني بين يديه فقال : أرأيت كيف صار القنصل ملكاً بدون إذن الرومان ؟ فاصفرت شفتا الفتى وأجابه قائلاً : إن القنصل يستطيع أن يفعل ما يشاء ولكني أخشى ان يتغير هؤلاء الرومان عليك . .

قال : إنهم يخشون أن نتغير نحن عليهم ، أتراهم يرفضون أن يكون غيرهم صاحب عرش ؟

قال : من يعلم ماذا يخلق الزمان :

فاضطرب جسم حطان لهذه العبارة القصيرة التي تدل على باطن العدو الصغير .

أما أذينة فقال : حسبنا أننا صرنا ملوكاً وليخلق هذا الزمان ما يشاء ، ثم تم طوافه في ذلك الرواق . ولما عاد إلى القصر كانت وفود المهنئين من الرومان بانتظاره تحمل له أكاليل الغار . . فكاد معني يسقط على الأرض لما رآه لا سيما عندما شاهد القواد يحيون عمه كما يحيون القيصر ويحنون له رؤوسهم كما يحنونها له ، وكان أذينة يصافحهم ويقول : خير لي ولكم أن تحيوني كقائد وليس كملك . . وأخذ يسألهم عن مكرينس ويظهر لهم اهتمامه لأمره والخروج لقتاله وهم مثل جميع الناس لا يعلمون عنه أكثر مما يعلمه العرب . .

وبينما هم يتحدثون أقبل الحاجب فقال : بالباب رسول الملك الى حمص .

فاشرق جبين أذينة وأذن له في الدخول ثم قال : أرأيت الأمبراطور الكذاب ؟

قال : لا يا مولاي فقد غادر المدينة قبل أن أصل اليها .

قال : وأين كان قبل ذلك ؟

قال : في دمشق .

ـ : إذن كان ما بلغنا عنه صحيحاً . إلى أين سافر اليوم ؟
ـ إلى تراقية مع ثلاث فرق من جنوده .
ـ : يظهر أنه ذهب إليها فاتحاً .
ـ : لا يا مولاي لكن بلغه أن الأمبراطور غاليانوس فيها فأعد عدته وخرج لقتاله لأنه يكره أن يكون في البلاد امبراطور غيره ! .
قال : أواثق أنت بهذا ؟
قال : نعم يا مولاي خبرني به عربي .
قال : ومن في حمص من رجاله ؟
قال : ترك فيها ولده كياتوس يعاونه كاليستوس أو باليستا نائبه وقد رأيت الأثنين .
قال : أين كان ذلك ؟
ـ : في حمص نفسها وقد خرجا في عربتهما أمام وفود السوريين .
قال : صفهما لنا .
قال : إن الفتى كياتوس أقرب إلى النساء منه إلى الرجال ، أما الآخر فرجل حديدي يشبه النمر . .
قال : وكم في حمص من الرجال ؟
قال : فرقة واحدة من أبناء سوريا يا مولاي ، فهز الملك رأسه وقال للرومان يظهر أن صاحبنا لا يحسب لأحد حساباً . والتفت إلى قائد حراسه وقال له : أترافقنا إلى حمص يا معن ؟
فابتسم الفتى قائلاً : حمص بلدي وفيها نشأت ولا أريد إلاّ أن تكون في طاعة الملك .
قال : إن وجودك فيها يساعدنا على فتحها .
قال : إذا كانت المدائن لم تثبت أمام الملك فحمص ستلقي سلاحها على قدميه .
قال : استعدوا أيها القواد فسنعود إلى الميدان وسنجعل سوريا أقلياً تابعاً لتدمر إذا رضي السوريون .

فقال أحد القواد : أتسأل سوريا أن تنضم إليك برضى أهلها ؟

قال : أجل إن الرضى خير من الأكراه وسترون أعيان السوريين يعرضون علينا الطاعة بعد أيام . .

***

عندما وصل ملك تدمر إلى سهول حمص مع جنوده . بلغه أن القيصر الكذاب قتل في تراقية ، وأن جيشه السوري تراجع الى بلاده وهو يلعن ذلك القتيل وكان موته حياة للالوف من الناس . فإن المسيحيين تنفسوا الصعداء بعد موته . وخرج السوريون على ولده صاحب حمص وخلعوه ، ثم أقبلوا على الملك التدمري - كما تنبأ - يظهرون له الخضوع ، فلجأ المخلوع الى حصون المدينة مع نائب أبيه . وامتنعا وراء أسوارها وهما يعلمان أن أذينة لا يتراجع عنها حتى تستسلم اليه ، أجل إن الملك الذي دك أسوار حران ونصيبين لا يترك أسوار حمص حتى يقوض أركانها ويدكها إلى الحضيض ، وكان كاليستوس يرى التسليم أولى من الامتناع . ولولا رفيقه لفتح أبواب المدينة ووضع سيفه على قدمي الملك الجديد ، غير أن كياتوس كان كثير الطمع . وقد قام في ذهنه أنه قادر على بسط نفوذه فوق الأقاليم التي كانت خاضعة لأبيه فلما أحاط أذينة المدينة بالجنود ، أخذ المخلوع يطوف بين جيشه فوق الأسوار ويدعوهم إلى الدفاع ، في حين أن كاليستوس كان يخالفه في ذلك ويقول له : إن الدفاع يزيد ملك تدمر قوة ويدفعه الى الشدة في الحصار . وأشتد الخلاف بينهما ، فعمد النائب الى كياتوس فضربه بالسيف فقتله وقذف به من فوق الأسوار أمام أذينة قائلاً له : هذا هو عدوك وابن عدوك أما أنا فسأفتح لك الأبواب . . . ومشى بالفعل إلى باب السور ففتحه والتمس الأمان وهو جاث على ركبتيه . فمنحه أياه ودخل مع جيشه بين مظاهر الفرح والهتاف . وكان ذلك في سنة ٢٦٢ على انه لم يسترح في حمص غير بضعة أيام . لأن الخوارج كانوا كثيرين وهو وحده رجل الساعة الذي يعيد الى دولة الرومان صفاء أمسها وبهجته . . ولم يكن كاليستوس حسن القصد . فقد كان يضمر الشر ويعد نفسه بالحصول على امبراطورية الشرق .

فلما توغل أذينة في البلاد ، أظهر الرجل العصيان وأطلق رجاله على حمص

فساموا أهلها أنواع الذل واعملو فيهم السيف . ثم أكرههم كاليستوس على ان يعترفوا به ملكاً ففعلوا ، وجعل يطوف في سوريا يجر وراءه ذيول العظمة الكاذبة متظاهراً بأنه ملك الشرق وقد بلغ أذينة ما فعله وهو في طريقه الى بعض جهات الجزيرة وأقاليم الفرس، فلم يشأ أن يرجع إلى حمص بل أرسل إليه بعض أبناء البادية فدهموه في خيمة له وضربه أحدهم بالسيف ففصل رأسه عن جسده.

وواصل ملك تدمر سيره فلم يمر باقليم للفرس إلاّ وفتحه بالسيف حتى أسر بعض مرازبة سابور وضم معظم البلاد إلى ملكه ، وقد استطاع أن يعرف من عظيم فارسي أن فالريان مات في المدائن . وأن سابور دبغ جلده بلون أحمر وعلقه في معبد من معابد فارس استخفافاً بالرومان واستصغاراً لشأنهم . فتميز أذينة غيظاً وقال لرجاله : لئن أظفرتني الالهة بسابور لأعلقن جسده في هيكل تدمر وهو حي . وبعد أن نظم شؤون الأقاليم التي فتحها ، تراجع الى بلاده ظافراً تخفق أعلامه في فضاء النصر وبعث رسله الى غاليانوس يطلعه على أحوال الشرق ويعلمه بحفظ السكينة فيه . ومع أولئك الرسل فريق من مرازبة الفرس وولاتهم أسرهم في ساحة الحرب وجعلهم هدية للامبراطور . . ! وكان الفوز من جهة أخرى حليف القيصر في القتال . فقد حطم قوى الالمان والفرنج تحطيماً ، وقهر جميع أولئك الذين خرجوا عليه . فلما رجع إلى عاصمة ملكه ، وردت عليه أخبار الظفر من أذينة ومن ثيودوت القائد الذي استرجع مصر . فأمر بأن تزين روما ، وبأن يحتفل الرومانيون في جميع الأقطار ، بذلك النصر العظيم الذي تم له . غير أنه لم يكن يثق بأن يستقر له الملك . إن اعدا ءه في الداخل والخارج كثيرون ، والفريق الكبير من قواد الرومان يطمع بالتاج وليس بين رجاله ـ على كثرة الرجال والمقربين ـ من يصلح لأن يضع يده بيده ويكون عوناً له على خصومه ، ففكر في ذلك العربي ، أجل ! فكر في ذلك الرجل الذي بني بيده عرش تدمر ولبس تاج الملك ، وقام في ذهنه أن أركان دولته لا تثبت إلاّ إذا جعله امبراطوراً في الشرق وشريكاً له في ملكه .

ولم يتردد القيصر في تنفيذ ما فكر فيه ، فبعد أن احتفل شعبه بعيد النصر دعا مجلس الشيوخ الأعلى وقال لرجاله : أتعرفون في الشرق رجلاً يستطيع أن يصون النفوذ الروماني غير ملك تدمر ؟ ولم يكن لأذينة عدو في روما .بل كانوا

جميعهم يحترمون ذلك القائد العربي أمير الصحراء وهم لا يعرفونه . فقالوا :

إنه أصدق عمال الرومان واثبتهم في الطاعة .

قال : لقد جعل نفسه ملكاً على تدمر وأصبح ذا تاج فهل يستحق ذلك ؟

فقالوا : لم يكن بين قواد الرومان من استبسل في الدفاع عن روما مثل أذينة فهو يستحق رضى القيصر .

قال : إذن نعترف له بما فعل . . فقام أمين أسرار المجلس فقال :

يا مولانا . إذا أردت أن يظل النسر الروماني فوق ربوع الشرق فافعل . .

فأشرق جبين القيصر ورفع صوته قائلاً : لقد جعلنا أذينة العربي امبراطوراً على الشرق . . فاستولت الدهشة على الشيوخ . . أيكون في دولة الرومان رجلان يحمل كل منهما لقب امبراطور؟! إن ذلك لا يكون فقال أحدهم : أيجعل مولانا القيصر ذلك العربي شريكاً له؟

قال : أجل فقوادكم أعجز عن أن يحفظوا تاج القيصر
قال : يكفي أن تعترف له يا مولانا بحق الملك .

فضحك غاليانوس قائلاً : لقد وضع التاج على رأسه دون أن يستأذن القيصر أو يستشير أحداً افلا ترون أنه يستطيع أن يجعل نفسه امبراطوراً ساعة يشاء ؟

فسادهم السكوت . .

فقال : وإذا لم تعترفوا له بتاجه أيها الشيوخ ، أتحسبون أنه يقذف بذلك التاج إلى اسواق تدمر ويقول للعرب : لا أطيق حمل هذا التاج لأن القيصر لم يعترف به .

فنظر بعضهم إلى البعض الآخر ولم يرتفع لأحدهم صوت ، فاستطرد قائلاً :

أمامكم واحد من أمرين ، اما أن لا تعترفوا بملكه ثم يمسي امبراطوراً على

رغمكم وهذا عيب يلحق بالقيصر ، وأما أن نزيده القاباً ونعماً فيزيدنا طاعة واخلاصاً . . وإذا كان هنالك من يرى أنه قادر على أخذ أذينة بالسيف فهذا هو الغرور بعينه لأن الدولة التي تتقسمها الحادثات هي بحاجة إلى أنصار لا إلى اعداء ، وملك تدمر ليس كغيره من الخوارج والخصوم فإذا حاربناه جمع لنا قبائل الصحراء وقد يضع يده بيد سابور عدو الرومان فيقتل روما في الشرق ، وتطمع بنا من الجانب الآخر طوائف الفرنج فيضمحل ذكر الرومان إلى الأبد . .

فرأى القوم أن الصواب فيما قاله القيصر . فقالوا : نخشى أن يطمع أذينة بما طمع به سواه من قبل .

قال : إذا أحسنا إليه رضي بالشرق وجعلناه عبداً لروما . . ثم قال لقد انتهينا الآن ، أليس كذلك ؟

فقالوا جميعهم : نعم يا مولانا .

قال : إذن نكتب إليه في هذا ويحمل كتابنا جندي من أبناء سوريا . . ليكتب أحدكم : من غاليانوس قيصر إلى أذينة الملك العربي :

لقد انتهت الينا أخبار ظفرك باعداء دولتنا من الخوارج والفرس ، ومرازبة سابور الذين ارسلتهم إلينا أبلغ شاهد على هذا الفوز . فروما تعترف لك بالدولة العربية التي انشأت ، وبالتاج الذي لبست ، ونحن مع المجلس الأعلى ندعوك امبراطوراً على سوريا وبلاد الجزيرة وآسيا الصغرى ونجعلك شريكاً لنا في ادارة شؤون الملك ، ثم قال القيصر لأولئك الشيوخ : سنضرب نقوداً باسم اذينة الأمبراطور وصورته ووراءها بعض مرازبة الفرس . . فحنى الشيوخ رؤوسهم لمولاهم وهتفوا للامبراطور العربي ، أجل . أن تلك القاعة الكبرى قاعة المجلس الروماني الأكبر دوت بالهتاف لذلك القائد العظيم الذي ملأ أسمه الأقطار ، ولو سأل القيصر شيوخ روما في ذلك الحين أن يهتفوا لسابور لارتفعت أصوات الهتاف تملأ الفضاء !! . .

إن شيوخ ذلك الزمان كانوا تماثيل ، وكان القيصر في نظرهم نصف اله . . !

***

كانت حاشية أذينة ووجوه قواده في بلاطه الملوكي عندما أقبل رسول غاليانوس يحمل ذلك اللقب الجديد وقد اعتزم ملك تدمر أن يستريح في عاصمته بضعة أشهر ريثما يستعيد جنده الظافر تلك القوى التي تبذل في الميادين .

وقد كثر حوله المتملقون يظهرون له الخضوع والأخلاص كما كثر حول معني المتامرون ، من كل طائفة وكل جنس حتى أنه لو أظهر العداء لعمه لكان نصاره الوفا يضربون أمامه بالسيف . ومعظمهم بل جميعهم من الحساد طلاب لنفوذ وطلاب المال كما مر وقد وقف أذينة حاجزاً بينهم وبين ما يطلبون . أضف ليهم أولئك الأفراد الذين انضموا إلى جيش تدمر عن خوف من الملك الجديد لا عن رغبة في خدمته . وحطان يقول لأذينة كلما خلا به :

أضرب يا مولاي قبل أن يسبقوك في الضرب . . أما الملك فلم يكن يبالي قوله ولم يشأ أن يضرب ضربته إلاّ بعد أن يلمس بيده خيانة ابن أخيه كما رأيت . .

وكان هيروديس من الجانب الآخر يحاول أن يثبت لأبيه إخلاص ذلك الفتى الذي نشأ وكبر في حضنه . وهكذا كان القدر يملي مشيئته على أذينة وولده يمهد السبل أمام معني . . وإذا ذكر معن أو كهيلة الزواج ، قام حطان يدافع عن رأيه الأول ثم اضطر إلى القول أنه لا يسلم بهذا الزواج قبل أن ينتهي أمر المتامرين .

ولما أكرهته كهيلة على التصريح قال : أخشى أن يرسل اليكما معني خنجراً مسموماً يطعنكما به بعد أن تصبحا زوجين ، فاتركا الزواج ريثما ينظر الملك في أمر العدو المخيف النازل في قصره . . إن حطان كان يرى كل شيء أسود في حياة الملك وحياة من حوله . وذلك لأن معني حي . . ومعني هذا أن الخطر لا يزول إلاّ إذا زال ذلك الفتى من الوجود . وكثيراً ما كان اليهودي يحدث نفسه بقتل تلك الأفعى السامة التي تضمر الحقد لكل مخلص للملك . ولكنه كان يخاف غضب هذا الملك وغضب هيروديس ، بل كان يخشى أن يقول التدمريون أن معني قد يقتل إلاّ برضى أذينة . . وفي ذلك من العيب ما فيه . . وكان يعزي نفسه ،

بأنه سيسهر على حياة أذينة وحياة ولده فيمنع خنجر القاتل من الوصول الى الأثنين .

تلك هي حالة البلاط التدمري ، أما زبدا وزباي والمقربون من القواد ، فإنهم وإن كانوا يثقون بحطان إلاّ أنهم كانوا يرون استخفاف الملك بما يسمعه فيستخفون بدورهم بذلك الخطر الذي ذكر لهم وهم لا يبصرون مظهراً واحداً من مظاهره .

***

لقد أذن لك الملك في الدخول أيها السوري ، فدخل الرسول وجثا على ركبتيه أمام أذينة وزينب ورفع صوته قائلاً : أجثوا أمام امبراطور الشرق وأسأل الالهة أن تصون دولته ، ومد يده بالكتاب . فاهتز القواد جميعهم ـ المخلصون والخونة ـ للفظة امبراطور . . أما أذينة وزينب فكأنهما لم يسمعا ما قاله ذلك السوري . لقد لمع الجلال في عيونهما وملأت وجهيهما الرصانة والعز أجل . إن تينك الشخصيتين الكبيرتين لا تستهويهما الألقاب ولا تبطرها النعم .

فقال أذينة : أأنت من جنود القيصر أيها الرسول ؟

قال : كنت من جنوده أما الآن فقد أصبحت من جنود مولاي الأمبراطور لأني سوري وقد أمرني القيصر بالبقاء في هذه البلاد . .

قال : وليس لكتابه جواب ؟

قال : هكذا قال لي عندما أمرني بالمجيء .

قال : أقرأ يا حطان .

فجعل حطان يقرأ الكتاب وشفتاه لا تنفرجان كأنه يقرأ أمراً بالاعدام !

وقد ظهر البشر على وجوه القواد وكان اسماعيل ومعني يبتسمان ، ثم تناول الملك قطع النقود وأخذ يتفرس في صورته وصور المرازبة الأسرى المقيدين وراءها ولم تتغير ملامح وجهه . . وهكذا فعلت زينب ، ثم انتقلت قطعة النقود إلى أيدي الخاصة حتى أخذها معني وقال : مر الصناع بأن يضربوا مثلها يا مولاي .

قال : سنفعل . .

قال : وليحفروا على عمد الهيكل صورة هذا الكتاب لتعرف الأجيال المقبلة أنكِ في سنة ٢٦٤ أصبحت امبراطوراً . .

قال : يظهر أن ولدنا معني يقرأ أفكارنا . . سنفعل هذا أيضاً يا بني .

فابتسم الفتى ابتسامة قصيرة كما يبتسم الذئب الجائع لفريسته . . واستطاع حطان أن يفهم معنى تلك الابتسامة الهائلة التي تخفي وراءها الموت . وبعد أن أطرق الملك قليلاً قال : لقد عرف القيصر كيف يجعل ملك تدمر مخلصاً له . إن مصلحة الرومان هي مصلحة تدمر نفسها والشرق والغرب دولة واحدة يسودها ملكان . . ثم قال : ليعلم الشرقيون في كل قطر . إن ولدنا هيروديس هو شريك لنا في الملك ، كل ما يستطيع الملك أن يفعله ، يفعله هيروديس مثله دون أن يراجعه أحد . له أن يأمر وعلى الشرقيين أن يطيعوا والويل لمن يجرؤ على العصيان . .

فقال معني هازئاً : لا يستوي ملكان في عرش واحد أندعوه مبراطوراً يا مولاي .

قال : أدعه ما شئت ولكن أحذر أن تخرج عن طاعته . .

فحنى الفتى رأسه ولم يقل كلمة .

فقال زبدا : أما وقد أصبحت امبراطوراً يا مولاي ، فأنا أقترح أن تلحق باسمك لقباً آخر يدرك الشرقيون معناه . .

فأجابه قائلاً : أتريد أن يدعونا الناس ملك الملوك كما يدعو سابور نفسه ؟

قال : نعم فسابور ليس أعظم منك في المقام .

قال : ليكن ذلك ولو كثرت الالقاب . .

واقبل القواد يهنئون هيروديس بثقة الملك به وفي مقدمتهم معني واسماعيل .

***

يونان في تدمر ـ الفرس والبرابرة ـ بين هرقل والمدائن ـ حادث يضطرب له الشرق .

- ١٧ -

نحن اليوم في مطلع عام ٢٦٥ للمسيح .

وقد نهض أذينة بأمور دولته نهوضاً طيباً يريد أن يجعل الشرق في عالي اتب الرقي والعمران . . وكان الوثنيون كما تقدم ـ ومذهبهم مذهب الدولة ومانية في ذلك الحين ـ يضطهدون النصارى في معظم الأقطار . . ويعرضون م في شؤون دينهم . . حتى اشتد النزاع بين الفريقين ، في قيصريه وحمص طاكية ودمشق وانضم النصارى إلى الملك العربي امبراطور الشرقيين ، فدعا يه زعماء الوثنيين ، وقال لهم :

ـ الشعب الشرقي الذي يخضع لنا حر في اعتناق المذهب الذي يراه ، فإذا رض أحدكم لنصراني في أمر مذهبه صلبناه على باب مدينته ولو كان أبن عم قيصر . . فانطفأت عندئذ نار ذلك الاضطهاد ، وجعل كل فريق حراً في دينه . اباح للنصارى بناء معابدهم في المدن التي يكثر فيها الوثنيون ، على أن هؤلاء لزعماء وفي ظليعتهم زعماء حمص ، اضمروا البغض للملك واستطاعوا أن نضموا على مهل وبطبيعة الحادثات ، إلى ذلك الفريق الثائر في الخفاء على أذينة أنصاره ، والذي يرأسه معني . . ! وهكذا كانت دعوة أبن خيران تنتشر وتمتد في مالك عمه وبين وجوه القوم . واساعيل واشياعه ينتظرون الساعة التي يتهيأ لهم يها قتل أذينة الظالم فيستوي أبن أخيه في عرشه .

وأنت ترى ، إن أذينة لم يبق له طمع بالمعالي ، فهو ملك وامبراطور .

ويحمل من الألقاب ما يحمله القيصر نفسه ، وكلمته في دولة الشرق أبعد أثراً من كلمة غاليانوس في القسم الغربي ، لكنه أضحى ذا طمع بالفتوح . فإذا كانت نفسه قد شبعت من الكرامة والعز ، فهي لم تشبع من التوسع والمجد ، واطماعه من هذه الناحية لم يكن لها حد ، كان عليه أن يعيد إلى المدن التي هجرها أهلها بهجة ماضيها ونضارة أرضها لتعيش رعاياه وهو ملك ، في سعة لم تكن لها وهو قنصل ، أجل ، إن تلك المدن والقرى المنتشرة على شاطىء الفرات ، تركها أصحابها فراراً من مصائب الحرب وفظائع الفتح إلى المدن الأمنة في قلب البلاد وعلى شواطىء بحر الرومان . على أمل أن يعودوا إليها يوم يعود الأمن ويسود السلام ، كذلك كان عليه أن يطهر بلاده من أوباش الرومان والأرمن والسوريين الذين انتهت مدة خدمتهم في الجيش الروماني . فانضمت طوائفهم بعضها إلى البعض الآخر وأخذت برئاسة زعماء لها تهاجم الأقاليم الهادئة فتقتل وتسلب وتخرب وتسبي والناس لا يستطيعون أن يتصدوا لها لشراسة رجالها وكثرتهم .

وكان كاليستوس الذي قتله أذينة في حمص زعيمها الأكبر ، فلما قتل ضعفت شوكة هؤلاء الأخلاط فرحلوا إلى آسيا الصغرى وجعلوا منازلهم في أعالي الجبال حتى استعادوا قواهم فولوا عليهم رجلاً أسمه تريبليانوس وبايعوه بالامارة فضرب نقوداً بأسمه وشهر الحرب على الأمبراطور الجديد .

وهنالك أيضاً علة العلل . . هنالك سابور الفارسي الذي لا يهدأ لأذينة بال إلاّ إذا قضى على دولته .

إن امبراطور الشرق لا يستريح بل دولة الرومان نفسها لا تعرف الراحة إلاّ إذا تحطمت دولة فارس وضم أذينة أقاليمها الواسعة الى أقاليم دولته الجديدة التي وضع حجرها مغموساً بدماء رجاله ، وبدون ذلك لا يستقيم لأذينة أمر الشرق فالنزاع الدائم بينه وبين سابور يزعزع عرشه . وقد يخسر نصف جيشه في الميادين قبل أن يستقل بالشرق كله . فإذا زحف إلى المدائن بجميع القوى التي تستظل بظل العلم التدمري استطاع أن يظفر بعدوه فيخلو له الجو . .

ذلك كان واجب الملك العربي يقضيه فيثبت تحته العرش . فبدأ أولاً بنشر

السلام في الأقاليم ليعود إليها أصحابها وكان يقول لقواده: لا نريد أن نحكم أرضاً لا شعب فيها..

بعث رسله يقولون للناس: ليرجع كل مهاجر إلى وطنه فالملك يضمن راحته وحياته. فعاد القوم إلى البلاد التي هجروا وهم يعلمون أنهم في أمان، واستعادت ارضهم ذلك الخصب الذي كان لها وأمطرتهم خيرات وسعة عيش. وكادت تدمر تضيق على رحبها بالغرباء. أولئك التجار والصناع والعلماء الذين تركوا آسيا الصغرى وبلاد اليونان لاجئين إلى عاصمة أذينة مدينة الصحراء. إذ تدمر كانت في الواقع مرفأ لتجارة الشرق، وقد بعد ذكر ملكها حتى فزع اليه الفارون من الظلم على أثر ظهور الخوارج الطامعين بعرش غاليانوس، ونشوب الحرب في مختلف الأقاليم. وبين أولئك اللاجئين، نابغة ذلك الزمان لونجينوس وسيد العلماء في ذلك الجيل. قدم من أثينة ليقيم في البلد الآمن، واستعطف أذينة قبل قدومه بخطبة هي فصيح القول والبيان، وقد لعب هذا الأديب الكبير في دولة الشرق، دوراً عظيماً وذهب له فيها صيت وذكر وكان من أقرب المقربين كما سيجيء، ثم وجه الملك قائداً من قواده مصري الأصل يدعى كوسيسوليوس، لينازل ذلك المتمرد تريبليانوس الذي شهر عليه الحرب.

فاصطدم الجيشان في الشمال اصطداماً عنيفاً أثر كل فريق منهما فيه الموت. فانتصر القائد التدمري، وقتل خصمه، وفر الأوباش إلى جبالهم يحتمون بها زمناً من الجيش التدمري ثم يعودون إلى تمردهم وفسادهم بعد حين. وهكذا فعلوا. ولكي يمحو الملك أثرهم من دولته أراد أن يبعث جميع قواده كل واحد منهم إلى أقليم ليخضعوا المتمردين.

على أن زبدا وزباي لم يوافقاه في الرأي. بل أرادا أن يهاجما المدائن - إذ كان لا بد من ذلك - ثم ينصرفان إلى نشر الأمن في البلاد، واجمعوا على هذا، فأخذوا يحشدون جموعهم ويتأهبون لحرب سابور.

***

وهتفت الأقطار للامبراطور الجديد كما هتفت تدمر . فامتد ذلك الهتاف في الفضاء حتى سمعه سابور في قصره . . . إن لفظة امبراطور تختص بالقيصر وحده فكيف يطيق هذا القيصر أن يكون له شريك في لقبه وفي ملكه ! إن هذا لا تفعله الملوك ولا يصدقه مثل سابور ، وهب أن غاليانوس أراد أن يشرف عامله العربي فدعاه امبراطوراً ، فمن منحه ذلك اللقب الآخر ـ ملك الملوك ـ الذي هو لملوك الفرس وحدهم لا يشاركهم فيه أحد ؟ ! ذلك أيضاً فوق طبع سابور ! ولكن لا يجوز للظافر أن يفعل كل شيء . . ألم يظفر به على الفرات وأمام المدائن ولولا ظهور الخوارج في الدولة لدك أسوار عاصمته ؟ ! إذن ، فمن حق أذينة أن يكون ملكاً ثم يرتقي فيصير امبراطوراً ثم يصعد إلى القمة فيصبح ملك الملوك !

ذلك ما كان يفكر فيه سابور عندما بلغه خبر أذينة ، على أنه ذكر في ذلك الحين هزيمته وقام في ذهنه أن امبراطور الشرق سيزحف إلى بلاده مرة ثالثة وقد يحالفه النصر فيسقط إلى الأبد .

فبدأ يحشد جيشه أمام عاصمته ويتهيأ للقاء عدوه ، جاعلاً أبواب المدائن وراء ظهره كما فعل من قبل . ولم يكن يجرؤ على التوغل في البلاد كما كانت عادته . فقد كان الخوف ملء قلبه وهو يخشى أن يفاجئه في ساعة لا يعرفها هو ولا يعرفها الجواسيس . وكانت نصيبين وحران قد أصبحتا بفضل أذينة من أمنع مدن الدولة . فيهما الحامية القوية ترد غارات الفرس وتقوم في وجه كل عدو . ولم يخطىء سابور في حسابه . فإن الجيش التدمري أطل على سهول الفرس بعد أن أعد عدته ونظم صفوفه ، ثم دارت رحى القتال . فكان أذينة هو الفائز وتراجع سابور إلى مدينته وهو يكاد يموت من قهره .

وأعاد التاريخ نفسه ، فإن الفرس احتموا وراء أسوارهم وقام التدمريون بالحصار يرسلون إلى العاصمة قذائف المنجنيق والعرادات من الحجارة الضخمة حتى تزعزع السور ، وعند ذلك الحين ، مد القدر يده كما مدها في المرة السابقة فإن رسل آسيا الصغرى أقبلوا من الشمال ينقلون أخبار هجوم البرابرة على تلك الأقاليم . فتحير أذينة في أمره ، أيترك المدائن وهو يوشك أن يفتحها وينصرف إلى الدفاع عن بلاده ، أم يبعث إلى الشمال بعض جيشه ويحاصر هو بالبعض الآخر

ـتى يستسلم الفرس ؟ إن صيانة البلاد هي في نظره قبل الفتح ، والملك الذي لا
ـبح أرضاً حتى يخسر أرضاً ليس بالملك الذي يحسن حفظ ملكه لا سيما وأقاليم
شمال في آسيا هي زهرة الأقاليم .

« وهنا يسكت المؤرخون فلا يقولون أفتح أذينة المدائن أم أنصرف قبل
ـتح . إلاّ واحداً هو المؤرخ القسطنطيني لسنسال فقد ذكر في كتابه أنه فتحها
ـد أن فر منها سابور» .

وكما تراجع التدمريون في مرتهم الأولى تراجعوا هذه المرة أيضاً وأفاق
ـبور فلم ير أثراً لأذينة ولجيشه .
كان البرابرة قد رسوا في هرقلية على شاطىء البحر الأسود إلى غلاطية
ـادوقية ينشر الخراب وراءها ظله المخيف، وكان غاليانوس وقتئذ في جوار
ـسطنطينية يعد أسطوله لينازل تلك الطوائف في البحر ويقذف بهم إلى الأعماق،
ـ وصل أذينة وجيشه ، فر البرابرة من وجهه إلى مرفأ سفنهم فركبوها يريدون
دهم . غير أن قيصر طاردهم بأسطوله فأفناهم حتى أنه لم يبق منهم غير
ـيل ، فأسف أذينة لهذا الفرار وندم على تركه المدائن ثم قال لقواده : لقد كتب
ـن لا نعرف الراحة فسنعود إلى بلاد الفرس .

***

لقد أتت الساعة يا اسماعيل . . أنتظر حتى يعود أذينة إلى تدمر فنضربه في
ـره ؟ فأجابه اسماعيل قائلاً : أصبر يا مولاي حتى يتفرق أصحابه . .

فقال معني : ومن يستطيع أن يبعد هؤلاء الأصحاب ؟
قال : أذينة نفسه فسيرسلهم إلى الشواطىء والجبال ليبسطوا نفوذه ويرفعوا
ـم السلام فوق ربوع دولته . ألا تذكر أنه قال لهم ذلك قبل أن يغادر تدمر .

فابتسم وقال : أجل لقد وعدهم بهذا وقد نسيت . . أتراه يبعثهم في هذه
ـمة قبل أن يهاجم الأعجام ؟
قال : هذا ما أراه إلاّ إذا لم يوافقوه في الرأي .
قال : أخشى أن نعود إلى تدمر وهم مجتمعون .

قال : أما أنا فلست قليل الجلد لأتعجل في أمري . خير لك يا مولاي أن تصبر الزمان كله حتى يبعلم قواعده عنه فتستولي على التاج وأنت مطمئن من أن تتعجل فتضرب ضربة يحملونك بعدها على رؤوس الحراب .

قال : إذن فلا بد من الصبر . .

قال : نعم وقد يتم لك غداً ذلك الأمر الذي تنتظره منذ جيل ، وكان الجيش يبعد عن هرقلية بضع مراحل . وهو راجع إلى حمص على أمل الزحف إلى المدائن . ففكر أذينة في أمر أولئك المتمردين الأوباش المقيمين في الجبال يبعثون الذعر الى قلوب رعيته ويسلبون الناس أشياءهم من حين إلى حين ، واعتزم أرسال قواده لأجل إخضاعهم قبل أن يجتاز الشاطىء ، فدعاهم في صباح يوم وقال لهم : أنترك هذه الأقاليم قبل أن يسودها الأمن ؟

فقام حطان فقال : على أي شيء عولت يا مولاي ؟

قال : على أرسال قوادنا مع فرقهم ينظمون شؤون البلاد وينظرون في أمور الناس .

قال : ومولانا الأمبراطور ؟ . .

قال : أما نحن فنسبقهم إلى حمص ونمكث فيها حتى يعودوا .

قال : ومن يبقى معك يا مولاي ؟ . .

فضحك أذينة وقال : إن صاحبنا حطان يخاف أن يبقى الملك وحده فتأكله السباع . . ! سيبقى مع الملك هيروديس وبعض الحراس . .

قال : وحطان يا مولاي فأنا لا أحب الحرب ولا أطيق أن أبتعد عن الملك . .

قال : أفعل ما تشاء .

قال : إن بين الحراس من يعرف هذه الجبال كما أعرفها أنا .

فعرف الملك عنئذ أن الرجل يلح في الطلب من خوفه عليه ، فأبت عليه عزة نفسه أن يظهر خوفاً ، فقال : لقد أمرناك بالمسير فاتبع معنا إلى حيث يرسله الملك .

فخفق قلب اليهودي وجعل يقول في نفسه : أرى الملك يدفع نفسه ويدفع ولده إلى الهاوية وهو لا يدري . ثم التفت فجأة إلى اسماعيل فراه هادئاً ، أما معني فكانت عيناه تبرقان ذلك البريق الوحشي . . فقال : لقد كبر معني وأضحى نابغة في فنون القتال أفلا تأمره بالذهاب مع الجيش ؟

قال : لقد شهدنا حربه في حصار المدائن فهو لا يصلح إلاّ للصيد . . إنه من أصدق الرماة في الجيش . .

قال : إذا كانُ هذا فليجرب سهامه في صدور الأعداء .

قال : نريد أن يحتفظ بهذه السهام لصدور الفرس . وضحك الملك لابن أخيه قائلاً : سنقضي بضعة أيام في الصيد يشاركنا فيه معني ، وأخذ يوزع قواده زبدا إلى الشمال ، وزباي إلى لجنوب ، ومعن بن حمدان في الشرق ، والقائد الآخر في الغرب حتى جعل لكل واحد منهم مهمة كأن قوة خفية كانت تدفعه إلى أبعادهم بمثل تلك السرعة وذلك الحزم ، وزبدا وزباي ومعن والقواد المصريون ساكتون لا يقولون كلمة كأن تلك القوة نفسها تملي عليهم ذلك السكوت الغريب . . !

حتى أن هيروديس لم يبد ولم يعد ، غير أن حطان كان ينطق بلسان الجميع . .

فقال : أيأذن لي مولاي الأمبراطور بكلمة أقولها ونحن منفردان ؟

قال : نأذن لك في هذا بعد غروب الشمس . . فاحمر وجه حطان لمظاهر استخفاف الملك ووقف بباب القبة ينظر إلى السماء يستوحيها القول ، وقد مرت سحابة سوداء أمام عينيه وملأ اليأس قلبه عند وثوقه بأن الملك ماض في ذلك الأمر حتى احتجبت الشمس عن العيون فاقبل على مولاه وهو لا يكفكف الدمع المتساقط على خديه . . فلما راه بدت علائم الاستخفاف من جديد على وجه الملك وقال له :

يا حطان ! أتخوف الملك أمام خاصته ووجوه قواده ؟ فمسح الأمين دموعه قائلاً : ما عرفت من قبل أن الملك الذي ساد الشرق بقوة سيفه يجد الخوف سبيلاً إلى فؤاده . ولكني أردت أن أقول لمولاي أنه لا يليق بهذا الملك أن يرجع إلى حمص يحيط به فريق من حرسه وجيشه بعيد عنه .

قال : وسيعود معنا بعض الرماة . . فتمتم حطان قائلاً : وهذا هو موضع الخوف . . فرفع الملك عندئذ صوته وقال : أرجع إلى صراحتك يا حطان وقل لنا لماذا تخاف ؟

قال : أتسألني عن هذا يا مولاي وأنت تبعد المخلصين وترافق الخونة المتامرين ؟ !

قال : وإذا فعلنا ؟

قال : أفعل ما تشاء يا مولاي ولكن لا تستخف بالأقدار . . ألا تعلم أن هؤلاء الخونة إذا رأوك منفرداً شهروا عليك السيف .

قال : لا نظنهم يجسرون على هذا . .

قال : بل يفعلون أعظم منه ولا يبالون . . إن أنصارهم كثيرون يا مولاي وجميعهم يلبسون ثوب الاخلاص وهم كالذئاب . .

فضحك أذينة عندئذ وقال : إذن أنت لا تعلم ماذا يريد الملك من انفراده ؟

فنظر إليه حطان مستفهماً وهو ساكت .

فقال : ألم نقل لك غير مرة أننا لا نمد الى المتأمرين يداً قبل أن تلمس هذه اليد خيانتهم ؟

قال : بلى .

قال : وأنت ترى أنهم يتظاهرون بالحب ويضمرون الشر فهم لا يقدمون على أمر إلاّ إذا بعد الملك عن أصحابه . .

قال : ولأجل هذا يهيء لهم الملك أسباب الجناية ؟ !

قال : أجل فسيبعد الملك أصحابه الأمناء وينفرد مع هيروديس لا يرافقهما قائد . لكي يقبض على تلك اليد الاثيمة التي تمتد اليه .

قال : إنها تمتد من وراء الستار يا مولاي . .

قال : والموت يكمن لها وراء الستار أيضاً . .

قال : لينصرف الجميع إلاّ حطان .

قـال : وتنصرف أنـت قبلهـم ولا خوف على الملك . يا غلام أدع هيروديس .

فدعاه الحاجب فأقبل . فقال له أذينة : إن حطان ينصح للملك بالرجوع عن رأيه فماذا ترى ؟

قال : وأي رأي يا مولاي ؟

قال : أي أن نعدل عن أرسال قوادنا الى الاقاليم .

قال : ولماذا ؟

قال : لأنه يرى في هذا التدبير خطراً على الملك وعلى هيروديس ! .

فأرسل الفتى ضحكة ملأت القبة وقال : ما برح حطان يحدثنا بالمؤامرات ويتهم ابن عمنا وهو لا يستطيع أن يثبت قوله ، أتظن يا حطان أن معني الرافل بحلل العظمة والعز في ظل الملك يخرج عن طاعة هذا الملك وهو عمه ؟ !

فقال حطان : ليس هنالك ظنون أيها الأمير . . إن حطان لا يبدي رأياً قبل أن يقوم في نفسه الوثوق بذلك الرأي من كل وجوهه . . إنك تحسب مظاهر ابن عمك إخلاصاً على العرش من فتاك المتمرغ في أحضان العز . . أجل إن المتامرين كثيرون لكنه هو زعيمهم وسيدهم الذي لا يطيق أن يرى تاج تدمر يغطي رأساً غير رأسه وأنصاره اليوم اكثر عدداً منهم بالامس فإذا أنس غفلة من الملك وثب عليه وثوب النمر وقام أشياعه من خلفه ينادون به ملكاً على الشرق . .

قال : وأين يقيم هؤلاء الأنصار ؟

قال : بين صفوف الرماة والفرسان وأبناء البادية حتى أن معن بن حمدان يقود بعض الخونة من الحراس وهو لا يدري .

فقال الملك : إذن فإذا بعثنا قوادنا ليحفظوا الأمن في الدولة فقد أبعدنا في الوقت نفسه صفوف المتأمرين على العرش .

قال : نعم يا مولاي لكن الخونة يملأون المدن والقرى وهم بين الشعب اكثر منهم بين فرق الجيش . فإذا أبعدت هؤلاء دعا معني أولئك في ظلام الليل وتهيأوا جميعهم لبذل النفوس في سبيله .

قال : إذا فعل ضربه الملك وضربهم مع الرجال الذين يرافقونه إلى حمص بحد السيف .

قال : أتظن يا مولاي أنهم يهاجمون الملك في وضح النهار ؟ !

فقال هيروديس : إن الغدر لا سبيل لهم إليه لأن أبـي في قبتـه أعـز من النجم .

قال : قد يفلت في الفضاء سهم من سهام الخونة فيصيب الملك . .

قال : ذلك وهم لا معنى لوجوده يا حطان وأنا أضمن معني . . ! !

فاختلجت شفتا أذينة وقال : لا تضمنه يا هيروديس فنحن نعلم أنه خائن ولكن لا نخافه ونحب أن نقبض عليه وعلى أشياعه . أسمع يا حطان . نحـن راجعون إلى حمص ولنا فيها من أمراء دولتنا وعمالنا جيش يقوم مقام قوادنا الذين سنرسلهم إلى ساحات الشرف .

قال : ليصدر الملك أمره فأرجع معه إلى حمص . .

قال : لا يليق بالملك أن يرجع اليوم عن قول قاله أمس فاذهب مع الجيش وأعلم أننا لا ننسى لك هذا الأخلاص وستحرسنا الالهة . .

فدمعت عينا اليهـودي وقـال : نفسي تحدثنـي بأن أعصيك يا مولاي فلا أذهب .

قال : إنها لأمثولة في حسن الطاعة تلقيها على الجيش ! ! إنك إذا فعلت هذا أكرهت الملك على انزال العقاب بك . . فحنى حطان رأسه وهو يمسح دموعه ثم قال : ليس لي إلاّ أن أخضع لحكم القدر وإن جار . . ثم خرج من القبـة واليأس يملأ قلبه وجثتا أذينة وهيروديس ماثلتان أمام عينيه مضجرتين بالدماء . .

***

إن حطان مصيب فيما قال يا هيروديس .

قال : وأنا أعرف مثله أن في الجيش خونة يبغضون الملك ولكني لا أصدق أن معني يوافقهم في هذا البغض .

قال : إذا شك الملك في أحد ففي هذا الفتى الذي ربيناه وأنت تنتصر له ،

لقد كان علينا أن نسمع لليهودي الأمين فنقبض على الأفعى الصغيرة السامة ونضعها في أحد السراديب في تدمر ثم نعمد إلى اسماعيل وأتباعه فنعذبهم ونضربهم بالسياط حتى يعترفوا ولكن ما فاتنا اليوم فلا يفوتنا غداً وقد نستدرك الأمر عند وصولنا إلى حمص .

قال : ماذا رأى الملك من خيانة معني ؟

قال : أمثلك يسأل الملك مثل هذا السؤال يا بني ؟ لقد كان الصلب على باب الهيكل أخف ما نعاقب به أبن عمك لو ظهرت خيانته ، ولكن نقرأ بغضه في عينيه ونرى على وجهه مظاهر الاستخفاف بالملك والاستهزاء برجاله . ألم يستخف بك حين قال لنا أمام أمراء الدولة تلك الكلمة التي تعد أهانة لأبن الملك ؟ !

قال : ما هي يا مولاي ؟

قال : ألم يستغرب أمر الملك بجعلك شريكاً له بالملك ؟ ! أفلم يقل بلهجته الجافة تلك العبارة التي يخيل الينا أننا نسمعها الآن « لا يستوي ملكان في عرش واحد» ثم سخر بك قائلاً « أندعو هيروديس امبراطوراً» ؟ !

قال : ذلك طيش الشباب يا مولاي . .

ـ بل ذلك بغض تأصل في قلبه وملك عليه كل عواطفه فلا تعتذر عنه ، ونحن إذا أبعدنا قوادنا فليس ليخمدوا فتنة الخوارج فحسب ، بل لنجعل للمتامرين سبيلاً إلى إظهار ما لم يظهروه من قبل . . إن ذلك اليهودي الذي يدعى حطان ليس من عامة الرجال يا هيروديس . بل هو شعلة حكمة وذكاء ارسلتها عناية الالهة الى تدمر كما ترى . ولولا عزة الملك لأمرنا ببقائه مع الملك ولما صدر لنا أمر إلاّ عن رأيه . .

لكن طهارة وجدان هيروديس لم تشأ أن تتهم معني . فسكت احتراماً لأبيه . وهو يجد الدفاع عن الفتى واجباً يمليه عليه أدبه وكبر نفسه . إذا وقف معني يوماً موقف المذنبين ، أما أبوه فكان يرى في تلك الساعة غير ما يراه ولده . إن قطع رأس الحية كان في نظره واجباً تمليه عليه مصلحة العرش . .

***

في صباح يوم من أيام الصيف ودع القواد ملكهم أذينة ومشت صفوفهم إلى اخضاع المتمردين ، وحطان ينظر إلى الوراء والدموع في عينيه . . غير أن القواد كانوا يسخرون منه إلاّ معنا فإن قلبه كان يضطرب كلما نظر إلى دموع حطان .

حتى إن أذينة نفسه عندما قبل اليهودي يده أحس بقشعريرة تمشت في جسده وكما أرسل أذينة جيشه إلى الاقاليم ، أرسل معني واسماعيل في ليل ذلك اليوم رسلهما إلى المدن والقرى يدعون الأتباع والأنصار الى الاجتماع في حمص لاستقبال امبراطور الشرقيين . . إن الملك الظافر الزاحف إلى المدائن ليستولي على عرش الفرس يجب أن يستقبله شعبه في حمص بأهازيج النصر أجل ، وعلى كل رجل يشهد حفلة الاستقبال ، أن يخفي خنجره تحت الثياب . . الخير والشر ! أو اللؤم والنبانةكانا يتنازعان النفوذ في ذلك الحين . أذينة يبعث أمناءه ليطهروا الدولة من الفساد وخصومه الذين يقودهم أبن أخيه ، يبعثون أمناءهم ليوغروا الصدور على الملك العظيم الذي شرف بلاده ، إن الفرق قليل وقليل جداً بين المهمتين . . أولئك كانوا يريدون أن يبنوا بناء عالياً يرفع رأسه إلى السماء يخلدون به ذكر الشرق ، وهؤلاء يريدون يريدون أن يقوضوا أركان البناء لتقوم مصلحتهم الخاصة على أنقاضه . . وقد شاءت الأقدار أن يستخف أذينة بأقوال المخلصين من رجاله ، فسلح بصبره وسكوته أيدي خصومه . ودفعهم بيده إلى ذلك التدمير وذلك ما كان يخشاه حطان . كان يرى أن سكوت أذينة مع ما فيه من مظاهر العدل والعز . هو ضعف لا يليق بالملوك وليس فيه شيء من حزم الحاكم المسلطعلى كل شيء . وكان يقول لمعن وهما سائران مع فرقة الحراس الى جبال أيزورية : ما رأيت ملكا يلامس سيف القاتل رأسه وهو يرى ذلك السيف ويبسم لصاحبه غير أذينة . . ! إن استهانته بالخطر ستقضي عليه وهذا ما كنتُ أقرأه على صفحة الفضاء فالويل لتدمّر إذا قتل الملك . . ويرتعش جسمه وجسم معن عند ذكر القتل . نعم إن معنا كان خائفاً لكنه لم يخطر بباله قطإن في تدمر واحداً يجسر على أن يمد يده بسوء إلى أذينة . ومع ذلك فلم يكن يعرف سبب خوفه .

فلما ردد حطان لفظة القتل اهتز على فرسه وجعل يحدق إليه . وحطان ذلك الداهية الحكيم يبكي ويقول : سنرجع إلى حمص فلا نجد ملكاً . .

فقال معن : لقد جاوزت الحد في خوفك يا حطان . فهز رأسه قائلاً :

لو كانت القضية قضية خوف وحده لهان الأمر ولكني أرى ـ كلما أطبقت جفني ـ شفار الخناجر تلمع تحت ثياب المتامرين . وأرى معني واسماعيل يأمران تلك الخناجر فتخرج من مخابئها تحمل لموت .

قال : إن الرجال الذين يحرسون الملك يمنعون خناجر الخونة من الوصول اليه . ومتى وصل إلى حمص أصبح أهلها جميعاً حراساً له . .

قال : إنك لا تكاد ترى في حمص رجلاً واحداً مخلصاً للملك . . كلهم خونة يريدون أن تكون لهم حمص وما يتبعها ملكاً خاصاً يتصرفون به كما يشاؤون ، وأرى أنهم من أعضاء تلك المؤامرة ومن أشد المخلصين لمعني .

قال : إذا كان هذا فخير لنا أن نعصي أمر الملك ونرجع إلى حمص متبعين آثاره في ظلام الليل .

قال : هذا ما يخطر لي أنا أما أنت فجندي لا يجوز له أن يعصي قائده فإذا فعلت كنت من الخوارج المتمردين على الملك .

قال : يجب أن يتمرد جميع القواد ويعودوا إلى حمص . .

قال : إن زبدا وزباي المطلعين على كل شيء ينظران إلى المؤامرة مستخفين وهما واثقان بأن معني واسماعيل ومن شايعهما أحقر من أن يتصديا لأذينة .

قال : وهما يتهمان معني كما نتهمه نحن . .

قال : أجل ومعني في نظرهما فتى حسود تحتدم نار الحقد في صدره ولكنه لا يجسر على أن يمس الملك .

قال : وكانا يسهران على حياته ونحن ذاهبون إلى المدائن .

قال : كما كان يفعل هيروديس ، يحيط قبة أبيه بالحراس وهو يهزأ بالخطر . وإني لأرى هذا الاستهزاء قاضياً على تدمر يا أبن حمدان . .

قال : إنكم مخطئون جميعاً فمثلي لا يؤثر الوهم فيه .

كان أذينة . إذا طالت أيام سفره يعمد إلى الصيد ، وهي عادة له لم يتركها في جميع أدوار حياته ، نشأ في البادية يصيد الأسود وأنواع السباع . وهو يجد في ذلك الصيد لذة لا يجدها إلاّ في الميادين . وكثيراً ما كان يصارع الأسد والنمر

بالسيف وينتهي الصراع بقتل خصمه بضربة يفلق فيها هامته . فلما انصرف قواده ، عمد إلى قوسه وسيفه يطوف في تلك الغابات باحثاً عن الضواري ، ومعه هيروديس ومعني وحاجبه البدوي وعشرون من حراسه يعين لهم موضعاً ينتظرونه فيه ، وكان السفر طويلاً وشاقاً وهو كلما مر ببلد نظر في شؤون ذلك البلد ثم توغل في الغاب . وهيروديس لا يفارق أباه ، كما أن معني لم يكن يطيق أن يفارق الأثنين . . وكما كان الأثنان يصيدان الوحش ويفوزان في الصراع كان هو يصيد مثلهما وينتهي أمره بالظفر لأن ساعده قد اشتد وهو أحذق الرماة في الجيش التدمري ، ومرت ثلاثة أشهر والقوم يصيدون والملك ينظر دائماً إلى معني بعين الحذر والفتى لا يقع في الشرك ، ولم يكن ذلك عن دهاء ، بل كان ينتظر الوصول إلى حمص ليقوم في مهمته الكبرى التي أعد لها العدة كما أشار عليه الداهية اسماعيل . وكلما فكر في تاج الشرق تثنى في مشيه وملأ الزهو نفسه حتى ليظهر البشر على وجهه بكل معناه . حتى قارب القوم بلاد العلويين اليوم . . والغابات في تلك الديار كانت تغطي الجبال وفيها جميع صنوف الوحش والطير فاستولى الزهو على معني ورقص قلبه في صدره لأن مدينة حمص لم تكن بعيدة عنه . وفي حمص . . ! أجل في حمص سيصير معني ملكاً . . !!

خمسة عشر يوماً تمر أو أقل ويلبس أبن خيران تاج عمه ثم ينصرف إلى تدمر فيبعد الملكة وأنجالها الى مكان قصي ، قد يقتل أولئك الاطفال واحداً واحداً لئلا يقوم منهم من يطمع بالعرش . وهبلات البكر، وخيران الولد الثاني، ويتم الله أصغر أخوته الذكور وبنات ثلاث منهن في حضن المرضع . أولئك كانوا أنجال عمه الملك . فأخذ الشقي يفكر في مصيرهم بعد قتل أذينة . ويختار لهم - إذا أذن لهم في الحياة - بلداً نائياً بعيداً يرسلهم إليه . . والدنيا كلها ، في ذلك الحين كانت أضيق من أن تسع معني . وأماله وأحلامه ! . . وقد بدأ يرى عمه أحقر من عبد هو سيده . . ! والأيام تمر وقد طابت الأقامة لأذينة في تلك الربوع وطاب له الصيد في غاباتها حتى كاد ينسى المؤامرة والمتامرين . ولم يكن يعلم أين يبيت . فإذا أدركه الظلام وهو في الغاب على قمة الجبل ضربوا له قبته تحت الأشجار . وإذا أقضت عليه شؤون صيده بات على الشاطىء أو في سهل لا شجرة فيه . ولو قيل له أن في غاب « كذا» صيدا لمشى في اليوم الثاني الى ذلك الغاب ولو كان يبعد

عشرين مرحلة عن المعسكر ، ففي إحدى الليالي قال له دليله : إن في موضع كذا كثيراً من الأنمار لو بعثت الجيش كله ليصيدها لفاتك منها العدد الكبير ، فقال له : نذهب غداً مع نصف الجيش فنقضي على هذه الوحوش التي تؤذي الناس كما يقضي قوادنا على زمر الأوباش الذين يزرعون الفساد . . ثم قال لاسماعيل لقد جاء دورك في الصيد يا صاحبنا فكن غداً مع الملك وأنظر إلى سهام معني تخترق صدور الضواري . .

فأجابه ذلك الخبيث قائلاً : اذهب لأكون دائماً في خدمة مولانا الملك .

قال : لا نحتاج في صيدنا إلاّ إلى من يحمل جعبة السهام وحاجبنا يفعل هذا . فإذا ذهبت فلكي تكون في خدمة معني . .

قال : ألا يجد ابن خيران ـ وهو ابن أخي الملك ـ من يخدمه غير مربيه ؟ . .

قال : لا يجد الفتى مع حاشية الملك لذة كالتي يجدها مع اسماعيل . . إنك أبوه وهو يحبك أكثر مما يحب الملك . . ماذا تقول يا معنيٌ ؟ .

فقال هيروديس : بل يحب الملك كما يحب نفسه . . فابتسم أذينة قائلاً : نسأل هذا فيجيبنا الآخر وابن أخينا لا يقول كلمة . .

فقال معني : لقد سبقني هيروديس والجواب ما سمعت يا مولاي .

قال : إذن تحبنا كما قال ابن عمك . .

قال : أحب الملك كما يحبني هو . .

فقال أذينة في نفسه : صدق الفتى فهو لا يريد أن يكذب

ثم قال : غداً يشترك الحراس جميعهم في الصيد كما يشاركنا فيه اسماعيل ولو كان قائد الرماة هنا لأخذ منك يا معني أمثولة في الرمي . . قل للحراس يا هيروديس أن يعدوا سهامهم ويتهيأوا للذهاب معنا إلى ذلك الغاب فأعظم أيام الصيد هو يوم غد . .

فقال معني : أتستهزىء بي يا مولاي وأنا خير من رمى .

قال : ما خطر ببالنا أن نهزأ بك بل نحن يملكنا العجب كما نزعت عن

قوسك لترسل سهماً . . ولو كنت خبيراً بضرب السيف كما أنت خبير بالرماية لاعترفنا بأنك سيد الأبطال . . قال هذا وضحك . فقام في ذهن الفتى أن عمه يسخر منه ولو أقسم له ذلك العم بكل ما على الأرض من الهة لما صدق أنه معجب به . إن سوء الظن ينتهي بالمرء إلى الشك في من حوله حتى يرتاب أخيراً من نفسه . واحتدمت نار الحسد في صدره حتى عقد الغضب لسانه فقضى الساعتين والثلاث في قبة الملك يداعب خنجره القصير في حزامه وهو مطرق لا يقول كلمة ، وأحيا الحراس والجنود الذين صدر الأمر بذهابهم غداً إلى الصيد ، ليلتهم هذه يشدون الأوتار ويشحذون السلاح . .

***

ركب معني جواده في صباح اليوم الثاني وهو يضمر الشر . حتى أن اسماعيل نفسه لم يستطع اخماد تلك النار التي تتأجج في داخله وكان أذينة مشرق الجبين ، وقد مشى مع ولده في طليعة الرجال ، يتقدم الجميع دليل الصيد على جواد يسبق الريح .

وانفرد معني باسماعيل فلم يمش بجانب الملك كما هي عادته في الأسفار ومربيه يحاول أبعاده عنه وصرفه إلى جانب عمه وهو لا يسمع له ولا يرضى بما يقول ، فلفت بذلك نظر أذينة وهيروديس ، فقال الملك : لقد أظهر لنا صاحبك الجفاء يا هيروديس . .

قال : بماذا يا مولاي ؟

قال : ما رأيناه قط بعيداً عنا في الأسفار إلاّ هذه المرة كأنه لا يريد أن يسمع صوت الملك !

قال : ذلك ما يمليه عليه خجله يا مولاي .

قال : لم يفعل شيئاً يستوجب الخجل ولكنه فتى جميل الوجه خبيث القلب . .

قال : أرى الملك واثقاً بما يقوله حطان عن معني . .

قال : لقد قلنا لك غير مرة أن حطان مصيب في قوله وأن هذا الفتى عق عمه حتى أنه لو استطاع لقتلنا وتربع في العرش الذي هو عرشك وعرش

أخوتك . . أتظن أنه يطيق أن يراك ملكاً وهو من العامة ويرضى هو بعمل السوط بين الجنود وأنت تحمل الصولجان ؟ ! أم تحسب اسماعيل ومن حوله رجال صلاح وقد غرسوا الفضائل في صدر الفتى وهذبوا نفسه كما يهذب أبناء الملوك ؟ ! إنهم جميعهم عصابة شر يطمعون بالسلطان وقد جعلوا معني رئيساً لهم يستثمرون طيشه ويستغلون خفته .

قال : وأنا أراه طيب القلب يا مولاي . .

قال : لقد عرف الذئب أن يكون حملاً عند الحاجة فلا تنتصر له لئلا يطمع بنا نحن الأثنين . . وعند ذلك سمعا الدليل يقول : هذا هو الغاب يا مولانا الملك . .

فأمر أذينة فربط الخيول في مدخل الغاب وتوغلت الرجال بين أشجاره الكثيفة يطردون النمورة بالصياح والأهازيج ثم يرسلون إليها سهامهم فيصرعونها ويرتفع الهتاف ، وإذا بمعني أمام الملك ووراءه عبد يحمل جعبة سهامه . فقال له أذينة : لقد أنسنا منك جفاء يا معني . . !

فقال : لو رأيت معني يبذل دمه في سبيلك لقلت هذا هو الجفاء . . قالها وشفتاه ترتجفان من الغيظ . . وخاصة الملك وحراسه وهيروديس يسمعون . . فتجهم وجه أذينة ورقصت القوس في يده . . لكنه كظم غيظه ولم يجب . . غير أن الفتى تمادى في قحته فقال : وقد جئت الآن أثبت لمن حولك أني أحسن الرمي فلا تهزأ بي أمام رجالك . . !! فنظر الملك إلى هيروديس وظل ساكتاً . . وكانوا قد أصبحوا في قلب الغاب وهم يسمعون صوت الأنمار ، وإذا بنمر تتوقد عيناه واقف فوق صخرة سوداء وهو يتحفز للوثوب فمد الملك يده بالقوس وتنحى القوم . وقبل أن ينطلق السهم أرسل معني سهمه فأصاب الوحش في قلبه فهوى الى الأرض فنظر القوم بعضهم الى البعض الآخر وساد السكوت . إن ذلك الأمر اجتراء على الملك لا يقدم عليه غير المجنون أما الملك فمشى إلى الأمام كأنه لم يبصر شيئاً مما جرى . . وقد رأى القوم أن معني لم يكترث لتلك الدهشة التي استولت عليهم بل مشى وراء عمه لا يلتفت إلى أحد حتى قارب جثة النمر فجعل ينظر إلى السهم العالق في جوفه وهو يبتسم ابتسامة الفوز مقرونة بمظاهر

الاستخفاف ، فاستطاع هيروديس أن يهمس في أذنه قائلاً أحذر أن تعود إلى مثل هذا يا معني ، فنظر إليه نظرة جفاء ثم انثنى يفتش عن اسماعيل حتى راه فقال : أتبعني يا اسماعيل فسترى العجب . . ! وأقبل الجند من الناحية الأخرى يتبعون نمراً آخر أصغر من الأول ولكنه أخف وأكثر هياجاً . . فتصدى له أذينة وأوتر قوسه . غير أن معني كان أسبق في الرمي فوثب الحيوان الهائج الى الفضاء ثم وقع والدم يسيل من فمه فتمتم أذينة يقول : هذه هي المرة الثانية فالويل لك وأسودت وجوه القوم . . حتى أن اسماعيل الخائن لم يكن راضياً عما يفعله مولاه الثائر . فدنا منه قائلاً : ستفضح نفسك يا مولاي . أما الفتى فلم يبال بقوله وبتلك العاطفة العالية يظهرها له أبن عمه هيروديس الذي يحبه .

وكانت أصوات الوحش تملأ الغاب ، والناس الذين يرافقون الملك لا يهتمون لها بل انصرفت أفكارهم الى ما رأوه من جرأة أبن خيران واستخفافه بأمبراطور الشرق ، ومن يجسر بعد ما جرى على أن يرمي حيواناً ؟ إن الملك يتميز غيظاً ولو حدق اليه القوم لرأوا ركبتيه ترتجفان . . وقد بدأ الاهتمام على وجه هيروديس وخاف أن ينفجر غضب أبيه فيقع ما لا يرده لمعني ، لكن اهتمامه ونصحه لم يثمرا ، فإن الدليل أومأ إلى الملك ليدنو منه ثم مد يده يشير إلى أدغال قامت هناك قائلاً : إن حيواناً اختفى وراء الأدغال . . فلم يلتفت أذينة إلى ما حوله ، بل تقدم بقدم ثابتة إلى ذلك العوسج الملتف وقد رمى قوسه وشهر سيفه يريد الصراع . . فلمعت السيوف في أيدي الرجال وأحاطوا بالملك من الجانبين يضربون حينما يرون ما يدعو إلى الضرب . . إلاّ معني فقد احتفظ بقوسه واسماعيل يشير إليه بحاجبيه أن لا يفعل . . وهو يسخر بجميع الذين ينصحون له بالتزام الرصانة والهدوء . حتى انفجرت الأدغال وظهر رأس هائل هو رأس لبؤة وراءها جراؤها وهي تملأ الغاب زئيراً .

فقال أذينة لهيروديس : كن ورائي وأحذر هذا الغادر أبن عمك . .

فقال الفتى في نفسه : مسكين معني يظنون به الشر وهو لا يعرفه ! !

ثم مشى الملك خطوتين واللبؤة تضرب الأرض بذنبها وقد ثار ثائرها لرؤية ذلك الجمع ينازعها السيادة في الغاب . . وقد حبس القوم أنفاسهم وجحظت

العيون . . غير أن المشهد لم يطل . فإن سهم معني أصاب اللبوءة في رأسها فاخترق الدماغ وسدل الستار فوجه إليه الملك عندئذ نظراً أحد من ذلك السهم وقال للحراس : احملوا الجراء إذا استطعتم وعودوا إلى المعسكر فقد انتهى الصيد . . وانثنى راجعاً وهو ينظر إلى الأرض وحدقت العيون الى معني وقد حاول هيروديس أن يعاتب الفتى فلم يجد سبيلاً إلى هذا ، ولكنه كان واثقاً بأن النار تتأجج في صدر أبيه ، وراح فريق من الحرس يدعون رفاقهم المنتشرين في الغاب قائلين : لقد انتهى الصيد بأمر الملك ، فعرف القوم أن هنالك حادثا ثم ما لبثوا حتى فهموا كل شيء ، فلما وصلوا إلى مدخل الغاب ، أمر الملك جنوده بأن يركبوا أفراسهم وبقي هو واقفاً .

فقال معني لعبده : هات الفرس . . فدنا اذينة من ذلك العبد قائلاً له : أركب أنت فرس هذا المجنون !! . . فعلا العبد ظهره كما أمره الملك . .

فقال معني . ما معنى هذا يا عم ؟ !

ـ : معناه أنك تمشي أمام الجيش إلى المعسكر والقوم يركبون .

قال : أبن خيران يمشي ؟ ؟

ـ : أجل وعليك أن تتقدم الخيل .

قال : وإذا أبيت ؟

قال : إن ذلك الذي يعصي الملك لم يخلق بعد . .

فقال اسماعيل : أمشي أنا ويركب معني يا مولاي !

قال : ما سألنا أحداً رأيه في هذا الأمر ولا نأذن لأحد في الكلام . أمش يا هيروديس . .

فقال ذلك الطيب القلب : أسمح يا مولاي . .

فقاطعه قائلاً : لا نسمع رجاء ولا شفاعة يجب أن يسير ماشياً إلى المعسكر قوسه في يده ، فرفع معني صوته قائلاً : لست سيداً لي يا أذينة ولو سودك الرومان .

فابتسم الملك بمرارة وقال : إذا قدرت أن تخرج عن الطاعة فافعل . .

قال : لقد خرجت منذ الآن !!

قال : أعرف هذا فإذا قتلت أبن أخيك أيها الظالم خلا لك الجو . .

ولو جمع الملوك في تلك الساعة كل ما في صدورهم من حلم لما كانوا أحلم من أذينة . لقد ظن القوم أن الملك سيفاجىء الفتى بضربة سيف تفصل رأسه عن جسده ، ولكنه لم يفعل بل قال : أيقوم في ذهنك أيها المغرور أن عرش تدمر لا يثبت وأنت حي ؟ :

قال : أجل فأنت تؤثر أن يموت صاحب الحق في الملك لتتمتع أنت ويتمتع بنوك بما غصبت . .

قال : أنحن غصبناك العرش وأبوك لم يكن له غير الرئاسة بالاسم ؟

قال : يكفي أن يكون أبي سيد تدمر فلما مات وضعت يدك أيها الظالم على هذه السيادة ومنعت الولد الذي تحاول أن تذله الآن ، من أن يستولي على حقه ! .

قال : إن أباك لم يترك لك عرشاً بل ترك لك مالاً أعطيناك أياه وزدناك من مالنا حتى أمسيت أغنى من الملك . ذلك هو حقك أيها المجنون ، وأما رئاسة الشيوخ فلم تكن ملكاً لأحد بل هي هبة من الرومان يهبونها لمن يشاؤون من الرجال دون أن تكون تراثاً لبني السميدع . أتعلم لماذا جعلوا أباك رئيساً لتدمر ؟ إنهم فعلوا ذلك ليستفيدوا من استسلامه اليهم بل من استسلامه إلى الخمول وراء أربعة جدران ، ونحن . . كما يعلم الذين ربوك ، لم تمنحنا روما رئاسة المجلس بل استولينا عليها بقوة عقيدة ثابتة في صدرنا لا تتزعزع هي أن نجعل تدمر عاصمة ملك حدوده هذا الشرق . وأنت ترى أن هذا السيف هو الذي سود أذينة كما سترى أنه سيبسط نفوذ تدمر فوق بلاد سابور بعد قليل ، وكان أذينة يقول هذا ليسمع اسماعيل ورفاقه ، فحاول الفتى أن يجيب فاسكته قائلاً :

وكنت طفلاً . . فرباك اسماعيل في أحضان الكرامة والعز . وبذلنا لك فوق ما نبذله لأولادنا من أسباب السعة والرخاء . فنشأت ولداً جاهلاً يعق المحسن اليه ويغمط نعمة عمه ، وكان اسماعيل وانصاره يرتجفون من الخوف وهم لا يدرون كيف ينتهي ذلك الحادث الذي أوجده طيش معني ، إلى أن قال أذينة :

ولولا صلة الرحم لقيدنا يديك ورجليك وجعلناك في هذا الغاب تتسابق الى جسمك الأنمار والأسود . . تجترىء علينا فنسكت . ثم تتمادى فنقابلك بالصبر على رغم كل هذا تنتهك حرمتنا وتجفو لنا أمام الأمراء والقواد كأنك أنت الملك ونحن عبيد لك .

قال : إنك ملك في نظر الناس أما أنا فلا أعترف بالظالم . وأما إذا كنت ربيت في أحضان العز فالقصر قصري والمال مالي والعبيد عبيد أبي ولو عدلت لرجعت إلى البادية تصيد السباع ، وخطا بضع خطوات وهو يهم بأن يرسل سهماً من سهامه . إلى صدر ذلك الملك الغاصب الذي لا يطيق أن يراه . . فوضع أذينة يده على سيفه وقال لحاجبه البدوي : خذ قوس الفتى وخنجره أولاً . .

فجرد معني ذلك الخنجر وقال : إن الملوك لا تسلم سلاحها إلى الحجاب . . ولكن البدوي لم يرجع بل مشى مشية جبار ينفذ أمر مولاه وهولا يعبأ بالشفرة الحادة يلمع فيها الموت ، فعالجه ابن خيران بطعنة لو أصابت صدره لكسرت الأضلاع ، ولكنها أصابت الهواء فإن البدوي عرف كيف يتقي غدر الفتى ومد اليه يديه القويتين من الوراء ، وحمله كما يحمل الطفل وهو يهدد ويتوعد ويحاول الأفلات ولا يستطيع ، فجرد الملك سيفه وأقبل على الأثنين قائلاً لحاجبه : أتركه ودع الخنجر في يده . . وعند ذلك ترجل هيروديس وهمز الحراس أفراسهم فاحاطت بالملك . فوضعه البدوي على الأرض وتراجع الى الوراء . . فأومأ إليه الملك بسيفه قائلاً : أمامك واحد من أمرين ، أما أن تضرب صدرنا بخنجرك وأما أن تطرحه وتطرح القوس . . وكان وجه أذينة في تلك الساعة أسود كالليل وقد ظهرت على جبينه تلك الدلائل التي ترتسم عليه في ساحات القتال ، فأرخى معني نظره إلى الأرض أمام نظر أذينة الحديدي والخنجر المذهب القبضة يرتجف في يده . .

فقال أذينة : لا تتردد في تنفيذ ما أمرناك به . اما أن تسلم وأما أن تضرب فسقط الخنجر من يده . . فمد أذينة يده وأخذ القوس ثم قال للحاجب : احتفظ بهذا السلاح نضعه على مذبح الالهة في تدمر ذخيرة ثمينة تركها لنا أخونا خيران .

ثم قال لمن حوله : كبلوه بالقيود . .

فقال هيروديس : والآن يا مولاي ؟
قال : إن الملك يأمرك بالسكوت . .

فوضع القيد في يده وهو مطرق لا يرفع رأسه ، فنظر الملك عندئذ إلى القوم قائلاً : لقد حفظ المجنون حياته فارجعوا الآن . . فمشت الخيل ، ومعني وحده يسير ماشياً بين الخدم والعبيد ودموعه تتساقط على خديه .

***

كان هيروديس واثقاً بحلم أبيه ، وقد تفطر فؤاده وساءه ما جرى لابن عمه العزيز ، وكلما استعرض ذلك الموقف وذكر أقوال معني ، قام في ذهنه أنها أقوال غلام قذفت بها إلى فمه ثورة نفسه التي هدأت بعد حين ولم يخطر بباله قط أن تلك الثورة لا تخمد نارها إلاّ إذا أضحى هو واضحى أبوه جثتين . !

مسكين معني . . أبن الدلال وأبن الملوك . . يقيد كالمجرم ، ويجعله الملك في خيمة من خيام السجون . . ؟ ! ولماذا ؟ ألأنه رمى النمر قبل أن يرميه عمه وقد فعل هذا وهو لا يعلم أنه إهانة للملك ؟ ! إن ذلك لا يسلم به قلب طاهر كقلب هيروديس ، فقال لأبيه : ألم يكف معني ما أنزلته به من عقاب يا مولاي ؟

قال : نراك لا تهتم إلاّ لهذا كأنك تستسهل أهانة الملك وكأن معني كل شيء في هذا الوجود .

قال : إنه ابن أخيك يا مولاي . .

قال : أجل ولكن ليس لنا في تدمر عدو سواه .

قال : كان موقفه في الغاب موقف طائش لا موقف عدو .

قال : مهما يكن أمره فهو يقول أننا غصبناه العرش والآن ماذا تريد يا هيروديس ؟

قال : جئت أسألك العفو عنه يا مولاي .

قال : أنك تسألنا أمراً لا وجود له . .

قال : أليس لعفو أذينة الملك وجود ؟

قال : لا فكل ما يوجد عند الملك قصاص لا شفاعة فيه بعد الآن .

قال : ومتى إذن يخرج الفتى من سجنه ؟

قال : يوم يخطر ببال الملك أن يفعل ذلك .

قال : أخشى أن تطول أيام سجنه كما طالت أيام فالريان في سجن سابور . .

قال : قد يكون هذا وحسبه أننا لا نجلده كل يوم كما كان شأن الفرس مع أسيرهم .

قال : أستحلفك برأس أمي الملكة أن تطلقه .

فأجابه بدون أن يتردد : ونحن نقسم لك برأس زينب أنه سيبقى اليوم في السجن ولا ننظر في أمره إلاّ بعد وصولنا إلى حمص .

قال : عدني يا مولاي أنك ستجعله حراً .

قال : لا نعدك بشيء من هذا ؟

قال : أيجعلني الملك شريكاً له في الملك وأنا لا أستطيع أن أسأله العفو عن نسيب لي ؟ فكره أذينة أن يرد سؤال هيروديس وهو أحب ولده إليه . فقال : نعدك بالنظر في أمره ليس غير .

قال : أما أنا فقد رضيت بهذا الوعد . .

***

كان معني في سجنه حراً بكل شيء إلاّ بالخروج من ذلك السجن . يقابل من يشاء ويحدث من يشاء ، لا رقيب عليه . ولا عين لأذينة ينقل إليه أقواله ! وهذا هو الجهل بعينه كأن أذينة عاد إلى استخفافه على رغم ما جرى له مع الفتى لا يهتم لما يقول ولما يفعل . . وكان اسماعيل لا يفارق مولاه إلاّ لقضاء حاجة ، وهو يقسم له بجميع الالهة أن الأمر سينقضي في حمص . . وكلما دخل هيروديس على السجين الثائر رأى اسماعيل منفرداً به يتحدثان بصوت لا يسمعه أحد ، وينهض اسماعيل فيذهب ويبقى أبن الملك . . فلما وعده أذينة بالعفو عنه أقبل على معني وهو مشرق الجبين وقال : لقد وعدني الملك باطلاقك بعد وصولنا الى حمص . . فبرقت عينا الخائن وتمتم لأبن عمه الفاظ الشكر . ثم أخذا يذكران الملك ومعني يظهر ندمه على ما حدث في الغاب . ويذرف الدمع الغزير هو دمع الحسد والغيظ

لا دمع الندم . وعندما كان الجيش سائراً في طريق حمص ، كان هيروديس يترك أباه . ويمشي إلى جانب السجين المظلوم يعزيه ويسليه ، حتى دخل الجيش المدينة في صباح يوم وساحتها الواسعة تكاد تضيق بوفود الناس أن الذين جاءوا يستقبلون الملك العظيم كانوا الوفاً . . ولكنهم جاءوا بأمر معني واسماعيل يخفون خناجرهم تحت الأثواب . فنزل الملك وهيروديس في بيت الوالي ، وتفرق الجيش الصغير في المدينة يلهو ويشرب الخمر.

أما معني فكان في منزل الملك ، ولكن في غرفة كبيرة واسعة . واقعة في غير الجناح الذي يقيم فيه أذينة . وقد جعل المتآمرون تلك الغرفة مجلساً سرياً تصدر منه أوامرهم لأولئك الأنصار المنتشرين في المدينة وأذينة كثير الحذر على نفسه وعلى ولده ولكنه لم يبث عيونه ليحصوا على خصومه الأنفاس . أجل ، في قصر الملك نفسه كان يجتمع المتآمرون وفي غرفة السجين الصغير أجمع القوم على قتل الملك وقتل هيروديس . وأذينة يجلس للمظالم ويهتم لشؤون شعبه ، ومن عادة الملوك ان يحتفلوا بعيد مولدهم . هكذا كانوا يفعلون في الماضي وهكذا يفعلون اليوم . فصدر أمر الملك ليعدوا عدة العيد ودعا جميع الأمراء والوجوه ، إلى مأدبة تقام لهذا الغرض ، في يوم قريب عينه لهم ، وراح هيروديس يستعطف أباه ليطلق المظلوم ، فرفض الملك طلبه في بادىء الأمر . ثم أمر بأن يكون معني بين المدعويين إلى وليمته . وفي تلك الليلة التي نقل فيها الفتى البشرى لأبن عمه . . نعم في الليلة نفسها وضع المتآمرون خطتهم واقسموا يمين الطاعة لأبن خيران . أعدت حمص لوليمة الملك كل شيء ، كما أنها أعدت كل شيء لأعدامه وأعدام ولي عهده . كان الخونة خبراء في قلب العروش لم ينسوا أمراً ولم يذهلوا عن امر . وقد عرفوا كيف يستولون ـ بفضل الوالي الخائن ـ على قلعة المدينة الواقعة في مكان كثير الصخور كما عرفوا أن يحيطوا القصر بجنود لهم تحسبهم من عامة الناس ، وأنصار أذينة في حمص أضعف من أن يحفظوا حياته وحياة ولده . ومعظم الأمراء من الخونة وان أظهروا الأخلاص كما مر ، وكان اسماعيل وأنصاره واثقين بأن أول صوت يرتفع بالدعاء للملك الجديد . . يخنق اصوات المقربين الى الملك القتيل . وقد يدفعها إلى الهتاف لمعني، وأقبل المدعوون . . الوجوه والأمراء وعظماء الجيش المقيم في حمص يخفون تحت أرديتهم سلاحهم المشحوذ ،

ويضمرون البغض الهائل الذي هو أمضى من ذلك السلاح ، واصطفت صفوف الناس على الأبواب وأمام مدخل القصر يدافعون الحراس والجنود . . وكأن أذينة بنفسه ومعه هيروديس ، يستقبلان المدعوين ويبتسمان لهم حتى دخل الجميع بينهم معني ، يلبس رداء مذهباً كرداء هيروديس ، هو رداء العيد . فتجهم وجه أذينة وأدار وجهه كي لا يراه . غير أن الفتى كان حكيماً في ذلك اليوم . فقد أقبل على عمه يريد أن يلثم طرف ردائه فأومأ اليه بعظمة أن يجلس بين الأمراء ثم قال : سنرى بعد هذه الوليمة إذا كنت تستحق الحرية أم نعيدك إلى السجن . فأجابه وهو مطرق : سيرى الناس إني أستحق ما ذكرت . . !

قال : أنادم أنت على ما فعلت ؟

قال : أظهر لك ندمي وأنت لا ترضى .

قال : ليس الندم بالفاظ تخرج من الشفتين . . إن الملك يريد أن يراك أهلاً لعطفه . . فقال الفتى في نفسه : سيتضح لك اخلاصي بعد ساعة أيها الغاصب . .

وقبل أن يأذن أذينة بالشراب . . خرج مع هيروديس الى شرفة القصر وقال له : ستحتفل هذه الأجناس من البشر ، بعيد الملك هيروديس بعد موت أذينة .

فأجابه الفتى قائلاً : خير لي أن تبقى يا مولاي وأنا من جنودك . ثم دخلا وأحضر الشراب . . الملك في صدر المجلس ، وهيروديس عن يمينه . وقد أذن لمعني في الجلوس عن شماله . وذلك بفضل هيروديس نفسه الذي طيب قلب أبيه . وشرب الملك وشرب القوم ثم استلذوا الخمر فأخذوا يجرعونها حتى سكروا إلاّ أثنين كانا يتظاهران بالسكر ولم يجرعا غير جرعتين . هما معني نفسه وضابط من ضباط الحراس الذين باعوا ضمائرهم لمعني بالمال ، وذلك الضابط لا يبعد كثيراً عن ولي العهد . . وعيناه تحدقان الى معني . وعينا هذا الأخير تنظران إلى اسماعيل الذي شرب حتى ارتوى ، ومرت ساعة والناس في فرح . وقد ذكر الملك في ذلك الحين زوجته وأولاده فقال لهيروديس : لقد كتبنا أمس إلى الملكة وبعثنا إليها رسولاً ينقل إليها أخبار الجيش الذي تحبه . ويا ليتها كانت معنا في ذلك الغاب تشاركنا في صيد الأنمار . . إنها كالملك تصارع الأسد ولا تبالي . .

فقال اسماعيل : أتذكر يا مولاي يوم الصيد العظيم في وادي تدمر والملكة تركض وراء الفهد والسيف في يدها تريد ان تصرعه به ؟

إن ذلك المشهد لا يزال أمام عيني كأني أراه الآن . . فجاش العز في صدر أذينة وقال : ألا تذكر حادثاً أعظم من هذا جرى في ذلك اليوم يا اسماعيل ؟

قال : بلى يا مولاي أذكر ذلك الصراع الهائل بين فهد أصفر الجلد طويل وبين الملك .

فقال هيروديس : ولكن الصراع بالسيف أصعب يا مولاي .

قال : أجل وقد صرعنا الفهد في ذلك اليوم بالخنجر بعد أن وضعنا الرمح في فمه .

قال اسماعيل : كيف استطعت يا مولاي أن تضع خنجرك في القلب .

قال : أتكأنا على الرمح حتى لامس رأس الفهد الأرض ثم ضربناه فغاصت الشفرة في جنبه ووصلت إلى قلبه ، وعند ذلك نهض معني والكأس في يده وهو يتمايل كالسكران أخذت فيه الخمرة . .

وقام ذلك الضابط من الجانب الآخر وهو يقول : أشرب لصحة مولانا الملك قبل إن يسبقني الأمير معني . واتجهت العيون إلى الاثنين واصفرت الجباه .

فهمس هيروديس في أذن أبيه قائلاً : هذا معني قام يعتذر ويظهر ندمه ! ! فلم يلتفت أذينة إلى ذلك الغلام الناكر الجميل . .

أما اسماعيل فكأنه لم ير شيئاً مما جرى . بل قال : لا أظن أن أحداً يستطيع أن يضرب مثل ضربة الملك . .

فارتفع في تلك القاعة العظيمة صوتان يقولان : نحن نضرب مثلها ولكن في قلوب الملوك ، وغاص خنجران : خنجر الضابط وخنجر معني في ظهري الملك وهيروديس إلى القبضتين . .

ونهض القوم وجردت السيوف والخناجر من الأغماد . . . فهجم أنصار الملك يدافعون عن أنفسهم ، فسقطوا جثثاً فوق جثة مولاهم وجثة ولده ، ولماذا تحصدهم السيوف ولا سلاح معهم وهم يسكرون ؟! إلاّ واحداً من الحراس

المخلصين استطاع أن ينتقل إلى قاعة أخرى ويفر منها إلى الخارج واليأس ملء قلبه ، وكان حاجب أذينة البدوي بالباب وهو لا يترك سلاحه . فلما رأى الملك غارقاً في دمه ورأى خناجر الخونة تخطف أرواح الأنصار هاج هائجه ووثب إلى داخل القاعة يريد أن يثأر بالقتيلين العظيمين . . لكنه لم يخطو خطوتين حتى داسته الأقدام جسداً بلا روح . . فلم يبق في تلك القاعة رجل واحد من حزب الملك . . وقد حدث كل ذلك بسرعة لا يقوم في ذهن عاقل أنها سرعة بشر . .

كانت الخناجر تخرج من الصدور لتغمد في الظهور دون أن يرتفع صوت لأولئك الخونة الغادرين . وقتيل أحد من القتلى الكثيرين الذين يملأون القاعة لم يستطع أن يصيح أو يستغيث . . وأن الطعنات كانت تصيب القلوب . وذلك السلاح الفولاذي القصير يقطع الحديد حتى أن الملك وهيروديس لم يلفظا كلمة واحدة قبل الموت . . بل لم يستطع أحدهما أن يوجه إلى الآخر نظرة وداع . .

لقد كان الدماغ الذي وضع خطة القتل في مثل ذلك الشكل السريع الهادىء . . دماغ شرير نابغة في صيد الأرواح . . كما كان الملك نابغة في صيد الاغمار . . . وبينما كان الشعب الذي يحب ملكه يضج في الخارج ضجيج الفرح والاستبشار ، كانت علائم القلق والخوف تعلو وجوه الخونة الذين يحفظون منافذ القصر ، وكانت جثث الأبرياء تنقل من الداخل الى السراديب ثم إلى الخلاء في أطراف حمص حيث توضع في الحفر وتحجب تحت التراب . .

وبعد ساعتين ، لبس معني رداء أذينة وتقلد سيفه . ووضع على رأسه خوذته الصفراء التي خاض بها الميادين . . وجلس على مقعد حجري عال جعلوه عرشاً . ثم خرج الوالي واسماعيل الى شرفة القصر المطلة على الساحة وصاحا قائلين : لقد أضحى معني أبن خيران ملككم فليعش الملك . . فهتفت طوائف الخونة : يعيش الملك . وشاركهم في الهتاف ـ ولكن في الظاهر ـ أنصار أذينة وقد عرفوا أنه قتل . . ثم بدأت الوفود تدخل على معني لتقسم يمين الطاعة له ، وبينها قائد الحامية في حمص وهو من أشياع الملك القتيل . . وكان ذلك في أواخر السنة ٢٦٦ للمسيح . . « وفي هذا يقول الأعشي من قصيدة» :

أزال أذينة عن ملكه ... وأخرج عن أهله ذا يزن

***

معني الأول ـ حمص الثائرة .
زينب امبراطورة الشرق .

ـ ١٨ ـ

في مساء ذلك اليوم التاريخي المدهش ، أقبل على ظاهر حمص شيخ بيضت السنون رأسه ولحيته ، ذو عينين براقتين ساحرتين . . ووجه مستدير لونه كلون النحاس ، وملامحه ، على رغم تلك الشيخوخة البيضاء ، ملامح جبار يحمل في يده عصا هي سلاحه ، وعلى كتفه جراب طويل فيه زاده من التمر والعسل ، وقد شد وسطه بمنطقة هي قطعة حبل من الكتان ، وجميع مظاهر الشيخ مظاهر فقير لا يملك غير جرابه وعصاه . لكنه يمشي بعزم الفتيان ، مشياً ثابتاً موزوناً كالجنود القدماء . . وكان بينه وبين المدينة مسافة نصف ميل وهو يخشى أن تقفل حمص أبوابها قبل أن يصل . فتعجل في مشيه ، ولكن لفت نظره رجل بلباس الحراس مستند إلى جذع شجرة ورأسه بين يديه ، فدنا منه وهو واثق بأن يستطيع أن يدخل المدينة مع هذا الحارس ساعة يشاء ، فرفع الحارس رأسه فرأى الشيخ جبيناً طبعه اليأس بطابعه ، وعينين تملأهما الدموع . . فقال له : أتبكي وأنت من حراس الملك ؟؟ فأجابه الرجل بصوت يخنقه البكاء قائلاً :

أتستغرب بكائي وأنا من أشقى الناس ؟

قال : قد يكون في الناس من هو أكثر شقاء فخبرني ماذا جرى لك ؟

قال : من أنت وكيف عرفت أني من الحراس ؟

قال : أما أنا فعربي يقيم عند مخرج الوثاروس يزرع أرضه الصغيرة التي لا تكفيه . وأما كيف عرفت أنك من الحراس فقد زرت تدمر فيما مضى ورأيت فيها

الوثاروس» .

ـ ولماذا قدمت حمص ؟

ـ لأرى فيها فارسين من فرسان القائد زبـاي ، هما ولـدي البـكر وأبـن أخي . وقد استأذن في الدخول على الملك فيحسن إلي كما أحسن في المرة الأولى يوم رأيته أمام هيكل بعل في عاصمته ، فشهق الرجـل واسترسـل في البـكاء ، فوضع الشيخ جرابه وعصاه إلى جانبه ، وجلس قائلاً : استحلفك برأس الملك أن تذكر لي سبب هذا البكاء .

قال : لتلعن الالهة هذا الملك فأنا لا أحلف برأسه . .

قال : أتبغض مولاك وأنت حارس له ؟ !

قال : بل أبغض من يحب هذا الملك السفاح الذي تلطخت يداه بدماء الأبرياء .

فاحمرت عينا الشيخ وقال : لا تذكر أذينة بسوء فهو خير الملوك . .

فانفجرت دموع الحارس ورفع صوته قائلاً : وأين هو أذينة أيها الشقي ؟ ! إن خير الملوك قتل في هذا اليوم وقتل ولده . .

فتمتم الشيخ قائلاً : أذينة وهيروديس ؟ !

قال : أجل قتلهما معني الظالم الذي نادوا به ملكاً على الشرق . . !

فاضطرب الشيخ وانحدرت دموعه تبل لحيته وثيابه وساد الصمت الأثنين وكأن الحارس شعر ببعض العزاء . فقد وجد في وحدته رجلاً يشاركه في حزنه . ويبكي معـه ذينـك القتيلـين العـزيزين . وقـد يكون له عونـاً في الانتقـام من الغادرين .

فقال : أتبكي الملك أم ولي العهد أيها الشيخ ؟

قال : أبكي الاثنين واستنزل اللعنات على رأس القاتل . . وكانت الألفاظ تخرج مع نفسه كحشرجة المائـت ، فقـال الحـارس : المرء لا يبـكي إلاّ الـذين يعرفهم .

قال : وأنا قد عرفتهما في تدمر كما قلت لك ، وإذا رأيتني حيا فمن فضل ما أعطياني وأعطيا ولدي ، ثم أخذ يمسح دموعه ويقول : مسكين أذينة كان عظيماً في كل شيء حتى في صبره على معني . أليس هو أبن أخيه ؟

قال : بلى .

قال : كنت أسمع الجنود يقولون أن هذا الفتى يبغض عمه .

قال : صدقت ويا ليته قتل بسيف قائدنا أبن حمدان يوم حاول أن يشتري الحراس بالمال . . إن معنا كان يخاف أذينة كما كنا نخافه نحن . أما اليوم فلا نخاف أحداً وإذا كان هنالك من يجرؤ على قتل الخائن فهو أنا . . فبرقت عينا الشيخ وقال : ممن أنت أيها الرفيق ؟

فنظر الحارس اليه نظرة شك وسكت . .

فقال له : خبرني كل شيء فأنا عدو الملك الجديد وأقسم لك . . فتردد الرجل في الجواب ثم قال : إني إذا ترددت فلست جباناً ولكني أخشى أن يعرف الظالم فيقتلني قبل أن أثأر بمولاي وأبن مولاي . .

قال : ألا تجعلني شريكاً لك في غرضك ؟

قال : ليس لي غرض إلاّ الأنتقام فهل توافقني فيه ؟

قال : نعم وهذه اليد التي ترتعش من حمل العصا لا ترتعش من حمل السيف .

قال : لا نحتاج إلى السيوف أيها الشيخ بل إلى الرجال الأكفاء المخلصين .

قال : وماذا يفعل هؤلاء ؟

قال : إذا وجدوا حملت لواء العصيان ودخلت على الملك في قصره وبين حراسه فذبحته في حضن اللعين اسماعيل . . فاكفهر جبين الشيخ وظهرت على شفتيه ابتسامة حقد هائل اهتز له الحارس الأمين . فقال : أتعرف اسماعيل هذا ؟

قال : نعم .

قال : إذن فأنت تعرف امراء تدمر وعظماء الجيش . أتعرف زبدا وزباي ؟

قال : وأعرف قائدك معن بن حمدان . .

قال : أتراهم يقسمون يمين الأخلاص للملك الجاني ؟
قال : أتكون بين حراس أذينة ولا تعرف المخلصين له ؟ !
قال : لقد أصبحنا في زمن لا تعرف فيه الصاحب من العدو . .
فابتسم قائلاً : أما أنا فاعرف كل شيء . . إن الذين ذكرتهم هم أنصار أذينة .
قال : أواثق أنت ؟
قال : أجل .
قال : لقد طابت لي الحياة الآن فإن لم أقتل معني قتله هؤلاء .
قال : ولكنهم منتشرون مع الجيش في الأقطار . .
قال : وسيرجعون بعد أيام . .
قال : إن في الجيش خونة كثيرين على رأسهم ذلك الروماني اسكندر وزنباع قائد الرماة . . فاستولت الدهشة على الحارس وقال : أراك خبيراً بأحوال الجيش حتى أنك تسمي الأشخاص والأحزاب .
قال : وأعرف أيضاً أن رفاقك الحراس أنفسهم بعضهم خائن .
قال : استحلفك بتربة أذينة أن تقول لي من أنت . .
قال : إنكم معاشر التدمريين كثيرو النسيان . . إلاّ تذكر أمين أسرار الملك ؟ !

فجعل الرجل يتفرس في عينيه اللامعتين ثم انتفض فجأة وقال : حطان ؟ !

فهز الشيخ رأسه قائلاً : أجل . حطان المنكود الحظ الذي ترك الجيش وعصى أمر الملك ليحفظ حياته وحياة هيروديس . . حطان الذي أبعده مولاه هازئاً بنصحه . مستخفاً برأيه ، فأخذ الحارس يردد كلامه ثم قال : حطان أمين أسرار الملك سيد الحكماء وما هذه اللحية البيضاء ؟ . .

قال : تنكرت لأنقذ أذينة على رغمه فنفذ القضاء قبل وصولي إلى حمص .
قال : ألم يكن يريد أن تنقذه ؟

قال : لا ، كان واثقاً بأن المتآمرين أضعف من أن يمدوا اليه يداً فقتلته تلك

الثقة العميله التي قتلت قبله الكثيرين من الملوك . وكان هيروديس يحب أبن عمه ولا يتهمه بسوء . فكان الخنجر أبلغ دليل قابل به معنـي ذلك الحـب . والآن فخبرني كيف قتل الأثنان . . فروى له الحـارس رواية القتـل كما جرت إلى أن قال . وكان اسماعيل يصف صراع الملك مع الفهد وقد جعل المتآمرون وصف ذلك الصراع علامة بينهم لتغوص خناجرهم في ظهور الأبرياء كما غاص خنجر الملك في جنب الفهد . . ولو رأيت أذينة وهيروديس في تلك الساعة يا حطان لما نسيت قط ذلك المشهد الهائل الذي يتفطر له فؤادي كلما ذكرته . . كانت الكأس في يد الملك، وهيروديس يحدث والي حمص والابتسامة لا تفارق ثغـره . . فلما هوى الخنجران أنكب أذينة على وجهه وارتمى هيروديس في حضن الوالي لم يقل أحدهما كلمة بل لم يتنفسا وقد غرقت الجثتنان في الدماء ثم رأيت الخناجر تغمد في الصدور ومعني واسماعيل يأمران الرجال بقتل الحراس فاستحر القتل وعلا الصياح ونحن لا سلاح لنا غير الأيدي نتقي بها طعنات المتآمرين، فمسح حطان دموعه وقال : ومن طعن الملك؟

قال : طعنه معني من لوراء . وفي اللحظة نفسها ضرب ضابط من ضباط الحرس هيروديس كأن اليدين الضاربتين يد واحدة . . !

قال : وكيف فررت ؟

قال : مرقت بين الرجال كما يمرق السهم الى قاعة أخـرى جعلـت فيهـا صناديق الخشب ينقلون فيها جثث الأبرياء . ومنها إلى شرفة وثبت منها إلى شجرة من الحور النابت وراء القصر ثم تركت المدينة إلى هذا الموضع أبكي فيه مليكي وأبن مليكي اللذين شرفا بلاد العرب .

قال : وقد خرج اسماعيل ينادي بمولاه ملكاً فهتف له الشعب والجيش .

قال : ما عرفت شيئاً من هذا ولكني سمعت أصوات الهتاف . . فاطرق اليهودي ملياً ثم قال : ليست الغرابة في أن يقتل الملك وأبنه من يد الخونة . بل الغرابة في أن يصبح معني امبراطور الشرق ويمسي اسماعيل سيد العرب . . ! إن هذا وحده أعجوبة الأعاجيب في هذا الجيل . . أذينة وهيروديس يموتان ومعني يملك ؟ !-الأسد يسقط في الشرك والذئـب يجلس على العـرش ؟ ! فلا كنـت يا

حطان إذا أبقيت على الغادرين . .

ثم قال : من أي بلد أنت يا سيار ؟

قال : من حمص . .

فذعر حطان وقال : من حمص الخائنة ؟

قال : أما حمص فلم تخن يا مولاي . إن أولئك الخونة هم من الغرباء .

قال : وأهل المدينة ؟

قال : جميعهم مخلصون لأذينة القتيل إلاّ نفراً قلائل يطمعون بمناصب الحكم .

قال : أتعرفهم أنت ؟

قال : أعرف في حمص كل ما تسألني عنه .

قال : خبرني بما تعرف عن الحامية .

قال : حامية خائنة أما قائدها فلا .

- ومن قال لك ذلك ؟

قال : أبن عم لي هو رئيس قومه .

قال : ممن أنتم ؟

- من بني حنفي وهم كبني حمدان يقيم بعضهم في حمص والبعض في بادية دمشق .

- وأنتم عشيرة كبيرة يا سيار ؟

قال : بنو حنفي أصغر العشائر يا مولاي لكن رجالها أشداء . .

قال هذا وظهرت على وجهه دلائل الفرح . .

فقال حطان : وهذا معناه أنك تثق بهم في المحن . .

قال : نعم وإذا ثأرت بالقتيلين العظيمين فبسيوف هؤلاء . .

قال : أما الثأر فحطان ينظر فيه . وأما أنت فعليك أن تطيعني حتى يتم لك ما تشاء .

قال : كما يطيعك أبناء قومي جميعهم كما كانوا يطيعون أذينة .

قال : ومن تعرف من آل حمدان ؟

قال : أعرف الكثيرين منهم فليس فيهم خائن . .

قال : هلمّ إذن ندخل المدينة ونختار لنا مكاناً نقيم به .
قال : إن بيوتنا جميعها معدة لاستقبال أمين الملك .
قال : ولكن أحذر أن تقول لأحد مهما يكن أمره أني أنا حطان .

***

ما لبث القوم الذين اجتمعوا في حمص حتى تفرقوا وهم يلعنون ذلك الملك الذي تربع في عرش عمه . . ذلك لأن الوعود التي وعدهم بها اسماعيل كانت الفاظاً خلابة خدرت أعصابهم زماناً طويلاً ثم لما استفاقوا لم يجدوا شيئاً ، واسماعيل هو الدولة . . إن معني الملك لم يكن في الواقع غير تمثال يلبس الديباج ويضع على رأسه التاج ، ولم يكن لمربي الملك غير غاية واحدة هي أن يكون صاحب السلطان المطلق . غير أنه ـ على رغم خبرته ودهائه ـ لم يعرف كيف يحتفظ لنفسه بذلك السلطان . . أبطرته النعمة فبغى . واستهوى نفوذ العرش معني فاستبد وجار . ولم يستطع الاثنان أن يرضيا رجالهما الكثيرين الذين باعوا ضمائرهم ولم يقبضوا الثمن . إلاّ بعض المقربين من التدمريين وأوغاد الرومان . فهؤلاء وفى لهم اسماعيل بما وعد . بعد حادثة القتل بيوم واحد ليس غير . . ولو لم يكونوا رؤساء قومهم لما خطر بباله أن يفي لهم بوعوده ، لأنه كان أحرص على المال من أن ينتقل إلى جيوب الآخرين . . فانقلبت الحالة فجأة ، من ثورة خفية على الملك القتيل إلى ثورة خفية على الملك الجديد ، لكن ليس لهذه الثورة رئيس . . والملك الفتى لا يعبأ ولا يبالي ولا ينظر مع مربيه إلى ذلك الأمر العظيم الذي تثبت معه أركان الملك . . . أي أنه مر شهران على تربعه في العرش ولم يكتب إلى غاليانوس الأمبراطور يسأله الرضى عنه . . وجيش أذينة لم يرجع ، وعلى معني أن يسترضي قواده الذين هم سادة الناس ورجال الحرب . على أن اسماعيل لم يهتم للآمرين . . إن غاليانوس الأمبراطور لا يجد بدا من الرضى ، وقواد تدمر لا يلبثون حتى يعترفوا بمولاهم أبن خيران .

وكانت رسله في بلاد ـ العلويين ـ ينتظرون الجيش القادم من شواطىء آسيا ليدعوا زعماءه إلى الاعتراف بذلك الملك ، حتى إذا رأوا عصياناً أنثنوا إلى سيدهم ينقلون إليه الأخبار ليعد عدته قبل أن يصل الجيش إلى حمص ، وزينب !! إن

زينب لم يحسب لها الخونة حساباً . . فهي مثل كل النساء تنفرد في غرفة لها تبكي زوجها الذي قتل .كما تبكي تدمر رجالها الذين تحصدهم الحرب . . ومن يشهر سيفه ليدافع عن الارملة العاجزة؟

إن رجال تدمر جميعهم لا يغضبون الملك الجديد ليرضوا المرأة التي خسرت كل شيء . . حتى أن زباي نفسه وهو أبو الملكة لا يجسر أن يخرج عن الطاعة ليخدم أبنته . . ذلك ما كان يقوله اسماعيل لمولاه . وقد فاته أن أولئك الرجال إذ لأنوا له فزينب لا تلين . بل إذا استطاع هو أن يخضع جميع الشرق لحكمه ، فزينب الأرملة . . زينب المرأة الضعيفة لا تخضع له . . إن الملكة المنكودة الحظ التي عاندها القدر وهي في مقتبل العمر لا تستسلم كما يستسلم الجبناء وكان على اسماعيل وهو الداهية أن يعلم أن تلك الأرملة ليست كجميع النساء . .

***

إنك تستطيع يا سيار أن تقابل الملكة وتنقل إليها ما ذكرت لك . .

فقال سيار : أخشى أن تخونني العاطفة يا مولاي .

فقال حطان : إن أمين الملك نفسه ترك حزنه على مولاه . ليهتم بما هو أعظم في نظره من هذا . فأبك ما طاب لك البكاء أمام زينب ولكن صف لها كل ما رأيت فعلى الملكة أن تعلم كل شيء .

قال : ولماذا لا تكتب إليها ما تريد أن أقوله ؟

فقال : أذهب يا بني فصدرك يحمل من الأسرار ما لا يحمله الرق الذي نكتبه .

وفي ظلام الليل خرج سيار وحطان يقول له : أحذر أن تخونك الذاكرة يا بني .

فخرج الحارس من المدينة على ناقة أشد سواداً من الليل ، وليس الخروج من باب المدينة صعباً على الرجل . فحراس ذلك الباب من أبناء قومه وهم على دعوته وبعد يومين كان في تدمر . تدمر التي كان يقيم فيها الشيوخ والنساء ، تدمر الناكرة الجميل التي خانت سيدها الأكبر وهو في قمة العلياء . . وقد عرف الناس

في تدمر أن الملك وولي عهده قتلا . ولكن من يجرؤ على المثول بين يدي الملكة قائلاً لها : قتل أذينة ؟ . . . فذهب سيار إلى بيت زبدا وقال لعبيد القصر أني رسول من ساحة الحرب الى كهيلة . . فاستقبلت كهيلة الحارس بقلب مضطرب خائف وقالت له : رسول من الحرس ؟ . . .

قال : نعم يا مولاتي أني من الحرس كما ترين .

فقالت وهي ترتجف : من أرسلك إلينا ؟

قال : حطان أمين أسرار الملك . . فتلألأ الدمع في عينيها وصاحت قائلة :

أقتل القائد العام ؟

قال : لا يا مولاتي فأبوك على رأس الجيش .

فقالت : وقائد الحرس معن بن حمدان ؟ وحبست أنفاسها لتسمع الجواب .

فقال : وأبن حمدان يقود فرقته يا مولاتي ولكن قتل من هو أعظم من الاثنين فأرخت نظرها إلى الأرض وأخذت تذرف الدموع ، أجل . لقد عرفت كهيلة أن ذلك القتيل هو الملك ، ثم قالت : أقتل في الميدان ؟

قال : بل قتل وهو يشرب الخمر في عيد مولده وقتل ولي عهده وجميع المخلصين لهما ، فجحظت عيناها وقالت : من هم هؤلاء المخلصون ؟

قال : بعض الأمناء والحراس يا مولاتي لأن القواد يحاربون الخوارج في الأقاليم .

فقالت : وهي تبكي : وكيف لم يقتل حطان ؟

فخبرها الفتى كل شيء ثم قال : وقد بعثني اليك حطان لتذهبي معي إلى الملكة .

قالت : لماذا ؟

قال : لتقيمي في القصر ريثما يعود القواد

قالت : إذن فحطان يخاف على الملكة من الأعداء .

قال : نعم وهو يحذر جميع الرجال .

قالت : وما هي المهمة التي يعهد بها إلي ؟

قال : يرغب اليك باسم العرش أن تسهري على حياتها وحياة الأمراء والأميرات ، فكادت الفتاة تختنق بدمعها وهي تقول : لقد خان التدمريون حتى لم يبق بينهم رجل مخلص ؟ !

قال : أصبت يا سيدتي فجميع الذين أحاطوا بالملك يوم عيده كانو خونة .

قالت : أما النساء فسيمحين هذا العار . أسبقني الى القصر ، ولم تشأ كهيلة أن تقول لزينب كلمة . . . لكنها لم تستطع إخفاء الدمع الذي يجول في عينيها الذابلتين ، فخفق قلب الملكة . وأصفر ذلك الجبين الوضاح الذي ينشر الرصانة ويرسل الجلال ، وهي بين وصيفاتها ونساء الشرف لا تنزل عن عزها ولا تستسلم الى العاطفة ، فلما دخل سيار جثا على ركبتيه وسبقته الدموع ، فنظرت زينب إلى من حولها قائلة : لا أرى إلاّ عيوناً باكية فما وراءك أيها الجندي ؟ واستندت إلى كهيلة وهي تكاد تقع على الأرض .

فقال : جئت أنقل إلى مولاتي الملكة خبراً يهتز له الشرق . . فدبت في عروقها قشعريرة لم تحس مثلها من قبل وتمتمت تقول : أفعلها معني ؟

فقال : نعم يا مولاتي ونادى به رجاله ملكاً ، فانثنت زينب إلى أحد المقاعد وجلست عليه . وكأنها نسيت في تلك الساعة زوجها القتيل العظيم ولم تفكر إلاّ في مصلحة العرش . . فقالت وشفتاها تختلجان . . وماذا فعل هيروديس ؟

فقال : قتل أيضاً يا مولاتي . .

قالت : والقواد ؟

قال : يخضعون العصاة في الجبال .

قالت : فلما خلا الجو لابن خيران غدر بعمه وابن عمه وادعى الملك . .

قال : نعم ولم ينج من السيف غير هذا العبد الجاثي على ركبتيه . . فشهقت الوصيفات بالبكاء . . أما زينب فكانت أعظم من أن تبكي لأن الملكات لا يبكين وساد القاعة صمت رهيب لا يسمع فيه غير الزفرات . . ثم رفعت الملكة رأسها قائلة : إذن فأنت رسول نفسك أيها الجندي . .

قال : بل أنا رسول حطان يا مولاتي وقد قدم حمص لينقذ الملك فنفذ القضاء قبل وصوله .

قالت : أهو حي ذلك الصاحب الأمين ؟

قال : أجل وقد تنكر لئلا يعرفه الظالمون . . فنهضت الى غرفة أخرى واسترسلت في ذرف الدموع على القتيلين اللذين كانا ملء نفسها الكبيرة ، ثم عادتِ وقد احمرت عيناها وقالت لسيار : أتعرف أين هم القواد اليوم ؟

قال : نعم يا مولاتي فماذا تريدين من هؤلاء ؟

قالت : إن الملكة بحاجة إلى المخلصين والأنصار . . أيقتل الملك وولي عهده والملكة منفردة في قصرها لا تجد حولها رجلاً ولا تسمع صوت عزاء ! .

قال : إن عبيد الملكة كثيرون في حمص وسيعودون إلى تدمر ليظهروا خضوعهم لامبراطورة الشرق ولجلالة نجلها الملك الصغير . . فلم تتغير ملامح وجهها لهذه المفاجأة بل قالت : كان عليكم أن تعترفوا بوهبلات وانتم في حمص أيقوم في أذهان الشرقيين أن العرش يبقى لمعني . أم يظن اسماعيل واتباعه أن الأرملة التاعسة التي قتلوا زوجها تستسلم إلى الغادرين ؟ !

قال : لم يكن لأنصار الملكة رئيس يجمع شملهم الذي فرقته الحادثات .

قالت : وهل وجد اليوم ذلك الرئيس ؟

قال : نعم فهو حطان وقد انضم إليه الكثيرون من الزعماء وأفراد الشعب ينفخ في صدورهم روح الانتقام من الظالمين . .

ـ وهو يفعل ذلك من وراء الستار ؟

ـ نعم ، وسنخلع الظالم قبل قدوم الجيش .

قالت : اتغدرون به كما غدر هو بمولاه ؟

قال : بل نزحف إلى قصره في وضح النهار ونذبحه على عتبة ذلك القصر حتى يجري دمه على الأرض فتدوسه النعال .

قالت : وهل أنتم واثقون بالفوز ؟

قال : إن حطان يقول : لا يبزغ فجر سنة ٢٦٧ حتى يسقط العرش الذي بني على الظلم . .

قالت : وإذا قال ذلك الرجل قولا فقد صدق فيه . . . ألا يخطر ببال معني

أن يزحف إلى تدمر ليخضع زينب ويستولي على قصر الملك ؟

قال : كل شيء هين في نظر اسماعيل حتى أنه لا يستصعب استرضاء القيصر . أما معني فلا هم له يا مولاتي إلاّ بسط يده للشيوخ والزعماء يلثمونها بالخشوع والأحترام ويظهرون له الطاعة . .

قالت : وماذا يفعل بقواد تدمر ؟

قال : بعث اليهم رسله يدعونهم إلى الاعتراف بسلطانه . وإلاّ فهو يتهيأ للقتال . .

فبرقت عيناها ببارق الكبر والعز ثم قالت : كما تتهيأ الملكة لقتال هذا الظالم إذا بقي حيا . . فنظر اليها الرجل نظرة إعجاب . . فاستطردت قائلة :

أجل . وسنقود جيشاً لجباً نشتريه بالمال ونزحف إلى الباغي فنرى لمن يكون النصر . . إن المرأة التي خسرت زوجها لم تخسر عزها والملكة التي هوى عن رأسها التاج ستسترجعه بيدين قويتين وعزيمة أثبت من الجبال . . وعندئذ . . أجل عندما ذكرت الملكة كرامتها تساقطت من عينيها الدموع . . أي أن القوة لم تظهر حتى عقبها الضعف . فكفكفت تلك الدموع بسرعة وجلال وقالت لأحدى الوصائف ليحضر مولاك وهبلات . وكان الغلام في العام التاسع من عمره وهو لا يعلم من أمور الحياة إلاّ أنه ابن اعظم رجل في بلاد العرب . . . فلما دخل على امه أمرت نساءها بأن يسجدن أمامه كما يسجدن لها وللآلهة ثم قالت له : يا وهبلات : أتعرف من هو أبوك؟

فقال الغلام ولم يتردد : أبي أذينة سيد الشرق وملكه .

فقالت : أتستطيع أن تسود هذا الشرق كما ساده أذينة ؟

ففهم الغلام من عيون النساء وعيني سيار التي تملأهما الدموع . إن حادثاً عظيماً جرى في القصر . . فقال : وهل ضاعت تلك السيادة يا مولاتي ؟

قالت : إنها لا تضيع وأنا حية . . ولكن قتل أبوك وهيروديس فامسيت ملكاً بحق الأرث وعلى الملك أن يصون عرشه ويحفظ التاج . أفقادر أنت على هذا ؟

فكأن سهماً أصاب قلب الغلام . . لكنه لم تسقط له دمعة فقد أدرك أن البكاء لا يليق به وهو ملك . . أي أنه فعل كما فعلت أمه قبله .

فقال : من قتلهما ؟

قالت : معني بن خيران الطامع بالعرش . .

قال : أما أنا قادر على صيانة الملك وأما هذا فلا . .

قالت : لماذا يا بني ؟

قال : لأنه ليس له أم مثل أمي . .

قال هذا وحاول الخروج من القاعة ليذرف الدموع ، فوضع سيار سيفه أمام أقدام الملكين وقال : أقسم بالتراب الذي يغطي أذينة وهيروديس أن سيوفنا لا تغمد حتى نظفر بمعني ونرى التاج على رأسك يا ملكنا الصغير أو نموت . .

فقال وهبلات لأمه : من هو هذا الرجل يا مولاتي ؟

قالت : هذا أحد المخلصين لأبيك . ثم قالت لسيار : أيحلف رفاقك مثل هذه اليمين يا سيار ؟

قال : إنها يمين أقسموها أمامي وسيوفهم تلمع في الظلام .

فقالت : إذن قل لحطان ولهؤلاء الأمناء أن الشرق لا يملكه بعد أذينة غير اثنين . زينب ووهبلات ، ثم عادت فاستندت الى ذراع كهيلة وتركت القاعة إلى غرفتها الخاصة يتبعها وهبلات ونساء الشرف ، حيثما تبكي الأرملة زوجها الكبير الذي غدروا به . أجل ، في تلك الغرفة رفعت زينب زوجة أذينة ووهبلات أبنها صوتيهما بالبكاء . . ولم يكن في غرفة الملكة إلاّ كهيلة بنت زبدا . .

***

وفي اليوم الثاني قال سيار لمولاته : إن سيدتي كهيلة هي خادمة الملكة ريثما يرجع حطان إلى تدمر .

قالت : أيخاف أنصارنا أن يغدر بزوجة القتيل أيضاً ؟

قال : ذلك ما أمرني به حطان وهو يستحلفك بدماء البريئين أن تفعلي .

قالت : أما وقد عرفنا أن الغادرين كثيرون في الدولة فسنحتاط للأمر .

قال : عديني يا مولاتي بأنك لا تخرجين من القصر قبل أن تحتفل تدمر بتتويج مولانا الملك . .

فقالت : إن سيدة تدمر التي تخسر تاجها في حمص لا تغادر قصرها قبل أن تستعيد ذلك التاج . . إلاّ إذا كانت هنالك حرب . .

قال : سوف لا تحتاجين يا مولاتي إلى امتشاق السيف .

قالت : ذلك ما نراه لازماً في هذا الوعد الذي نعدك به . . قل ماذا يريد حطان بعد ذلك ؟

قال : وعدني يا مولاتي بأن جلالة الملك وأخوية الأميرين لا يتركون حجراتهم ولو كان أمامهم ألف حامل سيف .

قالت : وعدناك . .

قال : وإن لا تأذني لأحد في الدخول الى القصر لو هاجت المدينة ونشبت فيها الحرب . .

قالت : إذن فحطان يريد أن نكون ملوكاً ولكن أسرى !

قال : نعم يا مولاتي ولكن الى حين . إن حطان الذي هو زعيم القوم الآن يكاد يشك في نفسه . وهو لا يستطيع أن يترك مدينة حمص ليحرس في تدمر باب القصر الذي تقيم فيه الملكة والأمراء .

قالت : وإذا جاءني رسول يحمل أخبار أبي وأخبار الجيش ؟

قال : إن الباب لا يفتح للقائد زباي نفسه قبل أن تقرأي كتابه إذا كان رسولاً .

قالت : قل لحطان أن الملكة توافقه في كل ما أراد . والآن قل لنا متى تزحفون الى قصر معني؟

قال : بعد شهر على الأكثر .

قالت : ذلك كثير يا سيار . .

قال : إن حطان يرى أن ينتظر وصول الجيش إلى حمص .

قالت : إذن فأنتم أضعف من ان تفاجئوا معني في قصره .

قال : لا يا مولاتي ولكن في صفوف الجيش نفسه بعض الخونة كما تعلمين .

قالت : وإذا كان هذا ؟

قال : الساعة التي نذبح فيها معني الظالم . هي تلك الساعة التي يحاكم فيها زبدا رفاق معني ويأمر باعدامهم طعناً بالحراب . وحطان لا يريد من جهة أخرى أن يحدث في الشرق هذا الحدث العظيم وقواد تدمر لا يعلمون شيئاً عنه . .

قالت : لقد أصاب اليهودي فيما رآه . أهذا كل ما أمرك به ؟

قال : أمرني بأن أطبع على يد الملكة قبلة الأحترام . . فمدت يدها المرتجفة وهي تقول : إن الملكة التي تحترمون ستعرف كيف تكافىء المخلصين الذين وقفوا الى جانبها في أيام الضيق . ثم قالت : صافح عني أولئك المخلصين يا سيار .

وقبل أن يترك سيار القاعة ، رأى الدموع تنهمر انهماراً من تينك العينين الكبيرتين الصافيتين . .

***

أرأيت الملكة تبكي يا سيار ؟

قال : لا يلبث الدمع الذي يجول في عينيها حتى يجف يا سيدي حطان . ولكن خيل إلي أني أرى قلبها يضطرب في ذلك الصدر الرحب الذي يعرف أن يصبر على مصائب الزمان .

فقال حطان : لو استطعت أن تقرأ أخلاق هذه المرأة لقام في ذهنك أن الالهة جعلت كل قواها في ذلك الدماغ الكبير والعقل السامي اللذين لم يخلق مثلهما تحت هذه السماء . . وهل وعدتك بما أوصيتك؟

قال : أجل ولكنها ستغادر تدمر أمام جيش تشتريه إذا نحن لم نظفر بمعني .

قال : أما هذا فلا يكون لأن الحق ينتهي دائماً بالظفر وكيف رأيت كهيلة بنت زبدا ؟

قال : لو لم أكن أعرفها من قبل لحسبت أنها رجل يلبس ثوب فتاة . إنها تشبه في ثبات جأشها كبير القواد الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في بناء دولة الشرق .

قال : إنها ابنته ولها كبر نفسه . . وماذا قالت عن الحراسة ؟

قال : تركت بيت أبيها لتكون زعيمة نساء الشرف في قصر زينب . ورأيت وهبلات في ذلك القصر يجري عز أبيه في عروقه ثم يظهر في عينيه ، كما رأيت رأسه أهلاً للتاج . .

قال : لو لبس بعل كبير الالهة تاج الدولة لما استطاع أن يخطو في سبيل المجد خطوة واحدة دون أن يكون لزينب رأي في هذا . . إن الملكة التي نحن أنصارها هي الشرق كله . . ولو أنصف هذا الشرق لقدست أسمها أقطاره ومجدت ذكرها على مر الأجيال . . ثم قال لمن حوله من اهل حمص الثائرين : لقد حفظنا حياة الملك وحياة الأمراء الآن وإلاّ لأرسل الخونة واحداً من رجالهم يحمل إليهم الموت في ليلة يسودها السكون والظلام . .

فقال أحد الزعماء : لقد طال غياب الرسل الذين أرسلتهم إلى القواد .

فابتسم الداهية قائلاً : إن هؤلاء الرسل لا يرجعون .

قال : لماذا ؟

قال : لأنهم سيرافقون الجيش في رجوعه ويدلونه على مواقف عينتها لهم حول حمص . .

قال : إذن فالقواد جميعهم أنصار الملكة .

قال : إلاّ زنباع قائد الرماة وبعض ضباطه وضباط الحرس .

قال : وماذا يفعل رسل اسماعيل ؟

قال : إن رجالنا يرون زبدا قبل أن يراه رسل الخائن .

قال : وبعد ذلك ؟

قال : بعد ذلك يعلم القائد الأكبر ماذا يجب أن يفعل .

قال : أخشى أن تفضح الأسرار قبل وصول الجيش .

قال : لا تخشى شيئاً فمعني أضعف من أن يمد إلينا يداً . أفلا ترى أن صدور أهل حمص تضمر البغض لأبن خيران ؟

قال : بلى لكن الحمصيين لا يثبتون في الميدان إذا هو استعان بجميع أنصاره .

فابتسم حطان ابتسامة استخفاف ثم قال : إذا وجد له نصيراً فليفعل . . إن أذينة وهيروديس قتلا ظلماً فمعني سيموت ولو استجار ببعل ، ثم قال لأحد

الزعماء ألم تقل أن حراس قصر الملك سيفتحون لنا الأبواب ساعة نشاء .
فقال : نعم وهم أنصار الدعوة يبغضون معني كما يبغضون اسماعيل .
فتمتم اليهودي قائلاً : الحرس الذين خانوا أذينة هم أنفسهم يخونون ابن أخيه . . ذلك هو الشرف والأخلاص في هذا الزمان . .

في ذلك السهل الذي يمتد في الجنوب الشرقي من أنطاكية ، أجتمع الجيش التدمري ، واعلام النصر تخفق فوق فرق ذلك الجيش . . . وقد محا قواد الشرق من صفحة الوجود ، أولئك الأوباش الذين خرجوا على أذينة وكادوا يزعزعون عرشه ، وكان زبدا أول قائد خيم في السهل . ثم أقبلت القواد بعد أيام يجرون أذيال الفخار ويقصون على القائد الأكبر أخبار ظفرهم بجماعات المتمردين .

غير أن الكآبة كانت تملأ قلب قائد الحرس معن بن حمدان ، وكلما ذكر غياب حطان ورجوعه إلى حمص . ذكر معه ذلك الخطر الذي يحيط بمولاه الملك ويهدد حياته ، ولم يكن يكتم زباي مخاوفه . فكان يقول له : السماء صافية يا بني ولكنك كثير الظنون . . ومع ذلك لم يهدأ له بال . وقد طلق الكرى جفنيه واستسلم الى أفكاره السوداء . . وعندما كان الجيش ، بأذن القائد العام يحتفل بعيد الظفر ، كان الفتى الحمداني في فسطاط زبدا . كئيباً ذاهل الطرف ، تترأى له الجثث مخضبة بالدماء . كما كانت تتراى لحطان من قبل ، وكان القواد يقولون : إذا رأى الملك حطان في حمص فالويل له . إنه لا ينجو من غضبه . . ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن أذينة لا يغفر لهيروديس نفسه إذا هو عصاه في امر . . وأخذ القوم يشربون حتى أقبل الليل إلاّ معنا فلم يذق الخمر ، إن ذلك العيد كان خاتمة الحرب التي ركب لها الجيش المصاعب والأخطار . وقد قام على أعظم مظاهر الفرح والاستبشار ، حتى أن زنباع الخائن وأتباعه كانوا يحتفلون بعيد ظفرهم الأخير . .

غير أن الليل اشتد سواده . فإن القوم ما كادوا يستسلمون إلى الكرى حتى وصل إلى ذلك السهل ثلاثة رجال لا يظهر من وجوهم غير العيون وهم يلبسون ما يلبسه صعاليك العرب الفقراء . الذين يتبعون الجند ليشبعوا معدهم الجائعة . . وكان السكون سائداً في تلك الساعة ، حتى أن الثلاثة لم يسمعوا جعجعة جمل أو

صهيل فرس ، ولم يبصروا أمامهم إلى جهة الجنوب غير نار ضعيفة يوقدها حراس الليل . فمشوا يقصدون تلك النار وهم لا يخافون ، فتصدى لهم الحارس السكران قائلاً : مكانكم أيها اللصوص . . قالها ولسانه يتلعثم وصوته يرتجف .

فقال أحدهم : لسنا لصوصاً ولكنا رسل الملك الى القائد العام .

فقال : لقد نام القواد فلا تستطيعون الوصول إلى زبدا الليلة . فاذهبوا الآن وارجعوا غداً .

قال : وإلى أين تريد أن نذهب في هذا الليل ؟

قال : ذلك شأنكم أما أنا فلا أسمح لأحد بالدخول الى المعسكر . .

قال : ندخل بأمر الملك لأن الشأن الذي قدمنا لأجله أعظم مما تظن .

قال : وإذا أبيت ؟

قال : نمكث هنا حتى يطلع الصبح ثم نقول لزبدا أنك منعتنا من الوصول اليه .

قال : وماذا يحدث بعد ذلك ؟

قال : من يعلم فقد يأمر بضرب عنقك . . فصحا الحارس من سكره وجعل يردد قول الرجل ثم قال : اذهب بكم إلى خيمة ابن حمدان . .

قال : قائد الحرس ؟

قال : نعم وهو يرى فيكم رأيه ، فظهر البشر على جبين الرجل وقال : رضينا بما تقول ، فتقدمهم الحارس الى خيمة قائد الحرس حتى إذا داناها رجع وهو يتهادى في مشيه . وإذا بهم أمام حارس آخر قائم بباب الخيمة ، ففاجأه زعيمهم بقول : دلنا على فسطاط القائد العام فنحن رسل الملك. فلم يتردد الرجل في هذا لأنه وثق بصدقهم عندما رأى معهم حارس الليل ، وكان من واجبه أن يقوم بالحراسة من نصف الليل الى الصباح ، دون أن يكون له حق الدخول على مولاه الا إذا دعاه اليه . فلج الرسل في الطلب والرجل لا يلين لهم حتى استفاق زبدا وسمع بعض ما يقولون . . فنادى حارسه من الداخل قائلاً : أدخل يا غلام، فرفع الفتى باب السرداق وقال : أتناديني يا مولاي؟

قال : أجل فمن هو الذي يحدثك ؟

قال : ثلاثة رجال حجبوا وجوههم لا يبين منها إلاّ العيون . .

قال : ماذا يريدون ؟

قال : يريدون الدخول على مولاناالقائد في هذه الساعة وهم يزعمون أنهم قدموا بأمر الملك ، والعربي مثل زبدا ، لا ينام في أيام الحرب إلاّ والسيف إلى جانبه فتناول سيفه وهو في فراشه وقال له : لقد أذنا لهم في الدخول . فدخل الثلاثة وبراقعهم في أيديهم وانحنوا مسلمين ، وفي السرداق سراج يبعث النور الضعيف الرجراج ، فقال زبدا ويده على سيفه : قولوا من أنتم .

فقال الزعيم بلهجة هادئة : نحن من حمص . .

قال : ومن أرسلكم الينا ؟

قال : مر حارس الخيمة بأن يترك الحراسة الآن وستعرف كل شيء . .

فاستغرب زبدا لهجته وقال اتريدون أبعاد الحارس ليخلو لكم الجو؟ .

قال : نعم يا مولانا فالسر الذي نحمله لا نبوح به على مسمع من الحراس .

قال : أأنتم رسل الملك ؟

فرفع الرجل صوته قائلاً : أنا رسل الملك أذينة اليك ثم خفضه وقال : أبعد الحارس أيها القائد فنحن مكرهون على ترك المعسكر قبل أن يطلع الصبح .

فاستوى القائد في فراشه وهو ينظر إلى السيف ، دعا حارسه وقال له : انصرف يا سعد فلا حاجة لنا اليك . وكان الحارس يصارع النعاس فقال : أتأذن لي في النوم يا مولاي ؟

قال : أجل فلقد أكثرت الليلة من شرب الخمر . . فاذهب . . ثم التفت الى الرجال قائلاً : لقد انصرف الغلام فماذا يريد الملك . . وزبدا لا يصدق أنهم رسل أذينة . . فقال الحمصي : لسنا رسل الملك يا مولانا بل رسل حطان . . !

فقال : حطان ؟ . . وأين هو اليوم ؟

قال : في حمص .

قال : أيعصي أمر الملك ويجسر على المثول بين يديه ؟

فتساقطت دموع الرجل وقال : إن المسكين حطان لم ير الملك . .

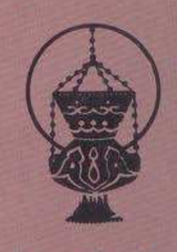
قال : لماذا ؟

فاختنق صوته قائلاً : لأنه عند وصوله كان الملك قد ترك مدينة حمص إلى الأبد . . فقفـز زبـدا من فراشـه وهـو يردد كلام الرجـل ، إلى الأبـد ! . إلى الأبد ! .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع



سعر الجزأين